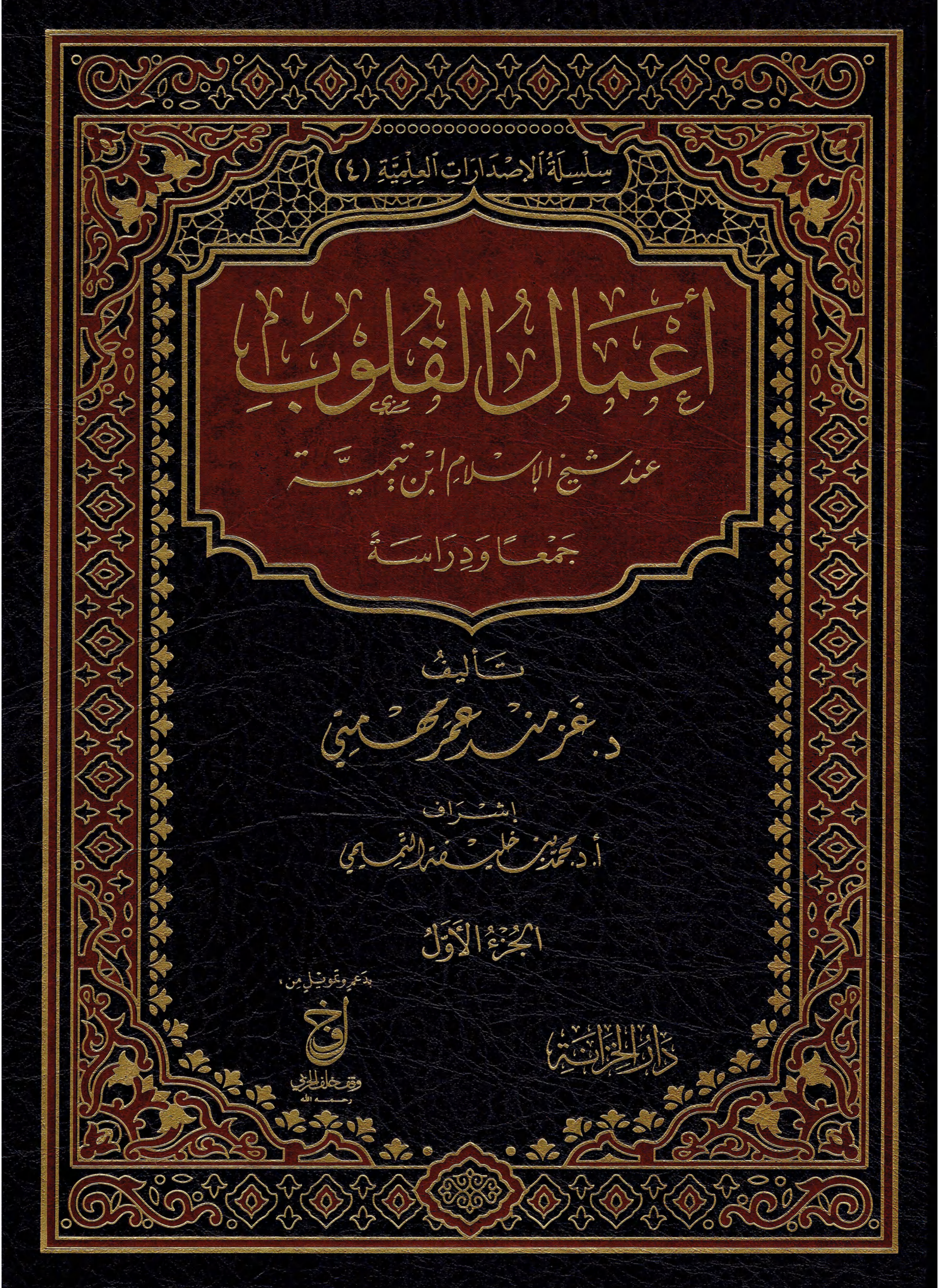

سلسلة الإصدارات العلمية (٤)
أعمال القلوب
عند شيخ الإسلام ابن تيمية
جمعًا ودراسة
تأليف
د. غزمند عمر مهيبي
إشراف
أ. د. محمد بن خليفة التميمي
الجزء الأول
بدعم وتمويل من:
وقف خلف الحربي
رحمه الله
دار الخزانة

أعمال القلوب

عند شيخ الإسلام ابن تيمية

(١)

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١م



هاتف: 0096590909211 - 0096555957103

هاتف المملكة العربية السعودية

0096568480019 - 0096562000733

dar.alkhezanah@gmail.com





دولة الكويت - حولّي

شارع المثنى - مجمع البدري

السرداب وحدة رقم 5

0096555386062

سلسلة الإصدارات العلمية (٤)

أعمال القلوب

عند شيخ الإسلام ابن تيمية

جمعاً ودراسة

تأليف

د. غزمند عمر مهيتي

إشراف

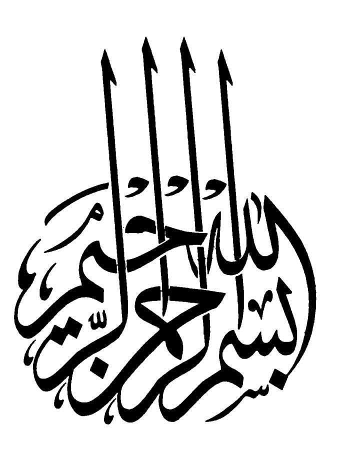
أ. د. محمد بن خليفة التميمي

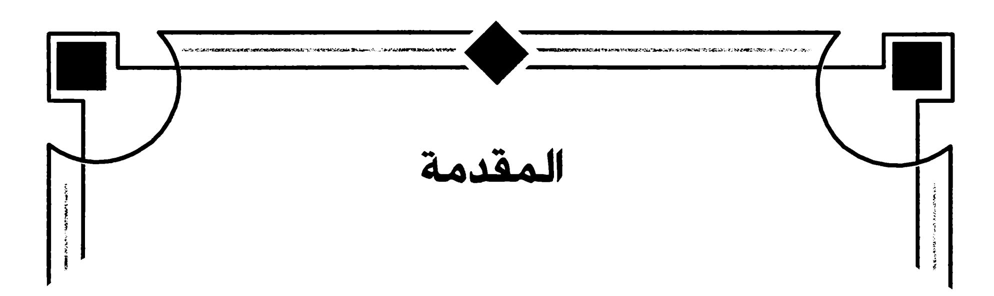
الجزء الأول

بدعم وتمويل من:









المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عِمرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النِّسَاء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزَاب].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار[1].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٣٥)، في كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، دون «وكل ضلالة في النار»، وأخرج الحديث بهذه الزيادة النسائي في سننه (ص/٢٦٠) في كتاب صلاة العيدين، باب كيف الخطبة.

فإن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، هو أصل وفرع، أصله ما قام بالقلب وفرعه ما قام بالجوارح من الأعمال الظاهرة، فهما متلازمان في الصلاح والفساد، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يُضرب بها المثل لكلمة الإيمان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم]، وهي كلمة التوحيد، والشجرة كلما قوي أصلُها وعروقها ورُوي، قويت فروعها، وفروعها أيضًا إذا اغتذت بالمطر والريح أثر ذلك في أصلها»[١].

ويقول أيضًا: «القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢].

فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل، فالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم في صحيحه (ص/ ٦٥١) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧) باختصار.

ولذا كان لزامًا على كل مسلم أن يعتني بإصلاح قلبه وتحليته بالعقائد الصحيحة والأخلاق الرفيعة، وتنقيته من العقائد الفاسدة والأخلاق الدنيئة.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بداية «التحفة العراقية» مبينا أهمية أعمال القلوب وأنها أصل الدين: «فهذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات أو الأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك»[1]، ويقول أيضًا: «أصل الدين في الحقيقة هي الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونه»[2]، وتوضيح ذلك أن الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ، والإخلاص عمل قلبي، ولهذا كانت الأعمال القلبية واجبة على كل أحد، ولا يكون تركها محمودًا في حال من الأحوال.

ثم إن العبودية التي خلقنا الله من أجلها وطلب منا القيام بها هي منقسمة إلى عبودية القلب واللسان والجوارح، ولكن أهمها عبودية القلب بل العبودية في الحقيقة هي عبودية القلب يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أكره على تكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك. وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملكُ الناس، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»[3].

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٢٨٩)

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٣٠٨)

(٣) العبودية (ص/ ٦٨)

ومما يدل على أهمية القلوب وأعمالها أن موضع نظر الرب ﷻ هو القلوب كما قال النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»(١)، وبهذا يتفاضل الناس فيما بينهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، والتقوى إنما هي في القلب كما قال النبي ﷺ: «**التقوى ههنا**»، وأشار إلى صدره ﷺ(٢).

ثم إن أعمال الجوارح إنما تعظم وتكبر بحسب ما يقوم بالقلب، قال شيخ الإسلام رحمه الله تعليقًا على قصة البغي: «فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق فعَله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامُهما في الصف واحدا وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحى غصن شوك عن الطريق يغفر له، قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به، ولكن يناله تقوى القلوب»(٣) .

فإذا تبين هذا فلنعرف أن علماء المسلمين كتبوا في هذا الموضوع قديمًا وحديثًا، فمنهم من كتب بحق ومنهم من كتب بخلاف ذلك، لكن من أحسن من تكلم وكتب في هذا الموضوع هو شيخ الإسلام ومفتي الأنام

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٣) منهاج السنة (٦/ ٢٢١-٢٢٢).

أبو العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي له جهود عظيمة في توضيح أعمال القلوب وبيان أهميتها وتقرير مسائلها، وفي الرد على المفاهيم الخاطئة المتعلقة بها من بعض الفرق كالمرجئة والصوفية وغيرهم.

وكلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه المسائل من أمتن الكلام وأبينه، ومن أحسنه وأجمله ـ كما هي عادته في المسائل الأخرى ـ وهو مبثوث في كتبه ومتفرق فيها.

ولأهمية الموضوع نفسه من جهة، ولأهمية كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضوع من جهة أخرى أحببت أن أكتب بحثًا بعنوان «**أعمال القلوب عند شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع ودراسة**» بجمع ما تفرق من كلامه وبضم النظير إلى نظيره، الأمر الذي يحصل معه إيضاح المسألة وتقريبها وتكميل صورتها وبيان أحكامها، ويكون هذا البحث أطروحتي لنيل الدرجة العالمية (الماجستير) في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية.

أسباب اختيار الموضوع

- إن لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ تقعيدات وتأصيلات هامة جدا في هذا الباب مبثوثة في كتبه، واستخراجها وجمعها في موضع واحد مما لا تخفى أهميته.
- وجود رسائل عديدة تبين جهود شيخ الإسلام في مختلف أبواب الاعتقاد كالتوحيد بأنواعه الثلاثة، والقضاء والقدر، والإمامة وغيرها، ولا توجد في حدود علمي رسالة متخصصة تبين جهوده رَحِمَهُ ٱللَّهُ في توضيح المسائل المتعلقة بأعمال القلوب، فأحببت أن أكتب في هذا الموضوع وأسهم في إبراز جهوده في باب من أبواب الاعتقاد.
- قد سبق أن سجلت رسالة في توضيح أعمال القلوب عند الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأردت أن يكون موضوعي مستكملًا لما قامت به الباحثة[١] لإبراز جهود الإمامين ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله في هذه المسألة.
- الموضوع بذاته يعد نافعًا جدًّا في إصلاح القلب ومعالجة أمراضه التي لا يسلم منها إلا من رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وطلبة العلم والباحثون في أبواب الاعتقاد أحوج الناس إلى ذلك.

---

(١) وفاء بنت زيد العزيري.

- إن الكتابة فيه، فيها إبراز لشيء من جهود سلفنا الصالح في هذا المجال، تلك الجهود التي تعرضت للإنكار بدعوى أن المتصوفة هم الوحيدون الذين بحثوا وكتبوا فيه.
- الرغبة الشديدة التي أجدها في نفسي لقراءة كتب شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وذلك لما تميز به رَحِمَهُ اللَّهُ من القوة في الاستدلال والبراعة في الاستنباط، ولما أرجوه لنفسي من الفائدة في حياتي العلمية والعملية.

الدراسات السابقة

لم أقف في حدود بحثي واطلاعي على رسالة جامعية تناولت جهود شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسألة أعمال القلوب بالجمع والدراسة، وذلك من خلال فهرس مركز الملك فيصل للبحوث، وسؤالي بعض المختصين.

وقد تقدم أن العلماء كتبوا في هذا الموضوع كثيرًا، منهم من كتب عن هذا الموضوع ضمن كتب أخرى مثل كتب التفسير والحديث وهذا أكثر، ومنهم من أفرد بالتأليف وهم أقل، وأيضًا من الذين أفردوا بالتأليف أكثرهم ليس من أهل السنة[١]، ولا شك أن من أحسن من كتب في هذا الموضوع هو شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله تعالى ـ، بل كل من تكلم بعدهم في هذا الموضوع هم عيال على شيخ الإسلام وابن القيم، وأنا لن أذكر هنا كل ما كتب في هذا الموضوع، ولكن سأقتصر على ذكر ما وقفت عليه من الرسائل الجامعية:

ـ **الأولى**: «أعمال القلوب وأثرها في الإيمان» رسالة مقدمة من الباحث محمد دوكوري بن محمد، لنيل درجة الدكتوراة في كلية الدعوة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية في قسم العقيدة.

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في التمهيد: المبحث الثاني؛ نبذة مختصرة في جهود العلماء في موضوع أعمال القلوب.

ـ **الثانية**: «أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند مخالفيهم» رسالة مقدمة من الباحث سهل بن رفاع بن سهيل الروقي العتيبي لنيل درجة الدكتوراة في كلية التربية بجامعة الملك سعود بقسم الدراسات الإسلامية شعبة العقيدة، والرسالة مطبوعة.

ـ **الثالثة**: «أعمال القلوب عند الإمام ابن القيم، جمع ودراسة» رسالة مقدمة من الباحثة وفاء بنت زيد العزيري لنيل درجة الماجستير في كلية التربية بجامعة الملك سعود بقسم الدراسات الإسلامية شعبة العقيدة.

وكذلك وقفت على كتيب صغير للشيخ سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، عنوانه «**أعمال القلوب عند شيخ الإسلام**»، وهو كتيب صغير لا يتجاوز عدد صفحاته ٥٦ صفحة، وهو مع قلة عدد الصفحات هوصغير الحجم أيضًا، ولكن قال مؤلفه في آخره: «**وإني لآمل أن يكون ما جمعته وقربته من كلامه حافزًا لدراسات أعمق وأشمل لإظهار جهود هذا الإمام وغيره من السلف في هذا الجانب المهم**» (الخاتمة/ ٥٢) .

فهذه الدراسات لم تتناول جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة بالبحث الخاص، ومن المعلوم أن إبراز جهود إمام من الأئمة في مسألة ما شيء زائد على مجرد الاستدلال ببعض كلامه في تقرير تلك المسألة.

بالإضافة إلى هذا، فإن رسالتي هذه تكون من قبيل بعض الدراسات التي قدمها الإخوان في إبراز جهود شيخ الإسلام في بعض أبواب العقيدة، مثل: جهوده رَحِمَهُ اللَّهُ في توحيد الألوهية، وعدة رسائل في الأسماء والصفات، وفي القضاء والقدر وغيرها، مع العلم أنه كتبت رسائل في هذه الموضوعات عمومًا.

خطة البحث

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة.

❁ **المقدمة**: وتشتمل على ما يلي:

- أهمية الموضوع وأسباب اختياره.
- الدراسات السابقة.
- خطة البحث.
- منهج البحث الذي سرت عليه.
- كلمة شكر وتقدير.
- **التمهيد**: وفيه مبحثان:
- **المبحث الأول**: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.
- **المبحث الثاني**: نبذة مختصرة في جهود العلماء في التأليف في موضوع أعمال القلوب.

❁ **الباب الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها، ومنزلتها من الإيمان عند شيخ الإسلام**، وفيه فصلان:

○ **الفصل الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها**، وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

- **التمهيد: تعريف الإيمان وحقيقته.**

- **المبحث الأول**: التعريف بالقلب وقوله وعمله.
- **المبحث الثاني**: أنواع أعمال القلوب.
- **المبحث الثالث**: العلاقة بين أعمال القلوب.

❍ **الفصل الثاني: منزلة أعمال القلوب من الإيمان**، وفيه خمسة مباحث:

- **المبحث الأول**: ارتباط الظاهر بالباطن والعلاقة بينهما.
- **المبحث الثاني**: العلاقة بين جوانب الإيمان.
- **المبحث الثالث**: المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.
- **المبحث الرابع**: أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه.
- **المبحث الخامس**: أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان.

۞ **الباب الثاني: دراسة الأعمال القلبية، وتفاضلها، ودرجات الناس فيها**، وفيه فصلان:

❍ **الفصل الأول: دراسة الأعمال القلبية**، وفيه تسعة عشر مبحثا.

- **المبحث الأول**: النية
- **المبحث الثاني**: الإخلاص.
- **المبحث الثالث**: المحبة.
- **المبحث الرابع**: الخوف.
- **المبحث الخامس**: الرجاء.
- **المبحث السادس**: الصدق.
- **المبحث السابع**: التوكل.
- **المبحث الثامن**: الصبر.

- **المبحث الأول:** مذهبهم في أعمال القلوب.
- **المبحث الثاني:** ذكر شبهاتهم.
- **المبحث الثالث:** الرد عليهم.

❍ **الفصل الثاني: موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم،** وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

- **التمهيد:** التعريف بالمرجئة وأقسامهم.
- **المبحث الأول:** مذاهبهم في أعمال القلوب.
- **المبحث الثاني:** ذكر شبهاتهم.
- **المبحث الثالث:** الرد عليهم.
- **الخاتمة:** وفيها أهم النتائج.
- **الفهارس:** وهي كالتالي:

۞ فهرس الآيات.

۞ فهرس الأحاديث.

۞ فهرس الأعلام.

۞ فهرس الفرق والطوائف

۞ فهرس الكلمات الغريبة.

۞ فهرس المصادر والمراجع.

۞ فهرس الموضوعات.

منهجي في البحث

- جمع المادة العلمية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- التأصيل العلمي ومحاولة نقل كلام شيخ الإسلام من كتبه، مع محاولة حصر كلامه في هذا الموضوع قدر المستطاع.
- الاجتهاد في نقل أقوال المخالفين من كتبهم المعتمدة، إلا إذا تعذر علي الرجوع إليها، فحينئذ أنقل بالواسطة.
- طريقتي في دراسة أعمال القلوب يتمثل في النقاط التالية: التعريف المختصر بالأعمال، وذكر الأدلة عليها من الكتاب والسنة، وذكر أقسامها وأنواعها وشروطها، كل هذا بحسب ما أجد من كلام لشيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- عزو الآيات القرآنية إلى مواضعها من القرآن الكريم بذكر اسم السورة ورقم الآية، وكتابتها بالرسم العثماني.
- تخريج الأحاديث الواردة في البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليهما أو إلى أحدهما، وإن كان في غيرهما أخرجه من كتب السنة المعتبرة، مع الإشارة إلى درجة الحديث صحة وضعفا من كلام أهل العلم.
- تخريج الآثار الواردة في البحث قدر الاستطاعة.
- ترجمة للأعلام غير المشهورين الوارد ذكرهم في البحث ترجمة موجزة.

- شرح الكلمات الغريبة مع توثيقها من مصادرها المعتبرة.
- تعريف بالفرق والطوائف والبلدان والأماكن الواردة في البحث.
- مراعاة علامات الترقيم، وقواعد الإملاء، وضبط بعض الكلمات التي تحتاج إلى الضبط
- وضع الفهارس في آخر البحث كما هو موضح في آخر الخطة.

كلمة شكر وتقدير

الحمد لله أولًا وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا على ما يسّر وأعان على إتمام هذا البحث، فله الشكر والثناء على نعمه الجسيمة وآلائه العظيمة، وما كان في هذه الدراسة من صواب وحق وخير فمن الله وحده، وأحمد الله عليه، وما كان فيه من خطأ أو خلل أو تقصير فمن نفسي والشيطان، وأنا تائب منه، وراجع عنه، شاكرًا لمن دلّني عليه.

وبعد شكري لأهل المجد والثناء، أشكر كل من له فضل علي في إتمام هذا البحث من مشايخي وأصحابي وزوجتي، فلهم جميعًا مني الذكر الحسن، والثناء الجميل، والدعاء الذي أرجو به أن يوفيهم حقّهم.

وأخص بالشكر الجزيل، والثناء العطر الجميل، ذلك الأساس الراسخ والصرح العلمي الشامخ المشعّ من الجامعة الإسلامية، أعني: قسم العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين، فمني لهذا القسم ولأهل العلم والفضل فيه كل شكر وامتنان وتقدير، وشكر خاص متجدد لمشرف هذه الرسالة فضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور: محمد بن خليفة التميمي ـ حفظه الله تعالى ـ على فضله وعلمه وطيب معشره الذي عايشته طيلة فترة هذه الرسالة، فشكر الله له وجزاه عني كل خير.

كما أتوجه بخالص الشكر والتقدير إلى صاحبي الفضيلة: الشيخ الدكتور/ عبد القدر عطا صوفي والشيخ الدكتور/ سعود بن عبد العزيز الدعجان ـ حفظهما الله تعالى ـ اللذان قبلا مناقشة هذه الرسالة وتقويمها، فجزاهما الله عني كل خير، وبارك فيهما.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يتقبل هذا الجهد فهو جهد المقل، كما أسأله تعالى أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه ومن يطلع عليه، إنه سميع قريب.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

المبحث الثاني: نبذة مختصرة في جهود العلماء في التأليف في أعمال القلوب.



المبحث الأول

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية

تالله لا يعرف حق هذا الرجل إلا من عرف دين الرسول ﷺ وحقه وقدره، فمن وقع دينُ الرسول ﷺ من قلبه بموقعٍ يستحقه، عرف منزلة هذا الرجل وما قام به بين أظهر عباد الله، فهذا العلَم الشهير، والعالِم الكبير، والبطل النحرير، (أعظم من أن يصفه كَلِمي، أو ينبه على شأنه قلمي، فإن سيرته وعلومه ومعارفه ومحنه وتنقلاته تحتمل أن توضع في مجلدتين)[١].

فإن شيخ الإسلام ابن تيمية أشهر من أن يُعرَّف به لشهرته الواسعة كما قال الحافظ ابن حجر: «شهرة إمامة الشيخ تقي الدين أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام من عصره باقٍ إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غدًا كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره أو تجنب الإنصاف»[٢].

وقد أُلفت في سيرته قديمًا وحديثًا أسفار كثيرة، منها المصنفات المفردة[٣]، ومنها ما هو في ثنايا كتب التواريخ والسير ونحوها[٤]، ودُرست

---

(١) العقود الدرية (ص/ ٤٠).

(٢) تقريظه على الرد الوافر، وهو ملحق بالرد الوافر طبعة المكتب الإسلامي (ص/ ٢٤٦).

(٣) وقد استقرأ الباحث محمد بن إبراهيم الشيباني ما أُلِّفَ عن ابن تيمية ـ في سيرته ومناقبه رحمه الله وحياته العلمية ـ من مصنفات في القديم والحديث فبلغ ستين كتابًا، انظر: «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص/ ١٩٤-٢٠٠).

(٤) وقد قام بتتبع مصادر ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية من كتب التواريخ والسير ونحوها الباحثان علي بن محمد العمران ومحمد عزير شمس، فبلغ عدد هذه الكتب ثمانيةً وستين كتابًا، انظر: الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون (ص/ ٧٢ ـ ٨٢).

حياته في أطروحات علمية متنوعة لجميع النواحي العلمية لديه رحمة الله عليه[١]، فإنه ذو شخصية بارزة مشهورة لا تخفى على كثير من العامة فضلًا عن العلماء وطلاب العلم، ولذلك سأكتفي بترجمة موجزة لأهم جوانب سيرته.

○ أولًا: اسمه ونسبه.

هو الإمام الحافظ الفقيه المحدث المفسر، ناصر السنة وقامع البدعة، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن

= **وممن كتب عن شيخ الإسلام من الأقدمين ترجمة مستقلة** (على سبيل التمثيل لا الحصر).

- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للحافظ عمر بن علي البزار.
- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للحافظ ابن عبد الهادي.
- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الكرمي.
- الرد الوافر على من زعم أن من أطلق على ابن تيمية شيخ الإسلام كافر، لابن ناصر الدين الدمشقي.

أما التراجم غير مستقلة فكثيرة منها (على سبيل التمثيل لا الحصر).

- ذيل العبر في خبر من غبر، دول الإسلام، معجم الشيوخ، تذكرة الحفاظ، كلها للذهبي.
- البداية والنهاية، لابن كثير.
- الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب.
- الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني.
- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، لخير الدين بن محمود الألوسي الحنفي.

وكتب المعصرون عن شيخ الإسلام كثيرا، منهم الشيخ أبو زهرة، ومحمد كرد علي، ود. عمر فروخ، والشيخ محمد خليل الهراس، وأبو الحسن الندوي وغيرهم.

(١) وقد ذكر الباحث محمد بن إبراهيم الشيباني أن عدد أبحاث وندوات حول أعمال ابن تيمية قد بلغ ٩٦ كتابة، وهذا قبل سنة ١٤١٠هـ انظر: «أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص/ ٢٠٠-٢١٥)، وأما الآن أكثر فأكثر. فالرسائل الجامعية فقط حتى سنة ١٤٢٣هـ قد بلغ عددها أكثر من ١٧٠ رسالة كما تتبع ذلك الباحث عثمان بن محمد الأخضر شوشان في رسالته «دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام ابن تيمية».

عبد الله بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبدالله بن تيمية[١] الحراني ثم الدمشقي.

❍ ثانيًا: مولده.

ولد يوم الاثنين عاشر، وقيل ثاني عشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة ببلدة حران[٢]، وبقي فيها إلى أن بلغ سبع سنين، ثم انتقل والده به وبإخوته إلى دمشق هربا من التتار.

ويحدثنا ابن عبد الهادي عن قصة سفر آل تيمية إلى دمشق، وحرصهم على العلم، ومحافظتهم على الكتب، فيقول: «فساروا بالليل ومعهم الكتب على عجلة؛ لعدم الدواب، فكاد العدو يلحقهم، ووقفت العجلة، فابتهلوا إلى الله واستغاثوا به، فنجوا وسلموا، وقدموا دمشق سنة ٦٦٧هـ»[٣].

❍ ثالثًا: نشأته.

ترعرع ابن تيمية في دمشق في بيئة علمية صالحة، فجده[٤] فقيه أصولي ذو

---

(١) إنما سمي شيخ الإسلام وأبناء هذه الأسرة «بآل تيمية»، لأن جدهم محمد بن الخضر حج على درب «تيماء»، فرأى فيها طفلة جميلة، فلما رجع إلى دمشق وجد امرأته قد ولدت بنتًا، فقال: يا تيمية، يا تيمية، تشبيهًا لبنته بها، فأطلق على أبنائها: بنو تيمية، وقيل: إن جده محمد بن الخضر، كانت أمه تسمى تيمية، وكانت واعظة، فنسب إليها وعرف بها، انظر: العقود الدرية (ص/ ١٨).

(٢) هي مدينة مشهورة من أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وهي الآن في شمال شرق تركيا، وقد كانت آنذاك معهد العلم والعلماء، وكانت من قبل من أهم مراكز الديانات القديمة، انظر: معجم البلدان (٢/ ٢٣٥).

(٣) العقود الدرية (ص/ ١٨-١٩).

(٤) وهو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله من العلماء الأعلام، ولد سنة ٥٩٠هـ وتوفي سنة ٦٥٢هـ، قال عنه الذهبي: «وكان إمامًا كاملاً معدوم النظير في زمانه، رأسًا في الفقه وأصوله، بارعًا في الحديث ومعانيه، وله اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير»، معرفة القراء الكبار (٢/ ٦٥٤).

باع واسع في الحديث والتفسير والقراءات، ووالده[1] صاحب معارف شتى وعلوم مختلفة، وله ثلاثة إخوة[2] اشتهروا بالعلم والفضل.

وكان لهذا الجو العلمي تأثيره على شخصيته العلمية، بالإضافة إلى ما وهبه الله من حافظة قوية، وسرعة بديهة، وذكاء مفرط، قال البزار: «قد خصه الله بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان، لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالبًا إلا ويبقى على خاطره إما لفظه أو معناه، وكان العلم كأنه قد اختلط بلحمه ودمه وسائره»[3]، حتى قال غير واحد: إنه لم يكن يحفظ شيئًا فينساه[4]، وكذا الجد والاجتهاد والانصراف التام إلى طلب العلم

---

(١) وهو شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام، ولد سنة ٦٢٧هـ وتوفي سنة ٦٨٢ هـ، قال عنه الذهبي: «ذو الفنون ... صار شيخ حران وحاكمها وخطيبها بعد موت والده»، العبر في خبر من غبر (٣/ ٣٤٩)، وقال ابن كثير: «مفتي الفرق، الفارق بين الفرق، كانت له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة، وكان له كرسي بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظاهر قلبه، ووَلِيَ مشيخةَ دار الحديث السكرية بالقصاعين، وبها كان مسكنُه»، البداية والنهاية (١٧/ ٥٩٢).

(٢) وهم:
أخوه لأمه، بدر الدين أبو القاسم محمد بن خالد الحراني، ولد تقريبًا سنة ٦٥٠هـ وتوفي سنة ٧١٧ هـ، وكان عالما فقيها إماما، تولى التدريس في المدرسة الحنبلية مدةً نيابةً عن أخيه شيخ الإسلام، انظر: ذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٢١)، وشذرات الذهب (٨/ ٨٣).
وشقيقه، زين الدين عبد الرحمن بن عبد الحليم، ولد سنة ٦٦٣هـ وتوفي سنة ٧٤٧ هـ، وكان زاهدًا عابدًا، كما كان تاجرًا، حبس نفسه مع أخيه شيخ الإسلام في الإسكندرية ودمشق محبة له وإيثارًا لخدمته، ولم يزل عنده للتلاوة والعبادة إلى أن مات الشيخ، انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٤٩٠)، والدرر الكامنة (٢/ ٣٢٩)، وشذرات الذهب (٨/ ٢٦٢).
وشقيقه شرف الدين عبد الله بن عبد الحليم، ولد سنة ٦٦٦ هـ وتوفي سنة ٧٢٧ هـ، قال الشيخ كمال الدين الزملكاني: «هو بارع في فنون عديدة من الفقه والنحو والأصول، ملازم لأنواع الخير وتعليم العلم»، ولما كان تقي الدين مسجونًا في القلعة ذهب مع أخيه إلى مصر وناظر خصومه وحده فانتصر عليهم، انظر: العقود الدرية (ص/ ٣٧٩)، وذيل طبقات الحنابلة (٤/ ٤٨٢)، وشذرات الذهب (٨/ ١٣٦).

(٣) الأعلام العلية (ص/ ٢٢).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٤٩٥).

وتحصيله، فلا يلهو لهو الصبيان ولا يعبث عبثهم، قال البزار: «ولم يزل إبَّان صغره مستغرق الأوقات في الجد والاجتهاد»[١]، وهذا مما عجَّل ظهورَ النجابة عليه منذ حداثة سنه.

ولا عجب أن ينبغ الفتى ابن تيمية، فقد وفر الله العليم الحكيم له عوامل النبوغ ومؤهلاته: وراثة طيبة عميقة الجذور بعيدة الأصول سامقة الفروع، وبيئة علمية أوفت على الغاية، وقوى علمية بلغت حد العجب والإعجاب، وتوفيق من الله تعالى، وبركة في الوقت حتى صار فريد عصره، ووحيد دهره، وإمام زمانه.

قال ابن عبد الهادي: «سمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مراتٍ وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبرابي الكبير، وعني بالحديث وقرأ ونسخ، وتعلم الخط والحساب في المكتب، وحفظ القرآن وأقبل على الفقه وقرأ العربية ثم فهمها، وأخذ يتأمل كتاب سيبويه حتى فهم في النحو، وأقبل على التفسير إقبالا كليا حتى حاز فيه قصب السبق وأحكمَ أصول الفقه وغير ذلك، هذا كله وهو بعد ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه وسيلان ذهنه وقوة حافظته وسرعة إدراكه»[٢]، وقال الذهبي: «نشأ في تصون تام وعفاف وتأله وتعبد واقتصاد في الملبس والمأكل، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويناظر ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم، فأفتى وله تسع عشرة سنة بل أقل، وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده ـ وكان من كبار الحنابلة وأئمتهم ـ فدرس بعده بوظائفه وله إحدى وعشرون سنة، واشتهر أمره وبَعُدَ صيته في العالم»[٣].

(١) الأعلام العلية (ص/ ٢١).

(٢) العقود الدرية (ص/ ١٩).

(٣) المصدر نفسه (ص/ ٢٠-٢١).

وقال بعض قدماء أصحابه، وقد ذكر نبذة من سيرته: «أما مبدأ أمره ونشأته، فقد نشأ من حين نشأ في حجور العلماء، راشفا كؤوس الفهم، راتعا في رياض التفقه ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، خصوصًا علم الكتاب العزيز والسنة النبوية ولوازمها، ولم يزل على ذلك خلفا صالحًا سلفيا متألها عن الدنيا صَيِّنًا تقيًا برًّا بأمه ورعًا عفيفًا عابدًا ناسكًا صوامًا قوامًا، ذاكرًا لله تعالى في كل أمر وعلى كل حال، رجاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال والقضايا، وقافًا عند حدود الله تعالى وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر بالمعروف، لا تكاد نفسه تشبع من العلم، فلا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكلّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علم من العلوم من باب من أبوابه إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله، مقصوده الكتاب والسنة»(١).

○ رابعًا: صفاته الخَلْقية والخلُقية.

كان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، رَبْعَة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوريَ الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح، إليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة(٢).

فإنه ـ مع كثرة انشغاله بجهاد أهل البدع والضلالات، والرد عليهم، وتأليف الرسائل في بيان ضلالهم ـ كان كثير الاستغفار، نقل عنه أنه قال: إنه ليقف خاطري في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل عليّ، فأستغفر

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٢١).

(٢) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٥٠٩).

الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل، قال: وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي[(١)].

وكان من صفاته الكرم والإيثار، قال أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري: «وكان يجيئه من المال في كل سنة ما لا يكاد يحصى فينفقه جميعه آلافًا ومئين، لا يلمس منه درهمًا بيده، ولا ينفقه في حاجة له، وكان يعود المرضى، ويشيع الجنائز، ويقوم بحقوق الناس، ويتألف القلوب»[(٢)].

ومن صفاته التواضع والبساطة مع عوام الناس، قال تلميذه الحافظ البزار: «وأما تواضعه، فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصغير، والجليل والحقير، والغني الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرا لقلبه، وتقربا بذلك إلى ربه»[(٣)]

ومن صفاته أنه رحمه الله كان رحيمًا بالمسلمين، شفيقًا عطوفًا عليهم، يلتمس حاجاتهم ويقضي أمورهم، بل أبعد من ذلك يعفو عمن ظلمه، ويسامح من عاداه.

ومن جملة ما ذكر من حلمه: ما نقل عنه أن سلطان مصر الناصر ابن قلاوون[(٤)] استقدم الشيخ ابن تيمية عنده ورحب به، ثم أخرج له من جيبه

---

(١) العقود الدرية (ص/ ٢١-٢٢).

(٢) مسالك الأبصار (مخطوط) نسخة ايا صوفيا، المكتبة السليمانية باستانبول برقم ٣٤١٨، (نقلًا عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون ٣٢٣).

(٣) الأعلام العلية (ص/ ٤٨).

(٤) هو السلطان الملك الناصر، أبو الفتح محمد بن الملك المنصور قلاوون الصالحي، توفي سنة ٧٤١هـ، ودفن على والده بالمنصورية، انظر: العبر (٤/ ١٢٤)، والبداية والنهاية (١٨/ ٤٢٤).

فتاوى لبعض علماء مصر الذين أفتوا بقتله، واستفتاه السلطانُ في أن يقتل بعضهم ممن زوروا على ابن تيمية وأفتوا في قتله، قال الشيخ ابن تيمية: «ففهمت مقصود السلطان ابن قلاوون وعلمت أن عنده حنقًا شديدًا عليهم لأنهم كانوا قد خلعوه وبايعوا الجاشنكير[(١)]»، ويقول ابن تيمية: «فشرعت في مدح هؤلاء العلماء وشكرهم، وأنهم لو ذهبوا لم تجد مثلهم في دولتك»، فقال السلطان: «إنهم قد آذوك وأرادوا قتلك مرارا»، فقال ابن تيمية: «من آذاني فهو في حل، ومن آذى الله ورسوله فالله ينتقم منه، وأنا لا أنتصر لنفسي»، وما زال به حتى حلم عنهم السلطان[(٢)].

وقد شهد له بهذه السجية أعداؤه، يقول أحدهم[(٣)]: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرَّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقَدِرَ علينا فصفح عنا، وحاجج عنا»[(٤)].

أما زهده وعبادته وورعه، فالكلمات والحروف قاصرة عن بيان ذلك لاشتهار حاله، وظهوره للخاصة والعامة، فقد كان رباني العبادة، قريب القلب من ربه، سريع الدمعة رحمه الله، له جلد عجيب على العبادة، قلّ أن يطيقه غيره.

قال الحافظ البزار: «أما تعبده رضي الله عنه فإنه قلّ أن سمع بمثله، لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله تعالى ما يُراد له، لا من أهل ولا من مال.

---

(١) هو بيبرس بن عبد الله، الملك المظفر ركن الدين بيبرس البرجي المنصوري الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون وعتقائه، وتنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية. توفي سنة ٧٠٩هـ، انظر المنهل الصافي (٣/ ٤٨٤)، والبدر الطالع (١/ ١١٣).

(٢) انظر القصة: البداية والنهاية (١٨/ ٩٣-٩٥)، والعقود الدرية (ص/ ٢٩٨).

(٣) وهو القاضي علي بن مخلوف المالكي، ولد سنة ٦٣٤ هـ، وتوفي سنة ٧١٨، انظر: الدرر الكامنة (٣/ ١٢٧).

(٤) البداية والنهاية (١٨/ ٩٥).

وكان في ليله متفردا عن الناس كلهم، خاليًا بربه رَحِمَهُ اللَّهُ، ضارعا مواظبا على تلاوة القرآن العظيم، مكررًا لأنواع التعبدات الليلية والنهارية، وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم، وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام»(١).

○ خامسًا: ثناء العلماء عليه ومكانته العلمية.

كان ابن تيمية إمامًا مجتهدًا نبغ في علوم شتى كالعقيدة والحديث والفقه والتفسير واللغة.

قال الحافظ أبو الفتح اليعمري(٢) يصف نبوغ ابن تيمية وسعة علمه: «ألْفَيتُه ممن أدرك من العلم حظًا، وكاد يستوعب السنن والآثار حفظًا، إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر بالحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالنِّحل والملل لم ير أوسع من نِحْلَتِهِ في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأتْ عينُه مثلَ نفسِه»(٣).

وقال أبو الحجاج المزي: «ما رأيت مثله ولا رأى هو مثل نفسه، وما رايت أحدًا أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ولا أتبع لهما منه»(٤).

---

(١) الأعلام العلية (ص/٣٧).

(٢) وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس، فتح الدين، أبو الفتح اليعمري الشافعي الحافظ العلامة الأديب المشهور، صاحب كتاب السيرة المشهور «عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير»، ولد في ذي القعدة سنة ٦٧١ وتوفي سنة ٧٣٤، انظر: الدرر الكامنة (٤/٢٠٨).

(٣) أجوبة ابن سيد الناس اليعمري عن سؤالات ابن أبيك الدمياطي (٢/٢٢١) تحقيق د.محمد الراوندي، نشر وزارة الأوقاف بالمغرب .

(٤) طبقات علماء الحديث (٤/٢٨٣).

وقال العلامة ابن الزملكاني[١]: «كان إذا سئل عن فن من العلم ظنَّ الرَّائِي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن»[٢]، ويقول في الثناء على ابن تيمية[٣].

ماذا يقول الواصفون له	وصفاته جلَّتْ عن الحَصْرِ
هو حجةٌ لله قاهرة	هو بيننا أعجوبَة الدهر
هو آيةٌ في الخلق ظاهرةٌ	أنوارُها أربتْ على الفَجْرِ

وقال الذهبي: «فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت: أني ما رأيت بعيني مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه»[٤].

وقد سئل الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد عن ابن تيمية بعد اجتماعه به كيف رأيته؟، فقال: «رأيت رجلًا سائر العلوم بين عينيه، يأخذ ما شاء منها ويترك ما شاء»[٥].

---

(١) هو كمال الدين أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الشافعي بن زملكاني، ولد سنة ٦٦٧هـ وتوفي سنة ٧٢٧هـ، قال ابن كثير: «شيخنا...شيخ الشافعية بالشام وغيرها، انتهت إليه رئاسة المذهب تدريسًا وإفتاءً ومناظرةً»، انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٢٨٦)، وطبقات الشافعية ٩/ ١٩٠ وشذرات الذهب (٨/ ١٤٠-١٤١).

(٢) شذرات الذهب (٨/ ١٤٤).

(٣) نقل ابن كثير عن الشيخ علم الدين البرزالي في تاريخه قولَه ((وجدتُ بخط ابن الزملكاني أنه قال: «اجتمعتْ فيه شروط الاجتهاد على وجهها..»، وكتب على تصنيف له هذه الأبيات))، وهذه الأبيات كتبها ثناءً على ابن تيمية وكان عمر ابن تيمية إذ ذاك نحو الثلاثين سنة (البداية والنهاية ١٨/ ٢٩٨)، ثم نزغ الشيطان بينهما فصار يعادي شيخ الإسلام، وكان له مصنفات في الرد على ابن تيمية في مسألة الزيارة والطلاق. قال ابن كثير «وكان من نيته الخبيثة إذا رجع إلى الشام متوليًا أن يؤذي شيخ الإسلام ابن تيمية، فدعا عليه فلم يبلغ أمله ومراده فتوفي...»، قال ابن كثير «فعجلته المنية قبل وصوله إليه» انظر: البداية والنهاية)١٨/ ٢٨٦-٢٨٨(

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (٤/ ٤٩٧).

(٥) شذرات الذهب (٨/ ١٤٦).

وقال الشيخ عماد الدين الواسطي[1]: «فوالله، ثم والله، ثم والله، لم يرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم ابن تيمية علمًا وعملًا وحالًا وخلقًا واتباعًا، وكرمًا وحلمًا، وقيامًا في حق الله تعالى عند انتهاك حرماته، وأصدق الناس عقدًا، وأصحهم علمًا وعزمًا، وأنفذهم وأعلاهم في انتصار الحق وقيامه همةً، وأسخاهم كفًا، وأكملهم اتباعًا لنبيه محمد ﷺ. ما رأينا في عصرنا هذا من تستجلي النبوة المحمدية وسننها من أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة»[2].

فمناقب ابن تيمية أكثر من أن تستوعبها هذه الترجمة المختصرة، وكما قال ابن حجر: «ولولم يكن للشيخ تقي الدين من المناقب إلا تلميذه الشهير الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية، صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف، لكان غايةً في الدلالة على عظم منزلته»[3].

○ سادسًا: جهاده ومحنه.

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ، فإنهم عرفوه عالمًا ومؤلفًا ومفتيًا، من خلال مؤلفاته المنتشرة، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرى عديدة ساهم فيها مساهمة قوية في نصرة الإسلام وعزة المسلمين.

ولقد تميزت حياة شيخ الإسلام رحمه الله بهذه الميزة العظيمة: الأمر

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن، الشيخ الإمام القدوة عماد الدين بن العارف شيخ الحزامية الواسطي الشافعي، نزيل دمشق. وتفقه وتأدب، وكتب الخط المنسوب، وتجرد، ولقي المشايخ وتزهد، وصنف في السلوك والمحبة، وشرح منازل السائرين، واختصر السيرة لابن إسحاق، ودلائل النبوة، وتوفي سنة ٧١١هـ، انظر: المنهل الصافي (١/ ٢١٠).

(٢) شذرات الذهب (٨/ ١٤٦).

(٣) تقريظه على الرد الوافر (ص/ ٤٨).

بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، فقد جاهد بالسيف وحرضّ المسلمين على القتال بالقول والعمل، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغى، مع أعظم الفرسان الشجعان، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكا[١] عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو.

قال ابن عبد الهادي: «وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال.

فقلد أقامه الله في نوبة غازان[٢]، والتقى أعباء الأمر بنفسه، وقام وقعد وطلع وخرج، واجتمع بالملك مرتين، وبقَطلوشاه وببولاي[٣]، وكان قَبْجَق[٤] يتعجب من إقدامه وجرأته على المغُول...

---

(١) عكا: هو اسم موضع على ساحل بحر الشام، انظر: معجم البلدان (١٤١/٤).

(٢) قازان؛ هو ملك التتار، وحادثة قازان: في سنة ٦٩٩هـ جاء التتار في هجمة من هجماتهم المتوالية إلى الشام، وهزموا عساكر الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي جاء على رأس جنده من مصر، فهرب جند مصر، ولحقهم جند الشام، وصار التتار على أبواب دمشق، وفرّ منها العلماء والأعيان عدد كبير، إلا شيخ الإسلام فقد وقف موقف الأبطال في هذه الظروف، واستطاع أن يجمع بعض أعيان البلاد واتفق معهم على ضبط الأمور فيها.
ثم سار شيخ الإسلام إلى ملك التتار «قازان» لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق، فكلمه كلامًا قويًا شديدًا، فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين، وقد أكرم الله شيخ الإسلام لإخلاصه وقوة إيمانه بقذف الرعب والهيبة في قلب ذلك الملك الظالم، فانصاع لطلبات الشيخ، وأعلن الأمان لأهل دمشق، وحقنت بسببه دماء المسلمين وأعراضهم وممتلكاتهم، انظر: البداية والنهاية (٨/١٤).

(٣) قطلوشاه وبولاي: نائبا ملك التتار «قازان» في دمشق.

(٤) شقحب: قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق، ووقعة شقحب معركة جرت بيت المسلمين والتتار في شهر رمضان عام ٧٠٢ هـ، وانجلت المعركة بهزيمة التتار، ونصر الله المسلمين، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، انظر: العقود الدرية (ص/ ١٧٥) وما بعدها، والبداية والنهاية (١٤/ ١٣) وما بعدها.
وقول ابن عبد الهادي: «كان قَبْجَق يتعجب من إقدامه وجرأته على المغُول»، يريد الذين شهدوا معركة شقحب.

ما فعله الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ في نوبة غازان من جميع أنواع الجهاد، وسائر أنواع الخير: من إنفاق الأمول، وإطعام الطعام، ودفن الموتى، وغير ذلك معروف مشهور .

ثم بعد ذلك بعام، سنة سبعمائة لما قدم التتار إلى أطراف البلاد، وبقي الخلق في شدة عظيمة، وغلب على ظنهم أن عسكر مصر قد تخلوا عن الشام، ركب الشيخ وسار على البريد إلى الجيش المصري في سبعة أيام، ودخل القاهرة في اليوم الثامن: يوم الإثنين حادي عشر جمادي الأولى، وأطلاب المصريين داخلة، وقد دخل السلطان الملك الناصر، فاجتمع بأركان الدولة، واستصرخ بهم وحضهم على الجهاد، وتلا عليهم الآيات والأحاديث، وأخبرهم بما أعد الله للمجاهدين من الثواب، فاستفاقوا وقويت هممهم، وأبدوا له العذر في رجوعهم، مما قاسوا من المطر والبرد منذ عشرين، ونودي بالغزاة، وقوي العزم، وعظموه، وأكرموه، وتردد الأعيان إلى زيارته»[(١)].

فما زال يحرض الناس على القتال، ويسوق لهم الأدلة الواردة على ذلك، وينهاهم عن الإسرار في الفرار، ويرغبهم في الإنفاق في سبيل الله للذب عن المسلمين وعن بلادهم وأموالهم، ويبين أن جهاد التتر واجب متحتم.

وخرج إلى الجنود وثبتهم، وربط من جأشهم، ووعدهم بالنصر والظفر على الأعداء، وكان يحلف رَحِمَهُ اللَّهُ للأمراء والناس بأنكم منصورون في هذه الكرة، فيقولون له، قل؛ إن شاء الله، فيقول؛ إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقا، وكان يتأول في ذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠][(٢)].

---

(١) العقود الدرية (ص/ ١٣٤-١٣٥).

(٢) البداية والنهاية (١٦/١٤).

حين فراغ شيخ الإسلام من جهاد العدو الخارجي، أقبل على تغيير المنكر الموجود داخل صفوف المسلمين، ويذكر لنا ابن القيم كسره للأصنام والأماكن التي كانت تعظم من دون الله تعالى، فيقول: «وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب، فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين، كالعمود المخلق، والنصب الذي كان بمسجد التاريخ عند المصلى يعبده الجهال، والنصب الذي كان تحت الطاحون، الذي عند مقابر النصارى، ينتابه الناس للتبرك به، وكان صورة صنم في نهر القلوط ينذرون له ويتبركون به، وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده، ويتبرك به المشركون وكان عمودًا طويلًا على رأسه حجر كالكرة، وعند مسجد درب الحجر نصب قد بنى عليه مسجد صغير يعبده المشركون يسر الله كسره»[١].

ومع علمه وجهاده وورعه وزهده وتقواه، فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان مجتهدا باذلا نفسه لخدمة أمته، معرضًا نفسه للأخطار والآفات في سبيل ربه، ثم في سبيل نهضة أمته التي طال رقادها بسبب البدع والمحدثات التي خيمت على عقول كثير من الأمة، وما كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ محبًّا للشهرة، ولا راغبا في التميز بالشواذ والغرائب، بل كان همه وهدفه الحق أينما كان، ومهما كان ثمنه.

قال الحافظ البزار: «فإنه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ليس له مُصنَّف، ولا نص في مسألة، ولا فتوى، إلا وقد اختار فيه ما رجحه الدليل النقلي والعقلي على غيره، وتحرى قول الحق المحض، فبرهن عليه بالبراهين القاطعة الواضحة الظاهرة، بحيث إذا سمع ذلك ذو الفطرة السليمة يثلج قلبه بها، ويجزم بأنها الحق المبين.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٨٨).

وتراه في جميع مؤلفاته إذا صح الحديث عنده يأخذ به ويعمل بمقتضاه، ويقدمه على قول كل قائل من عالم ومجتهد.

وإذا نظر المنصِف اليه بعين العدل يراه واقفًا مع الكتاب والسنة، لا يميله عنهما قول أحد كائنًا من كان، ولا يراقب في الأخذ بعلومهما أحدًا، ولا يخاف في ذلك أميرًا ولا سلطانًا ولا سوطًا ولا سيفًا، ولا يرجع عنهما لقول أحد وهو متمسك بالعروة الوثقى»[١].

ورغم اتصافه بالعبادة والزهد والتقوى والإنصاف والتمسك بالكتاب والسنة، إلا أن أهل البغي لم يرتدعوا عن بغيهم وظلمهم وافترائهم على شيخ الإسلام[٢]، بل حشدوا رعاع الناس من أهل الخرافات والأهواء

---

(١) الأعلام العلية (ص/ ٦٩).

(٢) ومن المحن التي ابتلي بها شيخ الإسلام:

- محنته بسبب الفتوى الحموية، وقد ذكر فيها شيخ الإسلام معتقد أهل السنة والجماعة في الصفات، فادعى خصومه أنه ذكر فيها ما أفسد عقائد عوامهم، وقد حصلت بذلك مناظرات بينه وبين خصومه، وانتهت بالاعتراف للشيخ بأنه على حق.
- محنته حول ما كتب في الواسطية، حيث اتهم الشيخ بسوء العقيدة، فعقدت مجالس ومناظرات لمساءلة الشيخ عن معتقده، وانتهت تلك المناظرات ببراءته وإعادته إلى منصبه.
- محنته مع الصوفية (الرفاعية)، وهي المناظرة المشهورة التي جرت بين شيخ الإسلام ومشائخ هذه الطريقة أمام السلطان (في مسألة؛ أنه لهم أحوال باطنة لا يوقف عليها، أي لهم الباطن ولغيرهم الظاهر، وأن لهم أمورا لا يقف أهل الظاهر عليها، فلا ينكرون عليهم، مثل دخولهم النار)، وقد بين فيه الشيخ باطلهم، ورد على شبهاتهم، وكشف حيلهم التي يلبسون بها على الناس.
- محنته بسبب فتواه في الطلاق، مما ترجح لدى الشيخ في مسألة الطلاق عدُ الثلاث بكلمة واحدة طلاقًا رجعيًا، وقد منع الشيخ من الإفتاء بذلك، لكنه لم يستجب؛ لأنه يرى أنه لا يسعه كتمان العلم، وقد عقد له مجلس عوتب فيه وحكم بسجنه، ثم أخرج منه بعد أكثر من خمسة أشهر.
- محنته بسبب فتواه في شد الرحال إلى القبور، وهي من أعظم الفتن التي مرت على الشيخ وعلى أتباعه، وقد كذب فيها على الشيخ وحرف كلامه، وأوذي بعض تلاميذه وأتباعه فيها، وسجن بسببها، وكان من أشد المصائب عليه، وبقي فيه إلى أن مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ضده، وخاصة من يتاجرون بمراقد ومقايد الأموات، ويجنون من العامة والبسطاء الأموال الكثيرة، فاستمالوا الأمراء الذين يعظمون الخرافة ويعمرون المقابر ويخربون العمران، وكذبوا على شيخ الإسلام عند بقية الناس وألبوا السلطان عليه حسدًا من عند أنفسهم.

ثم تسببوا في سجنه مرات وكرات، وهم لا يرضون إلا بقتله بعد أن كفروه، وأهدر بعضهم دمه، فسجن عدة مرات، ثم جاء سجنه الأخير الذي مات فيه، فأرادوا أن يمعنوا في إيذائه وهو مسجون، فقاموا بمنعه من الكتابة ليوقفوا كلمة الحق، حيث صادروا منه أقلامه وكتبه، ووضعوه في زنزانة مظلمة أضرت ببصره، وكانت مصادرة الأوراق والأقلام أشد شيء عليه، فحرموه من كل شيء حتى من الكتابة.

قال ابن عبد الهادي: «فلما كان قبل وفاته بأشهر، ورد مرسوم السلطان بإخراج ما عنده كله، ولم يبق عنده كتاب ولا ورقة ولا دواة ولا قلم، وكان بعد ذلك إذا كتب ورقة إلى بعض أصحابه يكتبها بفحم، وقد رأيت أوراقًا عدة بعثها إلى أصحابه وبعضها مكتوب بفحم»[(١)].

ومع ما كان فيه من ضيق وضنك، كان لا يفتر عن التحدث بنعم الله عليه، فكان يكتب لأصحابه وتلاميذه بحمد الله وشكره والثناء عليه، ومن ذلك آخر رسالة كتبها إلى بعض أصحابه، جاء فيها: «ونحن لله الحمد والشكر في نعم عظيمة تتزايد كل يوم، ويجدد الله تعالى من نعمه نعمًا أخرى، وخروج الكتب كان من أعظم النعم، فإني كنت حريصًا على خروج شيء منها لتقفوا عليه، وهم كرهوا خروج الأخنائية (أي: كتابه الذي رد فيه على الأخنائي)، فاستعملهم الله تعالى في إخراج الجميع، وإلزام المنازعين بالوقوف عليه، وبهذا يظهر ما أرسل الله به رسوله من الهدى ودين الحق.

---

(١) العقود الدرية (ص/ ٣٧٩-٣٨٠).

فإن هذه المسائل كانت خفية على أكثر الناس، فإذا ظهرت: فمن كان قصده الحق هداه الله، ومن كان قصده الباطل قامت عليه حجة الله، واستحق أن يذله الله ويخزيه»[(١)].

ثم قال: «والأوراق التي فيها جواباتكم غسلت، وأنا طيب وعيناي طيبتان أطيب ما كانتا، ونحن في نعم عظيمة لا تحصى ولا تعد، والحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كل ما يقضيه الله تعالى فيه الخير والرحمة والحكمة ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يُوسُف: ١٠٠]، ولا يدخل على أحد ضرر إلا من ذنوبه ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النِّسَاء: ٧٩]، فالعبد عليه أن يشكر الله ويحمده دائمًا على كل حال، ويستغفر من ذنوبه، فالشكر يوجب المزيد من النعم، والاستغفار يدفع النقم، ولا يقضي الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[(٢)].

❍ سابعًا: وفاته.

كان محبوسًا في قلعة دمشق، وكان يقول: «لو بذلت لهم ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة»، وكان يقول: «المحبوس من حبس قلبُه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه»، ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحَدِيد: ١٣][(٣)]. قال ابن القيم: «وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيمِ، بل ضدِّها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٣٨٢-٣٨٣).

(٢) العقود الدرية (ص/ ٣٨٣).

(٣) الوابل الصيب (ص/ ١٠٩).

مع ذلك من أطيبِ الناس عيشا وأشرحِهم صدرًا وأقواهم قلبًا وأسرِّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوةً ويقينًا وطمأنينةً»[(١)].

مكث الشيخ في القلعة من شعبان سنة ٧٢٦هـ، ثم إنه مُنع من الكتابة والتصنيف في يوم الاثنين تاسع عشر جماد الآخرة سنة ٧٢٨هـ، ولم يُتْرك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر. وقد قرأ بعد أن مُنع من الكتابة إلى أن توفي ثمانين ختمة وشرع في الحادية والثمانين فانتهى فيها إلى آخر سورة القمر: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر][(٢)]، وتوفي في سحر ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ بقلعة دمشق.

ثم أخرج من القلعة فشهده خلق لا يحصون، وكان يومًا مشهودًا لم يُعهد بدمشق، ولم يتخلف عن حضور جنازته إلا القليل من الصغار والضعفاء، ولم يتخلف أحد من أهل العلم إلا ثلاثة أنفس اشتهروا بمعاداته خوفًا على أنفسهم بحيث أنهم علموا متى خرجوا قُتلوا وأهلكهم الناس[(٣)]، وحُزِرَ الرجال بستين ألفًا إلى مائتي ألف، والنساء بخمسة عشر ألفًا، وظهر بذلك قول الإمام أحمد: «بيننا وبين أهل البدع الجنائز»[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر: «ولو لم يكن من الدليل على إمامة هذا الرجل

---

(١) المصدر نفسه (ص/١٠٩-١١٠).

(٢) البداية والنهاية (١٨/ ٣٠٠)، والذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٥٢٥).

(٣) انظر: البداية والنهاية (١٨/ ٣٠١).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٥٢٧).

إلا ما نبَّه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي[(١)] في تاريخه : أنه لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته لما مات ما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين. وأشار إلى أن جنازة الإمام أحمد كانت حافلة جدًا شهدها مئات ألوف ولكن لو كان بدمشق من الخلائق نظير من كان ببغداد أو أضعاف ذلك لما تأخر أحد منهم عن شهود جنازته. وأيضًا فجميع من كان ببغداد إلا الأقل كانوا يعتقدون إمامة الإمام أحمد، وكان أمير بغداد وخليفة الوقت إذ ذاك في غاية المحبة له والتعظيم، بخلاف ابن تيمية فكان أمير البلد حين مات غائبًا، وكان أكثر من بالبلد من الفقهاء قد تعصبوا عليه حتى مات محبوسًا بالقلعة. ومع هذا فلم يتخلف منهم عن حضور جنازته والترحم عليه والتأسف عليه إلا ثلاثة أنفس تأخروا خشية على أنفسهم من العامة. ومع حضور هذا الجمع العظيم فلم يكن لذلك باعث إلا اعتقاد إمامته وبركته، لا بجمع سلطان ولا غيره، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»[(٢)(٣)].

وقد صدق شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري حيث قال في كتابه مسالك الأبصار: «ولم يخلف بعده ما يقاربه في العلم والفضل»[(٤)].

---

(١) هو القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي علم الدين أبو محمد الإشبيلي الحافظ الكبير المؤرخ، أحد الأربعة الذين لا خامس لهم في هذه الصناعة. وتوفي في جمادى الآخرة سنة خمس وستين وستمائة، ومات محرِمًا في خليص في رابع ذي الحجة سنة ٧٣٩هـ، انظر: طبقات الشافعية الكبرى (١٠/ ٣٨١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٢١٩) في كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٦٨) في كتاب الجنائز، باب في من يثني عليه خير أو شر من الموتى.

(٣) تقريظه على الرد الوافر (ص/ ٢٤٦).

(٤) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٢٧/ ٥٤٠).

المبحث الثاني

نبذة مختصرة في جهود العلماء في التأليف في موضوع أعمال القلوب

إن الإيمان ومسائله من أهم المسائل في العقيدة الإسلامية، إذ هو لب العقيدة وجوهرها وهو الذي يترتب عليه الفلاح والسعادة الدنيوية والأخروية، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر].

ولهذه الأهمية والمكانة السامية للإيمان اهتم علماء الإسلام بمسائله، فلم يخل ديوان من دواوين الإسلام الكبرى من بحث لمسائل الإيمان التي منها موضوع الأعمال القلبية.

لكن البحث عن تأريخ التأليف والتدوين في أعمال القلوب الذي هو من أشرف العلوم لا يختلف عن أي علم آخر من العلوم الشرعية، فعند نزول الوحي على رسول الله ﷺ المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية التي قال الله فيها: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم]، بين الله في آيات كثيرة من القرآن الكريم القلوب وأعمالها؛ كالصدق والإخلاص والتوكل والصبر والمحبة والرضا والخوف والرجاء وغير ذلك، وكذلك السنة النبوية بينت هذه الأعمال القلبية بيانا شافيا، ويتضح هذا كثيرًا فيما يأتي عند الكلام عن أعمال القلوب وبيانها من الكتاب والسنة.

ثم بعد عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين دونت السنة النبوية، ثم بعد ذلك بدأ التأليف والتدوين في بعض العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه. . .إلخ.

أما التدوين عن القلوب وأعمالها تدوينًا مستقلًّا شاملًا لأغلب الأعمال القلبية، ومبينًا مسائلها وعلاقتها بالإيمان وتزكية النفوس منفصلا عن الكتاب والسنة ومفردًا في كتب مخصصة، فإنا لا نعرف أنه دُوّن على هذه الصفة قبل القرن الثالث الهجري، ولعل بدايته المؤصلة الثابتة كانت في القرن الرابع الهجري.

وأنا لا يهمّني ـ هنا ـ بيان ظهور التصانيف والدواوين في هذا الموضوع على النحو التسلسلي التأريخي، بل الذي أريد إيضاحه هو بيان المسالك التي سلكها المصنفون في هذا الموضوع، الأمر الذي يُظهر لنا براعة علماء الإسلام في التدوين، إذ هم رحمهم الله لم يكتفوا بأسلوب واحد في إيراد المسائل والمعلومات، بل في كل عصر وزمان كانوا يبحثون عن طريقة لإيصال المعلومة إلى المهتمين ـ هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانوا يتجاوبون مع حاجة الناس ومتطلباتهم، الأمر الذي يدل على تفاعلهم مع الأحداث وعدم استسلامهم أمام تحديات الحياة.

ومن خلال مطالعتي القاصرة تبين لي أن علماء الإسلام سلكوا في تدوين هذا العلم ثلاثة مسالك.

المسلك الأول: الكتب التي تكلمت عن أعمال القلوب ضمنا.

تقدم معنا أنه بعد عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين دونت السنة النبوية، ثم بعد ذلك بدأ التأليف والتدوين في بعض العلوم الشرعية كالتفسير والحديث والفقه والعقيدة. . .إلخ

فنجد ـ مثلًا ـ معظم أصحاب كتب الحديث بوّبوا أبوابًا في هذا الموضوع، فالإمام البخاري رحمه الله في صحيحه أفرد كتابًا للإيمان، ضمنه عدة أبواب أورد فيها الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة التي وردت في بيان الإيمان وأركانه ومسائله، ومن هذه الأبواب تبويبه للأعمال القلبية التي

هي أصول الإيمان، منها: **باب**: حب الرسول ﷺ من الايمان، **وباب**: الحياء من الإيمان، وفي كتاب الرقاق: **باب**: الخوف من الله ﷻ، **وباب**: الرجاء مع الخوف، **وباب**: الصبر عن محارم الله، **وباب**: من يتوكل على الله فهو حسبه.

وكذلك نجد مسلمًا رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه أفرد كتابًا للإيمان، ضمنه عدة أبواب أورد فيها الأحاديث النبوية الصحيحة التي وردت في الإيمان وأركانه ومسائله، ومن هذه الأبواب تبويبه للأعمال القلبية، منها: **باب**: الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن، وإن ارتكب المعاصي والكبائر، **وباب**: وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحب هذه المحبة، **وباب**: صدق الإيمان وإخلاصه، وفي كتاب البر والصلة والآداب: **باب**: قبح الكذب وحسن الصدق وفضله، وفي كتاب الذكر والدعاء والتوبة والإستغفار: **باب**: الحث على ذكر الله، **وباب**: التعوذ من شر الفتن وغيرها.

وكذلك فعل أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم من أصحاب كتب الحديث رحمهم الله، إما يعقدون كتابًا مستقلًّا للإيمان يجمعون فيه الأحاديث التي وردت في الإيمان وأركانه ومسائله على أبواب، ومنها أبواب في أعمال القلوب، وأيضًا يبوّبون أبوابًا أخر في بعض الأعمال القلبية في شتى الكتب من مصنفاتهم، وإما يوردون أبوابًا في أعمال القلوب في كتب مختلفة من مصنفاتهم من دون إفراد كتاب مستقل للإيمان.

وكذلك نجد أصحاب كتب التفسير قد تكلموا عن الآيات التي تبين هذه الأعمال القلبية.

وكذلك بعض أصحاب كتب الإيمان الذين درسوا بعض مسائل معينة

من الإيمان، ومن هذه المسائل تركيزهم في بحوثهم على ذكر شعب الإيمان وأدلتها.

من هؤلاء ابن منده رَحِمَهُ اللَّهُ الذي نهج في كتاب الإيمان[١] نهج المحدثين، حيث يذكر العنوان العام ثم يورد الآيات والأحاديث والآثار المطابقة له مسندة، وقد يعلق عليها موضحًا وجه الدلالة منها، وقد تكلم في هذ الكتاب عن مسائل هامة في الإيمان، من بيان تعريف الإيمان عند أهل السنة والجماعة، وتوضيح أن الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، وبيان زيادة الإيمان ونقصانه، وبيان أن الإيمان يتكون من شعب، منها شعب قلبية، ومنها شعب قولية، ومنها شعب فعلية، وقد بوّب أبوابًا لعدة الأعمال القلبية.

ومن هذه الكتب أيضًا، المنهاج في شعب الإيمان للحليمي[٢]، فكتابه قد اشتمل على تعريف الإيمان، والقول في زيادته ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه وغيره من مسائل الإيمان، ثم ذكر شعب الإيمان، وقد أورد سبعة وسبعين بابًا وشعبة، أورد الآيات والأحاديث غير مسندة، ويلاحظ عليه نهج منهج المتكلمين في إيراد المسائل، وفي طريق بحثها أحيانًا.

وكذلك البيهقي في كتابه الجامع لشعب الإيمان[٣]، فإنه استفاد من الحليمي، حيث وضعه على نظام كتاب الحليمي في الترتيب والتبويب، إلا أنه أفاض في المسائل أكثر منه، وأسند الأحاديث والآثار التي أوردها،

---

(١) والكتاب مطبوع في مجلدين، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: أ.د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الناشر: دار الفضيلة ـ الرياض، الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ.

(٢) والكتاب مطبوع، حققه: حلمي محمد فوده، الناشر: دار الفكر، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩مـ.

(٣) والكتاب مطبوع، حققه وراجه نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤مـ .

وغلب عليه طابع أهل الحديث، مما رفع من قيمة كتابه وجعله من أهم المصادر في سرد شعب الإيمان وفي جمع أحاديثها وترتيبها.

والغرض من ذكر هذه النماذج، من كتب الحديث وكتب العقيدة، والإشارة إلى كتب التفسير هو بيان أن هذه الكتب من أوائل الكتب التي تناولت موضوع أعمال القلوب، لكن ذلك كان ضمن موضوعات أخرى ولم تكن مستقلة.

المسلك الثاني: كتب أفردت في عمل من أعمال القلوب.

والمسلك الآخر في التدوين في أعمال القلوب هو ما نهجه بعض الأئمة من إفراد كتب ورسائل في بعض الأعمال القلبية، مثل الذين كتبوا في الزهد كابن المبارك والإمام أحمد بن حنبل رحمهما الله.

ولعل من أشهر المتقدمين الذين كتبوا في هذ الموضوع ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ اللَّهُ، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ قد أفرد معظم كتبه في شعبة واحدة من شعب الإيمان، وهي عبارة عن رسائل فيها، ومنها: التوكل، والتوبة، والحلم، والزهد، والصبر، والشكر، واليقين وغيرها، إلا أن منهجه هو منهج المحدثين، حيث يذكر النصوص بأسانيدها، ويعلق عليها أحيانًا، وقد يأتي بأبيات شعرية رقيقة تركز المعنى في النفس.

وقد سلك هذا المسلك في بعض المؤلفات شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، إذ نجد لهم كتبا ورسائل مستقلة في بعض الأعمال القلبية، مثل: قاعدة في المحبة، وقاعدة في الصبر والشكر، ورسالة في التوكل، ورسالة في التوبة، ورسالة في الشكر، كلها لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومثل: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، والوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم.

وقد نهج شيخ الإسلام وابن القيم في هذه الكتب والرسائل منهج من

قبلهما من الأئمة في الاستدلال على المسائل بنصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف، إلا أنهما يضيفان مسائل هامة فيها، من بيان صلة هذه الأعمال القلبية بالإيمان، وبيان قيمة هذه الأعمال وأثرها في حياة المسلم، وكذلك الرد على المتصوفة الذين خاضوا فيها بأذواقهم ومواجيدهم، موضِّحَيْن أن السلوك الصحيح يجب أن يعتمد على الكتاب والسنة، وأن أي سلوك لا يعتمد عليهما إنما هو سلوك شيطاني، لا يؤدي إلى صفاء قلب صاحبه ولا إلى هدايته إلى الصراط المستقيم.

واستمر الأمر بالتأليف على هذا المسلك إلى عصرنا الحاضر، فنجد كتبا ورسائل مستقلة في بعض الأعمال القلبية، مثل: المحبة والتوبة والصبر والخوف والرجاء والإخلاص وغيرها، إلا أن منهج المعاصرين مختلف، فبعضهم استمر على منهج العلماء السابقين في إيراد الأقوال والمسائل في هذا الموضوع مع ربطها بالأدلة من الكتاب والسنة، ومع إبراز ـ إلى حد ما ـ صلة هذه الأعمال بالإيمان، ومنهم من نهج منهج علماء علم النفس الحديث، فعالجوا موضوع الأعمال القلبية على أساس كونها ظواهر نفسية، أو أخلاقا من الأخلاق الإسلامية التي يجب على المسلم التخلق بها، مع المقارنة بين المنهج الإسلامي لدراسة الأخلاق ووسائل اكتسابها وبين المناهج الأخرى المبنية على النظريات المادية.

المسلك الثالث: كتب في أعمال القلوب.

وقد برزت إلى جانب هذه الكتب ـ التي سبق ذكرها ـ كتب أخرى سلك أصحابها مسلكا آخر في تناول الأعمال القلبية، إذا تناولت هذه الكتب أعمال القلوب ـ عمومًا ـ بصفة مباشرة، وأبرزت جوانب مهمة منها، إلا أنه يلاحظ على كثير منها احتواؤها على الكثير من مصطلحات الصوفية وشطحاتهم، إلى جانب احتوائها على بعض البحوث القيمة.

ولعل من أهم الكتب التي تناولت أغلب الأعمال القلبية في مؤلَّف

واحد[١]، كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتاب «منازل السائرين» للهروي، وكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالي، وكتاب «التحفة العراقية في الأعمال القلبية» لشيخ الإسلام، وكتاب «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم[٢].

وسوف نستعرض هذه الكتب ـ بإيجاز ـ فنبرز مضمونها ومنهجها لتنكشف أهميتها ودورها وأثرها في هذا الموضوع.

الكتاب الأول: «قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد»[٣] للشيخ أبي طالب المكي، فقد تضمن الكتاب في ابتدائه من الآي والأحاديث الشي الكثير مما يعين على الذكر والورد المندوب، وجمع من الأدعية الشي الكثير، كما تكلم عن القلوب، واعتبر كل فصول الكتاب قوتا لهذه القلوب، وقد تكلم فيه أيضًا عن العلم ومكانته، وفرق بين علماء الدنيا والآخرة وذم علماء السوء.

كما تكلم في بعض أبواب الكتاب عن المقامات والأحوال وأعمال القلوب بأسلوب طويل مسهب، ومع كونه من أكثر المشايخ اعتصاما بالكتاب والسنة، (لكنه يذكر فيه أحاديث كثيرة ضعيفة..، ويذكر أحيانا عبادات بدعية من جنس ما بالغ في مدح الجوع هو وأبو حامد وغيرهما،

---

(١) وليس مقامنا هنا استقراء الكتب التي كتبت في هذا الموضوع، بقدر ما هو إعطاء فكرة سريعة عما نظن أنه أهم ما صنف في هذا المجال.
كذلك ليس غرضنا بيان أول من صنف في هذا الموضوع، إلا أنه من أوائل ما ظهر من المؤلفات التي وصلت إلينا في أعمال القلوب هي كتب الحارث المحاسبي؛ «الرعاية لحقوق الله ﷻ»، و«المسائل في أعمال القلوب والجوارح».

(٢) في التعريف بهذه الكتب استفدت من كتاب «طب القلوب لشيخ الإسلام» لعجيل جاسم النشمي، الناشر: دار الدعوة ـ الكويت، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ مـ.

(٣) والكتاب مطبوع في مجلدين، راجعه: سعيد نسيب مكارم، الناشر: دار صادر - بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٧مـ.

وذكروا أنه يزن الخبز بخشب رطب، كلما جفَّ نقص الأكل، وذكروا صلوات الأيام والليالي، وكلها كذب موضوعة، ولهذا قد يذكرون مع ذلك شيئًا من الخيالات الفاسدة وليس هذا موضع بسط ذلك)[١].

الكتاب الثاني: «**منازل السائرين**» لأبي إسماعيل الهروي، وقد قسم الهروي كتابه إلى منازل بلغت مائة منزلة، وجعل لكل منزلة معنى يناسب العامة، ثم ما يناسب خاصة المؤمنين، ثم خاصة الخاصة.

ولقد ألف الإمام ابن القيم كتابه «مدارج السالكين» على هذا الكتاب، وقد تابع الهروي في كل منازل كتابه، ولعل أهمية كتاب الهروي تكمن في أنه يعد من العلماء الموثقين عند علماء السلف، قال عنه ابن القيم: «وصاحب المنازل رَحِمَهُ اللَّهُ كان شديد الإثبات للأسماء والصفات مضادا للجهمية من كل وجه»[٢]، ويقول عن علمه؛ إن في كلامه ما (يدل على رسوخ الشيخ في العلم ووقوفه مع السنة وفقهه في هذا الشأن)[٣].

ورغم ذلك التوثيق إلا أن كتاب المنازل لم يسلم من بعض الشطحات التي يرجى مغفرتها لما عرف من الشيخ من حسن السريرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ابن القيم عن زلاته هي (من الشطحات التي ترجى مغفرتها بكثرة الحسنات، ويستغرقها كمال الصدق، وصحة المعاملة، وقوة الإخلاص، وتجريد التوحيد، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ)[٤].

وكان قصد الإمام ابن القيم من تصنيف كتابه «مدارج السالكين» هو التنبيه والرد على ما وقع من الهروي من الأخطاء.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠٣-٤٠٤).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٩٨).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١٦٢).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٣٠).

الكتاب الثالث: «**إحياء علوم الدين**»[(١)]، لأبي حامد الغزالي، وقد أسس الغزالي كتابه على أربعة أرباع: ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات وصدر الكتاب بكتاب العلم.

ويشتمل كل ربع منها على عشرة كتب، وقد خصص ربع المهلكات والمنجيات للكلام على ما يتعلق بالقلب والآداب والأخلاق، وجعل مدارها كلها سلامة القلب.

يقول شيخ الإسلام في جواب سؤال وجه إليه عن «قوت القلوب» و «إحياء علوم الدين، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات؛ مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك، فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه. والإحياء فيه فوائد كثيرة؛ لكن فيه مواد مذمومة؛ فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد، فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدوا للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين.

وقد أنكر أئمة الدين على أبي حامد هذا في كتبه، وقالوا: مرضه الشفاء يعني شفاء ابن سينا في الفلسفة، وفيه أحاديث وآثار ضعيفة، بل موضوعة كثيرة، وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه ـ مع ذلك ـ من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة، ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه، فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه»[(٢)].

---

(١) وهو مطبوع، وبهامشه تخريج الحافظ العراقي لأحاديث الإحياء، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٩م.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٥١-٥٥٢).

الكتاب الرابع: «**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**» للإمام ابن القيم، وقد ألف ابن القيم كتابه هذا لتتبع كتاب «منازل السائرين» للهروي، وللتنبيه على أخطائه، ويزكي مواضع الصواب عنده خصوصا في قضايا التصوف المشهورة، ويرد على المبتدعة الذين يروجون عن الشيخ ما لا تحتمل عباراته، مستفيدين من مكانته العلمية فقد كان من علماء الحنابلة المعدودين، ويلقب بـ «شيخ الإسلام».

لكن هذا المقصد لم يمنع الإمام ابن القيم من الشرح والاسترسال والزيادة على ما تحتمله عبارة الشيخ، بل اعتبر كلام الشيخ متنا وتناوله بالشرح المسهب، ومن هنا كانت أهمية الكتاب وما فيه من شروح وزيادات اكتسبت أهمية علمية عول عليها الدارسون والمحققون حتى يكاد كتاب الشيخ الهروي ينسى في هذا المضمار.

فتكلم ابن القيم عن هداية القرآن كلامًا نفيسًا وتعرض لاشتمال الفاتحة على المطالب العالية، واشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة، وعقد فصلا لمراتب الهداية الخاصة والعامة وجعلها عشرًا، واشتمال الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان، وتكلم عن قواعد العبودية الخمسة عشرة، وأنها منقسمة على القلب واللسان والجوارح، ثم عقد فصلًا لمنازل «إياك نعبد» وتكلم عن التوبة وما يتعلق بها، وعرض لمعاني الصغائر والكبائر واللمم ولمحقرات الذنوب... وتعرض لما يتاب منه وعدده اثنا عشر، وتكلم كلاما نفيسًا عن آثار مفسدات القلب الخمسة وعددها، وسار مفصلا القول في كلام الهروي في المنازل مما يضيق بسطه.

أما الكتاب الخامس: فهو «**التحفة العراقية في الأعمال القلبية**» لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو على صغر حجمه على درجة كبيرة من الشمول والإتقان، وفيه من حسن الاستنباط وقوة الحجة والاستدلال ما لا يستغرب وروده من شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فعقد شيخ الإسلام هذا الكتاب لأعمال القلوب ويقصد بها ما يسمى بالمقامات والأحوال، وهي أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.

وقد فصل هذا فبين أن المسلمين في أعمال القلوب على ثلاث درجات: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات..، ثم بين الصدق والإخلاص والحلال والحرام والمشتبه، وشرح معنى حديث «**إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، كما بين معنى حق الله على عباده، وحق العباد على الله، ثم تكلم على الزهد، والصبر، والرضا، والجزع، والمحبة، وفصل في خصوص المحبة وبين منزع الفساد والذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وبين ما وقع فيه هؤلاء من فساد في الاعتقاد والأعمال.

ولا يقتصر ما كتبه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ما ذكر في التحفة العراقية، وما مرّ من ذكر بعض الرسائل المختصة في بعض الأعمال القلبية، وإنما له كلام نفيس جدًّا في هذا الباب لكنه مبثوث في كتبه، مثل «**العبودية**» و «**أمراض القلوب وشفاؤها**»، وقد جمعت **في المجلد المخصوص بعلم السلوك من مجموع الفتاوى**، ومادة هذا الكتاب جمعت بين شتات ما كتب شيخ الإسلام وأجاب وأفتى في أعمال القلوب وما يتعلق بالقلب من أمراض وأسقام تحتاج إلى شفاء.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى أمر، وهو؛ بالإضافة إلى ما مرّ ذكره من كتب شيخ الإسلام التي تناولت موضوع أعمال القلوب بصفة مباشرة، هناك كتب أخرى تناولت الأعمال القلبية بأساليب أخرى: من أهمها:

١. **كتاب الإيمان الكبير وكتاب الإيمان الأوسط** لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد درس في هذا الكتاب جميع مسائل الإيمان تقريبا، ومن هذه المسائل بيانه منهج أهل السنة والجماعة في الإيمان، وأن للقلب قولًا وعملًا وأنهما بمجموعهما يسميان إيمانًا، وأنه لا يكفي قول القلب بدون العمل، وأن حقيقة أعمال القلوب هي الانقياد والاستسلام، إلى غير ذلك من المسائل.

٢. **قاعدة في توحيد الألوهية، ومن الأصول التي صرف فيها** رَحِمَهُ اللَّهُ وقته، وجلّ همّه تحقيق العبادة لرب العالمين، وفي هذه الرسالة اللطيفة المشتملة على فوائد جمة بين رَحِمَهُ اللَّهُ العبادة لله وحده ومفهومها، وأوضح وجوب الإخلاص لرب العالمين بتحقيق توحيد العبادة من التوكل والاستعانة والخوف والرجاء والدعاء والخشية والإنابة والتوبة والاستغفار، وكذلك الصلاة والزكاة والحج والصيام، إلا أن القلب هو الملك وما يقوم به هو الأصل، والجوارح تبع له.

٣. **الاستقامة**، لما كان الصوفية من أكثر الناس كلاما في أعمال القلوب، تارة بالحق وأغلبه بالباطل، ولما كان عمدة الأعمال محبة الله ورسوله، صار في بعض الصوفية من يطلب تحريكها بأنواع من السماع المحدث، فقد تناول شيخ الإسلام موضوع السماع عند الصوفية في هذا الكتاب بما يقرب من مائتي صفحة، وكذلك كلامهم في الرضا؛ أن المرءَ لا يسأل اللهَ الجنة ولا يستعيذ به من النار ـ لأن ذلك من كمال الرضا، فقد عقد فصلًا كاملًا في الرد على معتقدهم هذا.

وكذلك في مجموع الفتاوى له كتب عدة، ككتاب السلوك، وكتاب التفسير، وكتاب الحديث، وكتاب الفقه وغيرها من الكتب، يوجد فيها كلام لشيخ الإسلام في هذا الموضوع:

٤. ففي **كتاب التفسير** مثلا تكلم عن الاستعاذة بكلام جميل جدا، حيث بين الاستعاذة، وأنها تكون بالله فقط، ثم بين الأمور التي تستعاذ منها، وأوضح أن سورتي الفلق والناس قد انتظمتا جميع الشرور التي ينبغي الاستعاذة منها.

٥. وفي **كتاب الحديث** مثلًا، شرح حديث «**إنما الأعمال بالنيات**» وبين معنى النية، وأن محلها القلب، وأن التلفظ بها بدعة، كما شرح النية الواردة في الحديث، ثم بين أقسام النية: وأنها تكون لتمييز العبادة عن العادة، ولتمييز العبادة عن العبادة وهو الذي يوجد في كتب الفقه ويذكره الفقهاء، والقسم الثاني: تمييز المقصود بالعمل، هل هو الله وحده لا شريك له أم غيره، إلى غير ذلك من الأمور(١).

ولعل ما تقدم من النماذج فيما كتب في هذا الموضوع عموما، وما كتبه شيخ الإسلام خصوصا دلالة على إسهام علماء المسلمين في الكتابة في هذا الموضوع، ورغبتهم في نشر العلم والخير، أملًا في الثواب واحتساب الأجر.

---

(١) وما ذكرت من تفسير شيخ الإسلام لسورتي الفلق والناس، وشرحه لحديث «إنما الأعمال بالنيات»، هي بعض الأمثلة التي تبين أن لشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كلامًا في موضوع أعمال القلوب في غير مظانه، في كتب متفرقة له.



الباب الأول

مفهوم أعمال القلوب وأنواعها، ومنزلتها من الإيمان عند شيخ الإسلام

وفيه فصلان:

الفصل الأول: مفهوم أعمال القلوب وأنواعها.

الفصل الثاني: منزلة أعمال القلوب من الإيمان.







الفصل الأول

مفهوم أعمال القلوب وأنواعها

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

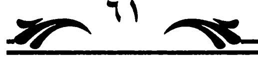
التمهيد: تعريف الإيمان وحقيقته.

المبحث الأول: التعريف بالقلب وقوله وعمله.

المبحث الثاني: أنواع أعمال القلوب.

المبحث الثالث: العلاقة بين أعمال القلوب.







التمهيد:
تعريف الإيمان وحقيقته

المطلب الأول
تعريف الإيمان وحقيقته

○ **المسألة الأول: تعريف الإيمان لغة:**

الإيمان في اللغة العربية مصدر مشتق من الأمن، يقال آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن.

قال ابن فارس[(١)]: «أمن، الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان:

أحدهما؛ الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر؛ التصديق والمعنيان كما قلنا متدانيان»[(٢)].

قال الراغب الأصفهاني[(٣)]: «آمن إنما يقال على وجهين:

أحدهما: متعد بنفسه، يقال أمّنته أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن.

والثاني: غير متعد، ومعناه صار ذا أمن...

---

(١) هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها، وإليها نسبته. من تصانيفه مقاييس اللغة، والصاحبي، وغيرهما. ولد سنة ٣٢٩هـ. وتوفي سنة ٣٩٥هـ. انظر: وفيات الأعيان (١/ ١١٨)، والسير (١٧/ ١٠٣)، والأعلام (١/ ١٩٣).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٧١).

(٣) هو أبو القاسم الحسين بن محمد ابن المفضل الأصفهاني، الملقب بالراغب من أهل أصفهان، صاحب التصانيف، أديب، من علماء المتكلمين. من مؤلفاته: مفردات غريب القرآن، والذريعة إلى مكارم الشريعة، ومحاضرات الأدباء وغيرها. توفي سنة ٥٠٢هـ. انظر: السير (١٨/ ١٢٠)، والأعلام: (٢/ ٢٥٥).

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: ١٧]، قيل معناه بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه الأمن»[١].

وقال ابن منظور[٢]: «أمن: الأمان والأمانة بمعنى قد أمنت فأنا آمن، آمنت غيري من الأمن والأمان. والأمن ضد الخوف، الإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب، يقال آمن به قوم وكذب به قوم، فأما أمنته المتعدي فهو ضد أخفته»[٣].

وحدّ الزجاج[٤] الإيمان فقال: «الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي، واعتقاده وتصديقه بالقلب»[٥].

ويقول الفيروزآبادي[٦]: «الإيمان: الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة»[٧].

وقال الراغب أيضًا: «أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف»[٨].

---

(١) المفردات (ص/ ٩١).

(٢) هو أبو القاسم محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري المشهور بابن منظور الأفريقي، الأديب اللغوي الناظم، من مصنفاته: لسان العرب، ومختصر تأريخ دمشق لابن عساكر الدمشقي، ومختصر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، توفي سنة ٧١١ هـ، أنظر: شذرات الذهب (٧/ ٤٩)، ومعجم المؤلفين (١٢/ ٤٦).

(٣) لسان العرب (١/ ١٦٣).

(٤) هو أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد بن السري الزجاج البغدادي، نحوي زمانه، مصنف كتاب معاني القرآن، وله تآليف جمة. منها: كتاب العروض، وكتاب الاشتقاق، وكتاب النوادر، مات سنة ٣١١ هـ. انظر: السير: (١٤/ ٣٦٠).

(٥) لسان العرب (١/ ١٦٤).

(٦) هو محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم، أبو طاهر، مجد الدين الفيروزآبادي، إمام في اللغة والأدب، ولد سنة ٧٢٩هـ، وتنقل في البلدان حتى ذاع صيته، توفي سنة ٨١٧هـ، أشهر كتبه: القاموس المحيط، والمغانم المطابة في معالم طابة، انظر: شذرات الذهب (٧/١٢٦)، ومعجم المؤلفين (١٢/ ١١٨).

(٧) القاموس المحيط (ص/١٥١٨).

(٨) المفردات (ص/ ٩٠).

وحاصل كلام أهل اللغة في الإيمان أنه التصديق، وهذا هو الذي اشتهر عندهم، وقد ادعي الإجماع على ذلك كما حكاه ابن منظور وغيره، قال ابن منظور: «واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أن الإيمان معناه التصديق»[(١)]، ولكن من أهل اللغة من عرف الإيمان بما يتضمن عمل القلب ولم يقتصر على مجرد التصديق كما مر معنا عند الفيروز آبادي والراغب الأصفهاني وغيرهم.

ودعوى الترادف بين الإيمان والتصديق ردها شيخ الإسلام من وجوه كثيرة، ملخصها:

١ ـ أن لفظة «آمن» تختلف عن لفظة «صدق» من جهة التعدي، حيث أن «آمن» لا تتعدى إلا بحرف إما اللام أو الباء، فيقال «آمن له» أو «آمن به»، ولا يقال «آمنه»، بخلاف لفظة «صدق» فإنه يصح تعديتها بنفسها فيقال «صدقه».

٢ ـ أن الإيمان والتصديق لا يترادفان في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهدة أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت، وأما لفظ الإيمان لا يستخدم إلا في الأخبار التي يؤتمن فيها المخبر مثل الأمور الغيبية، لأنه مشتق من الأمن.

٣ ـ أن لفظ التصديق في اللغة يقابل بالتكذيب، ويقال صدقت أو كذبت، بخلاف لفظ الإيمان الذي لا يقابل بالتكذيب، بل يقابل بالكفر، يقال آمنا أو كفرنا، هو مؤمن أو كافر، ومن هنا يعلم أن الكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق لكن لا أتبعك، بل أعاديك وأبغضك وأخالفك ولا أوافقك لكان كفره أعظم، فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط، علم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

---

(١) لسان العرب (١/ ١٦٤).

٤ ـ أن الإيمان في اللغة مشتق من الأمن الذي ضد الخوف، فآمن، أي صار داخلا في الأمن، فهو متضمن مع التصديق معنى الإئتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق، ولهذا قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يُوسُف: ١٧]، أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ولو كنا من الصادقين، لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك، فلو صدقوا لم يأمن لهم، أما التصديق فلا يتضمن شيئًا من ذلك[١].

٥ ـ أن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، وأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام وهو عمل القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر[٢][٣].

فهذه الأمور تدفع دعوى الترادف بين الإيمان والتصديق، كما يظن طائفة من الناس، وأيضًا لو سلم الترادف بينهما، فليس التصديق هو ما يقوم بالقلب فقط، أو ما يقوم بالقلب واللسان، لأن التصديق يطلق على الأفعال أيضًا كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخطا، والقلب يهوى ويتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه**»[٤].

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/٢٢٧-٢٣٠).

(٢) الصارم المسلول (٣/٩٦٧)، والإيمان الأوسط (ص/٧٨، و ص/١٨٢).

(٣) انظر هذه الأوجه الفرق بين الإيمان والتصديق في: «زيادة الإيمان ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه» لشيخنا عبد الرزاق بن عبدالمحسن البدر (ص/٣٣-٣٦)، وكتاب: «التعريفات الاعتقادية» لسعد بن محمد آل عبد اللطيف (ص/١٠٣-١٠٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٨٧)، في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٦٥)، كتاب القدر، باب قدر على ابن لآدم حظه من الزنا وغيره.

ثم إنه إذا كان أصله التصديق، فهو تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، والصيام إمساك مخصوص، وهذا التصديق له لوازم صارت لوازمه داخلة في مسماه عند الإطلاق، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم[١]، وهذا نقوله تنزلا مع المخالف وإلا فنحن لسنا موافقين على أن الإيمان والتصديق لفظان مترادفان، بل بينهما فروق كما سبق.

وأولى ما يفسر به الإيمان في اللغة، والذي اختاره شيخ الإسلام هو أن الإيمان هو الإقرار حيث قال: «فإن الإيمان مأخوذ من الأمن الذي هو الطمأنينة، كما أن لفظ الإقرار: مأخوذ من قرّ يقرّ وهو قريب من آمن يؤمن، لكن الصادق يطمأن إلى خبره، والكاذب بخلاف ذلك كما يقال الصدق طمأنينة والكذب ريبة، فالمؤمن دخل في الأمن كما أن المقر دخل في الإقرار، ولفظ الإقرار يتضمن الالتزام، ثم إنه يكون على وجهين:

أحدهما: الإخبار وهو من هذا الوجه كلفظ التصديق، والشهادة ونحوهما، وهذا معنى الإقرار الذي يذكره الفقهاء في كتاب الإقرار.

والثاني: إنشاء الالتزام كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ﴾ [آل عمران: ٨١]، فهذا الالتزام للإيمان والنصر للرسول، وكذلك لفظ الإيمان فيه إخبار وإنشاء والتزام، بخلاف لفظ التصديق المجرد»[٢].

وقال: «بل هو (أي؛ الإيمان) الإقرار، لأن التصديق إنما يطابق الخبر فقط، وأما الإقرار يطابق الخبر والأمر»[٣].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٣٠) باختصار وتصرف يسير.

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٧٨) باختصار.

(٣) المصدر نفسه (ص/ ١٨٢).

وقال: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد»[١].

وقال: «وإنما يقال: آمن له، كما يقال: أقررت له، فكان تفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق مع أن بينهما فرقا»[٢].

ومما ينبغي أن يعلم أن الحقائق قد تعرف بالشرع كالصلاة، وقد تعرف باللغة كالشمس، وقد تعرف بالعرف كالقبض، وإذا عرف تفسيرها من جهة الشرع لم يحتج ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم[٣]، وهكذا في مسمى الإيمان: إذ التصديق أحد أجزاء المعنى الشرعي عند أهل السنة والجماعة، وعلى ذلك دلت نصوص الكتاب والسنة كما سيأتي ذكرها في المباحث الآتية.

❍ المسألة الثانية: **تعريف الإيمان شرعًا.**

ومن الأصول المتفق عليها عند أهل السنة والجماعة أن الإيمان حقيقة مركبة من القول والعمل لا يجزئ واحد من الاثنين إلا بالآخر، والقول قول القلب واللسان، والعمل عمل القلب والجوارح، قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٤].

---

(١) المصدر نفسه(ص/ ١٨٤).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٧).

(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ٢٢٤)، والفرقان بين الحق والباطل (ص/ ١٧)، ومجموع الفتاوى (١٩/ ٢٣٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه(ص/ ٥)، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/ ٤٨)، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها و أدناها، وفضيله الحياء وكونه من الإيمان، واللفظ له.

وقد تنوعت عبارات السلف في تعريف الإيمان وإن كان معناها واحدا، سنذكر هنا بعضا من تلك الأقوال:

قال الإمام الشافعي: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل ونية، لا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»(١).

وقال أبو زرعة الرازي(٢): «أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازا وعراقا وشامًا ويمنًا وكان من مذهبهم الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»(٣).

وقال الحافظ ابن عبد البر(٤): «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل»(٥).

وقال الآجري(٦): «اعلموا ـ رحمنا الله وإياكم ـ أن الذي عليه علماء

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (٥/ ٩٥٧).

(٢) هو الإمام، سيد الحفاظ، عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء، أبو زرعة الرازي، من أهل الري، زار بغداد وحدث بها، وجالس أحمد بن حنبل، كان يحفظ مئة ألف حديث، ولد سنة ٢٠٠ هـ وتوفي سنة ٢٦٤ هـ، انظر: طبقات الحنابلة (٢/ ٥٣)، وسير أعلام النبلاء (١٣/ ٦٥)، والأعلام (٤/ ١٩٤).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة و الجماعة (١/ ١٩٨).

(٤) هو الإمام العلامة، حافظ المغرب، أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، الأندلسي، القرطبي، صاحب التصانيف الفائقة. ولد سنة ٣٦٨هـ، كان إماما دينا، ثقة، متقنا، علامة، صاحب سنة واتباع، صنف كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، وكتاب الاستذكار، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، وغيرها من الكتب، توفي سنة ٤٦٣ هـ، انظر: تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٢٨)، والسير (١٨/ ١٥٣).

(٥) التمهيد (٩/ ٢٣٨).

(٦) هو محمد بن الحسن بن عبد الله، أبو بكر الآجري الشافعي، فقيه محدث، نسبته إلى آجر (من قرى بغداد)، ولد فيه وحدث ببغداد ثم انتقل إلى مكة وتوفي فيها، وله من التصانيف: الشريعة، وأخلاق العلماء، والنصيحة، والغرباء وغيرها مات سنة ٣٦٠ هـ، انظر: السير (١٦/ ١٣٤)، وفيات الأعيان (٤/ ٢٩٢)، ومعجم المؤلفين (٩/ ٢٤٣).

المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق، وهو تصديق بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح»[١].

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن السلام[٢]: «فالأمر الذي عليه السنة عندنا ما نصّ عليه علماؤنا، مما اقتصصنا في كتابنا هذا، أن الإيمان بالنية والقول والعمل جميعًا»[٣].

وقال ابن أبي زمنين[٤]: «ومن قول أهل السنة والجماعة: إن الإيمان إخلاص لله بالقلوب وشهادة بالألسنة وعمل بالجوارح، على نية حسنة وإصابة السنة»[٥].

وقال الإمام الصابوني[٦]: «ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة»[٧].

---

(١) الشريعة (٢/ ٦٨٦).

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الإمام الحافظ المجتهد، المولود عام ١٥٧ هـ، قال عنه الذهبي: «من نظر في كتب أبي عبيد علم مكانه من الحفظ والعلم، وكان حافظا للحديث وعلله، عارفا بالفقه والاختلاف، رأسًا في اللغة، إمامًا في القراءات»، توفي سنة ٢٢٤، انظر: السير (١٠/ ٤٩٠)، وطبقات الحنابلة (٢/ ٢١٠).

(٣) الإيمان (ص/ ٣٤).

(٤) هو ابن أبي زمنين الإمام الزاهد، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد، الأندلسي، شيخ قرطبة. استبحر من العلم، وصنف في الزهد والرقائق، وكان صاحب جد وإخلاص، ولد في أول سنة ٣٢٤ هـ، وتوفي سنة ٣٩٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨٨/١٧).

(٥) شرح أصول السنة لابن أبي زمنين (ص/ ٢٠٧).

(٦) هو الإمام العلامة، القدوة، المفسر، المحدث، أبو عثمان، إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد ابن إسماعيل بن إبراهيم بن عابد، النيسابوري، الصابوني. ولد سنة ٣٧٣هـ. قال الذهبي: ولقد كان من أئمة الأثر، له مصنف في السنة واعتقاد السلف، ما رآه منصف إلا واعترف له. توفي سنة ٤٤٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٠).

(٧) عقيدة السلف (ص/ ٢٦٤).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ورحم الجميع: «والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[(١)].

وقال: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومعنى ذلك: أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح»[(٢)]

وقال: «ومن أصول أهل السنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، و عمل القلب واللسان والجوارح»[(٣)].

وقال: «فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمى الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذين يجعلون الإيمان قولا وعملا، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ويدخلون جميع الطاعات فرضها ونفلها في مسماه، وهذا مذهب الجماهير من أهل الحديث والتصوف والكلام والفقه من أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم»[(٤)].

وقال الإمام ابن القيم[(٥)] رَحِمَهُ اللهُ: «وهو حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقًا، والانقياد له محبة وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا»[(٦)].

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢).

(٣) العقيدة الواسطية (ص/ ٥٧٣-٥٧٣) مع الشرح للشيخ ابن العثيمين.

(٤) المجموع (٧/ ٦٤٢).

(٥) هو محمد بن أبى بكر بن أيوب الزرعي الدمشقى شمس الدين ابن قيم الجوزية العلامة الكبير المجتهد المصنف المشهور ولد سنة ٦٩١ هـ، وسمع من ابن تيمية وبرع في جميع العلوم وتبحر في معرفة مذاهب السلف. له مصنفات كثيرة نصر فيها ذهب السلف. مات سنة ٧٥١ هـ. انظر: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني (٢/ ١٤٣).

(٦) الفوائد (ص/ ١٥٦).

وقال السفاريني[(١)]:

إيمـاننـا قـول وقـصـد وعـمـل تزيده التقوى وينقص بالزلل[(٢)]

فقد تبين مما سبق أن الإجماع عند أهل السنة منعقد أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وأن حقيقته تتألف من هذه الأجزاء الأربعة، لا يجزئ بعضها عن بعض:

الأول: قول القلب. وهو اعترافه وتصديقه وإيقانه وإقراره، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزُّمَر].

الثاني: عمل القلب. وهو انقياده لما يصدق به من النية والإخلاص والمحبة والخوف والرجاء وتوابعها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال].

الثالث: قول اللسان. وهو ما لا يؤدى إلا به، كالنطق بالشهادتين، وسائر الأذكار،

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ [الأحقاف].

الرابع: عمل الجوارح. وهو ما لا يؤدى إلا بها، كالسجود والركوع والقيام، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ

---

(١) هو محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون: عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق. ولد سنة ١١١٤ بسفارين (من قرى نابلس) ورحل إلى دمشق، فأخذ عن علمائها. وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى، وتوفي فيها سنة ١١٨٨ هـ، له كتاب: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، وغيره من الكتب، انظر: الأعلام (٦/ ١٤).

(٢) لوامع الأنوار (ص/٤٠٣).

﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحَجّ]، وسيأتي مزيد بيان على هذا في المباحث الآتية إن شاء الله.

وكما أسلفنا أن عبارات السلف في تعريف الإيمان قد اختلفت في التعبير وتنوعت، وإن كان معناها ومؤداها واحدا، ولكن دفعا لتوهم التعارض بينها، وبيانا لفضل السلف وجلالة فقههم ودقة فهمهم أقول: قد حصر شيخ الإسلام عبارات السلف في خمس عبارات، وبين مقصودهم فيها، وهذه العبارات هي:

- الإيمان: قول وعمل.
- الإيمان: قول وعمل واعتقاد.
- الإيمان: قول وعمل ونية.
- الإيمان: قول وعمل واتباع السنة.
- الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

ومن قال «قول وعمل» أراد بذلك قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن زاد «الاعتقاد» ظن أن لفظ القول قد لا يفهم منه إلا القول الظاهر، فزاد الاعتقاد بالقلب.

ومن زاد «النية» قال: القول يتناول الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية، ومن زاد «اتباع السنة» فلأن ذلك لا يكون محبوبا لله إلا باتباع السنة.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود هنا أن من قال من السلف: الإيمان قول وعمل أراد قول القلب واللسان وعمل القلب والجوارح، ومن أراد الاعتقاد رأى أن لفظ القول لا يفهم منه إلا القول الظاهر أو خاف ذلك فزاد الاعتقاد بالقلب، ومن قال: قول وعمل ونية قال: القول يتناول

الاعتقاد وقول اللسان، وأما العمل فقد لا يفهم منه النية فزاد ذلك، ومن زاد اتباع السنة فلأن ذلك كله لا يكون محبوبًا لله إلا باتباع السنة، وأولئك لم يريدوا كل قول وعمل إنما أرادوا ما كان مشروعًا من الأقوال والأعمال، ولكن كان مقصودهم الرد على المرجئة الذين جعلوه قولا فقط، فقالوا: بل هو قول وعمل والذين جعلوه أربعة أقسام فسروا مرادهم كما سئل سهل بن عبد اللَّهِ التستري[1] عن الايمان ما هو؟ فقال: قول وعمل ونية وسنة، لأن الإيمان إذا كان قولًا بلا عمل فهو كفر، وإذا كان قولًا وعملًا بلا نية فهو نفاق، وإذا كان قولًا وعملًا ونية بلا سنة فهو بدعة»[2].

(١) هو سهل بن عبد الله بن يونس التستري، من أئمة الصوفية، ولد بتستر سنة ٢٠٠ هـ، لقي ذا النون المصري، له مصنفات، منها: تفسير القرآن، ورقائق المحبين، ومواعظ العارفين، انظر: السير (١٣/ ٣٣٠)، ومعجم المؤلفين (٤/ ٢٨٤)، والأعلام (٣/ ١٤٣).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ١٣٧-١٣٨)، وانظر: الإيمان الأوسط (ص/ ٥٤-٥٥)، والاستقامة (٢/ ٣١٠).

المطلب الثاني

بيان دخول أعمال القلوب في مسمى الإيمان

بما أن موضوع رسالتي متعلق بأعمال القلوب أردت أن أفرد بيان دخولها في مسمى الإيمان في مبحث خاص، ولكن قبل أن أشرع في ذكر بعض الأدلة التي تبين أن أعمال القلوب داخلة في مسمى الإيمان، أريد أن أشير إلى مسألة وهي: أن المخالفين لأهل السنة في باب الإيمان، سواء أكانوا من المعتزلة[(١)] والخوارج[(٢)]، أم كانوا من المرجئة[(٣)] لم يختلفوا على أن أعمال القلوب من الإيمان إلا ما ورد عن بعض غلاة المرجئة كجهم[(٤)]

---

(١) المعتزلة من الفرق الكلامية العقلانية المنتسبة للإسلام، التي ظهرت في عهد مبكر نوعا ما، وذلك في عصر التابعين، أواخر العصر الأموي واشتهرت وانتشرت في العصر العباسي، اعتمدت النظر العقلي المجرد أساسا لعقائدها وأفكارها، فخلطوا بين الشرعيات والفلسفة والعقليات في كثير من مسائل العقيدة، وهم فرق وطوائف يجمعهم غالبا القول بالأصول الخمسة المعرفة عنهم، هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، انظر: الملل والنحل (١/ ٣٥)، والفرق بين الفرق (ص/ ١١٤)، والموسوعة الميسرة (١/ ٦٩).

(٢) الخوارج من أشهر الفرق الإسلامية وأقدمها، ظهرت بعد حادثة التحكيم فارقوا الجماعة وانحازوا إلى حروراء، هم الطائفة الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وأجمعوا على تكفيره، وكذلك من جاء بعدهم وسار على طريقهم. والخوارج فرق منها الأزارقة والنجدات والإباضية، ويجمعهم القول بوجوب الخروج على السلطان الجائر، وتكفير مرتكب الكبيرة، وتخليد صاحب الكبيرة في النار، وإنكار الشفاعة لأهل الكبائر، انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ٨٤)، والفرق بين الفرق (ص/ ٧٢).

(٣) يأتي التعريف بهم في الفصل الثاني: (موقف المرجئة من أعمال القلوب، والرد عليهم) من الباب الثالث .

(٤) هو جهم بن صفوان السمرقندي، أبو محرز، من موالي بني راسب، رأس الضلالة، ورأس الجهمية، كان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن. ويقول: إن الله

والصالحي[١] ومن سار على نهجهما الذين جعلوا الإيمان مجرد التصديق والمعرفة الخالي عن الأعمال، وهذا الأمر لا يعني أن من وافق أهل السنة في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان وخالفهم في إخراج أعمال الجوارح أنهم متفقون معهم في كل شيء، لأنه كما يقول شيخ الإسلام إخراج أعمال الجوارح من الإيمان يشعر بإخراج أعمال القلوب أيضا، وهذا باطل قطعًا[٢].

ثم أيضًا من الفرق من يوافق أهل السنة في إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان، ولكن لهم مفاهيم خاطئة ومخالفة لنصوص الكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة كما هو شأن الصوفية، وكل هذا يأتي ذكره في الباب الثالث من هذه الرسالة، ولكن المقصود هنا؛ أن عامة فرق الأمة متفقون عموما على إدخال أعمال القلوب في مسمى الإيمان[٣] مع اختلافهم في تفاصيلها.

وفيما يلي أذكر بعض الأدلة من القرآن والسنة وأقوال السلف التي تدل على أن أعمال القلوب من الإيمان.

۞ أولًا: الأدلة من القرآن:

قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ

= في الأمكنة كلها. هلك في زمان صغار التابعين سنة ١٢٨ هـ. وقد زرع شرا عظيما. انظر: السير (٦/ ٢٦)، والأعلام (٢/ ١٤١).

(١) هو أبو الحسن صالح بن عمرو الصالحي، جمع بين الإرجاء والقدر، وهو الذي أعلن الأشعري في بعض كتبه متابعته، انظر: مقالات الإسلاميين (١/ ١١٥)، والملل والنحل (١/ ١٠٤)، والفرق بين الفرق (ص/ ٢٠٧).

(٢) انظر: الإيمان الأوسط (ص/ ١٠٠).

(٣) المصدر نفسه (ص/ ٩٤).

مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، يقول الشيخ السعدي[(١)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ [النحل: ١٠٦] فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر راضيا به مطمئنا أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها»[(٢)].

قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: «هذه الآية أي: من بدايتها فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[(٣)].

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، يقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية: «والله تعالى يحبب إليكم الإيمان، ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإيثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب

---

(١) هو العلامة الورع الزاهد تذكرة السلف الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي الناصري التميمي الحنبلي. ولد في مدينة عنيزة بالقصيم سنة ١٣٠٧هـ. ألف مؤلفات كثيرة نافعة منها: التفسير المسمى تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، والحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين، وغيرها. توفي سنة ١٣٧٦هـ. انظر: مشاهير علماء نجد وغيرهم (ص/ ٢٩٢).

(٢) تفسير السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص/ ٤٥٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٧).

والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم، من توفيقه للإنابة إليه»[(١)].

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: «أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًّا، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى كما دل عليه الكتاب والسنة، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا، وإلا فإذا كان عالمًا بالحق، ولكن المصيبة أو الخوف أورثه جزعًا عظيمًا لم يكن صاحب يقين، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١]»[(٢)].

۞ ثانيًا: الأدلة من السنة:

قال النبي ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[(٣)].

وقال ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول «لا إله إلا الله»، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[(٤)].

وقال ﷺ: **«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله**

---

(١) تفسير السعدي (ص/ ٨٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٨١).

(٣) أخرج البخاري في صحيحه (ص١٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم في صحيحه (ص٦٥١) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال و ترك الشبهات.

(٤) سبق تخريجه.

ورسوله أحب إليه مما سواهما»[١].

وقال ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه**»[٢]

وقال النبي ﷺ: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»[٣].

ثالثًا: الأدلة من أقوال السلف.

قد مر معنا بعض أقوال أهل العلم التي يبين أن الأعمال داخلة في الإيمان، وأن الأعمال عندهم عند الإطلاق على قسمين: أعمال القلوب وأعمال الجوارح[٤]، وبعض منهم نصّ على بعض الأعمال القلبية تنصيصًا، ومن أحسن من بين دخولها في مسمى الإيمان وبين أهميتها وعظم شأنها هو شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، وهنا سأكتفي بذكر بعض أقوالهم، إذ يأتينا لاحقًا مبحث يبين العلاقة بين قول القلب وعمله.

يقول شيخ الإسلام في بداية «التحفة العراقية»: «هذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات أو الأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له وما يتبع ذلك»[٥].

ويقول: «الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد من شيئين: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب، ولا بد من عمل

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦) كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩) كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٣/٢٠)، والترمذي في جامعه (ص/٤٥٩)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في تعظيم المؤمن، وأبو داود في سننه (ص/٨٨٣)، كتاب الأدب، باب في الغيبة، وصححه الألباني في المشكاة (٥٠٤٤).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٠/٤٨٨)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص/ ٨٤) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٨).

(٤) الإيمان الأوسط (ص/٥٤).

(٥) التحفة العراقية (ص٢٨٩).

القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[١].

ويقول شيخ الإسلام جامعًا عبارات السلف في الإيمان: «ولا بد أن يدخل في قوله (اعتقاد بالقلب) أعمال القلوب المقارنة لتصديقه مثل حب الله، وخشية الله، والتوكل على الله، ونحو ذلك، فإن دخول أعمال القلوب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح باتفاق الطوائف كلها»[٢].

ويقول أيضًا: «فهؤلاء (المرجئة) غلطوا في أصلين: أحدهما: ظنهم أن الإيمان مجرد تصديق وعلم فقط ليس معه عمل وحال وحركة وإرادة ومحبة وخشية في القلب، وهذا من أعظم غلط المرجئة مطلقًا، فإن أعمال القلوب التي يسميها بعض الصوفية أحوالا ومقامات أو منازل السائرين إلى الله أو مقامات العارفين أوغير ذلك كل ما فيها مما فرضه الله ورسوله، فهو من الإيمان الواجب وفيها ما أحبه ولم يفرضه فهو من الإيمان المستحب... وذلك مثل حب الله ورسوله، بل أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بل أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إليه من أهله وماله، ومثل خشية الله وحده دون خشية المخلوقين، ورجاء الله وحده دون رجاء المخلوقين، والتوكل على الله وحده دون المخلوقين، والإنابة إليه مع خشيته»[٣].

ويقول: «فالإيمان في القلب لا يكون إيمانًا بمجرد تصديق ليس معه عمل القلب وموجبه من محبة لله ورسوله ونحو ذلك، كما لا يكون إيمانًا بمجرد ظن وهوى، بل لا بد في أصل الإيمان من قول القلب وعمل القلب»[٤].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٤٩).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٥).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٢).

(٤) المصدر نفسه (ص/ ٧٧).

ويقول: «وفي الجملة فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله، وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة لله ورسوله ليس إيمانًا بإتفاق المسلمين»[١].

وهكذا في مواضع كثيرة من كتبه يبين شيخ الإسلام أن للقلب قولا وعملًا وأنهما بمجموعهما يسميان إيمانًا، وأنه لا يكفي قول القلب بدون العمل، وأن حقيقة أعمال القلوب هي الانقياد والاستسلام.

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما هي (أعمال القلوب) الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وأن النية بمنزلة الروح والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فموات، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح، إذ هي أصلها وأحكام الجوارح متفرعة عليها»[٢].

ويقول: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح»[٣].

ويقال أيضًا: «فأهل السنة مجمِعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده»[٤].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٨٣-٨٤).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٠).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ١١٤٨).

(٤) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٧١).



المبحث الأول:

التعريف بالقلب وقوله وعمله

المطلب الأول
التعريف بالقلب

المسألة الأولى: تعريف القلب في اللغة.

قال ابن فارس: «قلب: القاف واللام والباء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على خالص شيء وشريفه، والآخر على رد شيء من جهة إلى جهة.

فالأول القلب: قلب الإنسان وغيره، سمي لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه، وخالص كل شيء أشرفه قلبه.

والأصل الآخر: قلبت الشيء قلبا، كببته»[(١)].

وقال الفيروزآبادي: «والقلب: الفؤاد، أو أخص منه، والعقل، ومحض كل شيء. وقَلَبَه يَقْلِبُه: حَوَّلَهُ عن وجهه»[(٢)].

وقال الجوهري[(٣)]: «القلب: الفؤاد، وقد يعبَّر به عن القلب...، وقَلَبْتُ الشيء فانقلبَ، أي انكبَّ»[(٤)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (ص/٨٢٨)، باختصار.

(٢) القاموس المحيط (ص/١٦٢-١٦٣) بتصرف يسير.

(٣) هو إمام اللغة، أبو نصر إسماعيل بن حماد التركي الأتراري، مصنف كتاب الصحاح، وأحد من يضرب به المثل في ضبط اللغة، كان يحب الأسفار والتغرب، دخل بلاد ربيعة ومضر في تطلب لسان العرب، ودار الشام والعراق، ثم عاد إلى خراسان، فأقام بنيسابور يدرس ويصنف، ويعلم الكتابة، وينسخ المصاحف، توفي سنة ٣٩٣ هـ، وقيل: في حدود سنة ٤٠٠هـ. انظر: السير (١٧/ ٨٠).

(٤) الصحاح في اللغة (١/ ٣٠٨).

وقال ابن منظور: «القلب: تحويل الشيء عن وجهه. والقلب: مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط»[(١)].

ويفهم من كلام أهل اللغة أن القلب يطلق على معنيين:

الأول: الفؤاد وهو قلب الإنسان وغيره.

الثاني: تحويل الشيء عن وجهه.

وقيل سمي القلب قلبًا لأمور:

- إما لتقلبه في الأمور،
- وإما أنه خالص شيء في الإنسان، وأشرفه،
- وإما أنه وضع مقلوبًا في الجسد[(٢)].

۞ المسألة الثانية: حقيقة القلب شرعًا.

ويطلق القلب في الاصطلاح على معنيين:

الأول: اللحم الصَّنَوْبَرِي الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر.

الثاني: لطيفة ربانية روحانية، لها تعلق بذلك القلب الجسماني.

قال أبو حامد الغزالي[(٣)]: «لفظ القلب يطلق لمعنيين:

أحدهما: اللحم الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو لحم مخصوص وفي باطنه تجويف، وفي ذلك التجويف دم

---

(١) لسان العرب (١٢/ ١٦٩).

(٢) ذكر هذه الأوجه ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٨).

(٣) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، الفقيه، الأصولي، فيلسوف، متصوف، له مؤلفات كثيرة في الفقه والأصول والجدل والتفسير، منها المستصفى، وإحياء علوم الدين. توفي سنة ٥٠٥ هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢).

أسود هو منبع الروح ومعدنه، ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض الأطباء، ولا يتعلق به الأغراض الدينية، وهذا القلب موجود للبهائم، وبل هو موجود للميت، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب ـ يعني كتابه إحياء علوم الدين ـ لم نعن به ذلك، فإنه قطعة لحم لا قدر له، وهو من عالم الملك والشهادة، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلا عن الآدميين.

الثاني: لطيفة ربانية روحانية، لها بذلك القلب الجسماني تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهوالمخاطب، والمعاقب، والمعاتب، والمطالب، ولها علاقة مع القلب الجسماني، وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجهة علاقته»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن التي جوفها علقة سوداء كما في الصحيحين عن النَبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد**»، وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا فإن قلب الشيء باطنه كقلب الحنطة واللّوزة والجوزة ونحو ذلك ومنه سمي القليب قليبا لأنَه أخرج قلبه وهو باطنه»[(٢)].

وقال أيضًا: «وكذلك القلب يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجسد مجردة، والبهيمة لها قلب بهذا المعنى، ويراد به هذه المضغة مقيدة بالروح»[(٣)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣).

(٣) الرد على الشاذلي (ص/ ١٢٤).

وقال ابن القيم: «ويطلق القلب على معنيين:

أحدهما: أمر حسي، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف، وفي التجويف دم أسود، وهو منبع الروح.

والثاني: أمر معنوي، وهو لطيفة رحمانية وروحانية، لها بهذا العضو تعلق واختصاص، وتلك الحقيقة هي حقيقة الإنسان»[(١)].

وتبين لنا مما سبق أن القلب يراد به أمران، الأول بأنه العضو الجسدي الصنوبري الشكل الموجود في صدر الإنسان، والثاني هو مرتبط بالجانب الروحي المعنوى، وبه يفقه الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، وهو كما يقال عبارة عن جهاز إدراكي معرفي بالغ التعقيد[(٢)]، وهذا هو مفهوم العقل، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويراد بالعقل؛ الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها»[(٣)]، لكن أين مقر هذا العقل من جسم الإنسان، أهو متعلق بالقلب أي العضو الجسدي المعروف أم متعلق بالدماغ هذا ما سنبينه في المسألة الآتية.

۞ المسألة الثالثة: علاقة القلب بالعقل.

اختلف أهل العلم في محل العقل على قولين:

القول الأول: أنه محله القلب، وهو قول كثير من العلماء، من المالكية والشافعية والحنابلة، وهو قول كثير من المفسرين ومن وافقهم من بعض الأطباء المتقدمين.

---

(١) التبيان في أيمان القرآن (ص/٦٢٦).

(٢) انظر: عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/ ١٩٠).

(٣) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/٢٠٩)، وانظر: الاستقامة (٢/ ١٦١-١٦٢).

ومن أدلتهم ما يلي:

١ - قول الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

ووجه الاستدلال أن الآية الكريمة صرحت بأن وظيفة القلب العقل، كما أن وظيفة الأذن السمع، وفهم من ذلك أن الرجل كما يسمع بالأذن كذلك يعقل بالقلب.

يقول القرطبي[(١)]: «﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ [الحج: ٤٦] أضاف العقل إلى القلب، لأنه محله، كما أن السمع محله الأذن»[(٢)].

٢ - قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ووجه الاستدلال أن الآية الكريمة أضافت منفعة كل عضو إليه، فجعلت منفعة الفقه مختصة بالقلب، ومنفعة البصر مختصة بالعين، ومنفعة السمع مختصة بالأذن، وذلك في سياق الذم لأهل الكفر الذين لم ينتفعوا بهذه الوسائل في إدراك ماينفعهم من الخير والهدى[(٣)].

٣ - قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: ٣٧].

---

(١) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، من أهل قرطبة، كان ورعا متعبدا. من كتبه: الجامع لأحكام القرآن، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكرة بأحوال الموتى وأهوال الآخرة. توفي سنة ٦٧١هـ. انظر: طبقات المفسرين للأدنروي (ص/٢٤٦)، الأعلام (٥/ ٣٢٢).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٤١٩).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٠).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [قٓ: ٣٧] أي: عقل يتدبر به، فكنى بالقلب عن العقل لأنه موضعه»[(١)].

٤ ـ أضاف القرآن الكريم الصفات المضادة للعلم إلى القلب، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧].

﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فهذه الآيات الكريمات تفيد أن الجهل محل القلب، مما يشير بدلالة المفهوم إلى أن موضع العقل والفهم هو القلب[(٢)].

٥ ـ حديث النعمان بن بشير[(٣)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(٤)].

استدل ابن حجر وغيره بهذا الحديث على أن العقل في القلب، باعتبار أن الرسول ﷺ جعل صلاح الجسد وفساده تابعًا للقلب[(٥)].

٦ ـ قول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما سئل: «بم نلت هذا العلم؟ قال؛ بلسان سؤول وقلب عقول»[(٦)].

---

(١) تفسير القرطبي (١٩/ ٤٥٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١/ ٢٨٦).

(٣) هو النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري الخزرجي، هو وأبوه صاحبيان، كان أول مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة، استعمله معاوية على الكوفة، وكان خطيبا مفوها، ثم دعا النعمان إلى ابن الزبير، ثم دعا إلى نفسه، فواقعه مروان بن الحكم فقتل النعمان سنة ٦٥ هـ، انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (ص/ ٧٢٣)، والإصابة في تمييز الصحابة (٦/ ٢٤٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢) كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ومسلم في صحيحه (ص/ ٦٥١) كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٥) انظر: فتح البارى (ص/ ١٢٨-١٢٩)، وشرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٨).

(٦) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣).

القول الثاني: هو مروي عن الإمام أحمد وهو المشهور في علم الطب الحديث، أن محله الدماغ، ومن أدلتهم ما يلي:

١. أن الدماغ إذا اختل أثر تأثيرا كبيرا في إحساس الإنسان وتصوراته.

٢. أن الحواس التي هي آلات الإدراك نافذة إلى الدماغ.

٣. أن الأعصاب التي هي آلات الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ.

٤. أن الرأس هو الذي يعالج عند اضطراب الفكر.

٥. أن العرب تقول فيمن يراد وصفه بكمال العقل؛ إنه وافر الدماغ، وفيمن يراد وصفه بقلة العقل وضعفه؛ إنه خفيف الرأس، خفيف الدماغ[١].

والمتأمل في القولين يرى أن القول الأول أقوى من حيث الاستدلال، غير أن كلا منهما قد أصاب في جانب، فلهذا نقول أن الجمع بين القولين ممكن، إذ القلب موضع العقل والقرار، وله اتصال بالدماغ، فالقلب هو محل العقل والتدبير ولا شك، ولكن الدماغ محل التصور، ثم إذا تصور الشيء وجهزه بعث به إلى القلب، فهو صاحب الحكم، فهو يأمر به أو ينهى عنه، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم ومن المعاصرين الشيخ ابن العثيمين وغيره.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله حين سئل عن مسكن العقل: «فالعقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل، وأما من البدن فهو متعلق بقلبه»، ثم قال: «لكن لفظ القلب قد يراد به المضغة الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١١/٢٨)، ورسالة في العقل والروح لشيخ الإسلام ضمن مجموع الفتاوى (٩/٣٠٣-٣٠٤)، والتبيان في أيمان القرآن (ص/٦١٢-٦١٣)، ومفتاح دار السعادة (١/٣٠٠)، وشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (١/٣٤١-٣٤٢)، وعبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/٣٠٦-٣١٢)، وأعمال القلوب حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة وعند المخالفين (١/٩٥-٩٨).

البدن التي جوفها علقة سوداء... وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقا... فإذا أريد بالقلب هذا (باطن الإنسان) فالعقل متعلق بدماغه أيضا، ولهذا قيل؛ إن العقل في الدماغ، كما يقوله كثير من الأطباء ونقل ذلك عن الإمام أحمد، ويقول طائفة من أصحابه: إن أصل العقل في القلب فإذا كمل انتهى إلى الدماغ.

والتحقيق أن الروح التي هي نفس الإنسان له تعلق بهذا وهذا، وما يتصف من العقل به يتعلق بهذا وهذا، لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ومبدأ الإرادة في القلب.

والعقل يراد به العلم ويراد به العمل، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة وأصل الإرادة في القلب، والمريد لا يكون مريدًا إلا بعد تصور المراد فلا بد أن يكون القلب متصورا فيكون منه هذا وهذا، ويبتدئ ذلك من الدماغ وآثاره صاعدة إلى الدماغ، فمنه المبتدأ وإليه الانتهاء، وكلا القولين له وجه صحيح»[(١)].

ويقول أيضًا: «فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، و إنما سائر الأعضاء حجة له توصله إليه من الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، حتى إن من فقد شيئًا من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه»[(٢)].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتحقيق أن أصله ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ»[(٣)]، وقال في موضع آخر: «فالصواب أن مبدأه ومنشأه من القلب، وفروعه وثمرته في الرأس»[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣-٣٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٠).

(٣) التبيان في أيمان القرآن (ص/ ٦١٢).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٠٠).

ويقول الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالقلب هي محل العقل والتدبير للشخص، ولكن لا شك أن لها اتصالا بالدماغ، ولهذا إذا اختل الدماغ فسد التفكير وفسد العقل! فهذا مرتبط بهذا! لكن العقل المدبر في القلب»[(١)].

۞ المسألة الرابعة: ذكر القلب في القرآن والسنة.

إن الناظر في الكتاب والسنة يجد فيهما الاهتمام الكبير والعناية الفائقة بهذا القلب، ذكرا له ووصفا، علاجا له وإصلاحا، ومنهجا في التعامل معه، ومما يدل على ذلك هو ورود ذكر لفظة القلب في القرآن أكثر من مائة وثلاثين آية، ووردت في السنة أكثر من مائتي موضع في الكتب الستة ومسند الإمام أحمد، علمًا أن القلب قد يعبر عنه بألفاظ أخرى كالفؤاد والصدر والرُّوع[(٢)].

وفيما يلي أذكر بعض الآيات والأحاديث التي تشتمل على ذكر القلب.

أولًا: من القرآن:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢].

وقال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النُّور: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرّعد: ٢٨].

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٣٤٢).

(٢) هذه المعلومة استفدتها من كتاب: «أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها عند أهل السنة والجماعة ومخالفيهم» (١/ ١٠٣).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحَدِيد: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشَّرح: ١]، أي: قلبك[1].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسرَاء: ٣٦]، الفؤاد بمعنى القلب[2].

ثانيًا: من السنة:

قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد**»[3].

وعن أم المؤمنين أم سلمة[4] رضي الله عنها قالت: كان أكثر دعاء النبي ﷺ؛ «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، قالت، فقلت: يا رسول اللّٰه ما أكثر دعاءك «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»؟، قال: «**يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ**»[5].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٢/ ٣٥٤).

(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٨٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) هي أم المؤمنين هند بنت سهيل المعروف «بأبي أمية» القرشية، المخزومية رضي الله عنه، تزوجها النبي ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة، وكانت من أكمل النساء عقلا وخلقا، توفيت بالمدينة سنة ٦٢ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (١٠/ ٨٥)، والإصابة (٨/ ٢٤٠).

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٤/ ١٣٨)، الترمذي في سننه (ص/ ٧٩٩)، في كتاب الدعوات، الباب (٩٠)، وقال أبو عيسى: وهذا حديث حسن، وصححه الألباني في ظلال الجنة (ص/ ١١٥).

وعن أسامة بن زيد[(١)] ﷺ أنه دفع لرسول الله ﷺ صبيًّا ونفسه تتقعقع، وبكى النبي ﷺ وفاضت عيناه، فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: **«هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»**[(٢)].

وقال النبي ﷺ: **«ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن: إخلاص العمل، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من ورائه»**[(٣)].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «و(يَغِلُّ) بالفتح هو المشهور، ويقال: غلّى صدره فغلّ، إذا كان ذا غِش وضَغَن وحِقد، أي قلب المسلم لا يغل على هذه الخصال الثلاثة وهي الثلاثة المتقدمة في قوله: **«إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»**، فإن الله إذا كان يرضاها لنا، لم يكن قلب المؤمن الذي يحب ما يحبه الله يغل عليها ويبغضها ويكرهها فيكون في قلبه عليها غل، بل يحبها قلب المؤمن ويرضاها»[(٤)].

وقال النبي ﷺ: **«إن روح القدس نفث في رُوعي»**[(٥)]. أي: قلبي، قال

---

(١) هو أسامة بن زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الحب بن الحب، ولد في الإسلام، صحابي جليل، أمره النبي على جيش عظيم، فتوفي النبي ﷺ قبل أن يتوجه، فأنفذه أبو بكر رضي الله عنه، توفي سنة ٥٤ هـ، انظر: الإصابة (١/ ٢٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٢٠٥) :كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ «يعذب الميت ببعض بكاء أهل بيته» إذا كان النوح من سنته، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٥٨)، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٧١٢)، كتاب الأقضية، باب: النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، والنهي عن منع وهات.

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية(١٠/ ٢٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٠٦)، والطبراني في معجم الكبير (٨/ ١٩٤)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة (٢٨٦٦).

فيروزآبادي: «والرُوع، بالضم: القلب، أو موضع الفزع منه، أو سواده، والذهن، والعقل»[١]

وقال الجوهري: «الرَوع، بالفتح: الفزع. و الرُوع، بالضم: القلب والعقل، يقال وقع ذلك في رُوعي، أي في خَلَدي وبالي»[٢].

---

(١) القاموس المحيط (ص/ ٩٣٥).

(٢) الصحاح (٣/ ٤٩٢).

المطلب الثاني

التعريف بقول القلب وعمله، وبيان أركانهما

۞ المسألة الأولى: التعريف بقول القلب وعمله.

لو نظرنا إلى كلام السلف رحمهم الله نجد أنهم يذكرون أن للقلب قولا وعملًا يتعلق أداؤهما به دون اللسان وسائر الجوارح، لكنهم لم يعرفوا قول القلب وعمله تعريفًا اصطلاحيًّا يتبين به الفرق بين قول القلب وعمله، وإنما يمثلون لقول القلب بالتصديق أو الاعتقاد أو الإقرار، ولعمل القلب بالإخلاص والحب والبغض ونحوها، ولعل هذا لأنه يصعب على الرجل أن يضبط هذه الأمور بحد، إذ ما يعرف حقيقتها إلا من وجدها وتحلى قلبه بها.

يقول الإمام ابن منده رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال أهل الجماعة: الإيمان هو الطاعات كلها بالقلب واللسان وسائر الجوارح غير أن له أصلًا وفرعًا.

فأصله المعرفة بالله والتصديق له وبه وبما جاء من عنده بالقلب واللسان، والخضوع له والحب له، و الخوف منه والتعظيم له، مع ترك التكبر والاستنكاف والمعاندة»[1].

ويقول في موضع آخر: «فمن أفعال القلوب: النيات والإرادات، والعلم والمعرفة بالله وبما أمر به، والاعتراف له والتصديق به و بما جاء به، والخضوع له ولأمره، والإجلال والرغبة إليه، والرهبة منه، والخوف

(١) الإيمان (١/ ٣٣١).

والرجاء والحب له ولما جاء من عنده، والحب والبغض فيه، والتوكل والصبر والرضا، والرحمة والحياء، والنصيحة لله ولرسوله ولكتابه، وإخلاص الأعمال كلها مع سائر أعمال القلوب»[١].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ثم الناس في هذا على أقسام. . . .، وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه، والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال، فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان»[٢].

ويقول: «الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد من شيءن: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب. ولا بد من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[٣].

ويقول: «وأصل الإيمان: قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب الذي هو المحبة على سبيل الخضوع»[٤].

ويقول: «بل قول القلب وعمله هو الأصل: مثل تصديقه وتكذيبه وحبه وبغضه»[٥].

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٤٩).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٠).

(٥) المصدر نفسه (٥/ ٥٩٠).

ويقول: «فالإيمان بالله ورسوله قول وعمل - أعني بالعمل ما ينبعث عن القول والاعتقاد من التعظيم والإجلال»[١].

وعرف ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ قول القلب تارة بالاعتقاد وتارة بالمعرفة وبالعلم، ففي تعريفه الأول يقول: «القول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد»[٢].

ويقول: «أقوال القلب وهي العقائد»[٣].

وعن تعريفه الثاني: «قول القلب: وهو المعرفة والعلم»[٤].

وقد عرف عمل القلب ببعض أفراده، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «عمل القلب وهو نيته وإخلاصه»، ويقول أيضًا: «عمل القلب، وهو محبته وانقياده»[٥]، ويقول أيضًا: «عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته»[٦].

ومن المتأخرين من نهج نفس المنهج في التفرقة بين قول القلب وعمله هو الحافظ الحكمي[٧] رَحِمَهُ اللَّهُ يبين الفرق بينهما فيقول:

«قول القلب: هو تصديقه وإيقانه» ثم ذكر بعض الآيات التي تشتمل على قول القلب.

---

(١) الصارم المسلول (٣/ ٨٦٥).

(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٧٠).

(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٤٢).

(٤) عدة الصابرين (ص/ ٢٠٦).

(٥) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٧١).

(٦) مفتاح دار السعادة (ص/ ٩٤).

(٧) هو حافظ بن محمد بن علي الحكمي، أحد علماء المملكة العربية السعودية السلفين، ولد سنة ١٣٤٢ هـ في منطقة تهامة بجنوب المملكة، له مصنفات كثيرة، منها: سلم الوصول، وأعلام السنة المنشورة، ودليل أرباب الفلاح في الاصطلاح وغيرها، توفي سنة ١٣٧٧ هـ، انظر: معارج القبول شرح سلم الوصول (المقدمة ١/ ١١).

«وعمل القلب: هو النية والإخلاص والمحبة والانقياد والإقبال على الله ﷻ والتوكل عليه ولوازم ذلك وتوابعه» ثم ذكر بعض الآيات المشتملة على بعض الأعمال القلبية[١].

وأوّل من وقفت عليه، ممن نستطيع أن نقول أنه عرف قول القلب وعمله هو الشيخ العلامة السعدي رحمه الله حيث قال: «والفرق بين قول القلب وبين أعماله، أن أقواله: هي العقائد التي يعترف بها القلوب ويعتقدها، وأما أعمال القلوب: فهي حركته التي يحبها الله ورسوله ﷺ، وضابطها محبة الخير وإرادته الجازمة، وكراهية الشر والعزم على تركه، وهذه هي الأعمال القلبية تنشأ عنها أعمال الجوارح»[٢].

ثم تابعه على ذلك الشيخ ابن العثيمين، فقال رحمه الله: «وأما قول القلب: فهو اعترافه وتصديقه.

وأما عمله: فهو عبارة عن تحركه وإرادته، مثل الإخلاص في العمل، فهذا عمل قلب، وكذلك التوكل والرجاء والخوف، فالعمل ليس مجرد الطمأنينة في القلب، بل هناك حركة في القلب»[٣].

۞ المسألة الثانية: أركان قول القلب وعمله.

يقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن النفس لها قوتان: قوة العلم والتصديق، وقوة الإرادة والعمل، وليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق دون ألا يحبه ويريده ويتبعه، كما أنه ليس سعادته في أن يكون عالما بالله مقرا بما يستحقه دون أن يكون محبًّا لله عابدًا لله مطيعا لله، بل لا بد أن يجمع بين الأمرين[٤].

---

(١) معارج القبول (٢/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٢) انظر: التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة (ص/ ٩١).

(٣) شرح العقيدة الواسطية (ص/ ٥٧٣).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٥).

فالقوة الأولى هي التي يعبر عنها بقول القلب، والقوة الثانية هي التي يعبر عنها بعمل القلب وما يتبع ذلك من أعمال الجوارح، لأن قول القلب يتمثل في علمه واعتقاده وتصديقه وهو الأصل، وأما عمل القلب وفعله، فهو ثمرة لذلك التصديق من المعاني القلبية التي تصل العبد بالله ﷻ، كالمحبة، والخوف، والرجا، والخشية، والمراقبة، والإنابة، والتوكل، والإخلاص، والتعظيم، وغير ذلك من أعمال القلوب.

فإذا تبين هذا فلنعرف أن قول القلب المتمثل في علمه واعتقاده وتصديقه له شعب وأنواع كثيرة على التفصيل[(١)]، ولكن أركانه وأصوله مقررة في حديث جبريل المشهور، والذي يتضمن سؤاله عليه السلام النبي ﷺ عن الإيمان، فقال ﷺ: **«أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»**[(٢)].

وهذا الجواب منه عليه الصلاة والسلام يثبت للإيمان ستة أركان، تضمنها القرآن الكريم في أكثر من آية كريمة.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البَقَرَة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البَقَرَة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النِّسَاء: ١٣٦].

---

(١) انظر: ترجمان شعب الإيمان للبلقيني (ص/٦٢-٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفُرقان: ٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القَمَر: ٤٩].

وفيما يلي إشارة إلى المراد بكل ركن منها:

١ ـ **الإيمان بالله** ﷻ هو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه الذي يستحق وحده أن يفرد بالعبادة، وأنه المتصف بصفات الكمال كلها، المنزه عن كل نقص وعيب.

٢ ـ **الإيمان بالملائكة** هو التصديق الجازم بأن الملائكة موجودة، مخلوقة من النور، وأنها عباد الله مطيعة لأمره، قائمة بوظائفهم التي كلفهم الله ﷷ بها، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

٣ ـ **الإيمان بالكتب** هو التصديق الجازم بكتبه المنزلة على رسله عليهم السلام، وأنها من كلامه تبارك وتعالى، متضمنة للحق والهدى في شرعه ودينه جل شأنه.

٤ ـ **الإيمان بالرسل والأنبياء** هو الاعتقاد الجازم بهم دون تفريق بينهم، وبأنهم صادقون فيما أخبروا به عن ربهم سبحانه، وأنه لا يعلم عددهم وأسماءهم إلا الله، وعلينا الإيمان بهم جميعًا.

٥ ـ **الإيمان باليوم الآخر** هو الاعتقاد الجازم بكل ما أخبر الله به في كتابه، وأخبر به رسوله ﷺ في سنته مما يكون بعد الموت، من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، والبعث، والحشر، والحساب، والجنة والنار، وما أعد الله تعالى لأهلهما جميعًا.

٦ ـ **الإيمان بالقدر** هو التصديق الجازم بأن جميع الكائنات بقضائه وقدره، وكل خير وشر يحدث بإرادته وعلمه، ولا يكون شيء إلا بإذنه ومشيءته تبارك وتعالى.

هذه الأصول الستة يجب على العبد الإيمان بها على سبيل الإجمال،

ثم على سبيل التفصيل فيما يصل إليه علمه من الكتاب العزيز وصحيح السنة الشريفة(١).

وأما أعمال القلوب فإن دعائمها وأركانها تتمثل في ثلاث عبادات قلبية: المحبة والخوف والرجاء.

وبيان ذلك أن العبادة التي خلقنا الله لأجلها تعني غاية الحب مع غاية الذل، والتذلل لله جل وعلا يتضمن خوفه ورجاءه، فإذا قارن ذلك ولازمه محبة الله تبارك وتعالى أثمر تحقيقًا للأسس والقواعد الرئيسة التي تحرك القلوب في عبوديتها لله تبارك وتعالى، إذ هو جل شأنه الإله الذي تتألهه القلوب محبة ورجاء وخوفًا(٢).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه»(٣).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»، ثم قال: «فالمحبة هي المركب والرجاء حاد والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه»(٤) ولعلنا نكتفي بهذا القدر، إذ يأتينا لاحقا دراسة مفردة لهذه الأعمال في الفصل الأول من الباب الثاني.

---

(١) انظر: عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/ ٣٠١-٣٠٣)، والإيمان، أركانه وحقيقته ونواقضه (ص/ ١٥، ص/ ٤٧، ص/ ٧١، ص/ ٩٧، ص/ ١١١، ص/ ١٧٧).

(٢) عبودية القلب لرب العالمين في القرآن الكريم (١/ ٣٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢١).

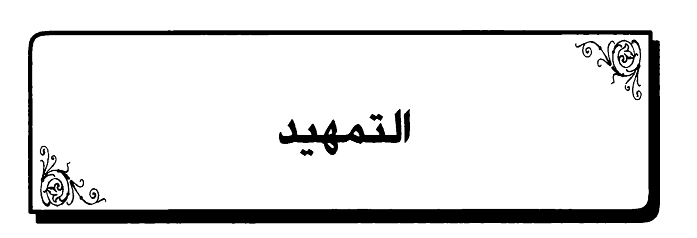
(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٨٥).

الخلاصة:

عرفنا مما سبق أن القلب في اللغة يطلق على معنيين، أحدهما: الفؤاد وهو قلب الإنسان وغيره، والثاني: تحويل الشيء عن وجهه .ثم عرفنا معنى القلب في الاصطلاح وأنه يراد به أمران، الأول بأنه العضو الجسدي الصنوبري الشكل الموجود في صدر الإنسان، والثاني هو مرتبط بالجانب الروحي المعنوى، وبه يفقه الإنسان ويعرف حقيقة الأشياء، ثم وضحنا علاقة العقل بالقلب وبينا أن أصل العقل ومادته من القلب وينتهي إلى الدماغ، ثم ذكرنا بعض الآيات والأحاديث التي ذكر فيه القلب مما تبين أهمية القلب وما يقوم به من أحوال وأعمال، ثم انتقلنا إلى تعريف قول القلب وعمله، وبينا أنه لا يوجد تعريف اصطلاحي يحدد مراد كل منهما إلا أنه يستأنس بأقوال أهل العلم في التفرقة بين قول القلب الذي هو التصديق والإقرار، وعمل القلب مثل المحبة والخوف والرجاء والإخلاص وغير ذلك من أعمال القلوب، ثم ختمنا هذا المبحث ببيان أركان قول القلب والتي هي مستفادة من حديث جبريل المشهور، وببيان أركان أعمال القلوب أيضا وهي ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء.



المبحث الثاني:
أنواع أعمال القلوب



التمهيد

إن لأعمال القلوب أهمية عظمى ومنزلة كبرى في الدين، والمتأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يجد من ذكرها وذكر أحكامها الشيء الكثير، فمنها ما يحب ويحمد، ومنها ما يكره و يذم، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقد مدح تعالى وذم في كتابه في غير موضع على المحبة والإرادة والبغض والسخط والفرح والغم، ونحو ذلك من أفعال القلوب»، ثم ذكر شواهد على ذلك، ثم قال: «ومثل هذا كثير في كتاب الله وسنة رسوله واتفاق المؤمنين، يحمد ويذم على ما شاء الله من مساعي القلوب وأعمالها..، فأقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام:

أحدها: ما هو حسنة وسيئة بنفسها(١).

وثانيتها: ما ليس سيئة بنفسه حتى يفعل.

وثالثها: ما هو مع العجز كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة كالحسنة والسيئة المفعولة»(٢).

ويقول أيضًا: «الرضا الموجود في بني آدم: منه ما يحبه الله، ومنه ما يكرهه ويسخطه، ومنه ما هو مباح لا من هذا ولا من هذا كسائر أعمال

---

(١) وهذا هو الذي يهمنا في هذا المبحث، أقسام أعمال القلوب المجردة من غير اقتران إلى أعمال الجوارح.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٩) بتصرف يسير.

القلوب من الحب والبغض وغير ذلك، كلها تنقسم إلى محبوب لله، ومكروه لله، ومباح»[(١)].

يفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن أعمال القلوب تجري عليها الأحكام التكليفية الخمسة، إذ المحبوب لله لا يخرج عن كونه واجبًا أو مستحبًّا، والمكروه لا يخرج عن كونه محرمًا أو مكروهًا، وما عدا ذلك فمباح، والأحكام التكليفية الخمسة هي:

الأول: الواجب؛ وهو ما أمر الله به على وجه الإلزام، وهو الذي يثاب فاعله امتثالًا ويستحق العقاب تاركه، ويسمى فرضًا، وفريضة، وحتمًا، ولازمًا.

الثاني: المستحب؛ وهو ما أمر الله به لا على وجه الإلزام، وهو الذي يثاب فاعله امتثالا، ولا يعاقب تاركه، ويسمى سنة، ومسنونًا، ومستحبًّا، ونفلا.

الثالث: المباح؛ وهو ما لا يتعلق به أمر ولا نهي لذاته، ولا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، ويسمى حلالًا، وجائزًا.

الرابع: المكروه؛ وهو ما نهى عنه الشارع لا على وجه الإلزام بالترك، وهو الذي يثاب تاركه امتثالًا ولا يعاقب فاعله.

الخامس: المحرم؛ وهو ما نهى الله عنه على وجه الإلزام بالترك، وهو الذي يثاب تاركه امتثالًا ويستحق العقاب فاعله، ويسمى محظورًا، وممنوعًا[(٢)].

ويقول ابن القيم رحمه الله في بيان انقسام أعمال القلوب إلى خمسة أقسام

---

(١) الاستقامة (٢/ ١٢٣).

(٢) انظر: روضة الناظر (ص/ ٢٦، ص/ ٣٦، ص/ ٣٨، ص/ ٤١).

حسب الأحكام التكليفية: «ورحَى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة، من كمّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب واللسان والجوارح، وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهي لكل واحد من القلب واللسان والجوارح»[١].

(١) مدارج السالكين (١/ ٨٤).

المطلب الأول
أعمال القلوب الواجبة والمستحبة

أعمال القلوب الواجبة والمستحبة كثيرة جدًّا، منها المتفق على وجوبه أو استحبابه، ومنها المختلف في وجوبه أو استحبابه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في بداية التحفة العراقية: «هذه كلمات مختصرة في أعمال القلوب التي تسمى المقامات أو الأحوال، وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين مثل: محبة الله ورسوله، والتوكل على الله، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك»، ثم قال: «هذه الأعمال جميعها واجبة على جميع الخلق المأمورين باتفاق أئمة الدين»[(١)].

وقال: «وعمل القلب من التوكل، والخوف، والرجاء وما يتبع ذلك، والصبر واجب بالاتفاق»[(٢)].

وقال: «وهذه الأعمال الباطنة كمحبة الله، والإخلاص له، والتوكل عليه، والرضا عنه ونحو ذلك، كلها مأمور بها في حق الخاصة والعامة، ولا يكون تركها محمودًا في حال أحد، وإن ارتقى مقامه»[(٣)].

ويقول في بيان أن بعض أعمال القلوب مختلف في حكمه: «وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب أحمد وغيرهم في الرضا

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٢٨٩-٢٩٠).
(٢) الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٥٩).
(٣) التحفة العراقية (ص/ ٣١١).

بالقضاء، هل هو واجب أو مستحب»[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه، فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، الإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق، والنية في العبادة... وكذلك الصدق... واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وأما المختلف فيها فمثل الرضا»[٢].

وقبل أن أنتقل إلى ذكر الأمثلة على ذلك أشير إلى مسألة، وهي: أن العمل القلبي الواحد قد يكون واجبًا حينًا مستحبًّا حينًا، فكل واحد من الأعمال القلبية له طرفان؛ واجب مستحق وكمال مستحب، بل إن العمل القلبي الواحد (الواجب أو المستحب) قد ينقلب فيكون محرمًا أو مكروهًا، والعكس بالعكس قد يكون العمل القلبي الواحد (منهي عنه) فينقلب فيكون واجبًا أو مستحبًّا، فمثال الأول الإخلاص، ومثال الثاني الحسد.

فالإخلاص في أصل الدين واجب، وقد يكون مستحبًّا إذا قصد العبد التعبد في الأعمال العادية لا التعبدية، وقد يفقد المرء الإخلاص في عبادة فيكون محرمًا بل شركًا يسمى شرك النية والإرادة والقصد، وشرك الرياء.

أما الحسد في الأصل محرم وهو تمني زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها، فإذا لم يتمن زوال نعمة المحسود، بل يحب أن يكون له مثلها من النعمة أو أفضل منها يكون حسدًا محمودًا، وهو الذي يسمى الغبطة.

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٥٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٨٤).

والآن إليكم بعض الأمثلة على الأعمال القلبية الواجبة والمستحبة.

○ **الإخلاص**[١]: وهو أحد أهم الأعمال القلبية الذي هو حقيقة الإسلام وهو جوهر العبادة، وهو الفيصل بين التوحيد والشرك، وهو شرط لشهادة أن لا إله إلا الله، وشرط في قبول الأعمال، وقد أمر الله به في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة: ٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُۚ﴾ [الزُّمَر].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به جهه**»[٢].

والإخلاص يكون واجبًا إذا كان في أصل الدين، إذ لا بد منه في أصل الشهادة، وإلا كان قائلها مشركًا أو منافقًا، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الشهادة بأن لا إله إلا الله تتضمن إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره، لا بحب ولا خوف ولا رجاء، ولا إجلال ولا إكرام، ولا رغبة ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله كان ذلك من الشرك بحسب ذلك»[٣].

وكذلك يكون واجبًا في الأعمال التعبدية التي يقصد بها التعبد لله عز وجل،

---

(١) التعريف بهذا العمل وغيره من الأعمال الوارد ذكرها في هذا المبحث، يأتي تعريفها في مباحثها في الفصل الأول من الباب الثاني من هذه الرسالة.

(٢) أخرجه النسائي في سننه (ص/ ٤٨٤)، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وحسنه الألباني السلسلة الصحيحة (٥٢).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٤).

مثل الصلاة والزكاة والصوم والحج والدعاء والذكر وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال التعبدية، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعبادات التي شرعها الله كلها تتضمن إخلاص الدين كله لله، تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيّنة]، فالصلاة لله وحده، والصدقة لله وحده، والصيام لله وحده، والحج لله وحده، وإلى بيت الله وحده»[1]، ويقول أيضًا: «وأصناف العبادات، الصلاة بأجزائها مجتمعة، وكذلك أجزاؤها التي هي عبادة بنفسها من السجود، والركوع، والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والقيام، لا يصلح إلا لله وحده»[2].

وأما الأعمال الاعتيادية لا التعبدية، كالأكل والشرب والنوم ونحو ذلك، فإنه لا يجب فيها الإخلاص، ولكنه يستحب كي ينال فيها الأجر والثواب، يقول شيخ الإسلام: «والمباح بالنية الحسنة يكون خيرًا، وبالنية السيئة يكون شرًّا، ولا يكون فعل اختياري إلا بإرادة...، فإذا فعل شيئًا من المباحات، فلا بد له من غاية ينتهي إليها قصده، وكل مقصود إما أن يقصده لنفسه، وإما أن يقصده لغيره، فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له، وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئًا سواه، وهو أحب إليه من كل ما سواه، فإن إرادته تنتهي إلى إرادة وجه الله، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة»[3].

○ **المحبة:** أي؛ محبة الله ورسوله هي من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، وهي مقصودة تراد لذاتها لأنها تراد في الدنيا والآخرة، وقد جاء ذكر المحبة في القرآن والسنة.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٤٤٩).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ٣٨-٣٩).

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يوقد له نار فيقذف فيها**»(١).

وقال النبي ﷺ: «**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»(٢).

يقول شيخ الإسلام رحمه الله مبينًا درجات المحبة: «ومحبة الله ورسوله ﷺ على درجتين:

واجبة؛ وهي درجة المقتصدين.

ومستحبة؛ وهي درجة السابقين.

فالأولى تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، بحيث لا يحب شيئًا يبغضه كما، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وذلك يقتضي محبة جميع ما أوجبه الله تعالى وبغض ما حرمه الله تعالى، وذلك واجب، فإن إرادة الواجبات إرادة تامة تقتضي وجود ما أوجبه، كما تقتضي عدم الأشياء التي

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (ص/٦) كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ص/٨٤٥)، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، والترمذي في سننه (ص/٥٦٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٨٥).

نهى الله عنها، وذلك مستلزم لبغضها التام، فيجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله، ويبغض ما أبغضه الله.

وأما محبة السابقين بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قربهم الله إليه»[١].

○ **الخوف**: وهو من أجل العبادات القلبية، وأعلاها وأشرفها، وهو أحد أركان العبادة، وأحد محركات القلوب الثلاثة، وقد جاءت النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في الحث عليه، ومدح أهله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النّازعَات].

وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسرَاء].

وذكر النبي ﷺ مِن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين**»[٢].

والقدر الواجب من الخوف هو الذي يدفع الإنسان لفعل الواجبات وترك المحرمات، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والخوف المحمود الصادق: ما حجزك عن محارم الله»[٣].

---

(١) قاعدة في المحبة (ص/١٦٤-١٦٥)، باختصار.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه (ص/١٠٧)، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المسجد، ومسلم في صحيحه (ص/٣٩٧)، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة.

(٣) نقل عنه ذلك تلميذه ابن القيم في مدارج السالكين (١/ ٣٨٣).

أما الخوف المستحب فهو الذي يحمل الإنسان على فعل المستحبات وترك المكروهات.

قال ابن رجب الحنبلي[١] رحمه الله: «والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسط في فضول المباحات كان ذلك فضلًا محمودًا»[٢].

○ **الصبر:** هو من أوجب الأعمال القلبية، بل هو نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر[٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر سبحانه الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا»[٤]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة].

قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على

---

(١) هو الإمام الحافظ المحدث الفقيه الواعظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، ولد في بغداد سنة ٧٣٦هـ ونشأ وتوفي في دمشق سنة ٧٩٥هـ، من كتبه: جامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لم يتمه، وذيل طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، وغيرها. انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي (ص/ ٥٤٠)، والأعلام (٣/ ٢٩٥).

(٢) التخويف من النار (ص/ ٢٨).

(٣) انظر: قاعدة في الصبر والشكر (٨٩-٩٠) لشيخ الإسلام ابن تيمية، مطبوعة في مجلة الجامعة الإسلامية، العدد (١١٦)، والأثر: «إن الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر» ومن قول عبد الله من مسعود رضي الله عنه موقوفًا، أخرجه والبيهقي في الشعب (١٢/ ١٩٤) والطبراني في المعجم الكبير (٩/ ١٠٤).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

صبي لها، فقال لها: «**اتقي الله واصبري**». فقالت: وما تبالي بمصيبتي. فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ. فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوّابين، فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك. فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١).

وينقسم الصبر باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله تبارك وتعالى.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله عز وجل.

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى.

فالصبر على أداء الواجبات، والصبر على المحرمات، والصبر على المصائب، فهذه الأقسام الثلاثة الصبر فيها واجب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا كان الصبر واجبًا باتفاق المسلمين على أدء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه»(٢).

وأما الصبر على أداء المستحبات، والصبر على ترك المكروهات فهو صبر مستحب.

○ **الرضا**: من أجل أعمال القلوب وأشرفها، وقد أجمع العلماء على مشروعيته، واختلفوا في وجوبه واستحبابه في مواضع، وقد جاء في القرآن والسنة مدح الراضين والثواب المرتب على من اتصف بهذا الخلق العظيم، قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البيّنة: ٨].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٥)، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٩)، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٥٣-٣٥٤).

وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»(١).

فالقدر الواجب من الرضا هو الرضا بأمر الله الشرعي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان كما قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًا**»، وهو من توابع المحبة»(٢).

وأما الرضا بما يفعله الله بعبده من المصائب كالمرض والفقر والزلازل فمختلف فيه، حكى الخلاف شيخ الإسلام ورجح استحبابه، قال رحمه الله: «وأما الرضا فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضا، هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين، فعلى الأول يكون من أعمال المقتصدين، وعلى الثاني يكون من أعمال المقربين»، ثم رجح استحبابه فقال: «ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك»(٣).

وقال أيضًا: «وينبغي للإنسان أن يرضى بما يقدره الله عليه من المصائب التي ليست ذنوبا مثل أن يبتليه بفقر أو مرض أو ذل أو أذى الخلْق له، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، لكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهم، أصحهما أنه مستحب ليس بواجب»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٤٨)، كتاب الإيمان، باب الدليل على من رضي بالله ربا.
(٢) التحفة العراقية (ص/٣٥٧).
(٣) التحفة العراقية (ص/٣٥٦-٣٥٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/١٩١).

○ **الزهد**: فالزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة من أعمال المقتصدين والمقربين، وقد جاء الحث عليه في القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرّعد].

وقال النبي ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه هذه في اليم، فلينظر بما ترجع**»[١]، وقال ﷺ: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**»[٢].

فالزهد الواجب هو ترك ما يمنع الرجل من أداء الواجب والقيام به، وأما الزهد المستحب هو ترك ما يشغل الرجل من فعل المستحب، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

«فثبت أن الزهد الواجب هو ترك ما يمنع عن الواجب من إرادة الله والدار الآخرة، فالزهد المستحب هو ما يشغل عن المستحب من أعمال المقربين والصديقين»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٤٦)، في كتاب الجنة، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٢٤)، في كتاب الزهد، باب ماجاء في هوان الدنيا على الله ﷻ، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٨٤)، في كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، وصحح الألباني في السلسلة الصحيحة (٩٤٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٤٧).

المطلب الثاني

أعمال القلوب المباحة

تقدم في المطلب الأول ذكر وبيان بعض الأمثلة لأعمال القلوب المشروعة الواجبة والمستحبة، والآن نذكر بعض الأعمال المباحة، ولكن قبل الشروع في ذكرها نشير إلى أمر، وهو؛ أن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة يجد الدلالة الواضحة على وجود أعمال قلبية مباحة، وقد نص على ذلك شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله(١).

ومن أمثلة الأعمال القلوب المباحة ما يلي:

أولًا: المحبة، وهي المحبة التي يسميها البعض المحبة المشتركة وهي ثلاثة أنواع:

١ ـ **محبة طبيعية**، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبة النوم، والزوجة، والولد.

٢ ـ **محبة رحمة وإشفاق**، كمحبة الوالد لولده الطفل.

٣ ـ **محبة أنس وألف**، وهي محبة المشتركين ـ في صناعة أو علم أو تجارة أو سفر ـ لبعضهم بعضا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضًا.

فهذه الأنواع الثلاثة التي تصلح للخلق، بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركًا في محبة الله، ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان يحب نساءه، وعائشة رضي الله عنها أحبهن إليه، وكان يحب

(١) انظر: الاستقامة (٢/ ١٢٣)، ومدارج السالكين (١/ ٨٤).

أصحابه، وأحبهم إليه الصديق رضي الله عنه[١].

كل هذه الأنواع من المحبة ليست شركًا إذ هي لم تتضمن مع المحبة معنى التعظيم، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام في معرض بيانه لمعنى العبادة إذ قال: «ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن له عابدًا، كما قد يحب ولده وصديقه»[٢].

ثانيًا: الخوف، وهو الخوف الطبيعي وهو الخوف فيما أسبابه ظاهرة، كخوف الإنسان من عدو أو سباع أو حية وما أشبه ذلك، قال الشيخ السعدي رحمه الله: «إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم»[٣]، كما ذكر الله عن موسى عليه السلام في قوله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القَصَص: ٢١].

ثالثًا: الرضا، وهو الرضا بقضاء الله الكوني الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة، أمر لازم بمقتضى الطبيعة ولا ينكره أحد، لأنه ملائم للعبد، محبوب له[٤]، وهو رضا مباح ليس بمستحب ولا واجب لأنه لم يقع على وجه تعبد، بل كما أسلفنا كان موافقًا لهواه وطبعه، والله أعلم.

رابعًا: الصبر، وهو الصبر على كل فعل أو ترك يستوي فيه الطرفان بين فعله وتركه، فالصبر على المباح مباح.

من خلال هذه الأمثلة للأعمال القلبية المباحة نخلص إلى قاعدة، وهي: أن ما كان ـ من الأعمال القلبية المباحة ـ سببًا لمباح فهو مباح، فإن

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص/٤٤١)، وتيسير العزيز الحميد (ص/٤٠٢).

(٢) العبودية (ص/٢٣).

(٣) القول السديد (ص/٢٠٨).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/١٤٣).

أعان على طاعته فهو عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، وإن كان سببًا لترك واجب أو ارتكاب محرم فهو محرم، يقول شيخ الإسلام: «والمباح بالنية الحسنة يكون خيرًا، وبالنية السيئة يكون شرًّا، ولا يكون فعل اختياري إلا بإرادة...، فإذا فعل شيئًا من المباحات، فلا بد له من غاية ينتهي إليها قصده، وكل مقصود إما أن يقصده لنفسه، وإما أن يقصده لغيره، فإن كان منتهى مقصوده ومراده عبادة الله وحده لا شريك له، وهو إلهه الذي يعبده لا يعبد شيئًا سواه، وهو أحب إليه من كل ما سواه، فإن إرادته تنتهي إلى إرادة وجه الله، فيثاب على مباحاته التي يقصد الاستعانة بها على الطاعة.

وإن كان أصل مقصوده عبادة غير الله لم تكن الطيبات مباحة له، فإن الله أباحها للمؤمنين من عباده، بل الكفار وأهل الجرائم والذنوب وأهل الشهوات يحاسبون يوم القيامة على النعم التي تنعموا بها فلم يذكروه ولم يعبدوه بها»[(١)].

---

(١) الإيمان الكبير (ص/٣٨-٣٩).



المطلب الثالث

أعمال القلوب المحرمة والمكروهة

إن المحرمات المتعلقة بالقلب منها ما تخرِج صاحبها من الملة وتخلده في النار،كالكفر والشرك والنفاق، ومنها دون ذلك، أي لا تخرج صاحبها من الملة ولا تخلده في النار.

ثم النوع الثاني من المحرمات القلبية منها ما هي من كبائرالذنوب، مثل الكبر، والحسد، والقنوط من روح الله، والأمن من مكر الله إلى غير ذلك من الكبائر، ومنها ما هي من صغائر الذنوب، مثل شهوة المحرمات وتمنيها.

وهذه المحرمات القلبية وإن تفاوتت في درجاتها فأصلها يرجع إلى نوعين:

الأول: ترك مأمور به، وهو أعظم النوعين.

الثاني: فعل محظور منهي عنه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «التوبة والاستغفار يكون من ترك مأمور ومن فعل محظور، فإن كلاهما من السيئات والخطايا والذنوب.

وترك الإيمان والتوحيد والفرائض التي فرضها الله تعالى على القلب والبدن من الذنوب بلا ريب عند كل أحد، بل هي أعظم الصنفين، فإن جنس ترك الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه

من جهة الأفعال قليلة، كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب، كعباد مشركي الهند وعباد النصارى وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه»[١].

لكن بما أن التقسيم الأول هو أسهل استيعابًا وأكثر تداولًا، نبدأ بذكر بعض الأمثلة على نحو هذا التقسيم.

○ **أولًا: أعمال القلبية المخرجة من الملة**، وهي تنقسم على قسمين:

- أعمال القلوب الكفرية.
- أعمال القلوب الشركية.

أ) أعمال القلوب الكفرية؛ وقبل الشروع في ذكر بعض الأمثلة من أعمال القلوب الكفرية أريد أن أذكر بعض أقوال العلماء في تعريفهم للكفر، يقول ابن حزم في تعريف الكفر في الشريعة: «جحد الربوبية، وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله ﷺ مما صح عند جاحده بنقل الكافة، أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر»[٢].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والكفر عدم الإيمان؛ سواء كان معه تكذيب، أو استكبار، أو إباء، أو إعراض»[٣].

ويقول أيضًا: «فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب أو إعراض عن هذا كله حسدًا، أو كبرًا، أو اتباعًا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٧١).
(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢/ ٢٣٢).
(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ١٨٤).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣٥).

ويقول أيضًا: «الكفر يكون بتكذيب الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو الامتناع عن متابعته مع العلم بصدقه مثل كفر فرعون واليهود»(١).

ويقول السبكي: «التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية أو الوحدانية أو الرسالة، أو قول أو فعل حكم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحدًا»(٢).

ويقول ابن القيم: «الكفر جحد ما علم أن الرسول جاء به، سواء كان من المسائل التي تسمونها علمية أو عملية فمن جحد ما جاء به الرسول ﷺ بعد معرفته بأنه جاء به، فهو كافر في دق الدين وجله»(٣)، وهذه التعريفات أغلبها من باب تعريف الشيء ببعض أفراده، لأن الكفر يكون بالتكذيب، والاستكبار والإباء، والإعراض كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام.

وفيما يلي التعريف بكل نوع منها:

الأول: كفر الإنكار والتكذيب، وهذا الكفر يناقض قول القلب، وقد عرفه الإمام البغوي فقال: «كفر الإنكار هو؛ أن لا يعرف الله أصلا ولا يعترف به»(٤).

وفي معنى كفر التكذيب يقول ابن القيم في تعريفه: «هو اعتقاد كذب الرسل»(٥).

فالتكذيب هنا مرجعه إلى إنكار القلب وعدم معرفة الحق وصدق الرسل، يقول شيخ الإسلام: «كما يكون سبب التكذيب عدم معرفة الحق

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (١/ ٢٤٢).
(٢) فتاوى السبكي (٢/ ٥٧٣).
(٣) مختصر الصواعق (٤/ ١٥٨٩).
(٤) تفسير البغوي (١/ ١٧).
(٥) مدارج السالكين (١/ ٢٥٣).

والإقرار به، وسبب عدم هذا العلم والقول عدم أسبابه من النظر التام والاستماع التام لآيات الحق وأعلامه»[١].

وقد أجمع العلماء على كفر من كذَب حكما من أحكام الله الظاهرة المتوارة أو خبرًا من أخبارهم، وكلامهم في هذا متواتر، منتشر في عامة كتب العقائد والأحكام.

قال الإمام ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو أن رجلًا آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئًا واحدًا كان برد ذلك الشيء كافرًا عند جميع العلماء»[٢].

وقال القاضي عياض[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك نقطع بتكفير كل من كذب، وأنكر قاعدة من قواعد الشرع، وما عرف يقينًا بالنقل المتواتر من فعل الرسول، ووقع الإجماع المتصل عليه، كمن أنكر وجوب الخمس الصلوات، أو عدد ركعاتها وسجداتها»[٤].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بل من كذب بشيء مما جاءت به الرسل عن الله فهو كافر وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾﴾ [النِّسَاء]»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٣).

(٢) الإبانة الصغرى (ص/ ٢٣٢-٢٣٣).

(٣) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. له كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك، وشرح صحيح مسلم، والشفا بتعريف حقوق المصطفى، وغيرها. ولد سنة ٤٧٦هـ. وتوفي سنة ٥٤٤هـ. انظر: السير (٢٠/ ٢١٢)، والأعلام (٥/ ٩٩).

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/ ٢٣٩).

(٥) الجواب الصحيح (٢/ ٣٨٣).

الثاني: كفر الإباء والاستكبار، نحو كفر إبليس وفرعون واليهود، أنهم عرفوا الحق فلم ينقادوا له ويستسلموا له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما كفر الإباء والاستكبار: فنحو كفر إبليس فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول وأنه جاء بالحق من عند الله ولم ينقد له إباء واستكبارًا، وهو الغالب على كفر أعداء الرسل»[١].

ووجه كون الإباء والاستكبار كفرًا، لأنه يناقض الانقياد والاستسلام الذي هو أساس عمل القلب وأصله، وحقيقة الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار»[٢].

وقال موضحًا إيمان القلب: «الإيمان قول وعمل، أعني في الأصل قولًا في القلب وعملًا في القلب، فإن الإيمان بحسب كلام الله ورسالته، وكلام الله ورسالته يتضمن إخباره وأوامره، فيصدق القلب إخباره تصديقًا يوجب حالا في القلب بحسب المصدق به، والتصديق هو من نوع العلم والقول، وينقاد لأمره ويستسلم، وهذا الإنقياد والاستسلام هو من نوع الإرادة والعمل، ولا يكون مؤمنًا إلا بمجموع الأمرين، فمتى ترك الانقياد كان مستكبرا فصار من الكافرين وإن كان مصدقًا، فالكفر أعم من التكذيب،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٢٥٦).

(٢) الصارم المسلول (٣/ ٩٦٧).

يكون تكذيبا وجهلا، ويكون استكبارًا وظلمًا، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بالكفر والاستكبار دون التكذيب»[١].

وقال الشيخ حافظ الحكمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن انتفى عمل القلب وعمل الجوارح مع المعرفة بالقلب والاعتراف باللسان فكفر عناد واستكبار، ككفر إبليس وكفر غالب اليهود الذين شهدوا أن الرسول حق ولم يتبعوه، أمثال حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف وغيرهم، وكفر من ترك الصلاة عنادا واستكبارا، ومحال أن ينتفي انقياد الجوارح بالأعمال الظاهرة مع ثبوت عمل القلب»[٢].

الثالث: كفر النفاق، وقد عرفه البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «وأما كفر النفاق، فهو أن يقر باللسان ولا يعتقد بالقلب»[٣].

وعرفه ابن القيم بقوله: «هو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوي قلبه على التكذيب»[٤].

وقد بين حقيقته شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله إذ قال: «وأساس النفاق الذي يبنى عليه هو؛ أن المنافق لا بد أن تختلف سريرته وعلانيته، وظاهره وباطنه»[٥].

وبهذا يظهر الفرق بين الكفر والنفاق، إذ الكفر هو اعتقاد الكفر وإظهاره، أما النفاق هواعتقاد الكفر وإظهار الإيمان، والكلام هنا على النفاق الأكبر، لأن النفاق ينقسم على قسمين:

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٩٦٧-٩٦٨).

(٢) معارج القبول (٢/ ٥٩٤).

(٣) تفسير البغوي (١/ ١٧).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٤).

(٥) الإيمان الأوسط (ص/ ١٦٦).

نفاق أكبر، وهو أن يظهر الإيمان ويبطن الكفر، وهو مخرج من الملة، ومخلد صاحبه في النار، بل في الدرك الأسفل من النار،كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥].

ونفاق أصغر، وهو النفاق في الأعمال، مثل الكذب، والخيانة، وإخلاف الوعد، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[(١)].

يقول شيخ الإسلام: «ثم إبطان ما يخالف الدين؛ إما أن يكون كفرًا، أو فسقًا. فإذا أظهر أنه مؤمن وأبطن التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر الذي أوعد صاحبه بأنه في الدرك الأسفل من النار.

وإن أظهر أنه صادق أو موف أو أمين، وأبطن الكذب والغدر والخيانة ونحو ذلك، فهذا هو النفاق الأصغر الذي يكون صاحبه فاسقًا»[(٢)].

الرابع: كفر الإعراض، وهو مما يناقض عمل القلب لأن الإعراض هو الانصراف عن الشيء بالقلب، وله حالات وأنواع[(٣)]، والدليل عليه قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، ذكر هذه الآية الشيخ محمد بن عبد الوهاب مستدلًا بها على هذا النوع من الكفر[(٤)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والكفر أعم من التكذيب، فكل من كذب الرسول كافر وليس كل كافر مكذبًا، بل من يعلم صدقه ويقر به وهو مع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/٥٦)، في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ١٤٣)، وانظر: (٢٨/ ٣٦٥)، والإيمان الأوسط (ص/ ١٨٤-١٨٥).

(٣) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية (٢/ ١٢١-١٢٧) تأليف: محمد بن عبد الله بن علي الوهيبي.

(٤) الدرر السنية (٢/ ٧١).

ذلك يبغضه أو يعاديه كافر، أو من أعرض فلم يعتقد لا صدقه ولا كذبه كافر وليس بمكذب»(١).

وقال ابن القيم في تعريفه: «وأما كفر الإعراض: فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به ألبتة كما قال أحد بني عبد ياليل للنبي: والله أقول لك كلمة إن كنت صادقًا فأنت أجل في عيني من أن أرد عليك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك»(٢).

الخامس: كفر الشك، إذا كان اليقين هو شرط في صحة الإيمان وهو حقيقة العلم بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فإن الشك ضده، قال الأزهري: «الشك؛ نقيض اليقين»(٣).

وعرفه ابن القيم بقوله: «فإنه لا يجزم بصدقه ولا بكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول جملة؛ فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها: فإنه لا يبقى معه شك»(٤).

وقال الشيخ محمد عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفر الشك هو كفر الظن، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف]»(٥).

---

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٥١٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٥٣).

(٣) تهذيب اللغة (٩/ ٣١٦).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٤).

(٥) الدرر السنية (٢/ ٧١).

وكفر الشك يكون بالشك في شيء مما يجب الإيمان به، وإن لم يصحب ذلك الشك في أصل الرسالة، ولذا حكم العلماء بكفر من شك في شيء من أحكام الكتاب والسنة أو بأخبارهما.

يقول القاضي عياض: «اعلم أن من استخف بالقرآن، أو المصحف، أو بشيء منه، أو سبهما، أو جحده، أو حرفًا منه أو آية، أو كذب به، أو بشيء منه، أو كذب بشيء مما صرح به فيه من حكم وخبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبت، على علم منه بذلك، أو شك في شيء من ذلك، فهو كافر عند أهل العلم بإجماع»(١).

وفي النهاية أشير إلى فائدة متعلقة بالفرق بين الشك والريب، يذكر شيخ الإسلام فرقًا دقيقًا بين الريب والشك فيقول: «والريب يكون في علم القلب وفي عمل القلب، بخلاف الشك فإنه لا يكون إلا في العلم، ولهذا لا يوصف باليقين إلا من اطمأن قلبه علمًا وعملًا»(٢).

وبهذا نكون قد انتهينا من الشق الأول من المحرمات المخرجة من الملة وهي المحرمات الكفرية، والآن ننتقل إلى الشق الثاني من المحرمات المخرجة من الملة وهي المحرمات الشركية.

ب) **أعمال القلوب الشركية**: إن التوحيد الذي دعت إليه الرسل وأنزلت به الكتب ثلاثة أنواع:

١ ـ توحيد الربوبية، وهو إفراد الله تعالى بالخلق والرزق والتدبير والإحياء والإماتة.

٢ ـ توحيد الألوهية، وهو إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة من سواه.

---

(١) الشفاء (٢/ ٢٥٠).

(٢) الإيمان الكبر (ص/ ٢٢١).

٣ ـ وتوحيد الأسماء والصفات، وهو بمعنى إثبات لله ما أثبته لنفسه، وأثبته له رسوله من الأسماء والصفات، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل[(١)].

وبالتالي يكون الشرك في هذه الأنواع الثلاثة، الشرك في الربوبية، والشرك في الألوهية، والشرك في الأسماء والصفات، والذي يهمنا ـ وهو موضوع بحثنا ـ هنا هو الشرك في الألوهية لتعلقه بأعمال القلوب.

وإذا عرفنا توحيد الألوهية يسهل علينا معرفة الشرك فيه، وزيادة إيضاح وبيان لتوحيد الألوهية أنقل بعض الأقوال لأهل العلم في تعريفه:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده، فلا يدعى إلا هو، ولا يخشى إلا هو، ولا يتقى إلا هو، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، لا لأحد من الخلق، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيين أربابًا»[(٢)].

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعريفه: «توحيد الألوهية هو الذي وقع فيه النزاع من قديم الدهر وحديثه، وهو توحيد الله بأفعال العباد، كالدعاء والرجاء، والخوف، والخشية، والاستعانة، والمحبة، والنذر، والذبح، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والتذلل، والتعظيم»[(٣)].

وهو يسمى بتوحيد العبادة أيضًا، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعبادة أصل معناها: الذل...، يقال طريق معبد، إذا كان مذللًا قد وطئته الأقدام، لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب؛ فهي تتضمن غاية

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/١٧-١٩)، وإعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ٢٠-٢٢) للشيخ الفوزان.

(٢) منهاج السنة النبوية (٣/ ٤٩٠).

(٣) الدرر السنية (٢/ ٦٧-٦٨).

الذل لله، بغاية المحبة له... ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله...»[(١)].

فإذا فهمنا أن توحيد العبادة هو صرف جميع أنواع العبادة لله ﷻ، فالشرك في العبادة هو أن يصرف شيء من العبادة لغير الله ﷻ، أو أن يشبه المخلوق بالخالق في المحبة والتعظيم والتوكل والدعاء، أو تسوية غير الله بالله في شيء من خصائص الله كالألوهية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئًا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره، أو توكل عليه فهو مشرك به»[(٢)].

ويقول أيضًا: «الشرك في الإلهية فهو: أن يجعل لله ندا،أي: مثلا في عبادته، أو محبته، أو خوفه، أو رجائه، أو إنابته، فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه»[(٣)].

يقول ابن القيم رحمه الله: «فالمشرك مشبّه للمخلوق بالخالق في خصائص الإلهية:

فإن من خصائص الإلهية التفرد بملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده، فمن علق ذلك بمخلوق فقد شبهه بالخالق...

ومن خصائص الإلهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم

---

(١) العبودية (ص/ ٢٢-٢٣).

(٢) الاستقامة (١/ ٣٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٩١).

والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب، كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة أن يكون له وحده، ويمنع عقلا وشرعا وفطرة أن يكون لغيره، فمن جعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لاشبيه له ولاند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله، ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم أخبر سبحانه عباده أنه لايغفره...

ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين، لا قوام لها بدونهما؛ غاية الحب مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه»(١).

وينقسم الشرك إلى قسمين:

الأول: الشرك الأكبر، وهو أن يتخذ من دون الله ندا، يحبه كما يحب الله، أو يرجوه، أو يخافه، أو يصرف له نوعا من أنواع العبادة، وهذا الشرك الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو الذي قد حرم على صاحبه دخول الجنة ومأواه النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما الشرك، فهو نوعان؛ أكبر و أصغر، فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين»(٢).

---

(١) الداء والدواء (ص/٣١٣-٣١٥).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٥٤).

ولخص الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعريف الشرك الأكبر بعبارة موجزة فقال:

«فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده، أن يصرف العبد نوعا من أفراد العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر.

فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء»[١].

الثاني: الشرك الأصغر، وهو جميع الأقوال والأفعال التي يُتوسل بها إلى الشرك الأكبر، كالحلف بغير الله، ويسير الرياء.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «حد الشرك الأصغر هوكل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة»[٢].

وتبين مما سبق أن الشرك ينقسم إلى قسمين، أكبر وأصغر، وأخطره الشرك الأكبر الذي هو يخرج صاحبه من الملة وحقيقته صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله.

أما أنواع هذا القسم فكثيرة، حصرها بعض أهل العلم في أربعة أنواع وهي:

١ ـ شرك الدعوة (الدعاء).

٢ ـ شرك النية والقصد والإرادة.

٣ ـ شرك الطاعة.

---

(١) القول السديد (ص/ ١٢٠-١٢١).

(٢) القول السديد (ص/ ١٢١)، وانظر: مدارج السالكين (١/ ٢٥٨).

٤ ـ شرك المحبة[١].

وحقيقة هذه الأنواع ترجع إلى نوعين:

الأول: شرك في الاعتقاد، وهنا يدخل عمل القلب.

الثاني: شرك في الأقوال والأعمال، وسيقتصر حديثنا هنا على بعض الأمثلة للنوع الأول، وهو الشرك بعمل القلب:

الأول: النية والإرادة والقصد، تقدم معنا أن الإخلاص هو حقيقة الإسلام وهو جوهر العبادة، وهو الفيصل بين التوحيد والشرك، وأن حقيقته هو أن يتوجه قصد العبد إلى الله ﷻ.

فينافي هذا الإخلاص الشرك في القصد والنيات والإرادات، وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله أن النية المعهودة في العبادات تشتمل على أمرين:

١ ـ قصد المعبود، أي تمييز المقصود بالعبادة، هل هو الله وحده لا شريك له، أم هو غيره.

٢ ـ قصد العبادة، أي تمييز العبادات بعضها عن بعض.

وبعد أن بيّن المقصود بكل منهما، قال: «أما الأولى: فبها يتميز من يعبد الله مخلصًا له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه، ومن يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا، وهو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهي الأنبياء عن التفرق فيه»[٢].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وأما الشرك فى الإرادات والنيات فذلك البحر الذى لا ساحل له وقل من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئًا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك فى نيته وإرادته»[٣].

---

(١) الدرر السنية (٢/ ٦٩-٧٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٤).

(٣) الداء والدواء (ص/ ٣١٢).

ولكن الشرك في النية والإرادات درجات، فقد يكون شركًا أكبر مخرجًا من الملة فيحبط العمل، وقد يكون دون ذلك، ونؤجل الكلام عنه إلى مبحث النية.

الثاني: المحبة، لما كانت المحبة أصل كل عمل من أعمال القلوب والجوارح، كان الإشراك في المحبة، أصل كل شرك عملي، فأصل الشرك في المشركين هو اتخاذهم أندادا يحبونهم كحب الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأخبر أن من الناس من يشرك بالله فيتخذ أندادا يحبونهم كما يحبون الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من هؤلاء، والمؤمنون أشد حبًّا لله من هؤلاء لأندادهم ولله، فإن هؤلاء أشركوا بالله في المحبة فجعلوا المحبة مشتركة بينه وبين الأنداد، والمؤمنون أخلصوا دينهم لله الذي أصله المحبة لله، فلم يجعلوا لله عدلًا في المحبة، بل كان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما»(١).

ويقول أيضًا: «والفرق ثابت بين الحب لله والحب مع الله، فأهل التوحيد والإخلاص يحبون غير الله لله والمشركون يحبون غير الله مع الله كحب المشركين لآلهتهم، وحب النصارى للمسيح، وحب أهل الأهواء رؤوسهم»(٢).

ويقول أيضًا: «ويجب الفرق بين الحب في الله والحب مع الله، فالأول من تمام محبة الله وتوحيده، والثاني شرك، فالأول يكون الله هو المحبوب له بذاته، ويحب ما يحب الرب تعالى تبعا لمحبته...، وأما

---

(١) قاعدة في المحبة (ص/١٣٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٦٥).

الحب مع الله فهو الذي يحب محبوبا في قلبه لذاته لا لأجل الله، كحب المشركين أندادهم»[(١)].

نخلص من كلام شيخ الإسلام أن الله يجب أن يكون المحبوب لذاته، وهذه التي تسمى المحبة الخاصة وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وأن هذه المحبة لا يجوز صرفها لغير الله، ومن صرفها لغير الله فقد أشرك، ويوضح ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ يقول: «الشرك بالله في المحبة والتعظيم بأن يحب مخلوقا كما يحب الله فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء].

ومعلوم أنهم ما سوّوهم به سبحانه فى الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سوّوهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم»[(٢)].

الثالث: الخوف، وهو أحد أركان العبادة ومن لوازمها، ولا يجوز صرفه لغير الله، ولا يكون العبد مسلما إلا بإخلاصه لله عَزَّ وَجَلَّ، وقد جاء النهي عن صرفه لغير الله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المَائدة: ٤٤].

---

(١) الاستغاثة في الرد على البكري (ص/ ٣٧٩).

(٢) الداء والدواء (ص/ ٣٠٤).

فصرف الخوف لغير الله تعالى هو شرك، إذ لا يخاف الإنسان أحدا الخوف التعبدي إلا إذا اعتقد في قلبه أنه يملك نفعه أو ضره، أو يشارك في ملك الله، واعتقاد مثل هذا شرك أكبر[(١)]، بعبارة أخرى اعتقاد إيجاد المسببات ـ النفع أو الضر ـ بدون مباشرة الأسباب إلا الله ﷻ شرك[(٢)].

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك»[(٣)].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله بعد أن ذكر أن الخوف ينقسم إلى ثلاثة أقسام: «أحدها: خوف السر؛ وهو أن يخاف من غير الله أن يصيبه بما يشاء من مرض أو فقر أو قتل ونحو ذلك بقدرته ومشيئته، سواء ادعى أن ذلك كرامة للمخوف بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله أصلًا، لأن هذا من لوازم الإلهية فمن اتخذ مع الله ندا يخافه هذا الخوف فهو مشرك»[(٤)].

الرابع: الرجاء، وهو من أجل الأعمال القلبية، وهو أحد أركان العبادة، وهو قسيم الخوف، ولا يجوز صرفه إلا لله تبارك وتعالى، وقد جاء الأمر به في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء].

وقال تعالى: ﴿وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ١٩٤).

(٢) قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/ ٦٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٣٣).

(٤) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٤١٧).

فمن رجا من مخلوق كما يرجو من الله فيما لا يقدر عليه إلا الله كغفران الذنوب، وهداية القلوب، وإنزال المطر، أو حصول الولد، أو نحوه فقد أشرك مع الله غيره.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاءِ بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابًا، فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيءة الله تعالى»[١].

ويقول الشيخ سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومنها الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، كمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيا حصول مطلوبه من جهتهم فهذا شرك أكبر»[٢].

○ **ثانيًا: أعمال القلوب التي هي من كبائر الذنوب**، وهي المحرمات القلبية دون الكفر، فلا يخرج صاحبها من الملة، وهي كثيرة مثل؛ الكبر، والحسد، والرياء، والعجب، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، والسخط على أقدار الله، والرضا بالمحرمات، وبغض المسلمين بعضهم لبعض إلى غير ذلك، وسنتكلم على بعض منها بشيء من التفصيل:

الأول: الكبر، من أوائل الذنوب التي عصي الله به هو الكبر، بل عده بعض السلف أول ذنب[٣]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، وهوكان سببًا في هلاك كثير من الناس، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكبر والحسد هما داءان

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٢٣-٢٤).

(٣) انظر: الكبائر للذهبي (ص/ ١٩٤).

أهلكا الأولين والآخرين، وهما أعظم الذنوب التي بها عصي الله، أولا فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه»[(١)].

وقد عرَّف النبي ﷺ الكبر بأنه بطر الحق وغمط الناس، قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(٢)].

ومعنى «بطر الحق» هو دفعه وانكاره ترفعًا وتجبرًا.

وقوله «غمط الناس» هو احتقارهم.[(٣)]

وقد جاء النهي عنه وذم أهله في غير ما آية في القرآن وحديث في السنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ١٨﴾ [لقمان: ١٨].

وقال النبي ﷺ؛ قال الله ﷻ: «**العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما ألقيته في النار**»[(٤)].

والكبر أنواع:

١) **الكبر على الله تعالى وعلى الرسول ﷺ**، وهو أفحش أنواع الكبر،

---

(١) رسالة في التوبة (١/ ٢٣٣)، وانظر: المجموع (١٠/ ١٢٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٦٣)، في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٩٠).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في مسنده (١٥/ ٣١٣)، أبو داود في سننه (ص/ ٧٣٢)، في كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر، وابن ماجه في سننه (ص/ ٦٩٤) في كتاب الزهد، باب البراءة من الكبر والتواضع، وصححه الألباني في الصحيحة (٥٤١)، وأخرج الحديث مسلم (ص/ ١٠٥٣)، في كتاب البر والصلة، باب تحريم الكبر باللفظ: قال رسول الله ﷺ: «**العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبته**».

ويبين خطورة هذا النوع شيخ الإسلام إذ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**أن الجنة لا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من كبر**» كما أن النار لا يخلد فيها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فجعل الكبر مقابلا الإيمان، فإن الكبر ينافي حقيقة العبودية...، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر].

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس متحرك بالإرادة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»[١]، فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم، والهم أول الإرادة فالإنسان له إرادة دائمًا، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن له مراد محبوب يستعبده غير الله.

بل، الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارًا عن عبادة الله كان أعظم إشراكًا بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب، الذي هو المقصود ـ مقصود القلب بالقصد الأول ـ فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك»[٢].

٢) **الكبر على الخلق** ـ وهذا هو المراد هنا ـ، وهو كما تقدم أن يستعظم الإنسان نفسه ويحتقر غيره ويزدريه، وله أنواع وأشكال، لكن أنبه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣١/ ٣٧٧)، وأبو داود في سننه (ص/ ٨٩٥)، في كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٠٤).

(٢) العبودية (ص/ ٧٨-٨٢) باختصار.

إلى أشرّها كما قال الذهبي وهو: «من تكبر على العباد بعلمه، وتعاظم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه، فإن من طلب العلم للآخرة كَسَرَه علمُه، وخشع قلبه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد، فلم يفتر منها، بل يحاسبها كل وقت ويثقّفها؛ فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته، ومن طلب العلم للفخر والرياسة ونظر إلى المسلمين شزرا، وتحامق عليهم، وازدرى بهم، فهذا من أكبر الكبر، ولا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر، فلا حول ولا قوة إلا بالله»[١].

الثاني: الحسد، وهو من أمراض القلوب الذي جاء ذمه والتعوذ بالله من أهله، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ۝٥﴾ [الفَلَق: ٥].

وهو من خلق إبليس وأخلاق اليهود، قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البَقَرَة: ١٠٩].

وقال النبي ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[٢].

قيل في حده: «إنه أذى يلحق بسبب العلم بحسن حال الأغنياء.

وقيل: إنه تمني زوال النعمة عن المحسود وإن لم يصر للحاسد مثلها.

والتحقيق أن الحسد هو البغض والكراهة لما يراه من حسن حال المحسود، وهو نوعان[٣]:

---

(١) الكبائر (ص/١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٥٩)، في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ومسلم (ص/١٠٣٣)، كتاب البر والصلة، باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابر.

(٣) انظر أنواع الحسد عند ابن القيم في بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٢)، وعند ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص/ ٢٦٠-٢٦٣).

أحدهما: كراهة للنعمة عليه مطلقا فهذا هو الحسد المذموم، وإذا أبغض ذلك فإنه يتألم ويتأذى بوجود ما يبغضه، فيكون ذلك مرضا في قلبه ويلتذ بزوال النعمة عنه وإن لم يحصل له نفع بزوالها، لكن نفعه زوال الألم الذي كان في نفسه، ولكن ذلك الألم لم يزل إلا بمباشرة منه وهو راحة.

والنوع الثاني: أن يكره فضل ذلك الشخص عليه فيحب أن يكون مثله أو أفضل منه، فهذا حسد وهو الذي سموه الغبطة، وقد سماه النبي ﷺ حسدا في الحديث المتفق عليه: «**لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه في الحق آناء الليل والنهار**»[(١)]، فهذا الحسد الذي نهى عنه النبي ﷺ إلا في موضعين هو الذي سماه أولئك الغبطة، وهو أن يحب مثل حال الغير ويكره أن يفضل عليه.

فإن قيل: إذا لم سمي حسدًا وإنما أحب أن ينعم الله عليه؟ قيل مبدأ هذا الحب هو نظره إلى إنعامه على الغير وكراهته أن يتفضل عليه، ولولا وجود ذلك الغير لم يحب ذلك، فلما كان مبدأ ذلك كراهته أن يتفضل عليه الغير كان حسدًا»[(٢)].

والمقصود أن الحسد مرض من أمراض النفس، قل من ينجو منه، وهو خلق مذموم، فنسأل الله أن يخلصنا منه، وأن يزودنا التقوى والعمل الصالح، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الثالث: القنوط من رحمة الله، هو من الأعمال المنهي عنها، وصاحبه مذموم، وهو مبني على سوء الظن بالله رب العالمين الرحمن الرحيم، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٩٩)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/٣١٧)، كتاب الصلاة، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١١١-١١٣) باختصار.

يفعل ذلك إلا من ضل عن سواء السبيل، واستحوذ عليه إبليس اللعين، وقد جاء النهي عنه في القرآن العظيم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود هنا أن قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ [الزُّمَر] فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف: إن الفقيه كل الفقيه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله»[(١)].

وقال تعالى عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال للملائكة لما بشروه أنه سيولد له ولد: ﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الحِجر].

وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ [الفُرقان: ٦٨]، ونزل ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣][(٢)].

وقد قسم شيخ الإسلام القنوط إلى قسمين:

الأول: أن يعتقد الإنسان أن الله لا يغفر له، و هذا لكونه أنه يستعظم الذنوب ويستبعد غفران الله عليها.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/١٩-٢٠).

(٢) أخرجه البخاري (ص/٨٤٨)، في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الزمر.

الثاني: أن يتعذر عليه التوبة، وهذا يرى للتوبة شروطًا كثيرة ويقول لنفسه أنه لا يستطيع التوبة، فلا يتوب أصلًا.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والقنوط يكون بأن يعتقد أن الله لا يغفر له، إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه، وإما بأن يقول نفسه لا تطاوعه على التوبة، بل هو مغلوب معها والشيطان قد استحوذ عليه، فهو ييأس من توبة نفسه، وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له، وهذا يعتري كثيرًا من الناس. والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة: فالأول؛ كالراهب الذي أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به مائة، ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته، والحديث في الصحيحين. والثاني كالذي يرى للتوبة شروطًا كثيرة ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب»[(١)].

الرابع: الأمن من مكر الله، وكما أن القنوط من رحمة الله يعد تجاوزًا للحد في خوف العبد من ربه، فإن الأمن من مكر الله تجاوز للحد في رجاء العبد لربه، ومن ابتلي بذلك فهو استدراج له، وحقيقته جهل بالله وقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها[(٢)]، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لقول الله عَزَّوَجَلَّ ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأعراف: ٩٩]: «أي بأسه ونقمته وقدرته، وأخذه إياهم في سهوهم وغفلتهم»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩-٢٠).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/ ٤٣٩).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٣).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمؤمن يخاف مكر الله، ومكر الله أن يعاقبه على سيئاته، والكافر لا يخشى الله فلا يخاف مكره، ومكره أن يعاقبه على الذنب لكن من حيث لا يشعر»(١).

وقال أيضًا: «وكل من ادعى الأمن فهو جاهل بالله وبمَا أخبر به عن نفسه: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]»(٢).

○ **ثالثًا: الأعمال القلبية المكروهة**، تقدم معنا أن المكروه؛ هو ما يثاب تاركه امتثالا، ولا يعاقب فاعله، وعرفنا أن أعمال القلوب تنقسم إلى خمسة أقسام: واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، وحرام، كما أشار إلى ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ بين أن أعمال القلوب تنقسم إلى محبوب لله ومكروه ومباح(٣)، لكنه لم يمثل لذلك.

وكذلك نجد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين مثل لأعمال القلوب، لم يمثل لأعمال القلوب المكروهة(٤)، لكنه حين ذكر أقسام الصبر باعتبار تعلقه بالأحكام الخمسة ذكر من أمثلة الصبر المكروه: مثل؛ صبره على المكروه، وصبره عن فعل المستحب(٥).

وبهذا نكون قد انتهينا من ذكر أقسام أعمال القلوب وما يتبعها من أنواع وأحكام.

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية (١/ ٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٨٢).

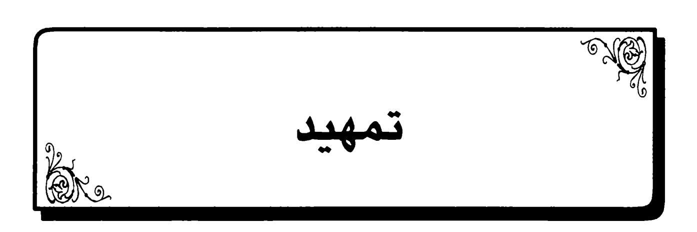
(٣) انظر: الاستقامة (٢/ ١٢٣).

(٤) انظر: مدارج السالكين (١/ ٨٦).

(٥) انظر: عدة الصابرين (ص/ ٥٨).



المبحث الثالث:
العلاقة بين أعمال القلوب



تمهيد

قبل الدخول في بيان العلاقة بين أعمال القلوب بعضها ببعض، أريد أن أنبه إلى مسألة؛ وهي بيان دلالة الألفاظ على المعنى، فأقول

إن دلالة الألفاظ على المعنى تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ دلالة المطابقة.

٢ ـ دلالة التضمن.

٣ ـ دلالة الالتزام.

وذلك أن الكلام إما أن يساق ليدل على تمام معناه، وإما أن يساق ليدل على بعض معناه، وإما أن يساق ليدل على معنى آخر خارج عن معناه، لكنه لازم له.

فدلالة اللفظ على تمام معناه تسمى دلالة المطابقة، وسميت مطابقة لمطابقته، أي موافقة المعنى للفظ.

ودلالة اللفظ على جزء معناه تسمى دلالة التضمن، وسميت بدلالة التضمن لكون الجزء في ضمن المعنى الموضوع له.

ودلالة اللفظ على معنى خارج عن معناه إلا أنه لازم له تسمى دلالة الالتزام، وسميت دلالة الالتزام لأن معنى اللفظ قد استلزم ذلك الأمر الخارج عنه[1].

---

(١) انظر: روضة الناظر (ص/١٢-١٣)، ودرء تعارض العقل والنقل (٥/ ٢٠٧)، ومعتقد أهل السنة =

ومن هذا التقسيم يتضح لنا أن علاقة أعمال القلوب هي علاقة التضمن وعلاقة الالتزام، ومن خلال كلام شيخ الإسلام المبثوث في كتبه[١] يفهم أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يقرر هاتين العلاقتين بين أعمال القلوب؛ علاقة التضمن وعلاقة الالتزام.

= والجماعة في أسماء الله الحسنى (ص/ ٤٢٤-٤٢٥)، والمجلى في شرح القواعد المثلى (ص/ ١٠٢-١٠٤).

(١) بخلاف كلام تلميذه ابن القيم، إذ كلامه في هذا الموضوع مجتمع، انظر على سبيل المثال: مدارج السالكين (١/ ١٠١-١٠٦)، وقد قرر هذا الأمر بكلام أشبه ما يكون بالقاعدة العامة لتصور العلاقة بين أعمال القلوب، إذ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أعلى المقامات مقرون بأدناها، مصاحب له كما تقدم، فتتضمن له تضمن الكل لجزئه، أو مستلزم له استلزام الملزوم للازمه، لا ينفك عنه أبدا»، (طريق الهجرتين ص/ ٣٣٩).



المطلب الأول
علاقة التضمن

نص شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على ثبوت علاقة التضمن بين أعمال القلوب، ومن ذلك ما ذكر من تضمن الشكر الرضا، لأنه كما هو معلوم أن أحوال المؤمن في تلقيه لقضاء الله وقدره على ثلاث مراتب؛ الصبر، ثم الرضا، ثم الشكر، وكل واحد أكمل من الذي قبله ومتضمن له، فالشكر متضمن للرضا والصبر، والرضا متضمن للصبر، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والرضا وإن كان من أعمال القلوب فكماله هو الحمد حتى إن بعضهم فسر الحمد بالرضا، ولهذا جاء في الكتاب والسنة حمد الله على كل حال وذلك يتضمن الرضا بقضائه»[(١)].

من ذلك أيضًا تضمن الخشوع التواضع والذل والسكون والطمأنينة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشوع يتضمن معنيين:

أحدهما: التواضع والذل.

والثاني: السكون والطمأنينة، وذلك مستلزم للين القلب المنافي للقسوة، فخشوع القلب يتضمن عبودية الله وطمأنينته أيضًا»[(٢)].

وكذلك الخشية تتضمن الرجاء أيضًا، ولولا ذلك لكان قنوطًا، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشية أبدًا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطًا»[(٣)].

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٦١).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٦).

(٣) المصدر نفسه (ص/ ٢٠).

ومن ذلك أيضًا تضمن اليقين السكينة والطمأنينة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكما أن اليقين ضُمِّن السكون والطمأنينة فالريب ضده ضُمِّن الاضطراب والحركة»[١]، وقال أيضًا: «واليقين يتضمن معنى الطمأنينة والسكون، ومنه ماء يَقَن»[٢].

ومن ذلك تضمن التوبة العزم والندم، لأن من شروط التوبة العزم عليها، والندم على ما فات من الذنوب، كما سنبين ذلك في مبحث التوبة من الفصل الثاني، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن التوبة العامة تتضمن عزما عاما بفعل المأمور وترك المحظور وكذلك تتضمن ندما عاما على كل محظور»[٣].

وعلاقة التضمن كما تثبت في الأعمال القلبية الحسنة تثبت في الأعمال القلبية السيئة، ومن أمثلة الأعمال القلبية السيئة ما ذكر شيخ الإسلام في الحسد والشح وأنهما يتضمنان البغض والكراهية، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فشحهم على المؤمنين وعلى الخير يتضمن كراهيته وبغضه..... فالحسد والشح يتضمنان بغضًا وكراهية»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٤٢).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٥٧١-٥٧٢).

(٣) المصدر نفسه (١٠/ ٣٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٩٠).

المطلب الثاني
علاقة الالتزام

لقد تعددت مسالك شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)] في بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب، وفيما يلي نذكر تلك المسالك بشيء من التفصيل:

المسلك الأول: التنصيص على ثبوت علاقة الالتزام بين أعمال القلوب.

قد نص شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ على بعض الأعمال القلبية أنها تستلزم البعض الآخر، ومن ذلك ما ذكر من التزام الرجاء الخوف، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والخشية أبدًا متضمنة للرجاء ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف ولولا ذلك لكان أمنًا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله»[(٢)].

ومن ذلك أيضًا التزام الخوف والرجاء المحبة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب»[(٣)]

ومن ذلك التزام الذكر المحبة: «فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته»[(٤)].

---

(١) لم يذكر شيخ الإسلام هذه المسالك بنصها، لكن هذا ما يفهم من كلامه، وقد استعنت على ذلك برسالة الأخت وفاء بنت زيد العزيزي، إذ هي ذكرت بعض هذه المسالك، انظر: «أعمال القلوب عند ابن القيم، جمع ودراسة» (ص/ ١٦٤-١٧٢).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١).

(٤) المصدر نفسه (١٥/ ٢٠).

ومن ذلك التزام الخوف العلم، والتزام العلم الخشية، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته»[١].

وفي بعض الأحيان ينص شيخ الإسلام على علاقة الالتزام بلفظ الاقتضاء بدلا من الالتزام، ومنها أن الإخلاص يقتضي الشكر، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا إله إلا الله تقتضي الإخلاص والتوكل، والإخلاص يقتضي الشكر، فهي أفضل الكلام، وهي أعلى شعب الإيمان»[٢].

ومن ذلك أيضًا اقتضاء الإنابة المحبة، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأيضًا فاسم الإنابة إليه يقتضي المحبة أيضًا»[٣].

ومن ذلك أيضًا اقتضاء الوجل الخوف والخشية، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه»[٤].

وأحيانًا ينص شيخ الإسلام على علاقة الالتزام بلفظ الإيجاب بدلًا من الالتزام، من ذلك إيجاب المحبة الذكر، وإيجاب البغض الإعراض عن ذكر الله، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب، كما أن البغض يوجب الإعراض عن ذكر المبغض، فمن عادى الله ورسوله، وحاد الله ورسوله كان ذلك مقتضيًا لإعراضه عن ذكر الله ورسوله بالخير، وعن ذكر ما يوجب المحبة فيضعف علمه به حتى قد ينساه»[٥].

ومن ذلك أيضًا إيجاب العلم الخوف، وأن كل من عصى الله فهو

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٢٠).

(٣) التحفة العراقية (ص/ ٤٢١).

(٤) الإيمان الكبير (ص/ ١٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٨).

جاهل، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن العلم بما أنذرت به الرسل يوجب الخوف فإذا كان العلم يوجب الخشية الحاملة على فعل الحسنات وترك السيئات، وكل عاص فهو جاهل ليس بتام العلم، تبين ما ذكرنا من أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم»[١].

المسلك الثاني: ثبوت علاقة التلازم بين أعمال االقلوب من خلال بيان ثمرات أعمال القلوب.

إن مما يدل على ثبوت علاقة التلازم بين أعمال القلوب ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ عن ثمرات بعض الأعمال القلبية.

فذكر أن الذكر يثمر المحبة لله عَزَّوَجَلَّ، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته»[٢].

ومن ذلك أيضًا أن الصدق يورث الطمأنينة والسكون، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن الصدق يورث الطمأنينة والسكون»[٣].

ومن ذلك أيضًا أن الصبر مع الاستسلام لله علما بأن ما اختار الله له هو خير، هذا يورث الشكر لله، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا تسليم راضٍ لعلمه بحسن اختيار الله له، وهذا يورث الشكر»[٤].

المسلك الثالث: بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب من خلال إثبات المقابلة بين أعمال القلوب.

إن مما يدل على ثبوت علاقة الالتزام بين أعمال القلوب ما ذكره شيخ

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٠٤).

(٢) المصدر نفسه (١٥/ ٢٠).

(٣) المصدر نفسه (٥/ ٥٧٠).

(٤) المصدر نفسه (١٧/ ٢٧).

الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ من المقابلة بين بعض الأعمال القلبية، ومعنى ذلك أنه إذا وُجِد بعض الأعمال يلزم وجود البعض الآخر المقابل له، مثال ذلك إذا وجد محبة الله ورسوله وجب وجود البغض لمن لم يؤمن بالله ورسوله، فإن ذلك من لوازم المحبة الصحيحة، فإن المحب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا بد له من أن يبغض ما يبغضه الله تعالى من الأعمال، وكذا يبغض ما أخبر الله سبحانه أنه يبغضهم، وهم الكافرون والظالمون والفاسقون وأمثالهم، فقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: «هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله، وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله، فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[١].

ويقول أيضًا: «فإذا قوي ما في القلب من التصديق والمعرفة والمحبة لله ورسوله أوجب بغض أعداء الله»[٢].

ويقول أيضًا: «وحب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته مع العلم بالتضاد، ولهذا قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢]، والموادة من أعمال القلوب»[٣].

المسلك الرابع: بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب من خلال انتفاء بعضها إذا انتفى بعضها الآخر.

ومن الأمور المقررة عند أهل العلم أن من الأشياء ما تزول إذا زال

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٢١).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٢).

(٣) المصدر نفسه (١٠/ ٧٥٣).

بعضها، ومنها ما لا تزول إذا زال بعضها ولكنها تنقص، كما قرر ذلك شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال: «فإن الحقيقة الجامعة لأمور ـ سواء كانت في الأعيان أو الأعراض ـ إذا زال بعض تلك الأمور فقد يزول سائرها وقد لا يزول، ولا يلزم من زوال بعض الأمور المجتمعة زوال سائرها، وسواء سميت مركبة أو مؤلفة أو غير ذلك لا يلزم من زوال بعض الأجزاء زوال سائرها»[١].

وأعمال القلوب كذلك منها الملازمة في الانتفاء ومنها ما لا يلزم من انتفائها انتفاء الآخر، لكن قد يلزم منه النقص، وخاصة إذا عرفنا أنها درجات في الوجوب والاستحباب، ومنها الأصل ومنه الفرع، ومن أمثلة التلازم في الانتفاء التلازم بين المحبة والخوف والرجاء.

قال شيخ الإسلام ناقلًا عن بعض السلف أنهم قالوا: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد»[٢].

وقال شيخ الإسلام: «وكره من كره من أهل المعرفة و العلم؛ مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية»[٣].

فمرادهم أن دعوى المحبة بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء دعوى كاذبة، وهذا فيها انبساط في الأهواء ومن يدعي ذلك كثير ما يقع في المعاصي ولا يبالي، بل آل الأمر ببعض هؤلاء إلى الانسلاخ عن الدين كله، نسأل الله السلامة.

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ٦٠).

(٢) العبودية (ص/ ٩٣).

(٣) المصدر نفسه (ص/ ٩٣).

وكذلك الرجاء وحده أورد العبد غرورا وأمنا من مكر الله، وإذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله.

وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بالله وقنط من رحمته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات. . . .والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كَلَّها[(١)] شيء، كالخائف الذي معه سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الطريق. والرجاء حاد يحدوها يطلب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وضلت عنها. فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدًا»[(٢)].

وتبين لنا من خلال البحث في العلاقة بين أعمال القلوب عند شيخ الإسلام رحمه الله ثبوت علاقة التضمن والتلازم بين أعمال القلوب، وكانت طريقته في بيان علاقة التضمن بين أعمال القلوب التنصيص عليها.

أما طريقته في بيان علاقة التلازم بين أعمال القلوب فظهرت من خلال النص على ثبوت التلازم بين الأعمال القلبية، ومن خلال بيان ثمرات أعمال القلوب، ومن خلال إثبات المقابلة بين أعمال القلوب، ومن خلال انتفاء بعضها إذا انتفى بعضها الآخر.

---

(١) أي: أتعبها وأثقلها، انظر: لسان العرب (١٣/ ١٠١)، مادة «كلل».

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠-٢١).



الفصل الثاني

منزلة أعمال القلوب من الإيمان

وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: ارتباط الظاهر بالباطن والعلاقة بينهما.

المبحث الثاني: العلاقة بين جوانب الإيمان.

المبحث الثالث: المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

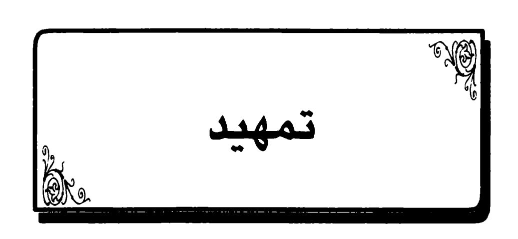
المبحث الرابع: أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الخامس: أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان.





المبحث الأول: ارتباط الظاهر بالباطن والعلاقة بينهما



تمهيد

تبين لنا فيما سبق أن الإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وتبين لنا المراد من كل جزء، كما تبين لنا أيضًا أن له أصلًا وفرعًا، أصله ما قام بالقلب وفرعه ما قام بالجوارح من الأعمال الظاهرة، والذي يهمنا في هذا المقام هو إظهار جانب آخر يدل على عظيم منزلة عمل القلب من الإيمان، ألا وهو ارتباط الظاهر بالباطن، والعلاقة بينها.



المطلب الأول

مفهوم علاقة التلازم بين الظاهر والباطن

ومفهوم التلازم بينهما هو ارتباط الظاهر بالباطن وتأثير كل منهما في الآخر، بحيث يستحيل وجود إيمان صحيح في الباطن من غير أن يظهر موجبه ومقتضاه على أعمال الجوارح قولًا وفعلًا، بل حيث وجد الإيمان في الباطن لزم أن ينفعل البدن بالممكن من أعمال الجوارح وهو الذي عبر عنه شيخ الإسلام بما مفاده أن وجود الإرادة الجازمة مع القدرة التامة يستلزم العمل، ويمنع معه ترك جميع الأعمال، وإلا لم يصح الإيمان أصلًا.

فالعمل الظاهر لازم للإيمان الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم، فيستدل بانتفاء العمل الظاهر بالكلية على فساد الباطن.

ولقد قرر السلف رحمهم الله هذا الأمر أيما تقرير وحرروه أيما تحرير، وذلك لعلمهم بعظم شأن هذا الأمر، وأن الخطأ والجهل به ليس كالخطأ والجهل بغيره، إذ كانت أحكام الدنيا والآخرة تتعلق بهذا الأمر العظيم.

وقد تعددت عبارات السلف في تقرير هذا الأمر وتأصيله، وفيما يلي أذكر بعض تلك العبارات[١]:

يقول الإمام الشافعي رحمه الله: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من

(١) للتوسع في كلام السلف وتعدد عبارتهم راجع الكتاب «قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة» لمؤلفه عادل بن محمد علي الشيخاني (ص/ ١٩٠-٢٢٩).

بعدهم ممن أدركناهم: أن الإيمان؛ قول وعمل ونية، ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر»[(١)].

ويقول الإمام الأوزاعي رحمه الله: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بنية موافقة للسنة، فكان من مضى ممن سلف لا يفرقون بين الإيمان، والعمل من الإيمان والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها وتصديقه العمل، فمن آمن بلسانه وعرف بقلبه وصدق ذلك بعمله فذلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه و لم يعرف بقلبه ولم يصدقه بعمله لم يقبل منه، وكان في الآخرة من الخاسرين»[(٢)].

وأُخبر عبد الله بن الزبير الحميدي[(٣)] رحمه الله أن أناسًا يقولون: من أقرّ بالصلاة والزكاة والصوم والحج ولم يفعل من ذلك شيئًا حتى يموت، ويصلي مستدبر القبلة حتى يموت فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا، إذا علم أن تركه ذلك فيه إيمانه إذا كان يقر بالفرائض واستقبال القبلة.

فقلت (الحميدي): «هذا الكفر الصراح وخلاف كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وفعل المسلمين، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البيّنة: ٥]»[(٤)].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٥٧).

(٢) المصدر نفسه (٥/ ٩٥٦).

(٣) هو أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى القرشي الحميدي المكي، قال عنه الحافظ ابن حجر: «ثقة حافظ فقيه أجل أصحاب ابن عيينة»، وقال عنه الحاكم: «كان البخاري إذا وجد الحديث عند الحميدي لا يعدوه إلى غيره»، انظر: تقريب التهذيب (١/ ٤٩٢).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٥٧).

ويقول أبو ثور[(١)] رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما الطائفة التي زعمت أن العمل ليس من الإيمان فيقال لهم ما أراد الله عَزَّوَجَلَّ من العباد إذ قال لهم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البَقَرَة: ٤٣] الإقرار بذلك؟ أوالإقرار والعمل؟ فإن قالت: إن الله أراد الإقرار ولم يرد العمل فقد كفرت عند أهل العلم، فإن قالت: أراد منهم الإقرار والعمل.

قيل: فإذا أراد منهم الأمرين جميعًا لم زعمتم أنه يكون مؤمنًا بأحدهما دون الآخر؟! وقد أرادهما جميعًا.

أرأيتم لوأن رجلًا قال: أعمل جميع ما أمر الله ولا أقر به أيكون مؤمنًا؟ فإن قالوا: لا. قيل لهم: فإن قال أقر بجميع ما أمر الله به ولا أعمل منه شيئًا أيكون مؤمنًا؟ فإن قالوا: نعم قيل لهم: ما الفرق؟ وقد زعمتم أن الله عَزَّوَجَلَّ أراد الأمرين جميعًا، فإن جاز أن يكون بأحدهما مؤمنًا إذا ترك الآخر جاز أن يكون بالآخر إذا عمل ولم يقر مؤمنًا، لا فرق بين ذلك.

فإن احتج فقال: لوأن رجلًا أسلم فأقر بجميع ما جاء به النبي ﷺ أيكون مؤمنًا بهذا الإقرار قبل أن يجيء وقت عمل؟ قيل له إنما نطلق له الاسم بتصديقه أن العمل عليه بقوله أن يعمله في وقته إذا جاء، وليس عليه في هذا الوقت الإقرار بجميع ما يكون به مؤمنًا، ولو قال: أقر ولا أعمل لم نطلق له اسم الإيمان»[(٢)].

ويقول شيخ الإسلام معلقًا على كلام أبي ثور: «قلت (شيخ الإسلام) يعني الإمام أبو ثور رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا يكون مؤمنًا إلا إذا التزم بالعمل مع

---

(١) وهو أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، صاحب الشافعي، مفتي العراق، أحد أئمة الدنيا فقهًا وعلمًا وورعًا وفضلاً وديانة وخيرًا، من الذابين عن السنة، توفي سنة ٢٤٠هـ، انظر: السير (١٢/ ٧٢)، وطبقات الشافعية (٢/ ٧٤)، وتقريب التهذيب (١/ ١٧١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٩٣٢-٩٣٣).

الإقرار، وإلا فلو أقر ولم يلتزم العمل لم يكن مؤمنًا. وهذا الاحتجاج الذي ذكره أبو ثور هو دليل على وجوب الأمرين: الإقرار والعمل وهو يدل على أن كلا منهما من الدين وأنه لا يكون مطيعًا لله ولا مستحقًّا للثواب ولا ممدوحا عند الله ورسوله إلا بالأمرين جميعًا، وهو حجة على من يجعل الأعمال خارجة عن الدين والإيمان جميعًا»[(١)].

وأبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن قرر أن الإيمان قول وعمل وأنه يزيد وينقص، ثم ذكر بعض الآيات التي تدل على التلازم بين الظاهر والباطن، ومنها قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عِمرَان: ١٤١].

ثم قال أبو عبيد: «أفلست تراه تبارك وتعالى، قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يرض منهم الإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر؟ فأي شيء يتبع بعد كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة»[(٢)].

وبعد ما ذكر قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٣٠٥).

(٢) الإيمان (ص/ ٣٤).

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال]، قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلم يجعل للإيمان حقيقة إلا بالعمل على هذه الشروط، والذي يزعمه أنه بالقول خاصة يجعله مؤمنًا حقا، وإن لم يكن هناك عمل، فهو معاند لكتاب الله والسنة»(١).

أما كلام شيخ الإسلام في هذا الموضوع فهو من أحسن الكلام وأمتنه، إذ بين هذا الأمر وفصل الكلام فيه بما لا يضع المجال لغيره أن يزيد فيه أو أن ينقص منه، وفند جميع الشبهات التي يتعلق بها المخالفون.

فبين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الظاهر والباطن، وهو كارتباط العلة بالمعلول والموجب مع موجبه، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملًا وجود هذا كاملًا، كما يلزم من نقص هذا نقص هذا، إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه وعلة تامة بلا معلولها وهذا ممتنع»(٢).

وبين أيضًا أن من التلازم بينهما (أنه لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح، بل متى نقصت الأعمال الظاهرة كان لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولًا للملزوم واللازم وإن كان أصله ما في القلب، وحيث عطفت عليه الأعمال فإنه أريد أنه لا يُكتفى بإيمان القلب، بل لا بد منه من الأعمال الصالحة)(٣).

وفي معرض بيان التلازم الضروري بين إيمان القلب والجوارح وأن

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ٣٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٢).
(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٥٧-١٥٨).

الظاهر تابع للباطن قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب**». وقال أبو هريرة: «القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده»(١)...، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد»(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة، والأعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان»(٣).

وقال أيضًا: «ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعا وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١/ ٢٢١) والبيهقي في الشعب (١/ ٢٥٧).
(٢) المصدر نفسه (ص/ ١٤٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤١).

القدرة أو لعدم كمال الإرادة وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري»[١].

وقال أيضًا: «الإيمان الذي في القلب من التصديق والحب وغير ذلك يستلزم الأمور الظاهرة من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، كما أن القصد التام مع القدرة يستلزم وجود المراد وأنه يمتنع مقام الإيمان الواجب في القلب من غير ظهور موجب ذلك ومقتضاه»[٢].

وقال: «وقد تبين أن الدين لا بد فيه من قول وعمل، وأنه يمتنع أن يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله بقلبه أو بقلبه ولسانه ولم يؤد واجبًا ظاهرًا، ولا صلاة ولا زكاة ولا صيامًا ولا غير ذلك من الواجبات، لا لأجل أن الله أوجبها مثل أن يؤدي الأمانة، أو يصدق الحديث، أو يعدل في قسمه وحكمه من غير إيمان بالله ورسوله، لم يخرج بذلك من الكفر، فإن المشركين وأهل الكتاب يرون وجوب هذه الأمور فلا يكون الرجل مؤمنًا بالله ورسوله مع عدم شيء من الواجبات التي يختص بإيجابها محمد ﷺ»[٣][٤].

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٢٧٢).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ١٢٠).

(٣) الإيمان الأوسط (ص/ ١٦٧).

(٤) قد تكلم شيخ الإسلام عن هذا الموضوع في أكثر من كتاب، منها:

- الإيمان الكبير، ط. المكتب الإسلامي، تحقيق: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، انظر (ص/ ١٠٨، ص/ ١١٦، ص/ ١٤٩، ص/ ١٦١، ص/ ٢٦١، ص/ ٣٠٥).
- الإيمان الأوسط، ط. دار طيبة، تحقيق: أبو يحيى محمود أبو سن، انظر (ص/ ٨٤، ص/ ٨٧، ص/ ٩٦، ص/ ٩٨، ص/ ٩٩، ص/ ١٢٠، ص/ ١٢٥، ص/ ١٢٧، ص/ ١٥٦، ص/ ١٦٧).
- مجموع الفتاوى، جمع وترتيب الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، انظر (١٠/ ٢٧٢، و ١٤/ ١٢٠-١٢١).
- اقتضاء الصراط المستقيم، ط. وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف ـ المملكة العربية السعودية، تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل، انظر (١/ ٩٢). =

وكذلك تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ يوضح هذا الأمر كل الوضوح، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا اذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الايمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته»(١).

وقال أيضًا: «فإنه يستحيل في العادة والطبيعة أن يكون الرجل مصدقا تصديقا جازما أن الله فرض عليه كل يوم وليلة خمس صلوات وأنه يعاقبه على تركها أشد العقاب وهو مع ذلك مصر على تركها، هذا من المستحيل قطعا فلا يحافظ على تركها مصدق بفرضها أبدًا، فإن الايمان يأمر صاحبه بها، فحيث لم يكن في قلبه ما يأمر بها فليس في قلبه شيء من الإيمان.

ولا تصغ إلى كلام من ليس له خبرة ولا علم بأحكام القلوب وأعمالها، وتأمل في الطبيعة بأن يقوم بقلب العبد إيمان بالوعد والوعيد، والجنة والنار، وأن الله فرض عليه الصلاة، وأن الله يعاقبه معاقبة على تركها، وهو محافظ على الترك في صحته وعافيته وعدم الموانع المانعة له من الفعل، وهذا القدر هو الذي خفي على من جعل الإيمان مجرد التصديق، وإن لم يقارنه فعل واجب ولا ترك محرم، وهذا من أمحل المحال أن يقوم بقلب العبد إيمان جازم لا يتقاضاه فعل طاعة ولا ترك معصية»(٢).

= - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ط. دار العاصمة، تحقيق: علي بن حسن بن طاهر وعبد العزيز إبراهيم العسكر وحمدان بن محمد الحمدان، انظر (٦/ ٤٨٧-٤٩١).
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، ط.دار المعالي، تحقيق ودراسة: محمد بن عبد الله عمر الحلواني ومحمد كبير أحمد شودري، انظر: (٣/ ٩٦٦).

(١) الفوائد (ص/ ١٢٤).
(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٦٠-٦١).

وقبل أن أختم هذا المطلب أريد أن أشير إلى مسألة؛ وهي أن هذا التلازم بين الظاهر والباطن هو بالنسبة لحال المؤمن وحكمه في الدار الآخرة، وأما حكمه في الدنيا فلا ينظر إلا إلى الظاهر، وتجري الأحكام الدنيوية على ما ظهر منها، وتُوكل السرائر إلى الله عالم السر وأخفى.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإيمان الظاهر الذي تجري عليه الأحكام في الدنيا لا يستلزم الإيمان في الباطن الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فإن المنافقين الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البَقَرَة: ٨]، في الظاهر مؤمنون يصلون مع الناس، ويصومون، ويحجون، ويغزون، والمسلمون يناكحونهم ويوارثونهم، كما كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر لا في مناكحتهم ولا موارثتهم ولا نحو ذلك»[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠).

المطلب الثاني

أدلة التلازم بين الظاهر والباطن

وقد دل على التلازم بين الظاهر والباطن أدلة كثيرة من القرآن والسنة والأثر، منها:

١ - قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الآية: «فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف «لو» التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط»(١).

وبعد ما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الآية والتي بعدها قال: «فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيمًا إلا مع استقامة الباطن وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر»(٢).

ويقول العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «فإن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط فدل على انتفاء المشروط، ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١] أي خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي، ومن فسقهم موالاة أعداء الله»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٦).

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٢٧٢).

(٣) تفسير السعدي (ص/ ٢٤١).

٢ ـ وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كانت الأقوال والأعمال الظاهرة لازمة ومستلزمة للأقوال والأعمال الباطنة كان يستدل بها عليها كما في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾، فأخبر أن من كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر لا يوجدون موادين لأعداء الله ورسوله، بل نفس الإيمان ينافي مودتهم، فإذا حصلت الموادة دل ذلك على خلل الإيمان وكذلك قوله: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]»(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا أفرد الإيمان أدخل فيه الأعمال الظاهرة لأنها لوازم ما في القلب، لأنه متى ثبت الإيمان في القلب والتصديق بما أخبر به الرسول وجب حصول مقتضى ذلك ضرورة، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه، فإذا ثبت التصديق في القلب لم يتخلف العمل بمقتضاه ألبتة، فلا تستقر معرفة تامة ومحبة صحيحة ولا يكون لها أثر في الظاهر، ولهذا ينفي الله الإيمان عمن انتفت عنه لوازمه، فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقوله: ﴿لَّا

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٢).

﴿تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية ونحوها، فالظاهر والباطن متلازمان لا يكون الظاهر مستقيما إلا مع استقامة الباطن وإذا استقام الباطن فلا بد أن يستقيم الظاهر ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»»[١].

ويقول العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمنًا بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملًا على مقتضى الإيمان ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرسا، لا يتزلزل، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك»[٢].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البينة: ٥]، قال أبو عثمان محمد بن محمد الشافعي[٣]: سمعت أبي يقول ليلة للحميدي؛

ما نحتج عليهم ـ يعني أهل الإرجاء ـ بآية أحج من قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] الآية[٤].

يقول شيخ الإسلام عن هذه الآية: «فإنه قصد أولًا: أن تكون العبادة

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٧٢).

(٢) تفسير السعدي (ص/٨٤٨).

(٣) هو أبو عثمان محمد ابن الإمام محمد بن إدريس الشافعي، كان أكبر أولاده، وكان قاضيا، توفي بالجزيرة بعد سنة أربعين ومائتين، انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٧١).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٥٦).

لله وحده لا لغيره، ثم أمر بالصلاة والزكاة ليعلم أنهما عبادتان واجبتان فلا يكتفي بمطلق العبادة الخالصة دونهما، وكذلك يذكر الإيمان أولا، لأنه الأصل الذي لا بد منه، ثم يذكر العمل الصالح فإنه أيضًا من تمام الدين لا بد منه، فلا يظن الظان اكتفاءه بمجرد إيمان ليس معه العمل الصالح»[١].

٤ ـ قد مر معنا الآيات التي استدل بها أبو عبيد القاسم بن سلام على تلازم بين الظاهر والباطن، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العَنكبوت].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العَنكبوت: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عِمرَان].

ثم قال أبو عبيد: «أفلست تراه تبارك وتعالى، قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يرض منهم الإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر؟ فأي شيء يتبع بعد كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، ومنهاج السلف بعده الذين هم موضع القدوة والإمامة»[٢].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

قد مر معنا كلام شيخ الإسلام رحمه الله على أن المحبة بالقلب مع التصديق يلزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وإذا قام بالقلب التصديق به

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٩).

(٢) الإيمان (ص/ ٣٤).

والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب. فكل منهما يؤثر في الآخر لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان»[(١)].

وهنا تتجلى بالوضوح العلاقة والتلازم بين الظاهر والباطن، فإنه إذا كان في القلب التصديق والحب والانقياد لكان لزاما أن ما يترتب على التصديق والحب والانقياد في الباطن امتثال الظاهر للعمل، وإلا فما قيمة التصديق والحب والانقياد؟ فهل يعقل أن يقول شخص:

يا رب إني مقر بأن ما جاء به نبيك حق، وصدقته في كل ما جاء به، وإني أحبك ومنقاد لأمرك، ثم لا يأتي في الظاهر بأعمال الجوارح؟ أيكون هذا الرجل صادقا في كلامه؟ وحتى لو قال شخص لآخر: إن قلبي قد امتلأ بحبك وأنه أصبح منقادًا لك بالحب والطاعة والإخلاص، ثم لما يطلب الشخص الثاني من الأول أن يعطيه دراهم معدودة فيأبى الأول ذلك! فهل يصدق الثاني حب الأول وإخلاصه؟ بل يقول له أنت أكذب الكاذبين فهذا في حق البشر! فكيف في حق رب البشر، ولله المثل الأعلى[(٢)].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤١).

(٢) قواعد في بيان حقيقة الإيمان (ص/ ٢٤٠)، بتصرف يسير.

كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)][(٢)].

ويقول العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي﴾ [آل عِمرَان: ٣١] أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًّا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص»[(٣)].

٦ ـ ومن أقوى الأدلة من السنة على التلازم بين الظاهر والباطن هو ما رواه البخاري ومسلم من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الحلال بيِّن والحرام بين، وبينهما مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كراع يرعى حول الحمى يكاد أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧١٤)، في كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور.

(٢) تفسير ابن كثير (١/٤٦٧).

(٣) تفسير السعدي (ص/١٢٨).

صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»(١).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلب هو الأصل فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل، فالإيمان المطلق كما قال أئمة أهل الحديث قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر وإذا فسد فسد»(٢).

وقال أيضًا: «والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث الملك خبثت جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله**»، وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد وإذا كان المقدم هو الأوجب»(٣).

وقال: «فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمنًا»(٤).

ويقول ابن رجب في شرحه لهذا الحديث: «فإن كان قلبه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧).

(٣) المصدر نفسه (١١/ ٣٨١).

(٤) المصدر نفسه (١٤/ ١٢١).

صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسدًا، قد استولى عليه اتباع هواه، وطلبه ما يحبه، ولو كره الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلب ملك الأعضاء، وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدا كانت جنوده بهذه المثابة فاسدة»[١].

٧ ـ ومن أقوال السلف ما روى ابن أبي شيبة عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: «إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، وإنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»[٢].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مراد الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ من هذا القول: «وقوله: «ليس الإيمان بالتمني» يعني الكلام، وقوله: «بالتحلي» يعني أن يصير حلية ظاهرة له فيظهره من غير حقيقة من قلبه، ومعناه ليس هو ما يظهر من القول ولا من الحلية الظاهرة ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، فالعمل يصدق أن في القلب إيمانًا، وإذا لم يكن عمل كذب أن في قلبه إيمانًا، لأن ما في القلب مستلزم للعمل الظاهر، وانتفاء اللازم يدل على انتفاء الملزوم»[٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (ص/ ٢١٠).

(٢) الإيمان (ص/ ٦٥) لابن أبي شيبة.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٩٤).

المطلب الثالث

إنكار المرجئة للتلازم بين الظاهر والباطن

قد أسلفنا أن من الناس من تنازع في إدخال أعمال القلوب في الإيمان، وقلنا أنهم قلة من المرجئة، وهم الذين وافقوا الجهم والصالحي وسيأتي الرد عليهم في الفصل الثالث من هذه الرسالة، ولكن عدم إدخال أعمال الجوارح في الإيمان هو مما اتفق عليه المرجئة، ثم مع أنهم أخرجوا العمل من الإيمان، فإن كثيرًا منهم لا يخالف في أن العمل الظاهر ثمرة للباطن وليس لازما له، ومن سلّم منهم بالتلازم بينهما كان النزاع معه لفظيا، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن المرجئة لا تنازع أن الإيمان الذي في القلب يدعو إلى فعل الطاعة ويقتضي ذلك، والطاعة من ثمراته ونتائجه، لكنها تنازع هل يستلزم الطاعة»[1].

ويبين شيخ الإسلام أن قول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان، وفي نفس الوقت يوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين أن الأعمال ثمرة للإيمان أو ملازمة له، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقول القائل: الطاعات ثمرات التصديق الباطن يراد به شيئان:

يراد به أنها لوازم له فمتى وجد الإيمان الباطن وجدت، وهذا مذهب السلف وأهل السنة.

ويراد به أن الإيمان الباطن قد يكون سببًا وقد يكون الإيمان الباطن تامًّا كاملًا وهي لم توجد، وهذا قول المرجئة من الجهمية وغيرهم»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠).

(٢) المصدر نفسه (٧/ ٣٦٣).

ولعله بهذا الكلام يتضح لنا الفرق بين كلام أهل السنة والمرجئة، وبين كون العمل ملازما للإيمان وليس ثمرة له.

ويوضح شيخ الإسلام هذه المسألة أكثر حين يتكلم عن أغلاط المرجئة، ومنها؛ ظنهم أن ما في القلب من الإيمان ليس إلا التصديق فقط دون أعمال القلوب، كما تقدم عن جهمية المرجئة، قال رحمه الله: «الثالث (من أغلاط المرجئة) ظنهم أن الإيمان الذي في القلب يكون تاما بدون شيء من الأعمال، ولهذا يجعلون الأعمال ثمرة الإيمان ومقتضاه بمنزلة السبب مع المسبب ولا يجعلونها لازمة له، والتحقيق أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر بحسبه لا محالة، ويمتنع أن يقوم بالقلب إيمان تام بدون عمل ظاهر، ولهذا صاروا يقدرون مسائل يمتنع وقوعها لعدم تحقق الارتباط الذي بين البدن والقلب، مثل أن يقولوا: رجل في قلبه من الإيمان مثل ما في قلب أبي بكر وعمر وهو لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم رمضان، ويزني بأمه وأخته، ويشرب الخمر نهار رمضان، يقولون: هذا مؤمن تام الإيمان فيبقى سائر المؤمنين ينكرون ذلك غاية الإنكار»[١].

وقال رحمه الله: «وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام، فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «**الإسلام علانية والإيمان في القلب**»[٢]، والإيمان: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره**»[٣].

ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه إبن أبي شيبة في الإيمان (ص/ ٢٧)، وضعفه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٣٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، ووجوب الإيمان بإثبات قدرالله سبحانه وتعالى.

هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له، وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنًا ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه، كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد.

وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانًا جازمًا، امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة، فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام، وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة، فإن هذا ممتنع، إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة، فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبًا جازمًا وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك»[(١)(٢)].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فكل إسلام ظاهر لا ينفذ صاحبه منه إلى حقيقة الإيمان الباطنة فليس بنافع حتى يكون معه شيء من الإيمان الباطن، وكل حقيقة باطنة لا يقوم صاحبها بشرائع الإسلام الظاهرة لا تنفع ولو كانت ما كانت، فلو تمزق القلب بالمحبة والخوف ولم يتعبد بالأمر وظاهر الشرع لم ينجه ذلك من النار، كما أنه لو قام بظواهر الإسلام وليس في باطنه حقيقة الإيمان لم ينجه من النار»[(٣)].

قال أيضًا رحمه الله: «قاعدة: الإيمان له ظاهر وباطن؛ وظاهره قول اللسان وعمل الجوارح، وباطنه تصديق القلب وانقياده ومحبته.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥٣).

(٢) انظر: الإيمان عند السلف وعلاقته بالعمل، وكشف شبهات المعاصرين (١/ ٢٢٢-٢٢٦)، تأليف: محمد بن محمود آل خضير.

(٣) الفوائد (ص/ ٢٠٧-٢٠٨).

فلا ينفع ظاهر لا باطن له، وإن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزئ باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك.

فتخلف العمل ظاهرًا مع عدم المانع دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان ونقصه دليل نقصه وقوته دليل قوته»[(١)].

وأختم هذا المبحث بكلام الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يبين خطورة القول بعدم التلازم بين الظاهر والباطن، وأن من يقول بعدم التلازم بينهما يلزمه ضرورة أن يصحح ما عليه اليهود والنصارى والمشركون، وأنه لولا ثبوت هذا التلازم لما عرف الإسلام من الجاهلية، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وزعمت هذه الفرقة أن الله رضي عنهم بالمعرفة، ولو كان أمر الله ودينه على ما يقول هؤلاء ما عُرِف الإسلام من الجاهلية، ولا فُرِّقت الملل بعضها من بعض؛ إذ كان يرضى منهم بالدعوى على قلوبهم، غير إظهار الإقرار بما جاءت به النبوة، والبراءة مما سواها، وخلع الأنداد والآلهة بالألسنة بعد القلوب.

ولو كان هذا يكون مؤمنًا، ثم شهد رجل بلسانه أن الله ثاني اثنين - كما يقول المجوس والزنادقة -، أو ثالث ثلاثة - كقول النصارى - وصلَّى للصليب، وعبد النيران، بعد أن يكون قلبه على المعرفة بالله؛ لكان يلزم قائل هذه المقالة أن يجعله مؤمنًا مستكملًا الإيمان، كإيمان الملائكة والنبيين، فهل يلفظ بهذا أحد يعرف الله، أو مؤمن له بكتاب، أو رسول؟ وهذا عندنا كفر لن يبلغه إبليس فمن دونه من الكفار قط»[(٢)].

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ١٢٤).

(٢) الإيمان (ص/ ٦١/ ٦٢).



المبحث الثاني:
العلاقة بين جوانب الإيمان



المطلب الأول
العلاقة بين قول القلب وعمله

تقدم أن الإيمان مركب من أصل وفرع، وأصله هو ما قام بالقلب وفرعه ما قام بالجوارح من الأعمال الظاهرة، ثم إن هذا الأصل الذي في القلب يتضمن قول القلب الذي هو التصديق وعمل القلب مثل المحبة والخوف والرجاء، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيئين: تصديق بالقلب وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب، قال الجنيد بن محمد: التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب، فلا بد فيه من قول القلب وعمله، ثم قول البدن وعمله ولا بد فيه من عمل القلب مثل حب الله ورسوله، وخشية الله، وحب ما يحبه الله ورسوله، وبغض ما يبغضه الله ورسوله، وإخلاص العمل لله وحده، وتوكل القلب على الله وحده، وغير ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله وجعلها من الإيمان»[1].

وفي هذا المطلب سنحاول أن نوضح العلاقة بين قول القلب وعمله، وأن مجموعهما يسمى إيمانًا، وأنه لا يكفي قول القلب بدون العمل.

وقد بين شيخ الإسلام أن هناك تلازمًا بين قول القلب وعمل القلب، وأن قول القلب إذا كان صادقًا وجازمًا فإنه يستلزم عمل القلب، فإذا عرف العبد ربه أحبه وعبده استوجب ذلك حصول أعمال القلوب بحسب هذه المعرفة، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إن معرفة الشيء المحبوب تقتضي

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٦).

حبه، ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه، فنفس العلم والتصديق بالله وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له، وتعظيمه، وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته، والإرادة الجازمة مع القدرة تستلزم وجود المراد ووجود المقدور عليه منه»(١).

وقال أيضًا: «إن الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لابد أن يوجب حالًا في القلب وعملًا له، وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم كالتألم والتنعم عند الإحساس بالمؤلم والمنعم، وكالنفرة والشهوة عند الشعور بالملائم والمنافي، فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق ولم يغن شيئًا»(٢).

ثم يقرر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن الإيمان ليس مجرد التصديق فقط، بل هو إقرار وطمأنينة الذي يتضمن الحب والانقياد والقبول، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «إن الإيمان وإن كان يتضمن التصديق فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد والاستسلام وهو عمل في القلب، جماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق والأمر بالانقياد فقد حصل أصل الإيمان في القلب وهو الطمأنينة والإقرار، فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد»(٣).

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٥).
(٢) الصارم المسلول (٣/ ٩٦٦).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٩٦٦-٩٦٧).

ويقول أيضًا: «وفي الجملة فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة الله ورسوله ليس إيمانًا باتفاق المسلمين»[(١)].

ويقول أيضًا: «التصديق من الإيمان ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانًا ألبتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية»[(٢)].

ويبين شيخ الإسلام أن أصل الإيمان هو ما قام بالقلب، وأنه لا يصير الرجل مسلمًا إلا إذا اجتمع في قلبه التصديق والانقياد، يقول رحمه الله: «فإن الدين قول وعمل، وأوله قول القلب وعمله، فمن لم يَنقد بقلبه ولم يذل لله لم يكن مؤمنًا، ولا داخلا في طريق الله»[(٣)].

ويوضح شيخ الإسلام أيضًا أن معرفة القلب وحده لا تكفي ولا تنفع صاحبها، ما لم يقترن بها عمل القلب، يقول رحمه الله: «فمجرد علم القلب بالحق إن لم يقترن به عمل القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له، واتباع القلب له لم ينفع صاحبه، بل أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفع الله بعلمه، وقد كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ونفس لا تشبع، ودعاء لا يسمع، وقلب لا يخشع**»[(٤)][(٥)].

ويقول أيضًا: «فمجرد معرفة قلبه أنه رسول الله مع الإعراض عن الانقياد

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٠٧).

(٣) الاستقامة (١/ ١٤٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٩٠)، في كتاب الذكر والدعاء، باب التعوذ من شرّ ما عُمل ومن شرّ ما لم يُعمل.

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧١).

له ولما جاء به، إما حسدًا وإما كبرًا، وإما لمحبة دينه الذي يخالفه وإما لغير ذلك فلا يكون إيمانًا، ولا بد في الإيمان من علم القلب وعمله»(١).

ويبين شيخ الإسلام أن الإنسان مفطور على قول القلب المقتضي لعمله، ما دامت الفطرة صحيحة، والقلب سليمًا من المعارض المانع من عمله واستسلامه وانقياده من الشهوات أو الشبهات، قال شيخ الإسلام: «وفي الجملة، فلا بد في الإيمان الذي في القلب من تصديق بالله ورسوله، وحب الله ورسوله، وإلا فمجرد التصديق مع البغض لله ولرسوله، ومعاداة الله ورسوله، ليس إيمانًا باتفاق المسلمين، وليس مجرد التصديق والعلم يستلزم الحب إلا إذا كان القلب سليمًا من المعارض كالحسد والكبر، لأن النفس مفطورة على حب الحق وهو الذي يلائمها، ولا شيء أحب إلى القلوب السليمة من الله...

فليس مجرد العلم موجبًا لحب المعلوم، إن لم يكن في النفس قوة أخرى تلائم المعلوم وهذه القوة موجودة في النفس، وكل من القوتين تقوى بالأخرى، فالعلم يقوي العمل والعمل يقوي العلم، فمن عرف الله وقلبه سليم أحبه، وكلما ازداد له معرفة ازداد حبه له، وكلما ازداد حبه له ازداد ذكره له ومعرفته بأسمائه وصفاته، فإن قوة الحب توجب كثرة ذكر المحبوب...»(٢).

وإذا تقرر هذا التلازم والترابط بين قول القلب وعمله، فليعلم أنه إذا زال قول القلب فهو كفر التكذيب، وإذا زال عمل القلب مع وجود قول القلب فهو كفر الإباء والاستكبار، ولهذا لم يوصف إبليس إلا بكفر الإباء والاستكبار دون التكذيب(٣).

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٣١١).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٨٣-٨٤).

(٣) انظر: الصارم المسلول (٣/ ٩٦٧-٩٦٨).

ويوضح شيخ الإسلام حقيقة التلازم بين قول القلب وعمله بعمل قلبي من أهم أعمال القلوب ألا وهو اليقين: «وأما اليقين فهو طمأنينة القلب، واستقرار العلم فيه وهو معنى ما يقولون: (ماء يقن) إذا استقر عن الحركة، وضد اليقين الريب، وهو نوع من الحركة والاضطراب...

ثم اليقين ينتظم منه أمران: علم القلب، وعمل القلب. فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم، كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم تكن ضدًّا لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك»[1].

وكذلك ابن القيم يبين هذه الحقيقة بعمل قلبي آخر ألا وهو التوكل، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله.

أما علمه؛ فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله؛ فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جماعه... كما قال الإمام أحمد (التوكل عمل القلب)، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته»[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٩).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٣٨٩).

المطلب الثاني

العلاقة بين تصديق القلب وقول اللسان

فإذا ثبت عند الشخص أصل الإيمان وهو ما يتعلق بالقلب قولا وعملا، فينبغي أن يعرف أنه لا بد من قول اللسان، فهو الأصل في ثبوت وصف الإيمان ـ في الظاهر ـ وقد جاءت أدلة كثيرة تؤكد هذا الأمر، منها قول الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾ [آل عمران].

وقال النبي ﷺ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله**»[(١)].

وقد أكد علماء السلف على أهمية هذه العلاقة أيضا، فها هو أبو ثور رحمه الله يقول: «ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله عز وجل واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس مسلم، ولو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٨٧)، في كتاب الجهاد والسير، باب دعا النبي ﷺ إلى الإسلام، ومسلم في صحيحه (ص/٤٣)، في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله.

قال: المسيح هو الله وجحد أمر الإسلام، قال: لم يعتقد قلبي على شيء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك و ليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار ـ إذا لم يكن معه التصديق ـ مؤمنًا، ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمنًا حتى يكون مصدقا بقلبه مقرًّا بلسانه»[١].

وهذا ابن حزم يؤكد على أهمية قول اللسان فيقول: «من اعتقد الإيمان بقلبه، ولم ينطق به لسانه دون تقية، فهو كافر عند الله وعند المسلمين»[٢].

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأما الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنًا وظاهرًا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها»[٣].

ويبين شيخ الإسلام العلاقة التلازمية بين اعتقاد القلب وإقرار اللسان فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة، لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعًا، وإنما ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة، أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري، فإذا أقر القلب إقرارًا تامًّا، بأن محمدًا رسول الله وأحبه محبة تامة، امتنع مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك، لكن إذا كان عاجزا لخرس ونحوه، أو لخوف ونحوه لم يكن قادرًا على النطق بهما»[٤].

ويبين شيخ الإسلام أنه حتى في اللغة ما يقال للرجل الذي لا يأتي

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٩٣٢).
(٢) المحلى (١/ ٤٠).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٠٩).
(٤) المصدر نفسه (١٠/ ٢٧٢).

بقول اللسان هو مؤمن، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولهذا لم يجعل الله أحدا مصدقا للرسل بمجرد العلم والتصديق الذي في قلوبهم، حتى يصدقوهم بألسنتهم، ولا يوجد في كلام العرب أن يقال: فلان صدق فلانا أو كذبه، إذ كان يعلم بقلبه أنه صادق أو كاذب ولم يتكلم بذلك»(١).

ويقول أيضًا: «فلا يوجد قط في كلام العرب أن من علم وجود شيء مما يخاف ويرجى ويجب حبه وتعظيمه، وهو مع ذلك لا يحبه ولا يعظمه ولا يخافه ولا يرجوه، بل يجحد به ويكذب به بلسانه أنهم يقولون: هو مؤمن، بل ولو عرفه بقلبه وكذب به بلسانه لم يقولوا: هو مصدق به»(٢).

ويبين شيخ الإسلام أيضًا أن من صدق بقلبه ولم يتكلم بلسانه، لا يتعلق به شيء من أحكام الدنيا والآخرة، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما من صدق بقلبه ولم يتكم بلسانه، فإنه لا يتعلق به شيء من أحكام الإيمان، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يدخل في خطاب الله لعباده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحديد: ٢٨]»(٣).

وقبل أن أختم هذا المطلب أريد أن أنبه إلى أمرين مهمين:

الأول: هو كما أن مجرد اعتقاد القلب لا ينفع إذا لم يقترن معه قول اللسان وعمل الجوارح، فكذلك قول اللسان وأعمال الجوارح المجردة عن قول القلب وعمله لا تنفع، بل هو قول المنافقين الذين يبطنون شيئًا ويظهرون شيئًا آخر، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن حقق قوله بعمله فهو مؤمن صادق، ومن قال بلسانه ما ليس في قلبه فهو كاذب منافق»(٤).

---

(١) الإيمان الكبير (ص/١٠٩).

(٢) الإيمان الكبير (ص/١٠٤).

(٣) المصدر نفسه (ص/١١٥).

(٤) المصدر نفسه (ص/١٤٦).

ويقول أيضًا: «وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين التي لا يتقبلها الله»[(١)].

ويقول أيضًا: «فمن كان ظاهره أعمال الإسلام ولا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافق نفاقا ينقل عن الملة، ومن كان عقده الإيمان بالغيب ولا يعمل بأحكام الإيمان وشرائع الإسلام فهو كافر كفرا لا يثبت معه توحيد، ومن كان مؤمنًا بالغيب مما أخبرت به الرسل عن الله عاملًا بما أمر الله فهو مؤمن مسلم»[(٢)].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما، وهل يمكن أحدا الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه، وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح»[(٣)].

الثاني: ليس المقصود بالنطق بالشهادتين مجرد الإخبار عما في النفس من العلم والجزم بأن لا إله إلا الله، بل لا بد أن يكون ذلك على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد، ولهذا لم ينفع اليهود ولا غيرهم اعترافهم بأن النبي ﷺ رسول الله مع قولهم لا إله إلا الله، لأن ذلك كان على سبيل الإخبار دون التزام وانقياد لشريعته، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأيضًا فقد جاء نفر من اليهود إلى النبي فقالوا: نشهد إنك لرسول ولم يكونوا مسلمين بذلك، لأنهم قالوا ذلك على سبيل الإخبار عما في أنفسهم

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٦).
(٢) المصدر نفسه (٧/ ٣٣٣).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٨).

أي: نعلم ونجزم أنك رسول الله، قال: فلم لا تتبعوني؟ قالوا: نخاف من يهود، فعلم أن مجرد العلم والإخبار عنه ليس بإيمان حتى يتكلم بالإيمان على وجه الإنشاء المتضمن للالتزام والانقياد مع تضمن ذلك الإخبار عما في أنفسهم.

فالمنافقون قالوا مخبرين كاذبين فكانوا كفارًا في الباطن وهؤلاء قالوها غير ملتزمين ولا منقادين فكانوا كفارًا في الظاهر والباطن»[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٦١)، وانظر: الصارم المسلول (٣/ ٩٦٨-٩٦٩).

المطلب الثالث

العلاقة بين تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح

تقدم في المبحث السابق ـ الارتباط بين الظاهر والباطن والعلاقة بينهما ـ شيء من كلام أهل العلم في تقرير هذه المسألة وتوضيحها، وهذا المطلب سيكون تتمة لما بدأناه في ذلك المبحث، وهو بيان العلاقة بين تصديق القلب وقول اللسان وعمل الجوارح، لأنه متى كان التصديق في القلب جازما وأقر به اللسان نطقا تحقق العمل بالجوارح فعلا لا محالة، وهذا مما يدل على شدة التلازم فيما بينها، وقد أوضح علماء السلف هذا الأمر أيما إيضاح، فهذا الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «لا يستقيم الإيمان إلا بالقول، ولا يستقيم الإيمان والقول إلا بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلا بموافقة للسنة»(١).

ويقول الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالأعمال ـ رحمكم الله ـ بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بعمله بجوارحه مثل الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمنًا، ولم تنفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبًا لإيمانه وكان العمل بما ذكرناه تصديقا منه لإيمانه»(٢).

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ٩٥٦).

(٢) كتاب الشريعة (ص/ ١٢٢).

ويقول ابن بطة رَحِمَهُ اللهُ: «اعلموا - رحمكم الله - أن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه فرض على القلب المعرفة به، والتصديق له ولرسله ولكتبه، وبكل ما جاءت به السنة، وعلى الألسن النطق بذلك والإقرار به قولا، وعلى الأبدان والجوارح العمل بكل ما أمر به، وفرضه من الأعمال لا تجزئ واحدة من هذه إلا بصاحبتها، ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بأن يجمعها كلها حتى يكون مؤمنًا بقلبه، مقرا بلسانه، عاملًا مجتهدًا بجوارحه، ثم لا يكون أيضًا مع ذلك مؤمنًا حتى يكون موافقًا للسنة في كل ما يقوله ويعمله، متبعا للكتاب والعلم في جميع أقواله وأعماله، وبكل ما شرحته لكم نزل به القرآن، ومضت به السنة، وأجمع عليه علماء الأمة.... وأما الإيمان بما فرضه الله عَزَّ وَجَلَّ من العمل بالجوارح تصديقًا لما أيقن به القلب ونطق به اللسان فذلك في كتاب الله تعالى يكثر على الإحصاء وأظهر من أن يخفى»[١].

أما شيخ الإسلام فقد بين هذا التلازم بين هذه الجوانب الثلاث في مواضع كثيرة من كتبه، وسأكتفي بذكر شيء منها، يقول رَحِمَهُ اللهُ شارحا العلاقة التركيبية والتلازمية بين جوانب الإيمان: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، ومعنى ذلك أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح.

فأما قول القلب فهو التصديق الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ، ثم الناس في هذا على أقسام.... وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله، وتعظيم الله ورسوله، وتعزير الرسول وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه إلى غير ذلك من الأحوال فهذه الأعمال

(١) الإبانة الكبرى (٢/ ٧٦٠-٧٦١).

القلبية كلها من الإيمان وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة للمعلول.

ويتبع الاعتقاد قول اللسان، ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك»[١].

ثم يؤكد شيخ الإسلام على التلازم بين هذه الجوانب، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهنا أصول تنازع الناس فيها، منها أن القلب هل يقوم به تصديق أو تكذيب ولا يظهر قط منه شيء على اللسان والجوارح، وإنما يظهر نقيضه من غير خوف؟ فالذي عليه السلف والأئمة وجمهور الناس أنه لا بد من ظهور موجب ذلك على الجوارح، فمن قال: إنه يصدق الرسول ويحبه ويعظمه بقلبه، ولم يتكلم قط بالإسلام ولا فعل شيئًا من واجباته بلا خوف فهذا لا يكون مؤمنًا في الباطن، وإنما هو كافر... وقد قال النبي ﷺ: «**إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، فبين أن صلاح القلب مستلزم لصلاح الجسد، فإذا كان الجسد غير صالح دل على أن القلب غير صالح، والقلب المؤمن صالح فعلم أن من يتكلم بالإيمان ولا يعمل به لا يكون قلبه مؤمنًا... وأما إذا لم يظهر أثر ذلك لا بقوله ولا بفعله قط، فإنه يدل على أنه ليس في القلب إيمان»[٢].

ويقول أيضًا: «فالإيمان لا بد فيه من تصديق القلب وعمله وهذا معنى قول السلف: الإيمان قول وعمل، ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزم وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعًا، وإنما ينتفي وجود الفعل

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٢٠-١٢١) باختصار.

لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الإرادة وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري»[(١)].

ويبين شيخ الإسلام أنه من الممتنع أن يكون الإيمان في الباطن ولا يظهر شيء منه في اللسان والجوارح يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإلا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والانقياد باطنًا، ولا يحصل ذلك في الظاهر مع القدرة عليه، كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد.

وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانًا جازمًا امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة، فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام، وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه في زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة، فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل الإيمان التام في القلب إلا ويحصل في الظاهر موجبه بحسب القدرة، فإن من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبًّا جازمًا وهو قادر على مواصلته، ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك»[(٢)].

ووضح شيخ الإسلام أن الله نفى الإيمان عمن صدق بالقلب ونطق باللسان ولم يأت بالعمل، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «بل قد نفى الله الإيمان عمن قال بلسانه وقلبه إذالم يعمل، قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]»[(٣)].

كما يبين شيخ الإسلام أن من صدق بقلبه ولم يأت بأعمال القلوب واللسان والجوارح فليس بمؤمن، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن النصوص التي تنفي

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٢٧٢).

(٢) الإيمان الأسط (ص/ ٩٨).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١١٦).

الإيمان عمن لا يحب الله ورسوله، ولا يخاف الله ولا يتقيه، ولا يعمل شيئًا من الواجب، ولا يترك شيئًا من المحرم كثيرة صريحة»[١].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا: «والسلف يقولون: الرسول وقفنا على معاني الإيمان وبينه لنا، وعلمنا مراده منه بالاضطرار، وعلمنا من مراده علما ضروريا أن من قيل: إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان مع قدرته على ذلك، ولا صلى ولا صام، ولا أحب الله ورسوله، ولا خاف الله، بل كان مبغضًا للرسول معاديًا له يقاتله، أن هذا ليس بمؤمن»[٢].

وأختم هذه النقول بكلام نفيس لشيخ الإسلام أيضا، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «واعلم أن الإيمان وإن قيل هو التصديق فالقلب يصدق بالحق، والقول يصدق ما في القلب، والعمل يصدق القول، والتكذيب بالقول مستلزم للتكذيب بالقلب، ورافع للتصديق الذي كان في القلب، إذ أعمال الجوارح تؤثر في القلب كما أن أعمال القلب تؤثر في الجوارح، فأيهما قام به كفر تعدّى حكمه إلى الآخر، والكلام في هذا واسع، وإنما نبهنا على هذه المقدمة»[٣].

وتلخيصًا لما سبق أقول: إن ثبوت التلازم بين تصديق القلب وإقرار اللسان وعمل الجوارح يدل على أن تصديق القلب أصل الإيمان، وإن ثبوت التلازم بين هذه الجوانب الثلاثة يدل على أن قول اللسان وعمل الجوارح بدون تصديق القلب هو حال المنافقين، وإن ثبوت التلازم بين اعتقاد القلب وعمله يدل على أن اعتقاد القلب لا ينفع بدون عمله، وعليه فإن تصديق القلب الذي هو أصل الإيمان لا ينفع مع انتفاء عمل القلب وهذا يدل على أهمية أعمال القلوب وعظيم منزلتها من الإيمان.

---

(١) المصدر نفسه (ص/ ١٠٧).
(٢) المصدر نفسه (ص/ ١٠٨).
(٣) الصارم المسلول (٣/ ٩٧٦).

تنبيه: وفي الأخير أريد أن أنبه إلى أمر مهم جدًّا، وهو أننا بعد أن بينا التلازم القوي بين الظاهر والباطن، وبينا التلازم بين جوانب الإيمان، يرد علينا سؤال هام وهو: ما هو الفرق بين قول أهل السنة ومذهب الوعيدية في عدم إتيان الرجل بالعمل؟

الجواب: حين يجعل أهل السنة العمل ركنًا من الإيمان لا يتم الإيمان إلا به، لا يعني ذلك أنهم يوافقون بهذا مذهب الوعيدية في الإيمان، لأن أهل السنة يقولون: يزول الإيمان إذا زال العمل جميعه أو الصلاة عند بعضهم، ومنهم من يقول بزوال الإيمان إذا زالت بعض أركان الإسلام الأخرى كالزكاة، أو الصوم، أو الحج، ولا يقولون بزوال الإيمان بزوال بعض أجزائه مطلقًا.

أما أهل الوعيد من الخوارج والمعتزلة وغيرهم، فهم يرون أن الإيمان يزول ببعض أفراده حتى وإن كانت من غير أركان الإسلام، فعندهم أن من ارتكب كبيرة من كبائر الذنوب مثل

السرقة، أو الزنا، أو شرب الخمر أنه يخرج من الإيمان وهذا لا يقوله أحد من أهل السنة، والحمد لله[1].

---

(١) منزلة العمل من الإيمان عند أهل السنة (ص/١١٦)، لشيخنا صالح بن محمد العقيل، مطبوع ضمن مجلة البحوث الإسلامية، (العدد/٧٨)، تصدر عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية .



المبحث الثالث:

المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح

تمهيد

تقدم أن العمل عند أهل السنة من الإيمان، وأن العمل منقسم إلى أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وقد أشرنا إلى أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح وأنها أصل الإيمان، وفي هذا المبحث سأحاول أن أبين أوجه المفاضلة(١) بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

فإن الناظر في الكتاب والسنة يجد فيهما الاهتمام الكبير والعناية الفائقة بهذا القلب وأعماله، وأنها موقع الأرواح من الأجساد، وتقوم مقام جذور الشجرة من السوق والفروع والأغصان، فكيف يكون حال الأجساد إذا نزعت منها الأرواح؟ وكيف تكون شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار؟

وتظهر أفضلية أعمال القلوب على أعمال الجوارح وأنها مقدمة عليها من خلال جوانب متعددة:

---

(١) المفاضلة هي المقارنة بين شيئين أو جهتين وتغليب أحدهما على الآخر، وهي تدور على أركان أربعة هي: الفاضل، والمفضول، وسبب الفضل ووجهه، والمُفَضِّل الحاكم بالفضل، وجماعه هو في مورد الفضل وسببه ووجهه، انظر: مباحث المفاضلة في العقيدة (ص/ ١٣، و-١٧) لشيخنا محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الشظيفي.



المطلب الأول

القلب هو الملك المتصرف بالجوارح

فمما يدل على كون أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح، أن الله خلق الأعضاء لتؤدي وظيفة ما، وكذلك القلب، إلا أن القلب هو كالملك المتصرف بها، والأعضاء جنوده، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم إن الله تَعَالَىٰ خلق القلب للإنسان يعلم به الأشياء، كما خلق له العين يرى بها الأشياء، والأذن يسمع بها الأشياء، كما خلق له سبحانه كل عضو من أعضائه لأمر من الأمور وعمل من الأعمال، فاليد للبطش والرجل للسعي واللسان للنطق والفم للذوق والأنف للشم والجلد للمس، وكذلك سائر الأعضاء الباطنة والظاهرة... ثم إن سيد الأعضاء ورأسها هو القلب، كما سمي قلبا، قال النبي ﷺ: **«إن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**، وقال ﷺ: **«الإسلام علانية والإيمان في القلب»**، ثم أشار بيده إلى صدره وقال: **«ألا إن التقوى هاهنا ألا إن التقوى هاهنا»**(١)»(٢).

ثم يوضح شيخ الإسلام أن تعطيل بعض الأعضاء عن وظائفها كالصم والبكم والعمي أصلها تحصل في القلب، ويبين أن القلب يتصرف بها كما يتصرف الملك بجنده، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال (الله تعالى) عن المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ [البَقَرَة]، ومن الناس من يقول؛ لما لم ينتفعوا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٥)، كتاب البر والصلاة والآداب، كتاب تحريم ظلم المسلم.

(٢) مجموع الفتاوى (٩/٣٠٨)، باختصار.

بالسمع والبصر والنطق، جُعلوا صمًّا بكمًا عميًا، أو لما أعرضوا عن السمع والبصر والنطق صاروا كالصم العمي البكم، وليس كذلك، بل نفس قلوبهم عميت وصمت وبكمت كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]، والقلب هو الملك والأعضاء جنوده، وإذا صلح صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد، فيبقى يسمع بالأذن الصوت كما تسمع البهائم، والمعنى: لا يفقهه وإن فقه بعض الفقه لم يفقه فقها تاما، فإن الفقه التام يستلزم تأثيره في القلب محبة المحبوب وبغض المكروه، فمتى لم يحصل هذا لم يكن التصور التام حاصلًا فجاز نفيه، لأن ما لم يتم ينفى كقوله للذي أساء في صلاته: «**صل، فإنك لم تصلِّ**»[1][2].

ويبين شيخ الإسلام هذا الأمر أكثر، ويوضح أن تصرف القلب في الجوارح أقوى من تصرف الملك بجنده، لأن الملك وإن كان صالحًا فلجنده نوع من اختيار وقد يعصونه، بخلاف الجوارح مع القلب، فإنها لا تخرج عن إرادته قط، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب**».

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده»، وقول أبي هريرة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٢٣)، في كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإيمام والمأمون في الصلوات كلها، ومسلم في صحيحه (ص/١٧٠)، في كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢٧).

تقريب، وقول النبي ﷺ أحسن بيانا. فإن الملك وإن كان صالحًا فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط كما قال النبي ﷺ: «**إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد**»»[١].

ويفصل هذا الأمر أكثر تلميذ شيخ الإسلام ابن القيم رحمهما الله، ويبين أن القلب كالملك المتصرف بالجوارح، تأتمر بأمره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتظل تحت قهره وعبوديته، فهو المسئول عنها كلها، يقول رحمه الله: «ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود الذي تصدر كلها عن أمره، ويستعملها فيما شاء فكلها تحت عبوديته وقهره، وتكتسب منه الاستقامة والزيغ، وتتبعه فيما يعقده من العزم أو يحله، قال النبي: «**ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله**»، فهو ملكها وهي المنفذة لما يأمرها به القابلة لما يأتيها من هديته، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته، وهو المسئول عنها كلها لأن كل راع مسئول عن رعيته»[٢].

---

(١) الإيمان الكبير (١٤٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٥).

المطلب الثاني

أصل الإيمان في القلب

ومما يدل على أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح، أن أصل الإيمان في القلب، وأن الله أضاف الإيمان إليه في كثير من الآيات، وأخبر أن أصله فيه، بل وجعل القلب مستقرا له.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجرَات: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحُجرَات: ٧].

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ﴾ [المجَادلة: ٢٢].

قال القرطبي: «وخص القلوب بالذكر، لأنها موضع الإيمان»[1].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النّحل: ١٠٦].

وغيرها من الآيات التي تبين أهمية أعمال القلوب وأنها مقدمة على أعمال الجوارح، وأن أصل الإيمان هو ما وقر في القلب.

يبيِّن شيخ الإسلام أن ما يقوم بالقلب من التصديق والأعمال هو الأصل وعليه ينبني ما يقوم بالجوارح من الأعمال الظاهرة، وأن أعمال الجوارح بدون أعمال القلوب هي أعمال المنافقين، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المأمور به نوعان: نوع ظاهر على الجوارح، ونوع باطن في القلب»، وبعد بيانه للنوع الأول قال: «النوع الثاني: ما يكون باطنًا في القلب، كالإخلاص، وحب الله ورسوله، والتوكل عليه والخوف منه، وكنفس إيمان القلب

(١) تفسير القرطبي (٢٠/ ٣٣٢).

وتصديقه بما أخبر به الرسول، فهذا النوع تعلقه بالقلب ظاهر، فإنه محله، وهذا النوع هو أصل النوع الأول، وهو أبلغ في الخير والشر من الأول، فنفس إيمان القلب وحبه وتعظيمه لله وخوفه ورجائه والتوكل عليه وإخلاص الدين له، لا يتم شيء من المأمور به ظاهرًا إلا بها، وإلا فلو عمل أعمالًا ظاهرة بدون هذه كان منافقا، وهي في أنفسها توجب لصاحبها أعمالًا ظاهرة توافقها وهي أشرف من فروعها»[١].

ويقول أيضًا: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان، فالدين أول ما يبنى من أصوله ويكمل بفروعه»[٢].

ويقول أيضًا: «فأصل الإيمان في القلب وهو قول القلب وعمله، وما كان في القلب فلا بد أن يظهر موجبه ومقتضاه على الجوارح، والأعمال الظاهرة تصديق لما في القلب ودليل عليه وشاهد له، لكن ما في القلب هو الأصل لما على الجوارح»[٣].

ثم إن العبودية التي خلقنا الله من أجلها وطلب منا القيام بها هي منقسمة إلى عبودية القلب واللسان والجوارح، ولكن أهمها عبودية القلب، بل العبودية في الحقيقة هي عبودية القلب يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «عبودية القلب وأسره هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق لم يضره ذلك، إذا كان قائما بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران، ولو أكره على تكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٩).

(٢) المصدر نفسه (١٠/ ٣٥٥).

(٣) المصدر نفسه (٧/ ٦٤٤)، باختصار.

وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك، ولو كان في الظاهر ملك الناس، فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب»[(١)].

كذلك عبودية القلب طاعة مستقلة، أي يحصل بها مدح وذم، وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح، بخلاف أعمال الجوارح، إذ هي بدون أعمال القلوب تكون من أعمال المنافقين كما أسلفنا، وهذا يدل على أن أصل الإيمان هو في القلب، إذ لا يستقل بأمر إلا صاحب الأمر، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «بل قول القلب وعمله هو الأصل، مثل تصديقه وتكذيبه، وحبه وبغضه، من ذلك ما يحصل به مدح وذم وثواب وعقاب بدون فعل الجوارح الظاهرة، ومنه ما لا يقترن به ذلك إلا مع الفعل بالجوارح الظاهرة إذا كانت مقدورة»، و بعد أن ذكر أن: «أقوال القلب وأفعاله ثلاثة أقسام؛ أحدها ما هو حسنة وسيئة بنفسه»، بيّن هذا القسم فقال: «هو ما يتعلق بأصول الإيمان من التصديق والتكذيب، والحب والبغض، وتوابع ذلك، فإن هذه الأمور يحصل فيها الثواب والعقاب، وعلو الدرجات وأسفل الدركات بما يكون في القلوب من هذه الأمور وإن لم يظهر على الجوارح، بل المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار على ما في قلوبهم من الأمراض»[(٢)].

ومما يدل على أن أصل الإيمان في القلب، أن التكليف أصله في القلب والجوارح تبع له، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه»[(٣)].

---

(١) العبودية (ص٦٨).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٨).

(٣) المصدر نفسه (١٤/ ١١٤).

المطلب الثالث

التقوى في الحقيقة هي تقوى القلب

ومما يدل على أهمية أعمال القلوب ويبين عظيم منزلتها من الدين أن التقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح فقط، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج]، والمعنى: «فتعظيم شعائر الله صادر عن تقوى القلوب، فالمعظِّم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله»[١].

يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أضاف (التقوى) إلى القلوب، لأن حقيقة التقوى في القلب»[٢].

ويقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالمقصود تقوى القلوب لله، وهو عبادتها له وحده دون سواه»[٣].

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، والمعنى: «العبادات إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيه، والجسد الذي لا روح فيه»[٤].

قال محمد صديق حسن خان[٥] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ﴾ أي؛ يبلغ إليه

---

(١) تفسير السعدي (ص/ ٥٣٨).

(٢) تفسير القرطبي (١٤/ ٣٨٩).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٧٥).

(٤) تفسير السعدي (ص/ ٥٣٩).

(٥) هو محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، أبو الطيب الهندي، العلامة المحقق، عالم مشارك في أنواع من العلوم، من مصنفاته: فتح البيان في =

﴿ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي؛ تقوى قلوبكم، ويصل إليكم إخلاصكم له في العمل الصالح وإراداتكم بذلك وجهه مع الإيمان، فإن ذلك هو الذي يقبله الله ويجازي عليه»(١).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فتقوى القلوب هي التي تنال الله كما قال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]»(٢)، وقال أيضًا: «فالناس يشتركون في الهدايا والضحايا، والله لا يناله الدم المهراق ولا اللحم المأكول والتصدق به، لكن يناله تقوى القلوب»(٣).

وقال الله تعالى أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات]، والمعنى: «مدح (الله) من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى»(٤).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن ذلك؛ أنه حرم أن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل، وأخبر أن ذلك سبب حبوط العمل، فهذا يدل على أنه يقتضي الكفر لأن العمل لا يحبط إلا به، وأخبر أن الذين يغضون أصواتهم

= مقاصد القرآن، والدين الخالص، ولد سنة ١٢٤٨هـ، وتوفي سنة ١٣٠٧هـ. انظر: الأعلام (٦/ ١٦٧)، ومشاهير علماء نجد وغيرهم (ص/ ٤٥١).

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن (٩/ ٥٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٦١).

(٣) منهاج السنة (٦/ ٢٢٢).

(٤) تفسير السعدي (ص/ ٧٩٩)، وانظر: تفسير االقرطبي (١٩/ ٣٦٤).

عنده هم الذين خلصت قلوبهم للتقوى، وأن الله يغفر لهم ويرحمهم»[١].

وقال النبي ﷺ: «**المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات[٢]، قال الإمام النووي رحمه الله: «الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما يحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى، وخشيته، ومراقبته، ومقصود الحديث أن الاعتبار في ذلك كله بالقلب»[٣].

ومثله ما تضمنه الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا**»[٤]، قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وفي هذ الكلام دليل على أن الأصل في التقوى والفجور هو القلب، فإذا بر القلب واتقى برت الجوارح، وإذا فجر القلب فجرت الجوارح»[٥].

ويوضح هذا الأمر ابن القيم فيقول رحمه الله: «فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]، وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال النبي ﷺ: «**التقوى ههنا**» وأشار إلى صدره.

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يحققون المثل الأعلى في ذلك، فهذ

---

(١) الصارم المسلول (٣/ ٨٠٦).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (ص١٠٣٥) كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٣) شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٢١).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٩)، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(٥) جامع العلوم و الحكم (٢/ ٤٧).

أبو الدرداء ﷺ يقول: «يا حبذا نومُ الأكياس وفطرهم كيف يغبنون به سهر الحمقى وصومهم، والذرة من صاحب تقوى أفضل من أمثال الجبال عبادة من المغترين»[(١)].

وهذا من جواهر الكلام ومن الأدلة على كمال فقه الصحابة وتقدمهم على من بعدهم في كل خير ﷺ»[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في الزهد (ص/١٧١)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١١).

(٢) الفوائد (ص/٢٠٦)، بتصرف يسير.

المطلب الرابع

أعمال القلوب هي موضع نظر الرب

مما يدل على تقدم أعمال القلوب على أعمال الجوارح في الأهمية والمنزلة من الإيمان، أن أعمال القلوب هي موضع نظر الرب، فالرب ﷻ ينظر إلى القلوب والنيات، لا إلى الصور والأموال والأبدان كما جاء في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، لكن ينظر إلى قلوبكم**»، وفي لفظ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[(١)].

قال القرطبي رحمه الله: «وهذا حديث عظيم يترتب عليه ألا يقطع بعيب أحد لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصح معه تلك الأعمال.

ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه»[(٢)].

ويوضح شيخ الإسلام رحمه الله هذا الأمر، ويبين أنه ليس كل جميل يحبه الله، بل الجميل الذي يحبه الله هو الجميل في الباطن، يقول رحمه الله: «وتفسير هذا قوله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٣٥)، في كتاب البر و الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، واللفظان له.

(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٣٨٩).

فعلم أن مجرد الجمال الظاهر في الصور والثياب لا ينظر الله إليه، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فإن كان الظاهر مزينًا مجملًا بحال الباطن أحبه الله، وإن كان مقبحًا مدنسًا بقبح الباطن أبغضه الله، فإنه سبحانه يحب الحسن الجميل ويبغض السيء الفاحش»(١).

ويبين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تفضيل الناس ينبغي أن يكون تبعا لتفضيل الله لهم، وإنما يفضل الله العباد بما في القلوب، لأنه موضع نظر الرب تعالى، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، فإذا كان الله لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنما ينظر إلى القلوب والأعمال، فكيف يُفَضَّلُ الشخص بما لم يفضله الله به»(٢).

ويقول أيضًا: «والأعمال تفضل بنيات أصحابها وطاعتهم لله تعالى وما في قلوبهم من الإيمان بطاعتهم لله كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، وبذلك يثابون وعلى ترك ما فرضه الله يعاقبون، وبذلك يندفع عنهم بلاء الدنيا والآخرة»(٣).

ثم التميز بين أهل طاعة الله وأهل معصيته يكون بما في القلب لأنه محط نظر الرب عَزَّ وَجَلَّ، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنما يمتاز أهل طاعة الله عن أهل معصيته بالنية والعمل الصالح كما في الصحيحين عن النبي ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم**»»(٤).

---

(١) الاستقامة (١/ ٣٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤١٦).

(٣) المصدر نفسه (٢٧/ ٤٢٤).

(٤) السياسة الشرعية (ص/ ١٤٢).

يقول ابن القيم: «فالله سبحانه إنما ينظر إلى القلوب والهمم والعزائم، لا إلى صور الأعمال، وقيمة العبد؛ همته وإرادته»[(١)].

ويقول ابن رجب رحمه الله: «وإذا كان أصل التقوى في القلوب، فلا يطلع أحد على حقيقتها إلا الله عز وجل، كما قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم**»، وحينئذٍ، فقد يكون كثير ممن له صورة حسنة، أو مال، أو جاه، أو رياسة في الدنيا، قلبه خرابا من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبه مملوءًا من التقوى، فيكون أكرم عند الله، بل ذلك هو الأكثر وقوعًا»[(٢)].

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه إلى أمر قد يغتر به البعض، وهو شبهة البعض الذين إذا واجهتهم بالأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر، يقولون أن العمدة والعبرة بما في القلب، وللأسف يستدلون بهذا الحديث، وهم لا يدرون أن الحديث في الحقيقة حجة عليهم لا لهم، يقول الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث في تخريجه لأحاديث رياض الصالحين: «زاد مسلم وغيره «و أعمالكم»، وهذه زيادة هامة جدًّا، لأن كثيرًا من الناس يفهمون الحديث بدونها فهما خاطئًا، فإذا أنت أمرتهم بما أمرهم به الشارع الحكيم، من مثل؛ إعفاء اللحية، وترك التشبه بالكفار، ونحو ذلك من التكاليف الشرعية، أجابوا بأن العمدة على ما في القلب، واحتجوا على زعمهم بهذا الحديث، دون أن يعلموا بهذا الزيادة الصحيحة الدالة على أن الله تبارك وتعالى ينظر أيضًا إلى أعمالهم، فإن كانت صالحة قبلها وإلا ردها، كما تدل على ذلك عديد من النصوص، والحقيقة أنه لا يمكن تصور صلاح القلوب إلا بصلاح الأعمال، ولا صلاح الأعمال إلا بصلاح القلوب»[(٣)].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٧٠).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٧٦).

(٣) رياض الصالحين، تخريج الشيخ الألباني (المقدمة: ل- م - ن).

المطلب الخامس

أعمال القلوب هي الأصل والجوارح تبع

إذا كان القلب يتصرف بالأعضاء كالملك في جنده، وكانت حقيقة التقوى في القلب، وإذا كانت أعمال القلوب هي موضع نظر الرب فلا غرو أن تكون هي الأصل المراد المقصود من الله ﷻ وأعمال الجوارح تبعا لها.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكل ما أوجبه الله على العباد لا بد أن يجب على القلب، فإنه الأصل، وإن وجب على غيره تبعا، فالعبد المأمور المنهي إنما يعلم بالأمر والنهي قلبه، وإنما يقصد بالطاعة والامتثال القلب، والعلم بالمأمور والامتثال يكون قبل وجود الفعل المأمور به كالصلاة والزكاة والصيام، وإذا كان العبد قد أعرض عن معرفة الأمر وقصد الامتثال كان أول المعصية منه، بل كان هو العاصي وغيره تبع له في ذلك»[١].

يفهم من كلام شيخ الإسلام رحمه الله أن الأمر والنهي يجبان على القلب قبل الجوارح، لأن بالقلب يكون الإدراك والفهم للأمر أو النهي، ثم عدم قيام العبد بالأمر أول ما يكون، يكون بإعراض القلب عن معرفة الأمر وقصد الامتثال.

وقال أيضًا: «والله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته، وبدنه تبع لقلبه كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٤).

(٢) المصدر نفسه (١٨/ ١٦٣).

ويوضح شيخ الإسلام ذلك بمثال وهو الخشوع في الصلاة، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وخشوع الجسد تبع لخشوع القلب، إذا لم يكن الرجل مرائيًا يظهر ما ليس في قلبه»[١].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود، وأعمال الجوارح تبع، ومكملة، ومتممة»[٢].

ويقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركته وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كله، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله تعالى، فسد وفسدت حركات الجسد بحسب حركة القلب»[٣].

وقد مر معنا أن أعمال الجوارح لا يكون إيمان بدونها، لأن أعمال القلوب هي الأصل وأعمال الجوارح تبع لها، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أنه لم يرد (أي: النبي ﷺ) أن هذه الأعمال[٤] تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب، فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان»[٥].

ويقول أيضًا: «أصل الدين في الحقيقة هي الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونه»[٦]، وتوضيح ذلك أن

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٠).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٢١٢).

(٤) هي الأعمال المذكورة في حديث وفد عبد القيس، أخرج الحديث البخاري في صحيحه (ص/١٣)، في كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان، ومسلم (ص/ ٤٠)، في كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله.

(٥) الإيمان الكبير (ص/ ١٠).

(٦) المصدر نفسه (ص٣٠٨).

الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله ﷻ، والإخلاص عمل قلبي، ولهذا كانت الأعمال القلبية واجبة على كل أحد، ولا يكون تركها محمودًا في حال من الأحوال.

ويبين شيخ الإسلام أن قول اللسان وعمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين، يقول رحمه الله: «فقول اللسان بدون اعتقاد القلب هو قول المنافقين، وكذلك عمل الجوارح بدون أعمال القلوب هي من أعمال المنافقين»(١).

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٥).

المطلب السادس

تفاوت أعمال الجوارح يكون بحسب ما في القلب

إن مما يدل على أهمية أعمال القلوب وكونها مقدمة على أعمال الجوارح في الإيمان، أن الأعمال ـ سواء كانت تؤدى باللسان، أو تؤدى بالجوارح ـ لا تتفاضل من حيث الصورة الظاهرة، شكلًا وكثرة، حجمًا وعددًا فقط، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلب من إيمان وتقوى، وإخلاص ومحبة، ورجاء وخوف، وإنابة وخشوع إلى غير ذلك من الأعمال القلبية، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل»(١).

ويقول أيضًا: «وإذا عرف أن الحسنات والسيئات تتفاضل بالأجناس تارة، وتتفاضل بأحوال أخرى تعرض لها، تبين أن هذا قد يكون أعظم من هذا، وهذا أعظم من هذا. والعبد قد يأتي بالحسنة بنية وصدق وإخلاص تكون أعظم من أضعافها، كما في حديث صاحب البطاقة الذي رجحت بطاقته التي فيها «لا إله إلا الله» بالسجلات التي فيها ذنوبه، وكما في حديث البغي التي سقت كلبا بموقها فغفر الله لها، وكذلك في السيئات، والله أعلم»(٢).

ويقول أيضًا: «وهذا مما يبين أن الشخصين قد يتماثلان في الأعمال

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٨٢).

(٢) المصدر نفسه (١١/ ٦٦٠).

الظاهرة، بل يتفاضلان ويكون المفضول فيها أفضل عند الله من الآخر، لأنه أفضل في الإيمان الذي في القلب، وأما إذا تفاضلا في إيمان القلوب فلا يكون المفضول فيها أفضل عند الله ألبتة»(١).

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلب»(٢).

واتضح أن أقوال اللسان وأفعال الجوارح قد تشتركان في الصورة الظاهرة والشكل الخارجي، لكنها بعد ذلك تتفاضل تفاضلا كبيرا بحسب ما في القلب من الأحوال، ثم قد يقترن بالطاعة من الحقائق القلبية من الخشية والإخلاص والتقوى ما يرفع من قدر الطاعة، ويعظم منزلتها، كما هو الشأن في الرجلين اللذين يكونان في صف واحد، ولكن شتان ما بين أحدهما والآخر في الفضل، وفي المقابل قد يقترن بالمعصية الخوف من الله، والوجل من عذابه ما يخفف من شأنها، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ:

«والذنب يتغلظ بتكراره، وبالإصرار عليه، وبما يقترن به من سيئات أخر، وكذلك لو قدرنا أن الزاني زنى وهو خائف من الله عَزَّ وَجَلَّ من عذابه، والشارب يشرب لاهيا غافلا لا يراقب الله، كان ذنبه أعظم من هذا الوجه.

فقد يقترن بالذنوب ما يخففها وقد يقترن بها ما يغلظها، كما أن الحسنات قد يقترن بها ما يعظمها وقد يقترن بها ما يصغرها»(٣).

والآن أذكر بعض الأمثلة على تفاضل الظاهر بتفاضل الباطن:

١ ـ تفاضل إقرار اللسان بتفاضل ما في القلب.

فالأعمال التي تؤدى باللسان تتفاضل بعددها وتكرارها وليس

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٦٩).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٤٩)، وانظر: شرح الطحاوية (٢/ ٥١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٥٩).

الحسب، بل تفاضلها الأعظم هو بما قام في القلب من معاني الإيمان وحقائقه من الأعمال القلبية، وتأمل حديث البطاقة[1] التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بسبب ذنوبه، لكن قائل هذه الكلمة لما قام في قلبه معاني الإيمان بالله وتجريد التوحيد، ثقلت بطاقته في الميزان.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنوع الواحد من العمل، قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله له به كبائر، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «**يصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مد البصر، فيقال: هل تنكر من هذا شيئًا؟ فيقول لا يا رب. فيقول؛ لا ظلم عليك، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله، فيقول أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفة والسجلات في كفة، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات**» فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار، كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة»[2].

٢ ـ تفاضل أعمال الجوارح بتفاضل ما في القلب.

كذلك أعمال الجوارح، قد تكون صورة العملين واحدة، بل وقد يكون الرجلان في صف واحد، ولكن شتان ما بين أحدهما والآخر في

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/٥٩٥)، في كتاب الإيمان عن رسول الله، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، وابن ماجه في سننه (ص/٧١٢)، في كتاب الزهد، باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة، هو حديث صحيح، وصححه الألباني في الصحيحة (١٣٥).

(٢) منهاج السنة (٦/٢١٨-٢٢٠).

الفضل، يقول النبي ﷺ: «**إن الرجل لينصرف وما كتب له إلا عشر صلاته، تسعها، ثمنها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها**»(١)، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «إن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحدًا، وبين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب، فإذا عرف أن الأعمال الظاهرة يعظم قدرها ويصغر قدرها بما في القلوب، وما في القلوب يتفاضل لا يعرف مقادير ما في القلوب من الإيمان إلا الله، عرف الإنسان أن ما قاله الرسول كله حق»(٢).

وتأمل ما قام بقلب البغي من الإيمان، حين نزعت مُوقَها(٣) سقت الكلب من الرَكِيَّة(٤)، فغفر لها»(٥)، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

«فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق(٦)، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص»(٧).

ومما سبق تبين أن أعمال القلوب مقدمة على أعمال الجوارح، وأنها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (رقم١٨٩١٤)، وأبو داود في سننه (ص/ ١٤٠)، في كتاب الصلاة، باب ما جاء في نقصان الصلاة، وحسنه الألباني.

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢٢١-٢٢٢).

(٣) هو: الخف فارسية معربة، انظر: غريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٣٧٨).

(٤) الركي: بفتح الراء وكسر الكاف وتشديد الياء، وهو البئر، انظر: النهاية في غريب الحديث (٢/ ٢٦١).

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (ص٥٨٤)، في كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم في صحيحه (ص/ ٩٢٣)، في كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها.

(٦) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥/ ٤١٨)، وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٩٦)، قال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري.

(٧) منهاج السنة (٦/ ٢٢١)، وانظر: مدارج السالكين (١/ ٢٤٩)، وشرح الطحاوية (٢/ ٥١١).

أفضل وأهم من أعمال الجوارح، وتتضح هذه المفاضلة بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح من عدة جوانب؛ لما كان القلب هو الملك المتصرف بالجوارح كان من المعقول أن ما يقوم به من الأعمال أهم مما يقوم بغيره، ثم أصل الإيمان الذي بعث به الرسل وأنزل به الكتب هو في القلب، كذلك التقوى التي هي من أهم الأعمال القلبية في الحقيقة هي تقوى القلب، ثم إن الله لا ينظر إلى صورنا وأجسادنا، ولكنه ينظر إلى قلوبنا، لأنها هي موضع نظر الرب، وكما أن أصل الإيمان في القلب والجوارح تبع، كذلك القلب يكون الأصل في جميع الأوامر والنواهي، وفي الأخير تفاوت أعمال الجوارح يكون بحسب ما في القلب.

وقبل أن أختم هذا المبحث بقي أمر لابد أن أوضحه، وهو أن أفضلية أعمال القلوب، وتقدمها على أعمال الجوارح هو من حيث الجنس لا الأفراد، لأنه قد يكون عمل من أعمال الجوارح أفضل من عمل من أعمال القلوب، كل ذلك بحسب العمل والأحوال الأخرى المحيطة به، سئل شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «أيما أولى: معالجة ما يكره الله من قلبك مثل؛ الحسد والحقد والغل والكبر والرياء والسمعة ورؤية الأعمال وقسوة القلب وغير ذلك، مما يختص بالقلب من درنه وخبثه؟ أو الاشتغال بالأعمال الظاهرة، من الصلاة والصيام وأنواع القربات؛ من النوافل والمنذورات مع وجود تلك الأمور في قلبه؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ:

الحمد لله، من ذلك ما هو عليه واجب، وأن للأوجب فضلا وزيادة، كما قال تعالى فيما يرويه عنه رسوله ﷺ: «**ما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه**»، ثم قال: «**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**». والأعمال الظاهرة لا تكون صالحة مقبولة إلا بتوسط عمل القلب، فإن القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا خبث الملك خبثت جنوده، ولهذا قال النبي ﷺ:

«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»، وكذلك أعمال القلب لا بد أن تؤثر في عمل الجسد.

وإذا كان المقدم هو الأوجب، سواء سمي باطنًا أو ظاهرا، فقد يكون ما يسمى باطنًا أوجب مثل؛ ترك الحسد والكبر، فإنه أوجب عليه من نوافل الصيام، وقد يكون مما سمي ظاهرا أفضل؛ مثل قيام الليل فإنه أفضل من مجرد ترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب من جنس الغبطة ونحوها، وكل واحد من عمل الباطن والظاهر يعين الآخر، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتورث الخشوع ونحو ذلك من الآثار العظيمة، هي أفضل الأعمال والصدقة، والله أعلم»(١).

ويتبين من كلام شيخ الإسلام العلاقة القوية بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأن كل واحد من عمل الباطن والظاهر يؤثر في الآخر، ولكن الأصل هو عمل القلب من حيث الجنس، أما من حيث الأفراد فكما ذكر ليس القيام بالنوافل أفضل من ترك الحسد والكبر، لأن النوافل مستحبة، أما الحسد والكبر حرام، وبالتالي كان تركهما واجبًا، فالواجب مقدم على المستحب.

وكذلك قد يكون أمران مستحبان ولكن أحدهما أفضل من الآخر، مثل ما ذكر قيام الليل الذي هو من أفضل الأعمال بعد الفرائض، وترك بعض الخواطر التي تخطر في القلب، وهما وإن اشتركا في الاستحباب فقيام الليل لا شك أنه أفضل من ترك بعض الخواطر غير المحرمة، والله تعالى أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٢٨١-٢٨٢).



المبحث الرابع: أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه

التمهيد
بيان أن الإيمان يزيد وينقص

قد سبق أن بينا أن الإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح، وقلنا أن هذا معتقد أهل السنة والجماعة الذين يدخلون العمل في الإيمان، والآن أنتقل إلى أمر آخر، وهو بيان أن الإيمان يزيد وينقص ليكون ذلك توطئة لتوضيح أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه.

والبحث فيهما فرع عما سبق من خلاف الطوائف في الإيمان، هل الأعمال منه، أم لا، وهل الإيمان حقيقة واحدة، لا تتبعض ولا تتجزأ، فمتى ذهب بعضه ذهب كله، فلم يبق منه شيء، أم ليس الإيمان حقيقة واحدة، لأنه يتبعض ويتجزأ، وإذا ذهب بعضه لا يلزم ذهاب كله، فإن أصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمعتزلة والمرجئة هو هل الإيمان حقيقة واحدة أم لا، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم قالت الخوارج والمعتزلة: الطاعات كلها من الإيمان، فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان فذهب سائره، فحكموا بأن صاحب الكبيرة ليس معه شيء من الإيمان، وقالت المرجئة والجهمية: ليس الإيمان إلا شيئًا واحدًا، لا يتبعض، إما مجرد تصديق القلب كقول الجهمية، أوتصديق القلب واللسان كقول المرجئة، قالوا: لأنا إذا أدخلنا فيه الأعمال صارت جزءًا منه، فإذا ذهبت ذهب بعضه، فيلزم إخراج ذي الكبيرة من الإيمان وهو قول المعتزلة

والخوارج»[١].

ولما هدى الله أهل السنة للحق من أن العمل من الإيمان، وأنه يتبعض، وأن له شعب متعددة كما أخبر بذلك النبي ﷺ، قالوا: الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[٢].

فإن الحق الواجب اعتقاده، والمنعقد الإجماع عليه هو أن الإيمان يزيد بالإخلاص والطاعات والمسارعة إلى رضوان الله، وتقديم مرضاته وتتبع محابه حتى يستكمل الإيمان.

وكذا عكسه، أن الإيمان ينقص كلما ارتكب العبد المحرمات واقترف المنهيات، وفرغ قلبه من تحقيق معاني الألوهية ومعاني أسماء الله وصفاته، وأمره وشرعه حتى يزول الإيمان بالكلية[٣]، والله المستعان.

ولقد جاء عن السلف الصالح آثار كثيرة قرروا فيها أن الإيمان قول وعمل، وبينوا أنه يزيد وينقص، بل لقد حكى إجماعهم واتفاقهم على ذلك غير واحد من أهل العلم.

قال الإمام عبد الرزاق الصنعاني[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقيت اثنين وستين شيخا»، فذكر عددًا منهم، ثم قال: «كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[٥].

وقال أبو زرعة الرازي: «أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازًا

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥١٠).

(٢) انظر: العقيدة الواسطية (ص/ ٢٦٣)، مع الشرح للشيخ الهراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) مسألة الإيمان، دراسة تأصيلية (ص/ ٣٧)، تأليف علي الشبل.

(٤) هو عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني، ولد بصنعاء سنة ١٢٦ هـ، أحد الأئمة الأعلام الحفاظ، صنف في التفسير والحديث، توفي سنة ٢١١ هـ، انظر: الطبقات الكبري (٨/ ١٠٨)، الجرح والتعديل (٦/ ٣٨)، والأعلام (٣/ ٣٥٣).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٥/ ١٠٢٩).

وعراقًا وشامًا ويمنًا وكان من مذهبهم؛ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[١].

وقال إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع سبعون رجلًا من التابعين وأئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التي توفي عليها رسول الله ﷺ... فذكر أمورًا منها: الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٢].

وقال الإمام الصابوني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٣].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٤].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[٥].

وقال أيضًا: «أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص»[٦].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن الإيمان عند جميع أهل السنة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية»[٧].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٩٨).
(٢) رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد (ص/ ٢٢٨).
(٣) عقيدة السلف (ص/ ٢٦٤).
(٤) التمهيد (٩/ ٢٣٨).
(٥) الإيمان الأوسط (ص/ ٥٤).
(٦) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٧٢).
(٧) مدارج السالكين (٢/ ١٩).

بما أننا ذكرنا إجماع السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، يحسن بنا الآن أن نذكر مستندهم من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة الذي يدل على ما ذهبوا إليه من أن الإيمان يزيد وينقص.

أ ـ الأدلة من القرآن:

الأدلة من القرآن التي تدل على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة، لكني أسوق بعض ما جاء فيه، ومن الأدلة من كتاب الله ما ذكره الإمام البخاري رحمه الله حيث قال في كتاب الإيمان من صحيحه وهو قول وعمل، ويزيد وينقص، قال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد]، ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١]، وقوله: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله جل ذكره: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢][(١)].

وكما ترى من الآيات التي استدل بها الإمام البخاري، قد تنوعت أساليب القرآن في بيان زيادة الإيمان ونقصانه، فمنها ما جاء التصريح فيها بزيادة الإيمان، ومنها ما جاء فيها التصريح بزيادة الهدى، ومنها ما جاء التصريح فيها بزيادة التسليم لله عز وجل، وقد ذكر هذا التنوع شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله في كتابه «زيادة الإيمان ونقصانه»[(٢)].

ومن أدلة القرآن أيضًا، ما ذكره الإمام ابن بطة في كتاب الإبانة الكبرى: قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ

---

(١) انظر: صحيح البخاري، أول كتاب الإيمان (ص/ ٤).

(٢) (ص/ ٥٣-٨٢).

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال]، وقال ﷻ: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، قال ابن بطة: **يريد لأزداد إيمانًا إلى إيماني، بذلك جاء التفسير.**

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٣٦]، قال ﵀: **فلولم يكونوا مؤمنين لما قال لهم: ياأيها الذين آمنوا، وإنما أراد بقوله دوموا على إيمانكم، وازدادوا يقينا وبصيرة ومعرفة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر**[١].

ب ـ الأدلة من السنة:

كذلك جاء من السنة أدلة كثيرة تدل على زيادة الإيمان ونقصانه، فمراعاة للاختصار أكتفي بإيراد بعضها دون الدخول في بيان موضع الاستشهاد منها، إذ هو واضح وبين من ظاهرها ولا يحتاج إلى كثير تأمل، ومنها:

ـ حديث أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع الناس إليه أبصارهم وهو مؤمن**»[٢].

ـ حديث أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وسبعون أوبضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء من الإيمان**»[٣].

ـ حديث أنس بن مالك ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: «**يخرج من النار**

---

(١) الإبانة الكبرى (٢/ ٨٣٣-٨٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٧٣)، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٤)، في كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان.

(٣) تقدم تخريجه.

من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله الا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»(١).

- وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»**(٢).

- وحديث عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفًا بغير حساب، قالوا: من هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون»**(٣).

ج ـ الأدلة من أقوال الصحابة:

سبق أن ذكرت بعض النقول عن السلف الصالح المبينة لإجماع أهل السنة والجماعة على زيادة الإيمان ونقصانه، وتتمة لبيان مستندهم أنقل بعض الأقوال للصحابة الكرام رضي الله عنهم:

- كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأصحابه: «هلموا نزداد إيمانًا»، وفي لفظ: «تعالوا نزداد إيمانًا»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠)، في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٥١)، في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٢٢)، في كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، ومسلم في صحيحه (ص/ ١١٧)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص/ ٧١)، و الآجري في الشريعة (ص/ ١١٣)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٥/ ١٠١٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٤) وغيرهم.

ـ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اجلسوا بنا نزدد إيمانًا»[١]، وكان يقول في دعائه: «اللهم زدني إيمانًا ويقينًا وفقهًا»[٢].

ـ وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه كان يقول: «اجلسوا بنا نؤمن ساعة»[٣].

وعن أبي الدرداء[٤] رضي الله عنه قال: «من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما ينقص منه، ومن فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص؟»[٥].

هذه بعض أقوال الصحابة رضي الله عنهم في زيادة الإيمان ونقصانه، والآثار عنهم وعمن اقتدى بهم من بعدهم كثيرة جدًّا، ولكن المقصود بيان قول أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد ينقص، وأن الإجماع على ذلك.

---

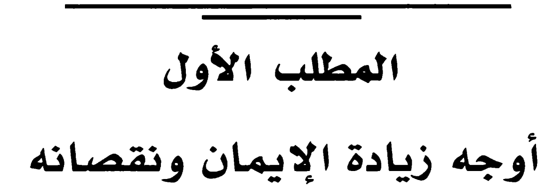
(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٩).

(٢) أخرجه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ١٠١٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٩).

(٣) أخرجه أبو عبيد في الإيمان (ص/ ٤٤)، وابن أبي شيبة في الإيمان (ص/ ٧٠)، واللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ١٠١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٤٨).

(٤) هو الصحابي الجليل عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي، أبو الدرداء، كان من الحكماء الفرسان القضاة، وهو أحد الذين جمعوا القرآن حفظًا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، مات بالشام سنة ٣٢هـ. انظر: السير (٢/ ٣٣٥)، والأعلام (٥/ ٩٨).

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح الاعتقاد (٥/ ١٠١٦).



المطلب الأول

أوجه زيادة الإيمان ونقصانه

قد أوضحنا في التمهيد أن الإيمان يزيد وينقص، وهو من أصول أهل السنة والجماعة، وذكرنا الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، والآثار عن الصحابة والتابعين وأئمة السلف من بعدهم.

وفي هذا المطلب سأبين الأوجه التي يكون فيها زيادة الإيمان ونقصانه، إذ إن الإيمان الذي أمر الله به عباده، والذي يكون من عباده المؤمنين يزيد وينقص من أوجه متعددة، قد ذكر هذه الأوجه شيخ الإسلام رحمه الله في كتابيه؛ الإيمان الكبير[١] والإيمان الأوسط[٢]، فذكر ثمانية منها في الأول، وسبعة في الثاني، وسأحاول أن أذكرها بشيء من الاختصار وعدم التكرار[٣].

فهذه الأوجه هي كالتالي:

الأول: الإجمال والتفصيل فيما أمروا به، فإنه وإن وجب على جميع الخلق الإيمان بالله ورسوله، ووجب على كل أمة التزام ما يأمر به رسولهم مجملا، فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل عبد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه غيره، فمن عرف القرآن والسنن ومعانيها لزمه من الإيمان

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٨٣-١٨٧).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ١٠٦-١١٩).

(٣) غالب هذه الأوجه أخذتها من الإيمان الكبير، وما أخذت من الإيمان الأوسط قد أشرت في موضعه.

المفصل بذلك ما لا يلزم غيره، ولو آمن الرجل بالله وبالرسول باطنًا وظاهرا، ثم مات قبل أن يعرف شرائع الدين مات مؤمنًا بما وجب عليه من الإيمان، وليس ما وجب عليه ولا ما وقع عنه مثل إيمان من عرف الشرائع فآمن بها وعمل بها، بل إيمان هذا أكمل وجوبًا ووقوعًا، فإن ما وجب عليه من الإيمان أكمل، وما وقع منه أكمل.

الثاني: الإجمال والتفصيل فيما وقع منهم، فمن آمن بما جاء به الرسول مطلقا فلم يكذبه قط، لكن أعرض عن معرفة أمره، ونهيه، وخبره، وطلبِ العلم الواجب عليه، فلم يعلم الواجب عليه ولم يعمله، بل اتبع هواه، وآخر طلب علم ما أمر به فعمل به، وآخر طلب علمه فعلمه وآمن به ولم يعمل به، وإن اشتركوا في الوجوب، لكن من طلب علم التفصيل وعمل به، فإيمانه أكمل ممن عرف ما وجب عليه والتزمه وأقر به، لكنه لم يعمل بذلك كله، وهذا المقر بما جاء به الرسول المعترف بذنبه الخائف من عقوبة ربه على ترك العمل، أكمل إيمانًا ممن لم يطلب معرفة ما أمر به الرسول ولا عمل بذلك، ولا هو خائف أن يعاقب، بل هو في غفلة عن تفصيل ما جاء به الرسول ﷺ، مع أنه مقر بنبوته باطنًا وظاهرًا.

الثالث: أن العلم والتصديق نفسه يكون بعضه أقوى من بعض، وأثبت وأبعد عن الشك والريب، وهذا أمر يشهده كل أحد من نفسه، كما أن الحس الظاهر بالشيء الواحد، مثل رؤية الناس للهلال، وإن اشتركوا فيها، فبعضهم تكون رؤيته أتم من بعض، وكذلك سماع الصوت الواحد، وشم الرائحة الواحدة، وذوق النوع الواحد من الطعام، فكذلك معرفة القلب وتصديقه، يتفاضل أعظم من ذلك من وجوه متعددة، والمعاني التي يؤمن بها من معاني أسماء الرب وكلامه، يتفاضل الناس في معرفتها أعظم من تفاضلهم في معرفة غيرها.

الرابع: أن التصديق المستلزم لعمل القلب، أكمل من التصديق الذي لا

يستلزم عمله، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، وإذا كان شخصان يعلمان أن الله حق، ورسوله حق، والجنة حق، والنار حق، وهذا علمه أوجب له محبة الله وخشيته والرغبة في الجنة والهرب من النار، والآخر علمه لم يوجب ذلك، فعلم الأول أكمل.

الخامس: زيادة أعمال القلوب ونقصها، فإنه من المعلوم بالذوق الذي يجده كل مؤمن أن الناس يتفاضلون في حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والإخلاص له، وفي سلامة القلوب من الرياء، والكبر، والعجب ونحو ذلك، والرحمة للخلق، والنصح لهم، ونحو ذلك من الأخلاق الإيمانية[(١)].

السادس: أن الأعمال الظاهرة مع الباطنة، هي أيضًا من الإيمان والناس يتفاضلون فيها[(٢)].

السابع: ذكر الإنسان بقلبه ما أمره الله به واستحضاره لذلك، بحيث لا يكون غافلا عنه، أكمل ممن صدق به وغفل عنه، فإن الغفلة تضاد كمال العلم، والتصديق والذكر والاستحضار يكمل العلم واليقين، ـ ثم ذكر شيخ الإسلام بعض الأدلة من القرآن والسنة وبعض الآثار ـ ثم قال: فالآيات المخلوقة والمتلوة، فيها تبصرة، وفيها تذكرة: تبصرة من العمى، وتذكرة من الغفلة، فيبصر من لم يكن عرف حتى يعرف، ويذكر من عرف ونسي، والإنسان يقرأ السورة مرات، حتى سورة الفاتحة، ويظهر له في أثناء الحال من معانيها ما لم يكن خطر له قبل ذلك، حتى كأنها تلك الساعة نزلت، فيؤمن بتلك المعاني ويزداد علمه وعمله، وهذا موجود في كل من قرأ

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/١٠٦).

(٢) قد ذكرت هذ الوجه بشيء من التفصيل، في المطلب السادس من المبحث الثالث من هذا الباب، وذكرت كلام شيخ الإسلام في ذلك.

القرآن بتدبر، بخلاف من قرأه مع الغفلة عنه، ثم كلما فعل شيئًا مما أمر به استحضر أنه أمر به فصدق الأمر، فحصل له في تلك الساعة من التصديق في قلبه ما كان غافلًا عنه، وإن لم يكن مكذبًا منكرًا.

الثامن: أن الإنسان قد يكون مكذبًا ومنكرًا لأمور لا يعلم أن الرسول أخبر بها، وأمر بها، ولو علم ذلك لم يكذب ولم ينكر، بل قلبه جازم بأنه لا يخبر إلا بصدق ولا يأمر إلا بحق، ثم يسمع الآية أو الحديث، أويتدبر ذلك، أويفسر له معناه، أويظهر له ذلك بوجه من الوجوه، فيصدق بما كان مكذبا به، ويعرف ما كان منكرًا، وهذا تصديق جديد، وإيمان جديد ازداد به إيمانه، ولم يكن قبل ذلك كافرًا بل جاهلًا.

التاسع: التفاضل يحصل من هذه الأمور من جهة الأسباب المقتضية لها، فمن كان مستند تصديقه ومحبته أدلة توجب اليقين، وتبين فساد الشبهة العارضة، لم يكن بمنزلة من كان تصديقه لأسباب دون ذلك، بل من جعل له علوم ضرورية لا يمكنه دفعها عن نفسه لم يكن بمنزلة من تعارضه الشبه، ويريد إزالتها بالنظر والبحث، ولا يستريب عاقل أن العلم بكثرة الأدلة وقوتها، وبفساد الشبه المعارضة لذلك، وبيان بطلان حجة المحتج عليها، ليس كالعلم الذي هو الحاصل عن دليل واحد من غير أن يعلم الشبه المعارضة له، فإن الشيء كلما قويت أسبابه وتعددت، وانقطعت موانعه واضمحلت كان أوجب لكماله وقوته وتمامه[١] .

ومما سبق تبين أن الإيمان يزيد وينقص، وذلك من أوجه متعددة، فهو يزيد من جهة ما في القلب وتصديقه وأعماله، ومن جهة قول اللسان وأذكاره، ومن جهة الأعمال الظاهرة، ومن أوجه أخرى، وفي هذه الأوجه

---

(١) الإيمان الأوسط (ص/ ١١٠).

أكبر دليل على زيادة الإيمان ونقصانه في أركان الإيمان الثلاثة، لأنه قد يفهم البعض من مراد السلف بزيادة الإيمان ونقصانه، أنهم يقصرون مجال التفاضل على عمل الجوارح وقول اللسان، والحقيقة خلاف ذلك، فقول السلف إن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، لا يقصدون بالطاعة عمل الجوارح وقول اللسان فقط، بل عمل القلب من الطاعة، فالحب في الله والبغض في الله، والخوف، والرجاء، والتوكل... الخ كل ذلك من الطاعات وهو من الإيمان كما سبق، ومن ثم يتفاوت الناس فيه، بل نفس التصديق والمعرفة تشمله الزيادة والنقصان وهو من الطاعات.

ثم إن هذه الأوجه تتلخص في وجهين، هما:

١ـ إن الإيمان يتفاضل من جهة أمر الرب.

٢ ـ إن الإيمان يتفاضل من جهة فعل العبد، وفي ذلك رد على من يقتصر بزيادة الإيمان ونقصانه في جهة ما أمر الله به فقط، ولا يقول بزيادة الإيمان ونقصانه من جهة ما يقع من العبد من عمل، مع أن المخالفة موجودة في الوجهين، لكنها في الثانية أشهر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وذلك أن أصل أهل السنة أن الإيمان يتفاضل من وجهين: من جهة أمر الرب، ومن جهة فعل العبد.

أما الأول: فإنه ليس الإيمان الذي أمر به شخص من المؤمنين هو الإيمان الذي أمر به كل شخص، فإن المسلمين في أول الأمر كانوا مأمورين بمقدار من الإيمان، ثم بعد ذلك أمروا بغير ذلك، وأمروا بترك ما كانوا مأمورين به كالقبلة، فكان من الإيمان في أول الأمر الإيمان بوجوب استقبال بيت المقدس، ثم صار من الإيمان تحريم استقباله ووجوب استقبال الكعبة، فقد تنوع الإيمان في الشريعة الواحدة. و أيضا، فمن وجب عليه الحج والزكاة أوالجهاد يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به ويؤمن بأن

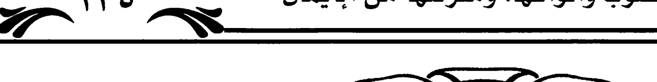
الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره إلا مجملا، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل، وكذلك الرجل أول ما يسلم إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

والنوع الثاني: هو تفاضل الناس في الإتيان به مع استوائهم في الواجب، وهذا هو الذي يظن أنه محل النزاع وكلاهما محل النزاع.

وهذا أيضًا يتفاضلون فيه، فليس إيمان السارق والزاني والشارب كإيمان غيرهم، ولا إيمان من أدى الواجبات كإيمان من أخل ببعضها، كما أنه ليس دين هذا وبره وتقواه مثل دين هذا وبره وتقواه، بل هذا أفضل دينًا وبرًّا وتقوى فهو كذلك أفضل إيمانًا»[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٥١-٥٥)، باختصار.



المطلب الثاني

أثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه

فمن أوجه زيادة الإيمان ونقصانه التي ذكرها شيخ الإسلام زيادة الإيمان ونقصانه من جهة أعمال القلوب، لأن أعظم باعث للإيمان، وأنفع مقوياته وأهم أسباب زيادته ونمائه هو صلاح القلب بالإيمان بالله وبالحب لله ولرسوله ولما يحبه الله ورسوله ﷺ، وتطهيره مما يخالف هذا ويناقضه.

فالقلب هو الأساس والباعث، وفيه تبدأ الإرادات والخواطر، وتتحرك الدواعي والصوارف، وعنه تنشأ أعمال الظاهر وأفعال الجوارح، فتصديق القلب بالله ورسوله يترجمه اللسان نطقًا بالشهادتين، وعمل القلب محبة ورجاء وخوفًا تعبر عنه حركة الأعضاء استقامة على طاعة الله، وتنفيذًا لأمره عز وجل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة وإرادة سرى ذلك إلى البدن ضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب... فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق»[(١)].

ثم إن العبودية التي خلقنا الله من أجلها وطلب منا القيام بها هي منقسمة إلى عبودية القلب واللسان والجوارح، ولكن أهمها عبودية القلب بل العبودية في الحقيقة هي عبودية القلب، والعبودية لا تكمل إلا باستغنائه عن الخلق وإخلاص الدين لله تعالى من المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل،

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٨٧).

والاستعانة وغيرها من الأعمال القلبية، وكلما قويت هذه الأعمال كملت عبوديته لله واسنغناؤه عن المخلوقات، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله.

فكلما قوي إخلاص دينه لله، كملت عبوديته لله واستغناؤه عن المخلوقات، وكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر ومن الشرك»[1].

وقد مر معنا في مبحث التلازم بين الظاهر والباطن، أن الأعمال الظاهرة لازمة للإيمان الباطن، وأنها من موجبه ومقتضاه، وبالتالي فإنها تقوى بقوته، وتزيد بزيادته، وتنقص بنقصانه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا كانت الأعمال والتروك الظاهرة لازمة للإيمان الباطن كانت من موجبه ومقتضاه، وكان من المعلوم أنها تقوى بقوته، وتزيد بزيادته، وتنقص بنقصانه، فإن الشيء المعلول لا يزيد إلا بزيادة موجبه ومقتضيه، ولا ينقص إلا بنقصان ذلك، فإذا جعل العمل الظاهر موجب الباطن ومقتضاه لزم أن تكون زيادته لزيادة الباطن، فيكون دليلًا على زيادة الإيمان الباطن ونقصه لنقص الباطن، فيكون نقصه دليلًا على نقص الباطن وهو المطلوب.

وهذه الأمور كلها إذا تدبرها المؤمن بعقله تبين له أن مذهب السلف هو المذهب الحق، الذي لا عدول عنه، وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول وصحيح المنقول، كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة، والله أعلم»[2].

---

(١) العبودية (ص/ ٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٨٤-٥٨٥).

ويبين شيخ الإسلام في معرض كلامه عن زيادة الإيمان ونقصانه، أن ذلك لا يكون في التصديق فقط، بل الزيادة تكون في أعمال القلوب أيضا، وهي في نفس الوقت موجبة لزيادة الإيمان، فيقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح]، وهذه نزلت لما رجع النبي ﷺ وأصحابه من الحديبية، فجعل السكينة موجبة لزيادة الإيمان، والسكينة طمأنينة في القلب غير علم القلب وتصديقه ولهذا قال يوم حنين: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولم يكن قد نزل يوم حنين قرآن، ولا يوم الغار، وإنما أنزل سكينته وطمأنينته من خوف العدو، فلما أنزل السكينة في قلوبهم مرجعهم من الحديبية، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، دل على أن الإيمان المزيد حال للقلب، وصفة له، وعمل مثل طمأنينته وسكونه ويقينه»[(١)].

ويبين شيخ الإسلام أيضًا أن سبب وقوع الناس في المعاصي هو لضعف أعمال القلوب ونقصانها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومعلوم أن الزاني حين يزني، إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها لم يزن، ولهذا قال تعالى عن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤]، فمن كان مخلصًا لله حق الإخلاص لم يزن وإنما يزني لخلوه عن ذلك»[(٢)].

وبعد هذا البيان المجمل لأثر أعمال القلوب في زيادة الإيمان

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٨١).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٤٠).

ونقصانه[١]، يحسن بنا أن نذكر بعض الأمثلة التي توضح مدى تأثير أعمال القلوب في حياة المسلم وزيادة الإيمان ونقصانه.

○ الأول: **أثر معرفة أسماء الله وصفاته في زيادة الإيمان.**

فإن معرفة أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، والتي تدل على كمال الله المطلق من كافة الوجوه، من أعظم أبواب العلم التي يحصل بها زيادة الإيمان ونقصانه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه من المعلوم أن معرفة الشيء المحبوب تقتضي حبه، ومعرفة المعظم تقتضي تعظيمه، ومعرفة المخوف تقتضي خوفه، فنفس العلم والتصديق وما له من الأسماء الحسنى والصفات العلى يوجب محبة القلب له وتعظيمه وخشيته، وذلك يوجب إرادة طاعته وكراهية معصيته»[٢].

ويقول أيضًا: «وكذلك من عرف أسماء الله ومعانيها، فآمن بها، كان إيمانه أكمل ممن لا يعرف تلك الأسماء، بل آمن إيمانًا مجملًا، أوعرف بعضها، وكلما ازداد الإنسان معرفة أسماء الله وصفاته وآياته، كان إيمانه أكمل»[٣].

فإن الاشتغال بمعرفة أسماء الله وصفاته وفهمها مشتمل على فوائد كثيرة، منها:

١ ـ أن علم توحيد الأسماء والصفات أشرف العلوم وأهمها على الاطلاق.

٢ ـ أن علم التوحيد والصفات هو أصل العلوم الدينية.

---

(١) انظر في هذا الموضوع كتاب شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: «زيادة الإيمان ونقصانه» (ص/ ٢٢٧-٢٣٣).

(٢) الإيمان الأوسط (ص/ ٧٣).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٨٤).

٣ ـ أن العلم بأسماء الله وصفاته يفتح للعبد باب معرفة الله.

٤ ـ أن العلم بأسماء الله وصفاته هو حياة القلوب.

٥ ـ أن معرفة أسماء الله وصفاته اشتغال بالعبودية التي من أجلها خلقنا الله[(١)].

ومن هذه الفوائد أن معرفة الله بأسمائه وصفاته مقتضية لآثاره من العبودية والخضوع، فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله تأثير في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى هذا الاسم وما يتضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة في تفكيره وسلوكه.

ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها، فالأسماء الحسنى والصفات العلى مقتضية لآثارها من العبودية وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح، فمثلا: علم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع والعطاء والمنع والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا.

وعلمه بسمعه تعالى وبصره، وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل تعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح.

ومعرفته بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء وتثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه.

---

(١) انظر: «معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات» لشيخنا محمد بن خليفة التميمي (ص/ ١١-٢٥)، و «زيادة الإيمان ونقصانه» لشيخنا عبد الرزاق البدر (ص/ ٢٠٣-٢٠٤).

وكذلك معرفته بجلال الله وعظمته وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعا من العبودية الظاهرة هي موجباتها.

وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى يوجب له محبة خاصة بمنزلة أنواع العبودية.

فرجعت العبودية كلها إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها(١).

❍ الثاني: **أثر الإخلاص في زيادة الإيمان ونقصانه.**

ففي الحقيقة أعمال القلوب ليس لها تأثير في زيادة الإيمان ونقصانه فقط، بل هي أصول الإيمان وقواعد الدين، فإن الأعمال الظاهرة لا تقبل بدون الأعمال القلبية، لأن الأعمال كلها يشترط في قبولها الإخلاص لله ﷿، والإخلاص عمل قلبي.

ومن أكبر أسباب تحقيق العبودية لله هو الإخلاص، إذ به يخرج من القلب تأله ما يهواه، وهو يصرفه عن الذنوب والمعاصي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: لا إله إلا الله، فقول العبد لها مخلصًا من قلبه له حقيقة أخرى، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله.. وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا إله إلا الله خرج من قلبه تأله ما يهواه وتصرف عنه المعاصي والذنوب كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فلعل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال الشيطان: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص].

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/ ١٢٧-١٢٨).

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه حرمه الله على النار**»[١]، فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]»[٢].

ثم الإخلاص يجعل المباح طاعة وقربة، فإن كثيرًا من تصرفات الناس في حياتهم يدخل في دائرة المباحات، التي لا يثاب فاعلها كما لا يعاقب تاركها، غير أن المؤمن إذا صحح إراداته وأخلص نيته، تحول العمل المباح في حقه إلى عبادة مستحبة، وأصبح من عموم حسناته وطاعته التي يتقرب بها إلى الله ﷻ[٣].

○ الثالث: **أثر المحبة في زيادة الإيمان ونقصانه.**

إن المحبة أصل الإيمان، فوجوده بوجودها، وكماله بكمالها، فليس مؤمنًا بالله من لا يحبه، وكما أن من ادعى المحبة وهو غير مؤمن أو غير متبع لسبيل الرسول ﷺ فحبه مجرد ادعاء، فمن أحب الله حبًّا صحيحًا فلا بد من أن يؤمن به وبرسالاته، ويتبع هدي كتابه وسنة نبيه ﷺ، وأي نقص في هذا الحب وأي ضعف فيه لا بد أن يؤثر على سلوك المحب نحو المحبوب، وأي نقص في العبادة فإنه دليل على نقصان المحبة، كما أن ارتكاب المعاصي دليل على ضعف الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٧٤) في كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت، ومسلم في صحيحه (ص/ ٢٥٩) في كتاب المساجد، باب الرخص في التخلف عن الجماعة بعذر.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٠-٢٦١).

(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ٣٨-٣٩).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «محبة الله، بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين، فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة، إما عن محبة محمودة أو عن محبة مذمومة... فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملًا صالحًا، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله»[1].

وقال أيضًا: «فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.... فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهو موافقته في حب ما يحب، وبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى، ويبغض الكفر، والفسوق، والعصيان.

ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة، استلزمت إرادة جازمة في حصول المحبوب، فإذا كان العبد قادرا عليها حصلها، وإن كان عاجزًا عنها، فعل ما يقدر عليه من ذلك، كان له أجر الفاعل.... وإذا تبين هذا، فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا، وفضله عما سواه»[2].

والكلام على تأثير المحبة في حياة المسلم، وتأثيرها في زيادة الإيمان يطول، وإنما أردنا الإشارة إلى بيان فضل هذا العمل، وأنه لا يتصور إيمان

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٧٣)، باختصار.

(٢) العبودية (ص/ ٧٥-٧٧)، باختصار.

صحيح بدونها، وأن لها تأثيرًا كبيرًا في مسير العباد إلى ربهم، بل هي توصلهم إلى منازل لم يكونوا بدونها أبدًا واصليها، وتبوؤهم من مقاعد الصدق مقامات لم يكونوا لولاها داخليها[١]، فنسأل الله أن يزين قلوبنا بزينة الإيمان والمحبة.

○ الرابع: **أثر الخوف في زيادة الإيمان ونقصانه.**

وإذا كانت المحبة أصل الإيمان، فالخوف يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الخائف يفر من المخوف لينال المحبوب، فالخوف هو وصول العبد إلى ما يرضي الله ﷻ وهذ من أبلغ المقامات، فهو يبعث إلى الإكثار من ذكر الله، وهو الجالب للطاعات والمبعد عن المعاصي، وذلك أن العبد كلما تذكر عذاب الله كان هذا الخوف حاجزًا ومانعًا من ارتكاب أي محذور يغضب الله سبحانه وتعالى.

ثم أيضًا الخوف يدفع إلى المسارعة في الخيرات وكثرة الطاعات، ويدفع إلى الابتعاد والحذر الشديد عن الوقوع في المحرمات.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فمن عبد الله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله، وحق عباد الله في إخلاص الدين له، ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم في الله كان محسنًا إلى الخلق وإلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم، حيث خاف غير الله ورجاه.

فإن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالبًا ما لم يحصل له، فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/٦).

عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه، فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور»[١].

❍ الخامس: **أثر الرجاء في زيادة الإيمان ونقصانه.**

الرجاء أحد أركان العبادة وهو قسيم الخوف، لأن المسلم لا بد أن يكون في عبادته ما بين رجاء ثوابها، والخوف من عدم قبولها، وعند وقوع الذنب يكون بين خوف عقاب الله ورجاء رحمته.

فالرجاء مع كونه شعبة من شعب الإيمان فإنه يزيد إيمان القلب بربه ويثبته ويقويه، وهو من أعظم محركات الجوارح نحو الطاعات، إذ الرجاء لا بد من اقترانه بالعمل، وإلا يكون تمنيًا لا رجاء، فكل من كان يرجو شيئًا من ربه فإنه يحسن العمل حتى ينال مرجوه، ويجتنب الأعمال السيئة والمنكرة التي تحول بينه وبين مراده من ربه، ومن المعلوم أن فعل الطاعات واجتناب المعاصي من أعظم ما يزيد الإيمان، وارتكاب المعاصي من أعظم ما ينقص الإيمان، فالرجاء من حيث هذا المعنى مما يتأثر به الإيمان زيادة ونقصانًا.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، ويأسه منه يوجب غناء قلبه عنه كما قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، أفضل على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له، يوجب عبوديته له، وإعراض

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥٤-٥٥)، باختصار.

قلبه عن الطلب من الله والرجاء له، يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولايرجو الخالق»[(١)].

وقد جمع شيخ الإسلام بين تأثير المحبة والخوف والرجاء في الإيمان، فقال رحمه الله: «ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب الى الله عز وجل فتعتصم به، فتقل آفاتها أو تذهب عنها بالكلية بحول الله وقوته.

فنقول: اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة؛ المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة وهى مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد فى الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول فى الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق، فالمحبة تلقي العبد في السير الى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده، فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره»[(٢)].

❍ السادس: **أثر التوكل في زيادة الإيمان ونقصانه.**

التوكل على الله سبحانه وتعالى من مقتضيات الإيمان الصادق ولوازمه، فلا يكون مؤمنًا بالله من لا يثق به ويفوض أمره إليه، إذ الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه عليم بذات الصدور، وهو نعم المولى ونعم النصير، وأنه حي لا يموت، وأنه حسب من توكل عليه وناصره ومؤيده، كل هذا مما يستدعي التوكل عليه وحده دون سواه، فكل ما سوى الله

---

(١) العبودية (ص/٦٦-٦٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).

سبحانه لا يصلح أن يكون متعلق توكل المرء، لأن الجميع إلى الفناء سائر، وما يفنى لا يصلح لأن يتوكل عليه.

إن التوكل على الله مبعث قوة العزيمة والثبات، ودفع التردد والنكوص عن المطالب، وهو لذلك عدة للنجاح وقوة معنوية، وهو سكون وطمأنينة، ذلك أن صاحبه يوقن أنه قد أوى إلى ركن شديد، وأنه وضع أصله حيث يجب أن يوضع بعد بذله جهده في مباشرة السبب الذي أرشده إليه خالق الأسباب.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن التوكل والاستعانة هي من عبادة الله، لكن خصت بالذكر ليقصدها المتعبد بخصوصها، فإنها هي العون على سائر أنواع العبادة إذ هو سبحانه لا يعبد إلا بمعونته»(١).

وقال أيضًا: «من وجد حقيقة الإخلاص، والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم، وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة، أو يدفعوا عنه مضرة، فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم، فلا ينفعونه؛ إما لعجزهم، وإما لانصراف قلوبهم عنه.

وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدين، أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧٦).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٥٠-٦٥١).

○ السابع: **أثر الذكر في زيادة الإيمان ونقصانه.**

إن الإكثار من ذكر الله هو من علامات الإيمان، وهو صلة المخلوق الضعيف بالخالق الرحيم، وهو باعث للقوة النفسية في مواجهة مصاعب الحياة، وبه يتجه المؤمن إلى الله طالبا منه زوال الكرب ونزول الرحمات، فإنه خير عيش السعداء، فلم يرتقوا أعلى المنازل إلا به، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وخص الذكر بالخيفة[1] لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها، ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات»[2].

○ الثامن: **أثر الحياء في زيادة الإيمان ونقصانه.**

وكذلك الحياء من الإيمان، وهو خلق له، وهو خير كله، ولا يجلب لصاحبه إلا الخير، وهو يحمل على البر والخير، ويمنع من الفواحش، وهو من دواعي الإِقبال على الطاعة والعبادة، وهو سببٌ لهجر المعاصي، وهو سبب كل خير، وعمدة كل فضيلة، وهو يكسو صاحبه الوقار، ومن قوي حياؤه قوي إيمانه، ومن ضعف حياؤه ضعف إيمانه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحياء مشتق من الحياة، فإن القلب الحي يكون صاحبه حيا فيه حياء يمنعه عن القبائح، فإن حياة القلب هي المانعة من القبائح التي تفسد القلب»[3].

---

(١) يقصد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠).

(٣) المصدر نفسه (١٠/ ١٠٩).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قاعدةٌ: الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة»، وذكر منها: «السبب الثاني: الحياء من الله سبحانه؛ فإن العبد متى علم بنظره إليه، ومقامه عليه، وأنه بمرأى منه، ومسمع، وكان حييا، استحيى من ربه أن يتعرض لمساخطه»[١].

فإنَّ من فقد الحياء تدرج في حياته من السيء إلى الأسوأ، وهبط من الرذيلة إلى الأرذل، ولا يزال يهوي حتى ينحدر إلى الدركات السفلى، والعياذ بالله.

فالأعمال التي مرّ ذكرها كلها أعمال ممدوحة مأمور بها[٢]، فبتقويتها يقوى الإيمان ويزيد، وبضعفها ينقص الإيمان ويضعف[٣]، وهناك أعمال قلبية مذمومة منهي عنها، بوجودها ينقص الإيمان، وكلما قويت أثرت في ضعف الإيمان ونقصانه، ونكتفي بذكر اثنين من هذه الأعمال لكي لا يطول المقال فيفضي إلى الإملال.

الأول: أثر الكبر في نقصان الإيمان.

إن من أعظم الأمراض التي تصيب القلوب الكبر، فهو يفسد القلوب ويأسر النفوس، فآفته عظيمة، وغائلته هائلة، فإن الإنسان إذا رأى نفسه بعين الاستعظام كبر وانتفخ وتعزز، ثم هذه العزة تقتضي أعمالا في الظاهر والباطن هي ثمرات كبره.

وهو من أوائل الذنوب التي عصي الله بها، لأن إبليس استكبر وحسد

---

(١) طريق الهجرتين (ص/٤٠٨).

(٢) وللاستزادة في معرفة أثر كل عمل قلبي مأمور به في زيادة الإيمان ونقصانه راجع رسالة الأخ الشيخ محمد دوكوري بن محمد: «أعمال القلوب وأثرها في الإيمان»، إذ عقد مطلبا في نهاية كل عمل يبين فيه أثر ذاك العمل في الإيمان .

(٣) انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/٢٤٥).

آدم فكفر، وقد بينا أن الإنسان كلما كان أكثر استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله، قال شيخ الإسلام: «فالإنسان له إرادة دائما، وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن له مرادا محبوبا يستعبده غير الله.

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكبارا عن عبادة الله كان أعظم إشراكا بالله، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب، الذي هو المقصود ـ مقصود القلب بالقصد الأول ـ فيكون مشركًا بما استعبده من ذلك»[(١)].

فالحاصل أن الكبر دليل على ضعف الإيمان، وليس من صفات أهل الإيمان، وأنه عنه تصدر أعمال ظاهرة هي ثمرته، فيظهر ذلك الخلق السيء على الجوارح، فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

الثاني: أثر الحسد في نقصان الإيمان.

ومن الأعمال القلبية المذمومة المنقصة للإيمان، بل هو من أشد أمراض القلوب الحسد، وهو تمني زوال النعمة عن المحسود، فالحاسد يسعى إلى إزالة النعمة عنه وإن لم يصر له مثلها، فإنه يتألم ويتأذى بوجود النعمة عند غيره، ويلتذ بزوالها، وإن لم يحصل له نفع بزوالها.

وللحسد مفاسد كثيرة، منها أنه تشبه باليهود، ومنها أن فيه دليلًا على خبث نفس الحاسد، ومنها أن فيه اعتراضًا على قدر الله ﷻ، ومنها أنه كلما أنعم الله على عباده نعمة التهبت نار الحسد في قلب الحاسد، فصار دائما في حسرة وغم، ومنها أن الحسد يعرقل الإنسان عن السعي في الأشياء النافعة، ومنها أنه ربما يتدرج بالإنسان إلى أن يصل إلى درجة أنه

---

(١) العبودية (ص/ ٨٠-٨٢) باختصار.

يظلم الناس، وذلك بأساليب مختلفة وقد يكون منها أنه يصيب المحسود بالعين، ومن مفاسده أيضًا أنه يؤدي إلى تفرق المسلمين، فنسأل الله العظيم أن يعيذنا من الحسد، ومن منكرات الأخلاق والأعمال(١).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين وهما أعظم الذنوب التي بها عصي الله أولًا، فإن إبليس استكبر وحسد آدم، وكذلك ابن آدم الذي قتل أخاه حسد أخاه»(٢)(٣).

وبذلك نصل إلى نهاية هذا المبحث، وقد حاولنا أن نسلط الضوء على شيء من تأثير أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه، وذلك ببيان؛ أن معتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان أنه يزيد وينقص، وأن ذلك متفرع عن قولهم إن العمل من الإيمان.

كما بيّنا أن زيادة الإيمان ونقصانه يكون على عدة أوجه، فهو يزيد من جهة ما في القلب وتصديقه وأعماله، ومن جهة قول اللسان وأذكاره، ومن جهة الأعمال الظاهرة، وتتلخص هذه الأوجه في وجهين؛ أن الإيمان يتفاضل من جهة أمر الرب، وأنه يتفاضل من جهة فعل العبد.

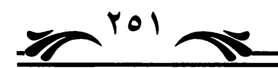
وبما أن من أوجه زيادة الإيمان هو زيادة الإيمان ونقصانه من جهة أعمال القلوب، وقد بينا في غير موضع أن أعمال القلوب بمثابة الأصل للفرع، والروح للبدن، فلا شك أن لها تأثيرًا قويًا في زيادة الإيمان ونقصانه، وقد ذكرت مدى تأثير أعمال القلوب في ذلك، ثم ذكرنا بإيجاز بعض الأمثلة من الأعمال القلبية التي توضح تأثير أعمال القلوب في زيادة الإيمان ونقصانه، والله تعالى أعلم.

---

(١) قد ذكر هذه المفاسد للحسد الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه لرياض الصالحين (٢/ ٥٧٨).

(٢) رسالة في التوبة (١/ ٢٣٣)، وانظر: المجموع (١٠/ ١٢٦).

(٣) للاستزادة في معرفة أثر الأعمال القلبية المنهي عنها في نقص الإيمان، راجع الكتاب: «القلوب وآفاتها»، تأليف صلاح الدين علي بن عبد الموجود.





المبحث الخامس:

أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان

التمهيد
تعريف نواقض الإيمان

لا شك أن موضوع الإيمان من أهم ما يتفقه فيه المرء، معرفة لحده وأركانه وثمراته ونواقضه، ومعرفة أسباب نقض الإيمان من أهم ما يدرس في هذا الباب، إذ بها يعرف الإسلام من الكفر، والصواب من الخطأ، وبها يحافظ على أصل الإيمان الذي تكون به النجاة في الدنيا والآخرة، قال الشيخ عبد الله[(١)] بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله: «اعلم أن هذه المسائل من أهم ما ينبغي للمؤمن الاعتناء بها، لئلا يقع في شيء منها وهو لا يشعر، وليتبين له الإسلام والكفر، حتى يتبين له الخطأ من الصواب، ويكون على بصيرة في دين الله»[(٢)].

ولما كان من المقرر عند أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان قول وعمل، وله شروط وأركان، فإن من المقرر أيضًا؛ أن للإيمان نواقض تنقض الإيمان وتهدمه، وتمهيدًا لبيان أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان أحببت أن أعرف بنواقض الإيمان حتى يستطيع القارىء استيعاب المسألة

---

(١) هو عبد الله ابن الشيخ محمد بن عبد الوهاب التميمي الإمام العلامة الحبر والورع الحافظ الثقة الثبت الشجاع، أخذ العلم عن والده وخلق كثير، كان عارفا بالتفسير والحديث والفقه والأصول، من مصنفاته: جواب أهل السنة في نقض كلام الشيعة الزيدية، والكلمات النافعة في المكفرات الواقعة وغيرها، توفي في مصر سنة ١٢٤٣هـ، انظر: كتاب التراجم ضمن الدرر السنية (١٦/ ٣٧٦-٣٨٠)، والأعلام (٤/ ١٣١).

(٢) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة (ص/ ٥).

التي نحن في صدد شرحها، ومن ثم تتبين له أهمية أعمال القلوب ومدى تأثيرها في نقض الإيمان.

ونواقض الإيمان جملة مركبة من كلمتين؛ من كلمة «نواقض» جمع «ناقض»، ومن كلمة «الإيمان»، وكلمة الإيمان مر تعريفها لغة وشرعا، فلا حاجة لإعادة الكلام، فالآن أعرّف بكلمة «النواقض».

فالناظر في المعاجم اللغوية يجد أن كلمة النقض مدارها على إفساد ما أبرمت من عقد أوبناء، فهو بمعنى نكث الشيء، وانتشار العقد.

والنقض ضد الإبرام، و نقيضك الذي يخالفك(١).

جاء في التعريفات: «نقيض كل شيء؛ رفع تلك القضية، فإذا قلنا؛ كل إنسان حيوان بالضرورة، فنقيضه؛ أنه ليس كذلك»(٢).

وقال الفيومي(٣): «ونقضت الحبل حللت برمه، ومنه ما يقال: نقضت ما أبرمه إذا أبطلته، وانتقض هو بنفسه، وانتقضت الطهارة بطلت، وانتقض الجرح بعد برئه، والأمر بعد التئامه فسد، وتناقض الكلامان تدافعا كأن كل واحد نقض الآخر، وفي كلامه تناقض إذا كان في بعضه يقتضي إبطال بعض»(٤).

ويكتمل معنى كلمة النقض إذا عرفنا معنى كلمة العقد، إذ النقض نقيض العقد وعكسه، فأقول:

---

(١) انظر: لسان العرب (١٤/٣٣٩)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/١٠٠٧)، والقاموس المحيط (ص/٨٤٦).

(٢) التعريفات للجرجاني (ص/٢٤١).

(٣) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، فقيه لغوي، له مصنفات، توفي سنة ٧٧٠هـ، انظر: معجم المؤلفين (٢/١٣٢)، والأعلام (١/٢٢٣).

(٤) المصباح المنير (ص/٥٠٩).

جاء في اللسان: «العقد نقيض الحل... والعقد العهد، والجمع عقود، وهي أوكد العقود. ويقال؛ عهدت إلى فلان كذا وكذا وتأويله ألزمته ذلك، فإذا قلت؛ عاقدته أوعقدت عليه فتأويله أنك ألزمته ذلك باستيثاق، والمعاقدة والمعاهدة، وعاقده وعاهده، وتعاقد القوم تعاهدوا... والعقد؛ ما عقدت من البناء»[(١)].

وجاءت مادة «نقض» في القرآن الكريم في عدة مواضع، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾ [النّحل: ٩٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النّحل: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ [الرّعد].

كما وردت مادة «نقض» في الأحاديث النبوية، منها قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: **«لولا قومك حديث عهدهم بكفر لنقضت الكعبة»**[(٢)]، أي هدمتها، ومنها ما جاء عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ لم يكن يترك في بيته شيئًا فيه تصاليب إلا نقضه»[(٣)]، أي أزاله، ومنها قول النبي ﷺ: **«لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة، تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة»**[(٤)].

فمن خلال ما سبق عرضه من النصوص يمكن القول، بأن معنى النواقض في الاصطلاح أنها اعتقادات، أو أقوال، أو أفعال تزيل الإيمان وتقطعه وهي موجبة للردة، يقول الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: «فنواقض الإيمان وهي الموجبة للردة، تسمى نواقض، والناقض يكون قولًا، ويكون

---

(١) لسان العرب (١٠/ ٢٢٠-٢٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٢٧)، في كتاب العلم، باب من ترك بعض الاختيار، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٢٧)، في كتاب الحج، باب نقض الكعبة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٤٣)، في كتاب اللباس، باب نقض الصور.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٦/ ٤٨٥)، والحاكم في المستدرك (٥-٢٢)، وصححه.

عملًا، ويكون شكًّا، فقد يرتد الإنسان بقول يقوله، أو بعمل يعمله، أو باعتقاد يعتقده، أو بشك يطرأ عليه، وهذه الأمور الأربعة كلها يأتي منها الناقض الذي يقدح في العقيدة ويبطلها»(١).

فالناقض هو الموجب للردة المخرج عن ملة الإسلام، فالنواقض وموجبات الردة متلازمان.

فالردة في اللغة هي الرجوع، وشرعا هي الرجوع عن الإسلام إما باعتقاد، أو فعل، أو قول، يقول البهوتي(٢): «المرتد؛ لغة هو الراجع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١]، وشرعًا: الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا، أو اعتقادًا، أو شكًّا، أو فعلًا»(٣)(٤).

ولبيان هذه النواقض قسمت المبحث إلى مطالب:

---

(١) القوادح في العقيدة، له (ص/ ٤).

(٢) هو منصور بن يونس بن صالح البهوتي الحنبلي، شيخ الحنابلة بمصر، له مؤلفات في الفقه، توفي بمصر سنة ١٠٥١ هجرية، انظر: مختصر طبقات الحنابلة للشطي (ص/ ١١٤)، ومعجم المؤلفين (١٣/ ٢٢).

(٣) كشف القناع (٦/ ٢١٤).

(٤) انظر: نواقض الإيمان القولية والعملية، تأليف د. عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف (ص/ ٤٨-٥١).

المطلب الأول

بيان أن نقض الإيمان يكون بالقول، والفعل، والاعتقاد

قد تبين من خلال تعريف نواقض الإيمان، أن نقضه يكون بالقول، والفعل، والاعتقاد، وأن أقسام الكفر بحسب ما يقوم من أعضاء البدن لا تخرج عن هذه الأقسام الثلاثة، وقبل الشروع في ذكر بعض الأقوال لأهل العلم الدالة على أن نقض الإيمان يكون بأحد هذه الثلاثة، أو بها جميعًا، أريد أن أعرف بكل واحدة منها:

النواقض القولية: هي الأقوال والألفاظ الصريحة التي ثبتت بالأدلة الشرعية القطعية الدلالة على أنها كفر أكبر مخرج من الملة دون اشتراط الجحود أو الاستحلال أو الاعتقاد أو قصد الكفر، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فبين أنهم كفار بالقول، مع أنهم لم يعتقدوا صحته»(١).

وقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠٦﴾ [النحل]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومعلوم أنه لم يرد بالكفر هنا اعتقاد القلب فقط، لأن ذلك لا يكره الرجل عليه، وهو قد استثنى من أكره، ولم يرد من قال واعتقد، لأنه استثنى المكره وهو لا يكره

---

(١) الصارم المسلول (٣/ ٩٧٦).

على العقد والقول، وإنما يكره على القول فقط، فعلم أنه أراد من تكلم بكلمة الكفر فعليه غضب من الله وله عذاب عظيم وأنه كافر بذلك، إلا من أكره وهو مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرًا من المكرهين فإنه كافر أيضا، فصار من تكلم بالكفر كافرًا إلا من أكره فقال بلسانه كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان»(١).

النواقض الفعلية: هي الأفعال التي ثبت بالأدلة الشرعية القطعية الدلالة أن فعلها كفر أكبر مخرج من الملة دون اشتراط الجحود، أو الاستحلال، أو قصد الكفر، مثل السجود للصنم، والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ وسبّه، وغيرها.

النواقض الاعتقادية: هي الاعتقادات الباطلة التي ثبتت بالأدلة الشرعية القطعية الدلالة على أنها كفر أكبر مخرج من الملة، مثل بغض النبي ﷺ ومعاداته مع اعتقاد صدقه، أو اعتقاد حل إحدى المحرمات المعروفة في الشرع، أو اعتقاد أن أحدًا يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ، أو غير ذلك من الاعتقادات المكفرة التي تناقض قول القلب أو عمله(٢).

والآن أذكر بعض أقوال أئمة أهل السنة والجماعة في أن الكفر يكون بالاعتقاد والقول والفعل:

قال الإمام سفيان بن عيينة(٣) رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى عندما سئل عن الإرجاء:

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٩٧٧).

(٢) انظر: قواعد في بيان حقيقة الإيمان عند أهل السنة (ص/ ٤٨٣)، وكتاب شيخنا إبراهيم بن عامر الرحيلي: «التكفير وضوابطه» (ص/ ١٠٦-١٠٨).

(٣) هو سفيان بن عيينة ابن أبي عمران ميمون مولى محمد بن مزاحم، الإمام الكبير حافظ العصر، شيخ الإسلام، أبو محمد الهلالي الكوفي، ثم المكي، مولده بالكوفة سنة ١٠٧هـ، وتوفي سنة ١٩٨هـ، قال الشافعي: ما رأيت أحدا فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أكف عن الفتيا منه، انظر: حلية الأولياء (٧/ ٢٧٠)، وفيات الأعيان (٢/ ٣٩١)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٤٥٤).

«يقولون: الإيمان قول، ونحن نقول: الإيمان قول وعمل، والمرجئة أوجبوا الجنة لمن شهد أن لا إله إلا الله؛ مصرًا بقلبه على ترك الفرائض، وسموا ترك الفرائض ذنبًا بمنزلة ركوب المحارم، وليس بسواء؛ لأن ركوب المحارم من غير استحلال معصية، وترك الفرائض متعمدًا من غير جهل ولا عذر هو كفر»[1].

وسئل الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عمن هزل بشيء من آيات الله تعالى، فقال: هو كافر واستدل بقول الله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦][2].

وقال الإمام إسحاق بن راهويه المروزي[3] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع المسلمون على أن من سب الله وسب رسوله ﷺ، أو دفع شيئًا مما أنزل الله أو قتل نبيا من أنبياء الله، أنه كافر بذلك، وإن كان مقرا بكل ما أنزل الله»[4].

وقال الإمام محمد بن سحنون المالكي[5] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع العلماء أن شاتم النبي ﷺ المنتقص له كافر، والوعيد جار عليه بعذاب الله له، وحكمه عند الأمة: القتل، ومن شك في كفره وعذابه كفر»[6].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن من سب الله، أو سب رسوله كفر ظاهرًا وباطنًا؛ سواءً كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان ذاهلًا

---

(١) كتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد (ص/ ٣٣٤-٣٣٥).

(٢) الصارم المسلول (٣/ ٩٥٦).

(٣) هو الإمام إسحاق بن إبراهيم بن مخلد الحنظلي المروزي المشهور بابن راهويه، أحد الأئمة المجمع على إمامتهم وفضلهم، توفي ٢٣٨هـ. انظر: السير (١١/ ٣٥٨).

(٤) الصارم المسلول (٣/ ٩٥٥).

(٥) هو محمد بن عبد السلام (سحنون) بن سعيد بن حبيب التنوخي، أبو عبد الله فقيه مالكي، كان حافظًا خبيرًا بمذهب مالك، عالما بالآثار، كثير التصانيف، توفي سنة ٢٥٦هـ، انظر: الوافي بالوفيات (٣/ ٧٢)، والأعلام (٦/ ٢٠٤-٢٠٥).

(٦) الصارم المسلول (٣/ ٩٥٦).

عن اعتقاده، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشعب الإيمان قسمان؛ قولية وفعلية، وكذلك شعب الكفر نوعان؛ قولية وفعلية، ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زواله زوال الإيمان، فكذلك من شعب الإيمان الفعلية ما يوجب زوال الإيمان. وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية، فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارًا، وهي شعبة من شعب الكفر، فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود لصنم، والاستهانة بالمصحف...»[(٢)].

وقال الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي[(٣)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «باب حكم المرتد، وهو من كفر بعد إسلامه، ويحصل الكفر بأحد أربعة أمور: بالقول كسبِّ الله تعالى ورسوله وملائكته، أو ادعاء النبوة، أو الشرك به تعالى، وبالفعل كالسجود للصنم ونحوه، وإلقاء المصحف في قاذورة، وبالاعتقاد كاعتقاد الشريك له تعالى، أو أن الزنا والخمر حلال، وأن الخبز حرام ونحو ذلك ومما أجمع عليه إجماعًا قطعيًّا، وبالشك في شيء من ذلك»[(٤)].

وقال الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «للحكم بالردة والكفر موجبات وأسباب هي نواقض الإيمان والإسلام، من اعتقاد، أو قول، أو فعل، أو شك، أو ترك مما قام على اعتباره ناقضا الدليل الواضح، والبرهان الساطع من الكتاب والسنة، أو الإجماع»[(٥)].

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٩٥٥).

(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٧٠).

(٣) هو مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرمي المقدسي الحنبلي، من كبار الفقهاء، له نحو سبعين كتابًا، منها: أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، وغاية المنتهى في الجمع بين الإقناع والمنتهى في فقه الحنابلة، وغيرها. توفي سنة ١٠٣٣هـ. انظر: الأعلام (٧/ ٢٠٣).

(٤) دليل الطالب (ص/ ٣٢٣).

(٥) درء الفتنة عن أهل السنة (ص/ ٥٦).

المطلب الثاني

أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان

سبق أن عرفنا حقيقة الإيمان عند أهل السنة، وأنه قول وعمل، وله شروط وأركان، وبينا أن للإيمان نواقض تنقض الإيمان وتهدمه، ووضحنا المراد بنواقض الإيمان، كما قررنا أيضًا أن نواقض الإيمان تكون بالقول، وبالفعل، وبالاعتقاد.

ومما ينبغي أن يعلم أن أصل النواقض هي النواقض الاعتقادية، وما يظهر من النواقض القولية والفعلية لازم ودليل لما في القلب من كفر أو نفاق، ومن هنا يتضح جليًّا مدى تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان، وقد وضح ذلك شيخ الإسلام في عدة مواضع، من ذلك أن سب الرسول ﷺ وتنقيصه، كل ذلك لا يقوله إلا من هو فاسد القلب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الإيمان والنفاق أصله في القلب، وإنما الذي يظهر من القول والفعل فرع له دليل عليه، فإذا ظهر من الرجل شيء من ذلك ترتب الحكم عليه، فلما أخبر سبحانه أن الذين يَلْمِزون النبي ﷺ والذين يؤذونه من المنافقين، ثبت أن ذلك دليل على النفاق وفرع له، ومعلوم أنه إذا حصل فرع الشيء ودليله حصل أصله المدلول عليه، فثبت أنه حيثما وجد ذلك كان صاحبه منافقًا سواء كان منافقًا قبل هذا القول، أو حدث له النفاق بهذا القول»[١].

ومن ذلك أيضًا؛ الامتناع عن فعل الواجبات الظاهرة المتواترة، فإن

---

(١) الصارم المسلول (٢/٧٦).

امتناعه يدل على أنه لم يكن في الباطن مقرا بالوجوب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ومن الممتنع أن يكون الرجل مؤمنًا إيمانًا ثابتا في قلبه بأن الله فرض عليه الصلاة والزكاة والصيام والحج ويعيش دهره لا يسجد لله سجدة، ولا يصوم من رمضان، ولا يؤدي لله زكاة، ولا يحج إلى بيته، فهذا ممتنع ولا يصدر هذا إلا مع نفاق في القلب وزندقة، لا مع إيمان صحيح»[١].

ثم سبق أن قررنا التلازم بين جوانب الإيمان، ومن ذلك التلازم بين قول القلب وعمله، وقلنا أنه بانتفاء الأعمال القلبية يزول الإيمان بالكلية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «التصديق من الإيمان، ولا بد أن يكون مع التصديق شيء من حب الله وخشية الله، وإلا فالتصديق الذي لا يكون معه شيء من ذلك ليس إيمانًا ألبتة، بل هو كتصديق فرعون واليهود وإبليس، وهذا هو الذي أنكره السلف على الجهمية»[٢].

وقال أيضًا رحمه الله: «ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار، لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو الانقياد... والكفر هو عدم الإيمان، سواء كان معه تكذيب، أو استكبار أو إباء، أو إعراض، فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر»[٣].

وقال ابن القيم رحمه الله: «حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان؛ قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان؛ عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح.

---

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٦١١).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٤٠-٢٤١).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٨-٦٣٩).

فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب، لم تنفع بقية الأجزاء، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة.

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول، بل ويقرون به سرًّا وجهرًا ويقولون ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به»[(١)].

يفهم من كلام شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهم الله وهو معتقد أهل السنة والجماعة، أنه إذا زال عمل القلب بالكلية مع بقاء التصديق زال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء العمل، وبهذا يظهر أيضًا تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان.

ومما يبين تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان أيضا، أن كل عمل قلبي يكون عبادة لله، يمكن أن يكون ناقضًا للإيمان، لكن متى يكون عمل قلبي معين ناقضًا للإيمان؟، هذ ما سنبينه فيما يلي:

القاعدة العامة[(٢)] تقول: ما ثبت أنه عبادة فصرفه لغير الله على وجه التعبد شرك أكبر ولا يكون شركًا أصغر، إذ العبادة خاصة بالله[(٣)]، والأدلة

---

(١) الصلاة وحكم تاركها (ص/ ٧٠-٧١).

(٢) انظر: قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/ ٣٩).

(٣) وقد نصّ على هذه القاعدة جماعة من العلماء، منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب عند مسائل: باب من الشرك؛ النذر لغير الله، والشيخ سليمان بن عبد الله في التيسير (ص/ ١٦٥)، والشيخ عبد الرحمن بن حسن في كتاب: كشف ما ألقاه ابليس (ص/ ٧٧)، والشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي في القول السديد (ص/ ١٢٠-١٢١)، والشيخ ابن عثيمين في قول المفيد (١/ ٢٤٣).

عليها كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجنّ: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقال النبي ﷺ: «**من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار**»(١).

فالعبادة تشمل ما كان بالقلب مثل؛ المحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل، والاستعانة وغيرها، وتشمل ما يكون باللسان مثل؛ التكلم بالشهادتين، وقراءة القرآن، والذكر وغيرها، وتشمل ما يكون بالجوارح مثل؛ الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم وغيرها، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة»(٢).

والقيد في القاعدة (على وجه التعبد) قيد مهم، والفائدة منه أن هناك أمورًا تُفعل لله ولغيره، لكن فعلها لله تعبدي، ولغيره على خلاف ذلك، من هذه الأمور الأعمال القلبية كالمحبة والخوف والرجاء وغيرها، فإذا أطلقت على غير الله تعبدًا صارت شركًا، وإذا أطلقت على وجه مباح لم تكن شركًا، وقد أشار شيخ الإسلام إلى هذا القيد، إذ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له»، ثم قال: «ومن خضع لإنسان مع بغض له فلا يكون عابدًا له، ولو أحب شيئًا ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما قد يحب ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عنده أعظم من كل شيء، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٧٦٤)، في كتاب التفسير، ومسلم في صحيحه (ص/ ٦٤)، في كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، و من مات مشركا دخل النار.

(٢) العبودية (ص/ ١٧).

(٣) العبودية (ص/ ٢٢-٢٣).

وبعد هذا التقرير، أذكر بعض الأعمال القلبية التي تكون شركًا وناقضا للإيمان، ومن خلالها يتبين أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان، لكن قبل ذلك أريد أن أنبه أنه قد سبق أن ذكرت بعض الأمثلة في ذلك، في الفصل الأول من هذه الرسالة، في مبحث أنواع أعمال القلوب، حين تكلمت عن الأعمال القلبية المحرمة الشركية، فالذي ذكرته هناك لا أعيده هنا، فالآن أحاول أن أذكر أمثلة أخرى غير ما سبق:

○ الأول: موالاة المحادين لله ورسوله.

إن من تمام محبة الله هو أن يحب العبد ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله، فإن من أحب الله وأحب لله، أحب ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى من يواليه الله، وعادى من يعادي الله، فإن المحبة توجب الدنو من المحبوب ومحابه، والبعد عن مكروهاته.

أما موالاة المحادين لله ورسوله وموادتهم فإنها تنافي المحبة، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فأخبر أنك لا تجد مؤمنًا يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفى ضده، وهو موالاة أعداء الله، فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه، كان ذلك دليلا على أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب»[١].

وقال أيضًا: «هذه الآية فيها نفي الإيمان عمن يواد المحادين لله ورسوله، وفيها أن من لا يواد المحادين لله ورسوله فإن الله كتب في قلوبهم

(١) الإيمان الكبير (ص/١٧).

الإيمان وأيدهم بروح منه، وهذا يدل على مذهب السلف أنه لا بد في الإيمان من محبة القلب لله ولرسوله ومن بغض من يحاد الله ورسوله»[(١)].

ومثله قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾﴾ [المائدة]، فذكر جملة شرطية تقتضي أنه إذا وجد الشرط وجد المشروط بحرف ﴿لو﴾ التي تقتضي مع الشرط انتفاء المشروط، فقال: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، فدل على أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب، ودل ذلك على أن من اتخذهم أولياء، ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي، وما أنزل إليه[(٢)].

ومثله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١]، فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمنًا، وأخبر هنا أن متوليهم هو منهم، فالقرآن يصدق بعضه بعضًا[(٣)].

لكن هل يعني ذلك أن كل من وجد في قلبه شيء من المودة والرحمة تجاه أحد الكفار يكون كفرًا مخرجًا من الملة، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه ولا

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ١٤٧).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ١٧-١٨).

(٣) الإيمان الكبير (ص/ ١٨).

يكون به كافرًا كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة[١] لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ وأنزل الله فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [المُمتَحنَة: ١]، وكما حصل لسعد بن عبادة[٢] لما انتصر لابن أبيّ[٣] في قصة الإفك، فقال لسعد بن معاذ[٤]: «كذبت والله، لا تقتله ولا تقدر على قتله»، قالت عائشة: «وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية»[٥]، ولهذه الشبهة سمى عمر حاطبا منافقا..فكان عمر متأوّلا في تسميته منافقا للشبهة التي فعلها»[٦].

إذًا، ما الضابط الذي يميز الموالاة المخرجة من الدين من غيرها؟،

---

(١) هو حاطب بن أبي بلتعة، أبو محمد، صحابي جليل، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وبعثه رسول الله ﷺ بكتاب إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله ﷺ، مات بالمدينة سنة ٣٠ هـ، وصلى عليه عثمان بن عفان، انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ١٠٦)، والإصابة (١/ ٣١٤).

(٢) هو سعد بن عبادة بن دُليم بن حارثة الأنصاري الخزرجي أحد النقباء وأحد الأجواد، وقع في صحيح مسلم أنه شهد بدرا، والمعروف عند أهل السير أنه تهيأ للخروج فنُهِش فأقام، توفي بأرض الشام سنة ١٥ هـ، وقيل غير ذلك، روى عن النبي ﷺ وروى له الأربعة، انظر: تقريب التهذيب (ص/ ٢٣٨). الإصابة (٣/ ٨٠)، وطبقات ابن سعد (٣/ ٥٦٦).

(٣) هو عبد الله بن أبي بن مالك بن الحارث بن مالك الخزرجي الأنصاري وهو بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين في المدينة، حاول إيذاء النبي ﷺ عدة مرات، وما قصة الإفك إلا واحدة منها، أهلكه الله سنة ٨ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٣/ ٥٠٠)، والإصابة (٤/ ٩٥) ذكراه عند ترجمة ابنه عبد الله.

(٤) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، الأوسي الأنصاري، صحابي من الأبطال من أهل المدينة، كانت له سيادة الأوس، وحمل لوائهم يوم بدر، وشهد أحدا فكان ممن ثبت فيها، وكان من أطول الناس وأعظمهم جسما، رمي بسهم يوم الخندق فمات من أثر جرحه، ودفن بالبقيع سنة ٥ هـ، انظر: التقريب (٢٣٩)، والإصابة (٣/ ٨٧) وطبقات ابن سعد (٣/ ٣٣٨).

(٥) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٤٣١)، في كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضا، ومسلم في صحيحه (ص/ ١١١٢)، في كتاب التوبة، باب في حديث الإفك، وقبول توبة القاذف.

(٦) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٢٣).

هو ما قلناه سابقًا، هو محبة الكفار لأجل دينهم ونصرتهم لأجله والرضا به، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن جنس موالاة الكفار التي ذم الله بها أهل الكتاب والمنافقين: الإيمان ببعض ما هم عليه من الكفر أو التحاكم إليهم دون كتاب الله كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١]. . . . ومن تولى أمواتهم أو أحياءهم بالمحبة والتعظيم والموافقة فهو منهم، كالذين وافقوا أعداء إبراهيم الخليل من الكلدانيين وغيرهم من المشركين عباد الكواكب أهل السحر، والذين وافقوا أعداء موسى من فرعون وقومه بالسحر، أوادعى أنه ليس ثم صانع غير الصنعة، ولا خالق غير المخلوق، ولا فوق السماوات إله كما يقوله الاتحادية وغيرهم من الجهمية، والذين وافقوا الصائبة والفلاسفة فيما كانوا يقولونه في الخالق ورسله في أسمائه وصفاته والمعاد وغير ذلك»[١].

قال القرطبي: «من كثر تطلعه على عورات المسلمين، وينبه عليهم، ويعرف عدوهم بأخبارهم، لم يكن بذلك كافرًا إذا كان فعله لغرض دنيوي واعتقاده على ذلك سليم، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينو الردة عن الدين»[٢][٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٩٩-٢٠٢)، باختصار.

(٢) يشير بذلك إلى الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٤٩٦)، في كتاب الجهاد والسير، باب الجاسوس، والتجسس، والتبحث، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠١٢)، في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر، جاء فيه أن حاطب بن أبي بلتعة أرسل الرسالة إلى قريش يخبرهم بقدوم رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: **«يا حاطب ما هذا؟»**، قال: لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقًا في قريش ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم، أن اتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا، ولا ارتدادًا عن دين، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: **«إنه صدقكم»**.

(٣) نفسير القرطبي (٢٠/ ٣٩٩).

ويقول الشيخ الفوزان حفظه الله حين قسم مظاهرة الكفار إلى أقسام:

«**القسم الأول**: مظاهرتهم ومعاونتهم على المسلمين مع محبة ما هم عليه من الكفر، والشرك، والضلال، فهذا القسم لا يشك أنه كفر أكبر مخرج من الملة...

القسم الثاني: أن يعاونهم على المسلمين لا مختارا، بل يكرهونه على ذلك بسبب إقامته بينهم، فهذا عليه وعيد شديد، ويخشى عليه الكفر المخرج من الملة...

القسم الثالث: من يعين الكفار على المسلمين وهو مختار غير مكره، مع بغضه لدين الكفار، وعدم الرضا عنه، فهذا لا شك أنه فاعل لكبيرة من كبائر الذنوب، ويخشى عليه من الكفر، ولولا أنه يبغض دينهم ولا يحبهم لحكم عليه بالكفر، فهو على خطر شديد»[(١)][(٢)].

○ **الثاني: التوكل.**

قد جاء الأمر بالتوكل في آيات كثيرة، منها: قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]، فإنه فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، لأنه من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين[(٣)]، فالواجب على العبد أن يتوكل على الله لا على المخلوقين، فإن (المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا

---

(١) شرح نواقض الإسلام (ص/١٥٨-١٥٩) للشيخ الفوزان، باختصار.

(٢) انظر: حقيقة الولاء والبراء في الكتاب والسنة (ص/٢٣٧-٢٤١، و ص/٢٩٧ وما بعدها)، تأليف د. عصام بن عبد الله السناني.

(٣) انظر: التيسير (ص/٤٢٧).

هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله . . . فهذا الوجه يقتضي، التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه، ومسألته، دون ما سواه، ويقتضي أيضًا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه)[١].

والتوكل، حقيقته اعتماد القلب على الله، وثقته به، والتجاؤه إليه، ورضاه بما يقضيه له؛ لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور به واجتهاده في تحصيلها[٢].

والتوكل عمل قلبي، وعبادة قلبية محضة، ولهذا كان إفراد الله بها واجبا، وكان صرفها لغير الله جل وعلا شركًا.

التوكل على غير الله سبحانه وتعالى له حالتان:

الحالة الأولى: أن يكون شركًا أكبر، وهو أن يتوكل على أحد من الخلق فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، كأن يتوكل على المخلوق في مغفرة الذنب، وأن يتوكل على المخلوق في تحصيل الخيرات الأخروية إلى غير ذلك من الأشياء، وهو لا يقدر على ذلك الشيء.

والحالة الثانية: أن يتوكل على المخلوق فيما أقدره الله عليه، وهذا نوع شرك، بل هو شرك خفي، وشرك أصغر، وكونه شركًا لأن التوكل هو تفويض الأمر والالتجاء بالقلب إلى من بيده الأمر وهو الله عز وجل، والمخلوق لا يستحق شيئًا من ذلك[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧-٢٨).

(٢) انظر: كتاب الروح لابن القيم (ص/ ٤٩١-٤٩٢).

(٣) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لمعالى الوزير الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ (ص/ ٣٧٥-٣٧٦).

فإذا توكل العبد على مخلوق فيما أقدره الله عليه ففي هذا نوع تعلق لقلبه بذلك المخلوق، أما إذا توكل على العبد فيما لا يقدر عليه إلا الله فهذا شرك أكبر، وهو هذا الذي يجب الإخلاص فيه، نسأل الله السلامة.

○ الثالث: **الاستعاذة.**

وقد عرف الشيخ سليمان الاستعاذة فقال: «الاستعاذة الالتجاء والاعتصام والتحرز، وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه، ولهذا يسمى المستعاذ به معاذًا وملجأ ووزرًا»(١).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «و قول القائل أعوذ بالله معناه أستجير بالله، والمستعيذ يطلب منع المستعاذ منه، أو رفعه»(٢).

الاستعاذة من العبادات التي أمر الله عباده بها كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ [الفلق: ١]، وقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ [الناس].

وقد اختلف العلماء في الاستعاذة على قولين، هل الاستعاذة خاصة بالله لفظا ومعنى، أم يجوز صرفها للمخلوق فيما يقدر عليه؟

القول الأول: أنه لا يجوز صرفها لغير الله مطلقًا، وليس ثم استعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، لأن الاستعاذة توجه القلب، واعتصامه، والتجاؤه، ورغبته، وهذه المعاني لا تصلح إلا لله، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والاستعاذة لا تصلح بمخلوق كما نص عليه الأمام أحمد وغيره من الأئمة، إلى أن قال: والاستعاذة لا تكون بمخلوق»(٣).

---

(١) التيسير (ص/ ١٧٠).

(٢) الرد على البكري (٢/ ٥٤٧)، بتصرف يسير.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٢٣).

القول الثاني: جواز الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه، لأن حقيقة الاستعاذة: طلب انكشاف الشر، وطلب العياذ، وهو أن يستعيذ من شر أَحْدَقَ به، واستدلوا بأحاديث، منها ما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «**ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ، أو معاذًا فليعذ به**»[1]، وهذا القول هو ظاهر قول شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما طلب ما يقدر عليه في حياته فهذا جائز، سواء سمي استغاثة، أواستعاذة، أو غير ذلك»[2].

لكن الذي لا نزاع فيه بين علماء أهل السنة والجماعة، أنه لا يستعاذ بمخلوق في أمر خاص بالله، كأن تفعل على وجه التعبد، أو يكون الاستعاذة بمخلوق فيما لا يقدر عليه، لأنه شرك أكبر، وناقض للإيمان، مخرج صاحبه من الملة.

○ الرابع: **الاستعانة.**

الاستعانة هي طلب العون، وهي عبادة جاء بها الكتاب والسنة كقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ۝٥﴾ [الفَاتِحَة]، وكقول رسول الله ﷺ فيما ثبت عند الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنه: «**إذا استعنت، فاستعن بالله**»[3].

وحقيقة الاستعانة هي الثقة بالله والاعتماد عليه، يقول ابن القيم رحمه الله:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢٢٠)، في كتاب الفتن، باب تكون فتنة القاعد فيها خير من فتنة القائم، وكسلم في صحيحه (ص/١١٥٦)، في كتاب الفتن، باب نزول الفتن كمواقع المطر.

(٢) الرد على البكري (٢/ ٧١٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المنسد (٤/ ٤١٠)، والترمذي في سننه (ص/ ٥٦٧)، في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع عن رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

«الاستعانة تجمع أصلين؛ الثقة بالله، والاعتماد عليه»[١].

وجاء في الكتاب والسنة الاستعانة على غير الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقـرة: ١٥٣]، وما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه**»[٢]، وبهذه النصوص استدل شيخ الإسلام على أن الاستعانة تكون من غير الله، لكن الضابط الذي ذكرنا في التوكل، والاستعاذة، أن صرفهما لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر، يفيد أيضًا في ضبط الاستعانة الشركية، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما ما لا يقدر عليه إلا الله فلا يطلب إلا من الله»[٣]، وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «فالاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك في الإلهية والربوبية»[٤].

ومن خلال هذه الأمثلة يتبين لنا تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان، وأنه ما من عمل قلبي يكون عبادة لله، إلا وهو يتحول فيكون ناقضا للإيمان في أحوال، وهو كما ذكرنا أن تقع هذه الأعمال على وجه التعبد لغير الله.

والخلاصة مما سبق: لما كان من المقرر عند أهل السنة والجماعة؛ أن الإيمان قول وعمل، وأن له شروطًا وأركانًا، فإن من المقرر أيضًا؛ أن للإيمان نواقض تنقض الإيمان وتهدمه، وقد بينا المراد بنقض الإيمان لغة وشرعًا، ثم بينا أن نقض الإيمان يكون بالقول والعمل والاعتقاد، وأن هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة قاطبة، بخلاف المرجئة.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨٢)، في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٠٤).

(٤) بيان كشف ما ألقاه إبليس (ص/ ٨٨).

ومن ثم بينا؛ أن نقض الإيمان يكون بهذه الثلاثة إلا أن أصل النواقض هو ما في القلب من الاعتقاد، وهذا الأمر يظهر بجلاء مدى تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان.

وقد وضحنا أيضًا أن زوال أعمال القلوب هو زوال للإيمان، وهذا يبين شدة التلازم بين تصديق القلب وعمله من جهة، ومن جهة أخرى يبرز قوة تأثير أعمال القلوب في نقض الإيمان.

وفي ختام هذا المبحث ذكرنا بعض الأمثلة من الأعمال القلبية التي يكون بها نقض الإيمان، مع بيان الفرق متى تكون هذه الأعمال ناقضًا للإيمان، ومتى تكون شركًا أصغر، أو معصية، أو تكون مباحة، والله تعالى أعلم.





الباب الثاني

دراسة الأعمال القلبية،
وتفاضلها، ودرجات الناس فيها

وفيه فصلان:

الفصل الأول: دراسة الأعمال القلبية.

الفصل الثاني: تفاضل أعمال القلوب، وأسبابه، ودرجات الناس فيها.



تمهيد

من المعلوم أن الإيمان الذي أمرنا الله به له شعب وأجزاء كما قال النبي ﷺ: «**الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة**»، وأن له أدنى وأعلى: «**أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**»[1]، وأن أهله متفاوتون فيه، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر]، ولما كان الأمر كذلك كان جديرًا بطلاب العلم دراسة هذه الشعب، ومعرفة مراتب المؤمنين في تحقيقها، إذ إن مباحث الإيمان ومسائله هي أهم المسائل على الإطلاق.

يقول الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه لحديث الشعب: «في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم بمعنى ذي شعب وأجزاء، لها أعلى وأدنى، وأقوال وأفعال، وزيادة ونقصان، فالاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها، والحقيقة تقتضي جميع شعبها وتستوفي جملة أجزائها، كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء، والاسم يتعلق ببعضها والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها، ويدل على صحة ذلك قوله (الحياء شعبة من الإيمان)، فأخبر أن الحياء أحد الشعب، وفيه إثبات التفاصيل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاتهم»[2].

فقد ذكر النبي ﷺ في هذا الحديث ثلاث شعب، أعلاها وهي قول لا إله إلا الله، وأدناها وهي إماطة الأذى عن الطريق، وخص الحياء بالذكر

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) معالم السنن (٤/ ٣١٢).

للأهمية، أما بقيتها فجاءت متفرقة في النصوص، وقد استنبطها العلماء من الكتاب والسنة، قال القاضي عياض رحمه الله: «تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان»[(١)].

ثم هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان وأعمال البدن، فالذي اخترناه منها للدراسة في بحثنا هذا؛ هي الشعب التي تتعلق بالقلب والتي سميناها أعمال القلوب، فأنا في هذه الدراسة أتناول دراسة الأعمال القلبية المأمور بها التي هي من شعب الإيمان، وذلك بما يتيسر لي من جمع ما تفرق من كلام شيخ الإسلام وبضم النظير إلى نظيره، الأمر الذي يحصل معه إيضاح المسألة وتقريبها وتكميل صورتها وبيان أحكامها، إذ به أبرز جهد هذا العالم الجليل الرباني في هذا المجال، فإن لم أجد كلامًا له في بعض المسائل ذكرت كلام غيره من العلماء المعتبرين من أهل السنة والجماعة، وذلك لكي تكتمل الصورة التي خططناها لدراسة هذه الأعمال.

ومنهجي في دراسة الأعمال القلبية يتمثل في النقاط التالية:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي للعمل.

المطلب الثاني: العمل في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أنواع العمل، أو أقسامه (إن كان للعمل أنواع وأقسام)، وشروطه (إن كان للعمل شروط).

المطلب الرابع: ثمرات العمل.

وهذا المنهج سأتبعه في أكثر الأعمال، وقد أتعرض لذكر بعض الجوانب الأخرى التي أرى لشيخ الإسلام كلاما فيها، أو أرى أنها مهمة لإيرادها، وبالله التوفيق.

---

(١) فتح الباري (١/ ٥٢) لابن حجر، وانظر: إكمال المعلم (١/ ٢٧٢).



الفصل الأول

دراسة الأعمال القلبية

وفيه تسعة عشر مبحثًا:

المبحث الأول: النية.

المبحث الثاني: الإخلاص.

المبحث الثالث: المحبة.

المبحث الرابع: الخوف.

المبحث الخامس: الرجاء.

المبحث السادس: الصدق.

المبحث السابع: التوكل.

المبحث الثامن: الصبر.

المبحث التاسع: الرضا.

المبحث العاشر: اليقين.

المبحث الحادي عشر: الاستعانة.

المبحث الثاني عشر: الاستعاذة.

المبحث الثالث عشر: التوبة.

المبحث الرابع عشر: التقوى.

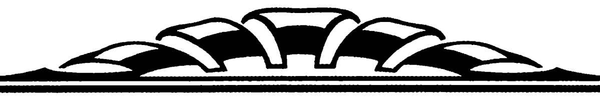
المبحث الخامس عشر: الزهد.

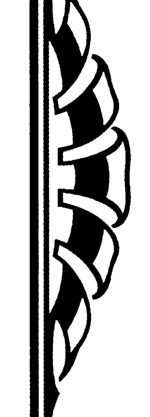
المبحث السادس عشر: الورع.

المبحث السابع عشر: الذكر.

المبحث الثامن عشر: الشكر.

المبحث التاسع عشر: الحياء.





المبحث الأول:

النية

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: النية محلها القلب.

المطلب الرابع: أنواع النية.

المطلب الخامس: ثمرات النية.

المطلب الأول
التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

النية: مصدر نوى ينوي نية ونواة، أصلها نِوْية بكسر النون وسكون الواو، ووزنها فعلة، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

والنية لغة: نوى الشيء ينويه نية قصده، وعزم عليه[١]، ويراد بالنية أمران: الأول؛ نوع من الارادة، مثل نويت أن أصلي، والثاني؛ نفس المراد، مثل هذه نيتي أي؛ هذه البقعة التي نويت إتيانها.

ولفظ النية في كلام العرب من جنس لفظ القصد والإرادة[٢]، إلا أن بين النية وبين القصد والإرادة فروقًا.

أما الفرق بين النية والقصد فمن وجهين:

أحدهما: أن القصد معلق بفعل الفاعل نفسه وبفعل غيره، والنية لا تتعلق إلا بفعل نفسه، فلا يتصور أن ينوي الرجل فعل غيره، ويتصور أن يقصده ويريده، ومن هذه الزاوية يكون القصد أعم من النية.

الثاني: أن القصد لا يكون إلا بفعل مقدور يقصده الفاعل، وأما النية فينوي الإنسان ما يقدر عليه وما يعجز عنه[٣].

---

(١) القاموس المحيط (ص/١٧٢٨)، ومعجم مقاييس اللغة (ص/٩٦٦)، ولسان العرب (١٤/ ٣٩٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٥٢).

(٣) انظر: بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٣).

وكذلك بين النية والإرادة فروق، وأن الإرادة أعم من النية من ناحيتين:

الأولى: من ناحية معناها، فالإرادة تشمل النية وغيرها، وقد عد القرافي[(١)] أقسام الإرادة فكانت ثمانية، والنية واحدة منها، فالإرادة إذا اطلقت تشمل النية وغيرها.

الثانية: أن النية لا تتعلق إلا بفعل الناوي، والإرادة تتعلق بفعله وفعل غيره، فإنك تقول؛ أردت من فلان كذا، ولا تقول؛ نويت من فلان كذا[(٢)].

۞ المسألة الثانية: التعريف الاصطلاحي.

ذهب جمع من العلماء إلى تعريف النية بمدلولها اللغوي، فمنهم من عرفها بالعزم والقصد، ومنهم من عرفها بالإرادة، وقد بينا أوجه الفرق بين النية وبين القصد والإرادة، ومنهم من عرفها بالإخلاص وليس كذلك، إذ يعد «الإخلاص أمرًا زائدًا على النية، لا يحصل بدونها، وتحصل بدونه»[(٣)].

وأحسن تعريف عرفت به النية اصطلاحا هو تعريف البيضاوي رحمه الله، إذ قال: «النية عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض، من جلب نفع أو دفع ضر حالا أو مآلا»[(٤)].

۞ المسألة الثالثة: التعريف الشرعي.

جماهير العلماء يرون أن الشارع نقل النية من معناها اللغوي إلى معنى

---

(١) نقل عنه السيوطي في منتهى الآمال (ص/ ٨٢-٨٣).

(٢) ذكر الفرق الثاني شيخ الإسلام في المجموع (١٨/ ٢٥٢)، عند شرحه لحديث **«إنما الأعمال بالنيات»**.

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي (١/ ٤١).

(٤) عمدة القاري للعيني الحنفي(١/ ٥٣).

شرعي يخصه، فمنهم من عرفها: «أنها توجه القلب نحو الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لأمره»[(١)]، مثل ما فعل البيضاوي وتبعه الآخرون.

ومنهم من عرفها: «بأنها عقد القلب على إيجاد الفعل جزمًا»، أو: «بأنها قصد الشيء مقترنًا بفعله»[(٢)].

ويعارض التعريف الأول ما تقرر من أن النية عمل من أعمال القلوب، وأفعال القلوب كأفعال الجوارح لم ينقل الشارع مسماها عن الاسم اللغوي إذا قصد بها وجه الله تعالى، لم ينقل الشارع حركة البدن بالسجود عن مسماه بالسجود للصنم بل الكل سجود.

كل ما يمكن أن نقول أن السجود لله مأمور به، والسجود لغير الله منهي عنه، وكذلك بالنسبة للنية التي هي حركة القلب وانبعاثه، فإنها باقية على مسماها اللغوي لم ينقلها الشارع ولا خصصها، بل بين أن ما كان منها لله فهي المطلوبة المحبوبة، وما كان منها رياء وسمعة فهي مكروهة ممقوتة، ومما يؤيد هذا القول أن الذين قالوا بأن للنية معنى شرعيًا غير المعنى اللغوي عند ما جاءوا إلى تفسير النية في الأحاديث التي وردت فيها النية، فسروها بمعناها اللغوي.

أما التعريف الثاني، فليس هناك دليل يلزم أن يكون العمل مع النية، بل قد يقع العمل مع النية مقترنًا، وقد يتخلف العمل عن النية، ومما يدل على هذا أن الله يثيب أناسًا على نياتهم فقط، إن عجزوا عن العمل.

فالصواب ـ إن شاء الله ـ أن الشارع استعمل النية في معناها اللغوي، ولم يضع لها معنى اصطلاحيًا خاصًا[(٣)]، والله تعالى أعلم.

---

(١) حاشية السندي على النسائي (١/ ٦٣).
(٢) إعانة الطالبين (ص/ ٣٧).
(٣) انظر: النيات في العبادات (ص/ ٣٢-٣٧).

ويشير إلى هذا شيخ الإسلام أيضًا، إذ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنية هي مما يخفيه الإنسان في نفسه فإن كان قصده ابتغاء وجه ربه الأعلى استحق الثواب، وإن كان قصده رياء الناس استحق العقاب كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون]، وفي حديث أبي هريرة الصحيح(١) في الثلاثة الذين أول من تسعر بهم النار في الذي تعلم وعلم ليقال عالم قارئ، والذي قاتل ليقال جريء وشجاع، والذي تصدق ليقال جواد وكريم، فهؤلاء إنما كان قصدهم مدح الناس لهم وتعظيمهم لهم وطلب الجاه عندهم، لم يقصدوا بذلك وجه الله، وإن كانت صور أعمالهم صورًا حسنة فهؤلاء إذا حوسبوا كانوا ممن يستحق العذاب»(٢).

وقال في كلامه عن حديث إنما الأعمال بالنيات: «وقال الجمهور: بل الحديث على ظاهره وعمومه، فإنه لم يرد بالنيات فيه الأعمال الصالحة وحدها، بل أراد النية المحمودة والمذمومة، والعمل المحمود والمذموم ولهذا قال في تمامه: فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله إلخ، فذكر النية المحمودة بالهجرة إلى الله ورسوله فقط، والنية المذمومة وهي الهجرة إلى امرأة أو مال، وهذا ذكره تفصيلا بعد إجمال»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٧٩١)، في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١١٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٥٣)، وانظر أيضًا قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/٧)، ضمن جامع المسائل.

المطلب الثاني
الأدلة من الكتاب والسنة

المسألة الأولى: الأدلة من الكتاب.

قد ذكرت أن النية في كلام العرب إنما يراد بها الإرادة، ولذلك يعبر عنها بلفظ الإرادة في القرآن، وذلك في آيات كثيرة، منها:

١ ـ قول الله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢].

٢ ـ وقوله: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفَال: ٦٧].

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشّورى].

٤ ـ وقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسرَاء].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

يوضح الله في الآيات السابقة أن إرادات الناس ونياتهم تختلف، فمنهم من ينوي الحصول على الدنيا ولذاتها، وهذه غاية بعضهم القصوى، ومنهم من يخلص الدين لله وهمه الآخرة، ومنهم من يجمع بينهما، فأحيانا تغلب هذه، وأحيانا تغلب هذه، والعبرة بالأصل.

أما الآية الأولى فنزلت يوم أحد، يوم انهزم المسلمون فيه بسبب

مخالفتهم أمرًا لرسول الله ﷺ، وكان سبب المخالفة غلبة حبهم العاجل لبعض الأمور من الدينا مثل الغنيمة، وأما الآخرون الذين ثبتوا في المركز امتثالا لأمر رسول الله ﷺ، همهم تجاوز الدنيا ونعيمها، وكان همهم الوحيد الآخرة(١).

أما الآية الثانية فتوجه الله بخطاب لأصحاب النبي ﷺ وفيه إنذار لهم، لئلا يغتروا بأعراض الدنيا وأغراضها، والمراد بعرض الدنيا نفعها ومتاعها بما قبضوا من الفداء يوم بدر، وسمي عرضا لأنه سريع الزوال.

والله يريد لهم الآخرة، وما يحصل لهم فيها من الثواب في الإثخان بالقتل(٢).

أما الآية الثالثة فيخبر الله أن من الناس من يريد حرث الآخرة وأجرها وثوابها، فآمن بها وصدّق وسعى لها سعيها، ووعده بأن يضاعف عمله وجزاءه أضعافا كثيرة، ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد له أن يأتيه.

ومن الناس من كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها ولم يخش عقابها، فجزاؤه أن نؤتيه نصيبه الذي قسم له، وفي الآخرة حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها(٣).

أما الآية الرابعة فيخبر تعالى أن من كان يريد الدنيا العاجلة المنقضية الزائلة فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، وأن الله يعجل له من متاعها ما يشاؤه ويريده مما كتب الله له في اللوح المحفوظ.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ [الإسراء: ١٨] أي: يباشر

---

(١) انظر: تفسير البغوي (١/ ٤٣٢)، وابن كثير (١/ ٥٣٦)، وفتح البيان (٢/ ٣٥٤).

(٢) فتح البيان (٥/ ٢١٤)، وانظر: تفسير البغوي (٢/ ٢٣٩)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٧١).

(٣) انظر: تفسير السعدي (ص/ ٧٥٧).

عذابها ﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨] أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله فيجمع له بين العذاب والفضيحة.

ومن أراد الآخرة، فرضيها وآثرها على الدنيا وسعى لها سعيها الذي دعت إليه الكتب السماوية والآثار النبوية فعمل بذلك على قدر إمكانه وهو مؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ أي: مقبولًا منميًا مدخرًا لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم، ومع هذا فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلًّا يمده الله منها لأنه عطاؤه وإحسانه(١).

أما الآية الخامسة، فيأمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ، ـ وغيره أسوته في الأوامر والنواهي ـ أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين الذين يدعون ربهم أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

ولا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك، ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨] فإن هذا ضار غير نافع، وقاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويقبل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والندامة السرمدية(٢).

وقد يعبر عن النية في القرآن بلفظ «**الابتغاء**»، والآيات فيها كثيرة، منها:

---

(١) تفسير السعدي (ص/ ٤٥٥).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٤٧٥).

١ - قول الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمتصدق يتصدق لوجه الله ولا يطلب أجره من المخلوقين، بل من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل]»[(١)]، ويقول أيضًا: «وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى، لا يطلب جزاء من مخلوق، فقال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [الليل] فلم يكن لأحد عند الصديق نعمة تجزى، فإنه كان مستغنيًا بكسبه وماله عن كل أحد»[(٢)].

٢ - ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]، يقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فنفى الخير عن كثير مما يتناجى به الناس إلا في الأمر بالمعروف، وخص من أفراده الصدقة والإصلاح بين الناس لعموم نفعهما، فدل ذلك على أن التناجي بذلك خير، وأما الثواب عليه من الله، وخصه بمن فعله ابتغاء مرضات الله.

وإنما جعل الأمر بالمعروف من الصدقة، والإصلاح بين الناس وغيرهما خيرًا، وإن لم يبتغ به وجه الله، لما يترتب على ذلك من النفع المتعدي، فيحصل به للناس إحسان وخير، وأما بالنسبة إلى الأمر، فإن قصد به وجه الله وابتغاء مرضاته كان خيرًا له وأثيب عليه، وإن لم يقصد ذلك لم يكن خيرًا له ولا ثواب عليه»[(٣)].

---

(١) الفتاوى الكبرى (٣/ ٤٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٧).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٧).

٣ ـ ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥]، قال العلامة السعدي رحمه الله: «هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه ﴿وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة تعرض لها آفتان؛ إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتًا من أنفسهم»(١).

وفي الآيات المذكورة عُبر عن النية بلفظ الابتغاء، والملاحظ أن الابتغاء بمعنى النية استعمل في المراد الحسن فقط، بخلاف الإرادة.

وفُهم من الآيات أيضًا، أن ابتغاء الرجل هو قصده ونيته، فإن كان الابتغاء هو ابتغاء وجه الله وابتغاء مرضات الله، فتلك النية الحسنة المحمود أهلها، و إن كان الابتغاء غير ذلك فإما أن يكون الابتغاء ضارًّا أو غير نافع، والله أعلم.

المسألة الثانية: الأدلة من السنة.

وقد ورد في السنة النبوية ذكر النية في أحاديث كثيرة، أذكر هنا بعضها:

١ ـ ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما

---

(١) تفسير السعدي (ص/ ١١٤).

الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١)، بين النبي ﷺ أن الأعمال تجازى بحسب النيات، وأن العبرة بالقصد والنية، فمن كان قصده ونيته التقرب إلى لله والعبادة له فأجره عند الله، ومن كانت نيته غير ذلك فلا شيء له عند الله، وإن كانت صورة العمل عبادة كما في الحديث الذي ذكر فيه الهجرة وهي من العبادات، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «وقول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**» كلمة جامعة كاملة، فإن النية للعمل كالروح للجسد، وإلا فكل واحد من الساجد لله والساجد للشمس والقمر قد وضع جبهته على الأرض فصورتهما واحدة، ثم هذا أقرب الخلق إلى الله تعالى وهذا أبعد الخلق عن الله»، ويقول أيضًا: «وهذا الحديث من أجمع الكلم الجوامع التي بعث بها، فإن كل عمل يعمله عامل من خير وشر هو بحسب ما نواه، فإن قصد بعمله مقصودًا حسنًا كان له ذلك المقصود الحسن، وإن قصد به مقصودا سيئا كان له ما نواه»(٢).

واختلف العلماء في تقدير الأعمال المذكورة في الحديث هل المقصود جميع الأعمال، أو المقصود الأعمال الشرعية فقط، يقول ابن رجب رحمه الله: «وعلى هذا القول(٣)، فقيل تقدير الكلام: الأعمال واقعة أو حاصلة بالنيات، فيكون إخبارًا عن الأعمال الاختيارية أنها لا تقع إلا عن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١)، في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، ومسلم في صحيحه (ص/٧٩٢)، في كتاب الإمارة، باب قوله «إنما الأعمال بالنيات».

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ٤٣١).

(٣) يقصد بهذا القول، قول من يقول في الحديث «إنما الأعمال بالنيات» على عمومها، ولا يخص منها شيء، كما هو قول لبعض أهل العلم، أن الأعمال في هذا الحديث تخص الأعمال الشرعية، انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٦٣-٦٤)، ومجموع الفتاوى (١٨/ ٤٣٠).

قصد من العامل هو سبب عملها ووجودها، ويكون قوله بعد ذلك «**وإنما لامرئ ما نوى**» إخبارًا عن حكم الشرع، وهو أن حظ العامل من عمله نيته، فإن كانت صالحة فعمله صالح، و إن كانت فاسدة فعمله فاسد، فعليه وزره»(١).

٢ ـ وعن سعد بن أبي وقاص ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك**»(٢)، وفي هذا الحديث دلالة على أن الأعمال بالنيات، وأنه إنما يثاب على عمله بنيته، وفيه أن الإنفاق على العيال يثاب عليه إذا قصد به وجه الله تعالى، وفيه أن المباح إذا قصد به وجه الله تعالى صار طاعة ويثاب عليه(٣).

٣ ـ وعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(٤)، ومعنى الحديث لا هجرة بعد الفتح من مكة، لأنها صارت دار إسلام وإنما تكون الهجرة من دار الحرب، ولكن جهاد ونية، أي: ولكن لكم طريق إلى تحصيل الفضائل التي في معنى الهجرة وذلك بالجهاد ونية الخير في كل شيء وإذا استنفرتم(٥).

٤ ـ وعن أم سلمة أم المؤمنين ﵂ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خُسف بهم**»،

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٦٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٣)، و في كتاب الإيمان، باب أن الأعمال بالنيات، ومسلم في صحيحه (ص/ ٦٦٧)، في كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث.

(٣) شرح النووي على مسلم (١١/ ٧٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٤٦١)، في كتاب الجهاد والسير، باب فضل الجهاد والسير، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٣٥)، في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها.

(٥) انظر: شرح النووي على مسلم (١٣/ ٨).

فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهًا؟ قال: «**يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته**»(١)، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرض بيانه أن الكفار قد يقاتلون وفيهم مؤمن يكتم إيمانه يشهد القتال معهم، ولا يمكنه الهجرة وهو مكره على القتال ويبعث يوم القيامة على نيته، ثم استدل بالحديث الذي معنا هنا، فقال: «وهذا في ظاهر الأمر، وإن قتل وحكم عليه بما يحكم على الكفار فالله يبعثه على نيته، كما أن المنافقين منا يحكم لهم في الظاهر بحكم الإسلام ويبعثون على نياتهم، والجزاء يوم القيامة على ما في القلوب لا على مجرد الظواهر»(٢).

وأمثال هذه الأحاديث في السنة النبوية كثيرة، وكلها تبين أهمية النية وعظم منزلتها، وأن قبول الأعمال مبني على النية الصالحة، التي هي أول كل عمل، بشرط أن تكون هذه الأعمال موافقة لما جاء به الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٥٥)، في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت.

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٢٥).

المطلب الثالث

النية محلها القلب

بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن النية محلها القلب، لأنها عبارة عن قصد القلب وإرادته، ومحلها فيه باتفاق العلماء، فإن نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم.

ولو تكلم بلسانه بشيء وفي قلبه خلافه، كانت العبرة بما في قلبه لا بما تلفظ به، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، فأخذهم الله بما في قلوبهم من الكفر ولم ينظر إلى ما تلفظوا بألسنتهم من الإيمان.

و(قد تنازع الناس في حكم التلفظ بالنية سرًّا:

فقالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد: يستحب ليكون أبلغ.

وقالت طائفة من أصحاب مالك وأحمد: لا يستحب ذلك، بل التلفظ بها بدعة، فإن النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لم ينقل عن واحد منهم أنه تكلم بلفظ النية لا في صلاة ولا طهارة ولا صيام، قالوا: لأنها تحصل مع العلم بالفعل ضرورة، فالتكلم بها نوع هوس وعبث وهذيان، والنية تكون في قلب الإنسان، ويعتقد أنها ليست في قلبه فيريد تحصيلها بلسانه وتحصيل الحاصل محال، فلذلك يقع كثير من الناس في أنواع من الوسواس.

واتفق العلماء على أنه لا يسوغ الجهر بالنية، لا لإمام ولا لمأموم ولا

لمنفرد، ولا يستحب تكريرها، وإنما النزاع بينهم في التكلم بها سرًّا: هل يكره أو يستحب؟).[(١)]

فالنية إرادة القلب وقصده، وهي عمل من أعمال القلوب، «ولا يجب التلفظ بما في القلب في شيء من العبادات»[(٢)].

وبعد ما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أقوال أهل العلم في التلفظ بالنية ورجح عدم التلفظ بها قال: «وهذا القول أصح، بل التلفظ بالنية نقص في العقل والدين: أما في الدين فلأنه بدعة، وأما في العقل فلأن هذا بمنزلة من يريد أكل الطعام فقال: أنوي بوضع يدي في هذا الإناء أني آخذ منه لقمة، فأضعها في فمي فأمضغها، ثم أبلعها لأشبع فهذا حمق وجهل.

وذلك أن النية تتبع العلم، فمتى علم العبد ما يفعل كان قد نواه ضرورة، فلا يتصور مع وجود العلم به أن لا تحصل نية، وقد اتفق الأئمة على أن الجهر بالنية وتكريرها ليس بمشروع، بل من اعتاده فإنه ينبغي له أن يؤدب تأديبًا يمنعه عن التعبد بالبدع، وإيذاء الناس برفع صوته، والله أعلم»[(٣)].

ويذكر شيخ الإسلام: «أن الإمام أحمد سئل هل تقول شيئًا قبل التكبير، فقال: لا، وحمله بعض أصحابنا على أنه ليس قبل التكبير ذكر مشروع، وكلام أحمد عام في الذكر واللفظ بالنية، وذلك لأن النية محض عمل القلب فلم يشرع إظهارها باللسان لقوله سبحانه: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ [الحُجرَات]، وفاعل ذلك يعلم الله بدينه الذي في قلبه»[(٤)].

---

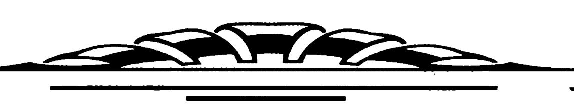
(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٢٦٣-٢٦٤).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٩٢).

(٣) الفتاوى الكبرى (١/ ٢١٤).

(٤) شرح العمدة (٤/ ٥٩١).

فالله ﷻ عليم بذات الصدور لا تخفى عليه خافية، وهو ينظر ﷻ إلى القلوب التي هي موضع النيات، كما ثبت في الحديث أن الله لا ينظر إلى صورنا وأموالنا، ولكن ينظر إلى قلوبنا، فبالتالي فلا حاجة إلى التلفظ بالنية لأنه عمل قلبي، بل التلفظ بها بدعة منكرة، والله أعلم.



المطلب الرابع

أنواع النية

إن الناظر في كلام أهل العلم يجد أن لفظ النية عندهم يجري على نوعين:

النوع الأول: تمييز العبادة عن العادة، وتمييز العبادة عن العبادة، فمن الأول تمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، أو صيام العبادة من الصيام الذي يكون من مرض، أو كره، أو من أجل الصحة، ومن الثاني تمييز صلاة الظهر من صلاة العصر، أو صوم رمضان من صيام غيره، وهذا النوع هو الذي يوجد في كتب الفقه ويذكره الفقهاء.

والنوع الثاني: تمييز المقصود بالعمل، هل هو الله وحده لا شريك له، أم غير الله، أو بعبارة أخرى تمييز المعبود عن معبود، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف الصالح[١].

وقد ذكر شيخ الإسلام هذين النوعين في أكثر من موضع من كتبه، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولفظ النية يجري في كلام العلماء على نوعين: فتارة يريدون بها تمييز عمل من عمل وعبادة من عبادة، وتارة يريدون بها تمييز معبود عن معبود ومعمول له عن معمول له.

فالأول: كلامهم في النية: هل هي شرط في طهارة الأحداث؟ وهل

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٦٥-٦٦).

تشترط نية التعيين والتبييت في الصيام؟ وإذا نوى بطهارته ما يستحب لها هل تجزيه عن الواجب؟ أو أنه لا بد في الصلاة من نية التعيين ونحو ذلك؟

والثاني: كالتمييز بين إخلاص العمل لله وبين أهل الرياء والسمعة، كما سألوا النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة وحمية ورياء فأي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١)، وهذا الحديث يدخل فيه سائر الأعمال، وهذه النية تميز بين من يريد الله بعمله والدار الآخرة، وبين من يريد الدنيا: مالًا وجاهًا ومدحًا وثناء وتعظيمًا وغير ذلك، والحديث دل على هذه النية بالقصد وإن كان قد يقال: أن عمومه يتناول النوعين، فإنه فرق بين من يريد الله ورسوله، وبين من يريد دنيا أو امرأة، ففرَق بين معمول له ومعمول له، ولم يفرق بين عمل وعمل»(٢).

وقال أيضًا: «وأصل ذلك أن النية المعهودة في العبادات تشتمل على أمرين: على قصد العبادة، وقصد المعبود»، ثم تكلم عن النية التي بمعنى الإخلاص، وقال أنه لا بد لكل بشر من همة و إرادة هو مقصوده وغايته، ثم ذكر النية بمعنى قصد العبادة، وبين أنها التي تذكر غالبًا في كتب الفقه المتأخرة، وأن كل واحدة من النيتين فرض على الجملة، ثم قال رحمه الله: «**أما الأولى**: فبها يتميز من يعبد الله مخلصًا له الدين ممن يعبد الطاغوت أو يشرك بعبادة ربه، ومن يريد حرث الآخرة ممن يريد حرث الدنيا، وهو الدين الخالص لله الذي تشترك فيه جميع الشرائع الذي نهى الأنبياء عن التفرق فيه.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٤٦٦)، في كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ومسلم في صحيحه (ص/٧٩٠)، في كتاب الإمارة، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله.

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/٢٥٦-٢٥٧).

وأما **النية الثانية**: فبها تتميز أنواع العبادات، وأجناس الشرائع فيتميز المصلي من الحاج والصائم، ويتميز من يصلي الظهر ويصوم قضاء رمضان، ممن يصلي العصر ويصوم شيئًا من شوال، ويتميز من يتصدق عن زكاة ماله، ممن يتصدق من نذر عليه أو كفارة»[(١)].

فتبين لنا أن النية في كلام العلماء على نوعين: أحدهما: تمييز العبادة عن العادة أو تمييز العبادة عن العبادة، والثاني: تمييز المعبود عن المعبود، ولنا وقفة قصيرة مع النوع الأول وهو تأثير النية في تحويل العادة المباحة إلى العبادة، وقد ذكر شيخ الإسلام هذا الأمر في كتبه كثيرًا، قال رَحِمَهُ اللهُ: «فأما من استعان بالمباح الجميل على الحق فهذا من الأعمال الصالحة»، ثم ذكر بعض الأدلة على ذلك، منها حديث سعد بن أبي وقاص الذي مر ذكره قريبا، ثم قال: «والآثار في هذا كثيرة، فالمؤمن إذا كانت له نية أتت على عامة أفعاله وكانت المباحات من صالح أعماله لصلاح قلبه ونيته، والمنافق ـ لفساد قلبه ونيته ـ يعاقب على ما يظهره من العبادات رياء، فإن في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**»»[(٢)].

ويقول أيضًا: «ثم إن هذا يعتبر فيه القصد، فإن كان الإنسان يقصد أن يشتغل بالمباح ليترك المحرم مثل من يشتغل بالنظر إلى امرأته ووطئها ليدع بذلك النظر إلى الأجنبية ووطئها، أو يأكل طعامًا حلالًا ليشتغل به عن الطعام الحرام فهذا يثاب على هذه النية والفعل، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته

---

(١) المصدر نفسه (٢٦/ ٢٣-٢٥). وانظر كذلك شرح العمدة لشيخ الإسلام أيضًا (٤/ ٥٧٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٦٩).

ويكون له أجر، قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أما كان عليه وزر**»[١]، فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال، وقد يقال المباح يصير واجبًا بهذا الاعتبار، وإن تعين طريقًا صار واجبًا معينًا وإلا كان واجبًا مخيرًا، لكن مع هذا القصد»[٢].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٨٩)، في كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٣٤)، وانظر (١٠/ ٤٦٠)، والإيمان الكبير (ص/٣٨).



المطلب الخامس

أقسام الناس في النية

بعد أن ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنواع النية، وأنها تقع على نوعين؛ تمييز العبادة عن العبادة، وتمييز معبود عن معبود، بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النيات قد تحصل جملة وقد تحصل تفصيلًا، أي قد تحصل مجملة بحيث يقصد الإنسان طاعة الله وعبادته مطلقا من غير تعيين لعمل خاص، وقد تحصل مفصلة يحيث يقصد الإنسان عبادة الله عَزَّ وَجَلَّ ويقصد العمل المعين المأمور به.

وبناء على هذا الاعتبار قسم شيخ الإسلام الناس في النية إلى ثلاثة أقسام:

«**القسم الأول**: الذي يقصد عبادة الله وطاعته، ولم يقصد العمل المعين المأمور به، كرجل له أموال ينفق منها على السائل والمحروم، مريدا بذلك وجه الله من غير أن يخطر بباله لا زكاة، ولا كفارة، ولا وضعها في الأصناف الثمانية دون بعض، فهذا يثاب على ما يعمله لله سبحانه، لكن يبقي في عُهْدة الأمر بالواجبات.

القسم الثاني: ورجل قد يقصد العمل المعين من غير أن يقصد طاعة الله وعبادته، كمن يدفع زكاة ماله إلى السلطان لئلا يضرب عنقه أو ينقص حرمته أو يأخذ ماله أو قام يصلي خوفًا على دمه أو ماله أو عرضه وهذه حال المنافقين عموما والمرائين في بعض الأعمال خصوصا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النِّسَاء: ١٤٢]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون]،

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

والقسم الثالث: أن يقصد فعل ما أمر به من ذلك العمل المعين لله سبحانه، واتفق الفقهاء على أن نية نوع العمل الواجب لا بد منها في الجملة، فلا بد أن يقصد الصلاة أو الحج أو الصيام ولهم في فروع ذلك تفصيل وخلاف ليس هذا موضعه»[١].

ثم ذكر شيخ الإسلام اختلاف العلماء في النية الأولى؛ أي أن يقصد الإنسان بعمله الإخلاص لله ﷻ عموما، هل تجب إضافة النية إلى الله في عمل معين، وقد ذكر ثلاثة أقوال؛ منهم من قال لا تجب نية الإضافة إلى الله، ومنهم من فرق بين العبادات المقصودة، كالصلاة، والحج، والصوم، وغير المقصودة كالطهارة والتيمم، بمعنى لا تجب في العبادت المقصودة، وتجب في العبادات غير المقصودة، والقول الثالث وجوبها في جميعها، وهذا ما أيده شيخ الإسلام رحمه الله، وتحدث عمن لم يخلص النية لله في الأعمال واصفا إياهم بالنفاق والرياء، ثم قال: «عندنا و عند أكثر العلماء، أن هذه العبادات فاسدة لا يسقط الفرض بهذه النية»[٢].

خلاصة القول مما سبق:

ـ إن لفظ النية في كلام العرب من جنس لفظ القصد والإرادة، وحقيقته عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض، من جلب نفع أو دفع ضر حالًا أو مآلًا.

أما النية شرعًا، فقد اختلف في تعريفها، قيل إنها توجه القلب نحو

(١) مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٨-٢٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٢٩-٣٢).

الفعل ابتغاء لوجه الله تعالى وامتثالا لأمره، وقيل بأنها عقد القلب على إيجاد الفعل جزما، وقيل إن الشارع استعمل النية في معناها اللغوي، ولم يضع لها معنى اصطلاحيًّا خاصًّا، وقلت أن هذا هو الصواب إن شاء الله.

ـ قد ذكرت أن النية في كلام العرب إنما يراد بها الإرادة، ولذلك يعبر عنها بلفظ الإرادة في القرآن، وقد يعبر عن النية في القرآن بلفظ الابتغاء، أما في السنة فقد جاءت النية بلفظها، وذكرنا الأدلة على ذلك.

ـ النية محلها القلب، لأنها عبارة عن قصد القلب وإرادته ومحلها فيه باتفاق العلماء، فإن نوى بقلبه ولم يتكلم بلسانه أجزأته النية باتفاقهم، ولو تكلم بلسانه بشيء وفي قلبه خلافه، كانت العبرة بما في قلبه لا بما تلفظ به.

وقد تنازع الناس في حكم التلفظ بالنية سرًّا:

١ ـ فقالت طائفة من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد: يستحب ليكون أبلغ.

٢ ـ وقالت طائفة من أصحاب مالك وأحمد: لا يستحب ذلك، بل التلفظ بها بدعة، هذا في السر، أما التلفظ بها جهرا فبدعة منكرة.

ـ إن الناظر في كلام أهل العلم يجد أن لفظ النية عندهم يجري على نوعين:

النوع الأول: تمييز العبادة عن العادة، وتمييز العبادة عن العبادة، فمن الأول تمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، ومن الثاني تمييز صلاة الظهر من صلاة العصر.

والنوع الثاني: تمييز المقصود بالعمل، هل هو الله وحده لا شريك له، أم غير الله، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف الصالح.

- بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن النيات قد تحصل جملة وقد تحصل تفصيلا، وبناء على هذا الاعتبار قسم الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذي يقصد عبادة الله وطاعته، ولم يقصد العمل المعين المأمور به.

القسم الثاني: ورجل قد يقصد العمل المعين، من غير أن يقصد طاعة الله وعبادته.

والقسم الثالث: أن يقصد فعل ما أمر به من ذلك العمل المعين لله سبحانه.

واتفق الفقهاء على أن نية نوع العمل الواجب لا بد منها في الجملة.

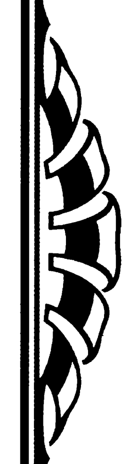
ثم ذكر شيخ الإسلام اختلاف العلماء في النية الأولى؛ أي أن يقصد الإنسان بعمله الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ عمومًا، وقد ذكر ثلاثة أقوال؛ منهم من قال لا تجب نية الإضافة إلى الله، ومنهم من فرق بين العبادات المقصودة، وغير المقصودة، والقول الثالث وجوبها في جميعها، وهذا ما رجحه شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والله تعالى أعلم.





المبحث الثاني:

الإخلاص



وفيه خمسة مطالب:

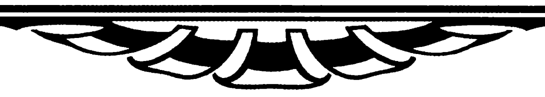
المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: مراتب الإخلاص.

المطلب الرابع: إخلاص النية والرياء.

المطلب الخامس: ثمرات الإخلاص.



تمهيد

وضح الإسلام الغاية التي ينبغي أن يسعى الإنسان إلى تحقيقها، وبيّن الأسباب التي تدعو إلى ذلك، والنتائج الخيرة التي ينالها الإنسان من ورائها، والمطلع في النصوص الإسلامية في القرآن والسنة يدرك مدى عناية الإسلام بإيضاح الغاية وتجليتها والكشف عن أبعادها.

ويكفي في هذا أن نعلم أن الغاية التي يرجوها المسلم من وراء الأفعال هي المعيار الذي يقوّم به عمله، فالأعمال تصبح ذات قيمة أو تفقد قيمتها باعتبار الغاية التي يرمي إليها العامل من عمله، فالذي يصلي ابتغاء مرضات الله عمله أفضل الأعمال، والذي يصلي رياء لينال مدحًا ومكانة عند الناس عمله شر الأعمال، والذي يهاجر استجابة لأمر الله ونصرة لدينه عمله في المرتبة العليا، والذي يهاجر طلبًا لنفع دنيوي، من مال أو زواج، عمله باطل مردود، كما ورد في الحديث «**إنما الأعمال بالنيات**»[(١)].

والغاية التي رسمها الإسلام للبشرية هي أن يقصد الإنسان الله ﷻ بعبادته دون سواه، ويتوجه بأعماله كلها إلى الله تبارك وتعالى، فيتوجه بالأعمال القلبية لله وحده، كما يتوجه بالأعمال الظاهرة، وهذا هو الإخلاص الذي بعث الله به الأنبياء والرسل جميعًا، وهو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول واجب على المكلفين، ومن أجله خلقت

---

(١) انظر: الإخلاص (ص/٦-٧)، تأليف الدكتور: عمر سليمان الأشقر.

الخليقة، وبه افترق إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة وأشقياء أهل النار[١].

وهو أحد أهم الأعمال القلبية الذي هو حقيقة الإسلام وهو جوهر العبادة، وهو الفيصل بين التوحيد والشرك، وهو شرط لشهادة أن لا إله إلا الله، وشرط في قبول الأعمال.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/ ٢٠).

المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي:

الإخلاص في اللغة: مصدر أَخْلَصَ، يُخْلِصُ إخلاصا، وهو مأخوذ من مادة (خ ل ص) التي تدل على التصفية والتنقية عن الكدورات والأوشاب التي تخالط الشيء، يقال خلص خُلاصًا وخَلاصًا، أي؛ صفا وزال عنه شوبه، ويقال هذا شيء خالص لك، أي؛ لا يشاركك فيه غيرك[(١)].

وتطلق العرب (الإخلاص) على الزبد إذا خلص من اللبن والثُّفْل.

و (الخِلاص) في لغة العرب: ما أخلصته النار من الذهب والفضة[(٢)].

والخالص من الألوان عندهم ما صفا ونصع، وهو الأبيض[(٣)].

قال الجوهري في الصحاح: «خلص الشيء يخلص خلوصًا، أي صار خالصًا، وخلص إليه الشيء وصل، وخلصته من كذا تخليصًا، أي نجيته فتخلص»[(٤)].

وقال ابن فارس: «خلص: الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، يقولون: خلصته من كذا وخلص هو»[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ١٢٥).

(٢) انظر: القاموس المحيط (ص/ ٧٩٧).

(٣) انظر لسان العرب (٥/ ١٢٦).

(٤) الصحاح (٣/ ٢٣٨).

(٥) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٣٠٩).

وقد جاءت معاني الإخلاص هذه في الكتاب الكريم، قال تعالى: ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ [النّحل: ٦٦] أي لا يخالطه دم وروث[١].

وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ [يُوسُف: ٨٠]، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم[٢].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ [الأنعام: ١٣٩]، يحكي الله حال المشركين أنهم لم يكونوا يشركون الإناث فيما في بطون الأنعام من اللبن وغيره[٣].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي:

تقدم أن الإخلاص من أهم الأعمال القلبية التي لا يصح عمل من الأعمال بدونه، وهو ليس خاصًّا بعمل دون آخر، بل المقصود به أن يتوجه العبد بأعماله كلها إلى الله وحده.

وتعريفات العلماء للإخلاص متقاربة، مدارها على أن يتوجه قصد العبد إلى الله، وأن لا يكون له مقصود غيره، وهو إفراد الله بالعبادة والطاعة عن غيره.

والآن أذكر بعض التعريفات لأهل العلم للإخلاص:

يقول الراغب: «الإخلاص: هو التبرّي عن كل ما دون الله»[٤].

وقال الفيروزآبادي: «أخلص لله، ترك الرياء»[٥].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٢/ ٣٥٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٦٣٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٤).

(٤) المفردات (ص/ ٢٩٣).

(٥) القاموس المحيط (ص/ ٧٩٧).

وعرفه أبو القاسم القشيري[١] بأنه: «إفراد الحق ﷻ في الطاعات بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، واكتساب محمدة من الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله سبحانه»[٢].

وعرفه العز بن عبد السلام[٣] قائلًا: «الإخلاص أن يفعل المكلف الطاعة خالصة لله وحده، لا يريد تعظيمًا من الناس ولا توقيرًا، ولا جلب نفع ديني ولا دفع ضرر دنيوي»[٤].

وعرفه الغزالي: «أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله، فيكون الله محبوب قلبه، ومعبود قلبه، ومقصود قلبه فقط»[٥].

يقول شيخ الإسلام: «إخلاص الدين له، هو إرادته وحده بالعبادة»[٦].

وقال صاحب المنازل[٧]: «الإخلاص: تصفية العمل من كل شوب»[٨].

---

(١) هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد أبو القاسم القشيري النيسابوري، كان من أئمة الأشاعرة عالما بالأصول والتفسير والكلام، ولد سنة ٣٧٥هـ توفي سنة ٤٦٥هـ، انظر: السير (١٨/ ٢٢٧)، وطبقات الشافعية (٥/ ١٥٣)، والأعلام (٣/ ٣٤٦).

(٢) الرسالة القشيرية (ص/ ٣٠٠).

(٣) هو الشيخ عز الدين، عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، المغربي أصلًا، الدمشقي مولدًا، المصري دارًا ووفاة، لقب بـ: سلطان العلماء، كان عالمًا ورعًا زاهدًا، ولد بدمشق سنة ٥٧٨هـ، توفي سنة ٦٦٠ هـ، انظر: طبقات الشافعية الكبرى (٨/ ٢٠٩).

(٤) قواعد الأحكام (١/ ١٢٣).

(٥) إحياء علوم الدين (٥/ ٣٣).

(٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٩٦).

(٧) هو أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، شيخ خراسان في عصره، من كبار الحنابلة، من ذرية أبي أيوب الأنصاري، كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، عارفا بالتأريخ والأنساب، مظهرًا للسنة داعيًا إليها. من كتبه: ذم الكلام وأهله، والفاروق في الصفات، وكتاب الأربعين في دلائل التوحيد، ومنازل السائرين، وغيرها. ولد سنة ٣٩٦هـ، وتوفي سنة ٤٨١هـ. انظر: السير (١٨/ ٥٠٣)، و (الأعلام ٤/ ١٢٢).

(٨) مدارج السالكين (٢/ ٦٩).

وعرفه حافظ الحكمي: «الإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك»[1].

وقد عرف الإخلاص بتعريفات كثيرة غير هذه التعريفات، ولكنها متقاربة المعاني، ومدارها على شيئين:

١ - تصفية العمل من كل شائبة، سواء كانت هذه الشائبة ملاحظة المخلوقين، أو أي مصلحة أخرى دنيوية.

٢ - إفراد الله بالعبادة والطاعة، وأن يكون العمل كله لله، أي: لا نصيب لغير الله فيه.

ونخلص من هذه التعريفات أن الإخلاص هو إفراد الله بالعبادة، وتصفية العبد قصده مما يشوبه من شائبة رياء أو سمعة، أو إشراك بالله ﷻ، وبهذا يتبين أن بين المعنى اللغوي والشرعي تناسبًا وتوافقًا، فكما مرّ أن الإخلاص في اللغة هو التصفية والتنقية من الشوائب، فكذلك المخلص دينه لله ينقي عمله من جميع الأوشاب والأخلاط والفساد الذي يزاحمه ويخالطه، بحيث يصفى القصد لله ﷻ دون سواه في جميع العبادات.

(١) معارج القبول (٢/ ٤٢٣).

المطلب الثاني
الأدلة من الكتاب والسنة

من يستقرئ نصوص الكتاب والسنة يجد الاهتمام الكبير من قبل الشارع بالإخلاص، ويلاحظ أن الإقرار بأن الله هو الرب يستلزم أن يخلص له الدين، كما يلاحظ أيضًا أن الأعمال لا تقبل عند الله إذا خلت من الإخلاص، كذلك يلاحظ أن الإخلاص هو الأصل الذي بُعث به الرسل وأمر به الخلق، وأيضًا يتبين له أن الشارع حذر من الوقوع في ما يضاد الإخلاص من الشرك والرياء وحظوظ النفس، كل هذه الأوجه التي تكلم عنها الشارع الحكيم تبين أهمية الإخلاص وفائدته، وقد تكلم شيخ الإسلام عن هذه الأوجه في كتبه[1]، وعالج هذا الأمر أيما علاج مستدلًا على ذلك بالكتاب والسنة، والآن أذكر هذه الأوجه باختصار، مقتصرًا على بعض الأدلة من الكتاب والسنة وعلى كلام شيخ الإسلام الذي ما هو إلا تقريب لما ورد في نصوص الكتاب والسنة.

۞ المسألة الأولى: الإقرار بالربوبية يستلزم إخلاص الدين لله.

إن من المقرر عند أهل السنة والجماعة أن أقسام التوحيد ثلاثة، توحيد الربوبية وهو إفراد الله بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة إلى آخره، وتوحيد الأسماء والصفات وهو إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات، وما أثبت له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل،

---

(١) انظر بعض هذه الأوجه في رسالة الشيخ أحمد بن عبد الله الغنيمان: «جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة» (ص/ ١٢٤-١٢٨)، و (ص/ ٣٨٩-٣٩٣).

ومن غير تكييف ولا تمثيل، وتوحيد الألوهية وهو إفراد الله بالعبادة، وقد تكلم العلماء في العلاقة بين هذه الأنواع الثلاثة، وقالوا إن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وإن توحيد الأسماء والصفات يشمل توحيد الربوبية والألوهية، وإن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية.

والذي يهمنا هنا أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية وإخلاص الدين لله، و(كما قدمنا على اعتقاد أنه هو سبحانه رب كل شيء وخالقه ومليكه، وأنه القائم على أمور عباده والكافل لها، والمربي لهم بنعمه المادية والروحية، هذا التوحيد مستلزم لتوحيد الإلهية والعبادة، فهو منه كالمقدمة من النتيجة، فإنه إذا علم أنه سبحانه هو الرب وحده لا شريك له في ربوبيته، كانت العبادة حقه الذي لا ينبغي إلا له)[1]، وقد ذكر الله هذا الأمر في القرآن كثيرًا حتى قيل إنه ما من آية في القرآن تتكلم عن توحيد الربوبية إلا وهي تدعو وتقصد توحيد الألوهية، ومن هذه الآيات، الآية التي تتضمن أول أمر في القرآن وهو إخلاص الدين لله وإفراده بالعبادة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البَقَرَة]، ثم ذكر أمورًا من خلقه، ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى

---

(١) دعوة التوحيد (ص/٧٨)، للشيخ محمد خليل الهراس.

ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ عقب هذه الآية: «وهذا التوحيد كثير في القرآن، وهو أول الدين وآخره، وباطن الدين وظاهره، وذروة سنام هذا التوحيد لأولي العزم من الرسل، ثم للخليلين محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم تسليمًا»[١]، نعم هو أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، إذ يأمر الله نبيه أن يقول ويعلن دينه ليقتدي به الآخرون، ومن دينه أن العبادات كلها تكون لله ولا يصرف شيء من ذلك لغيره، ومن أعظم العبادات الصلاة والذبح، فجاء الأمر بالتنصيص عليهما لشرفهما وفضلهما، ودلالتهما على إخلاص الدين لله ومحبته، ومن أخلص في صلاته ونسكه استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر الأعمال، بل حتى المحيا والممات يجب أن يكون لله، وختم الله هذه الآية لدلالة أن من كان متفردا في الخلق والملك والتدبير يجب أن تخلص له العبادة وتفرد له الإرادة[٢].

ويبين شيخ الإسلام أن توحيد الربوبية يستلزم إخلاص العبادة لله من وجه آخر، إذ يقرر أن من المعلوم أن كل عابد يعبد معبوده لأجل أن ينفعه معبوده بجلب الخير أو دفع الشر، فإذا ما أيقن العبد أن النفع والضر لا يملكه إلا الله سواء في الدينا أو الآخرة، ولا يمكن أن ينفع إنسان إنسانا ولا يضره إلا بإذن الله، ولا يمكن أن يشفع شافع إلا بعد إذنه ورضاه، دعاه ذلك إلى الإخلاص لله وحده وتحقيق التوحيد[٣]، فإن من حقق التوحيد علم (أنه لا

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢٣٥).

(٢) انظر: تفسير السعدي (ص/ ٢٨٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٧).

ينفع أحد ولا يضر إلا بإذن الله، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله، ولا يستعان به من دون الله، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله، ويتبرأ كل مدع من دعواه الباطلة، فلا يبقى من يدعي لنفسه معه شركًا في ربوبيته أو إلهيته، ولا من يدعي ذلك لغيره بخلاف الدنيا، فإنه وإن لم يكن رب ولا إله، إلا هو فقد اتخذ غيره ربا وإلها وادعى ذلك مدعون)[١] وبتيقنه هذا وعلمه يندفع إلى حقيقة التوحيد لله، والعمل بمقتضى هذا العلم واليقين.

❖ **المسألة الثانية: توقف قبول العمل عند الله على الإخلاص.**

إن مما هو معلوم أيضًا أنه يجب على العبد أن يخلص في جميع أعمال التعبدية، وإلا فإنها لن تقبل منه كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فجعل الإخلاص أحد ركني قبول العمل يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد ولها أصلان:

أحدهما؛ أن لا يعبد إلا الله.

والثاني؛ أن لا يعبد إلا بما أمر وشرع، لا بغير ذلك من الأهواء والبدع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]»[٢].

فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٣]، وثبت في الصحيح أيضًا

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١١٩-١٢٠).

(٢) العبودية (ص/ ٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٩٦)، في كتاب الزهد والرقاق، باب من أشرك في عمله غير الله.

حديث الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار: «القارئ المرائي، والمجاهد المرائي، والمتصدق المرائي»[(١)][(٢)].

بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، ولا يصح عمل بدونه، قال النبي ﷺ: «**إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه**»[(٣)][(٤)].

فإذا كان الأمر كذلك في عمل واحد، قد فَقَدَ الإخلاص، فكيف يكون الأمر بمن فقده في جميعها وأصل الدين، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان] **قال ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع الله، فكل عمل لا يكون خالصًا على الشريعة المرضية فهو باطل**»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٧٩١)، في كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٠).

(٣) أخرجه النسائي (ص/ ٤٨٤)، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، وحسنه الألباني السلسة الصحيحة (٥٢).

(٤) وهنا يذكر العلماء مسألة: وهي إذا خالط نية العبادة نية أخرى غير الرياء، مثلا إن خالط نية الجهاد نية أخرى، كأخذ شيء من الغنيمة، هل تبطل هذه العبادة أم لا؟

قد تكلم ابن حجر عن هذه المسألة في الفتح، ما ملخصه: أن مراتب الناس في النية خمس:

أ ـ أن يقصد العبادة لله بنية خالصة، هذه لا إشكال فيها أنها مقبولة.

ب ـ أن يقصد الغرض الدنيوي صرفا، وهذا لا إشكال فيها أنها مردودة.

ج ـ أن يقصد العبادة أولا، ويقصد الغرض الدنيوي ـ غير الرياء ـ ضمنا، فهذا رجح أنها مقبولة، ولكن أجرها ناقص وهذا قول الجمهور.

د ـ أن يقصد الغرض الدنيوي أولا، ويقصد العبادة لله ضمنا، فهذه مردودة.

هـ ـ أن يقصد الأمرين معا على حد واحد، وهذه مردودة، وعلى هذه المرتبة حمل هذا الحديث: «إن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه»، انظر: فتح الباري (٦/ ٢٨)، وانظر كذلك جامع العلوم والحكم (١/ ٨٢).

(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ٤١٦).

المسألة الثالثة: الإخلاص هو الأصل الذي بعث به الرسل وأمر به الخلق.

يبين شيخ الإسلام أن الإخلاص هو الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وجميع الرسل أمروا به وافتتحوا دعوتهم بهذا الأصل، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فالدين كله يقوم على هذا الأصل العظيم الذي من أجله افترق الناس إلى موحد ومشرك، مؤمن وكافر، والقرآن مليء بالآيات البينات التي تدعو إليه وتحذر من ضده، ففي سور الأنعام، والأعراف، والنور، وألم، وألحم، والطس، والمر، وسورة المفصل وغير ذلك من السور المكية ومواضع من السور المدنية كثير ظاهر، فهو أصل الأصول وقاعدة الدين حتى في سورتي الكافرون والإخلاص[1].

فـ (إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢-٣]، والسورة كلها عامة في هذا المعنى، كقوله: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزمر]، إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١٤]، إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦]، إلى قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٧٥-٣٨٣).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزُّمَر]، إلى قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزُّمَر]، إلى قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزُّمَر])[1].

فالإخلاص هو الذي دعت إليه الرسل وأمر الناس به، وعلى هذا يجب أن يكون انطلاق العبد في حياته كلها، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والله تبارك وتعالى أمر أن لا يعبد إلا إياه، وأن لا يكون الدين إلا له، وأن تكون الموالاة فيه والمعاداة فيه، وأن لا يتوكل إلا عليه، ولا يستعان إلا به.

فالمؤمن المتبع للرسل يأمر الناس بما أمرتهم به الرسل ليكون الدين كله لله لا له، وإذا أمر أحد غيره بمثل ذلك أحبه وأعانه وسر بوجود مطلوبه.

وإذا أحسن إلى الناس فإنما يحسن إليهم ابتغاء وجه ربه الأعلى، ويعلم أن الله قد منّ عليه بأن جعله محسنا ولم يجعله مسيئا، فيرى أن عمله لله وأنه بالله»[2].

❖ المسألة الرابعة: الحذر من الوقوع في الشرك.

إن الشرك هو أعظم الذنوب على الإطلاق، وقد سماه الله تعالى على لسان لقمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالظلم العظيم، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٢٩).

يَـٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، ولما نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فبين لهم النبي ﷺ أن المراد هو الشرك فسري عنهم، كما أن الشرك هو الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله أبدًا إلا بالتوبة، كذلك أعظم افتراء على وجه الأرض هو أن يشرك به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

ويبين شيخ الإسلام أن الإتيان بالإخلاص والبعد عن الشرك والحذر منه هو حق الله على عباده، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، كما في الحديث الصحيح الذي رواه معاذ عن النبي ﷺأنه قال: «**أتدري ما حق الله على عباده؟**» قال قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «**حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟**»، قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**حقهم أن لا يعذبهم**»[1] . . .»[2].

قد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ينبغي على العبد المسلم الذي يريد أن يحقق التوحيد والقرب من الله تعالى أن يحقق الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في جميع أموره التعبدية، وأن يحذر أشد الحذر من الشرك الظاهر والباطن، (فإن الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة]، والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله؛ إما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٤٤)، في كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل، ومسلم في صحيحه (ص/٤٦)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٣).

خوفًا منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك)[١].

وهذه النصوص من القرآن والسنة وغيرها تدل على عظم شأن الإخلاص، وأنه شرط لقبول العمل عند الله، وأن الله أمر جميع الرسل أن يبلغوا أممهم أن يفردوه بالعبادة، وأن يجتنبوا ما يضاده من الشرك والرياء، وكوننا نقبل أن لهذا الكون وهذا العالم خالقًا، وهو القادر الخالق العليم المدبر، كلها هذه الأمور تستلزم توجهنا نحوه بالعبادة وإفراده بالدعاء، بل كل من يرجو لقاء هذا الرب يجب عليه تحقيق هذا الأمر إن أراد أن يكون غدا من الناجين.

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٢٦١).



المطلب الثالث

درجات الإخلاص

سبق أن ذكرت متى يكون الإخلاص واجبًا[١]، وقد بينت هناك أن الإخلاص يكون واجبًا في موضعين، في أصل الدين، وفي كل عبادة بمفردها، وكذلك ذكرت أن الإخلاص يكون مستحبًّا وذلك في تحويل العادة إلى عبادة، فبالتالي مراتب الإخلاص هي:

المرتبة الأولى: الإخلاص في أصل الدين، فهذا لا بد منه في أصل الإقرار والشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإلا كان قائلها مشركًا أو منافقًا.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «الشهادة بأن لا إله إلا الله تتضمن إخلاص الألوهية له، فلا يجوز أن يتأله القلب غيره، لا بحب ولا خوف ولارجاء ولا إجلال ولا إكرام ولا رغبة ولا رهبة، بل لا بد أن يكون الدين كله لله كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩]. فإذا كان بعض الدين لله وبعضه لغير الله كان ذلك من الشرك بحسب ذلك»[٢].

المرتبة الثانية: الإخلاص في سائر أعمال الإيمان، وهي الأعمال التعبدية التي يقصد بها التعبد لله عَزَّ وَجَلَّ، كتعلم العلم وتعليمه، وقراءة القرآن ونحوها، قال شيخ الإسلام: «ولا بد في جميع الواجبات والمستحبات أن

---

(١) انظر مبحث أنواع أعمال القلوب، من هذه الرسالة.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٣٧٤).

تكون خالصة لله رب العالمين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البيّنة] وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ [الزُّمَر: ١-٣].

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة، كالإيمان بالله ورسوله، والعبادات البدنية والمالية، ومحبة الله ورسوله، والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال، هو مأمور بأن يفعله خالصًا لله رب العالمين، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء، لا دعاء ولا غير دعاء، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء لا دعاء ولا غيره»[(١)].

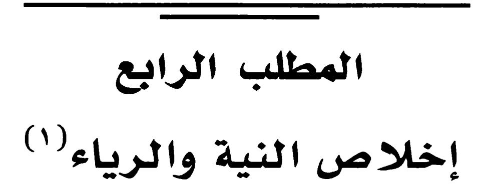
فمن لم يحقق الإخلاص فيها فإنه متوعد بهذا الوعيد المذكور في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾ [هُود][(٢)].

المرتبة الثالثة: الإخلاص في الأعمال الاعتيادية لا التعبدية، كالأكل والشرب والنوم ونحوها، فإنه لا يجب الإخلاص فيها واستحضار النية، بل يستحب ذلك لنيل الأجر والثواب الجزيل من الله ﷻ، وقد مرت نقول كثيرة عن شيخ الإسلام في ذلك.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٩٠).

(٢) الأصل في هذه الحالة أن العمل يحبط، لكن هناك تفصيل لأهل العلم يأتي ذكره في مطلب إخلاص النية والرياء.



المطلب الرابع

إخلاص النية والرياء[(١)]

الواجب على العبد أن يخلص الدين لله، وأن لا يقصد بعبادته سواه، فإن الإخلاص لب العبادة وروحها.

وإخلاص النية هو أساس قبول الأعمال وردها، فهو الذي يؤدي إلى الفوز أو الخسران، فهو الطريق إلى الجنة أو إلى النار، ويضاد إخلاص النية في الدين الرياء، فإن كان الرياء في أصل الدين فهو كفر ونفاق، أما إن كان فيما دون ذلك ففيه تفصيل.

وقبل أن أذكر التفصيل في المسألة يحسن بنا أن نعرف بالرياء؛

الرياء مصدر راءى، ومصدره يأتي على بناء مفاعلة وفعال، وهو مهموز العين لأنه من الرؤية.

وحقيقة الرياء لغة: أن يري غيره خلاف ما هو عليه[(٢)].

والرياء شرعًا: عرفه الحارث المحاسبي: «الرياء إرادة العبد العباد بطاعة الله»[(٣)].

ويقول العز بن عبد السلام: «الرياء إظهار عمل العبادة، لينال مظهرها عرضا دنيويا، إما بجلب نفع دنيوي، أو تعظيم أو إجلال»[(٤)].

---

(١) إنما ذكرت هذا المطلب وإن لم أجد كلامًا لشيخ الإسلام في هذه المسألة، وذلك لأهميتها ولتعلقها بالإخلاص من حيث هو عمل قلبي، ولتأثير إخلاص النية لله في قبول الأعمال عند الله.

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/ ٤١٥).

(٣) الرعاية (ص/ ١٦٣).

(٤) قواعد الأحكام (١/ ١٢٤).

وقال القرطبي: «وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس»(١).

وقال ابن حجر: «هو إظهار العبادة ليقصد رؤية الناس، فيحمدوا صاحبها»(٢).

وقد عرف العلماء الرياء بتعريفات كثيرة وهي متقاربة المعاني، ومدارها على شيء واحد هو: أن يقوم العبد بالعبادة التي يتقرب بها إلى الله، يقصد بها عرضًا دنيويًّا(٣).

وإليكم الآن ملخص ما ذكره ابن رجب(٤) في المسألة:

أ ـ أن يدخل في العمل رياء محض بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوي كحال المنافقين في صلاتهم قال الله ﷻ: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة والتي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص

---

(١) تفسير القرطبي (٢٢/ ٥١٣).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٣٦).

(٣) قد يكون العابد لا يريد ما عند الله ﷻ، بل يريد الدينا بعبادته ومع ذلك لا يعد مرائيا، وهذا يتصور في حالتين:
الحالة الأولى: أن يعمل العمل الصالح ويطلب به الدنيا، وصرح بذلك ولا يخفيه كمن يطلب العلم لقصد الرئاسة والوظيفة، أو يحج لتحصيل مال موعود به.
الحالة الثانية: أن يعمل العمل الصالح الذي شرعه ليعبد به كالصلاة والصدقة وصلة الأرحام، ويزعم أنه مخلص في ذلك، لكنه يريد من الله بعبادته هذه أن يجازيه بحفظ ماله وتنميته أو حفظ عياله، وليس له مراد في إرضاء الله وتحصيل ثوابه، فهذا ليس له في الآخرة نصيب، وقد ذكر الله هذا الصنف في قوله: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾، انظر: الإخلاص (ص/ ٩٤)، للدكتور الأشقر.

(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٧٩)، وانظر كذلك إعلام الموقعين لابن القيم (٣/ ٤٣٥-٤٣٦)، فقد فصل الكلام في هذا الأمر أيضًا.

فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

ب ـ أن يكون العمل لله و يشركه الرياء:

١ ـ المشاركة من الأصل فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال يقول الله تبارك وتعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**» وممن يروى عنه هذا المعنى أن العمل إذا خالطه شيء من الرياء كان باطلًا طائفة من السلف، منهم؛ عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، والحسن، وسعيد ابن المسيب وغيرهم، ولا نعرف عن السلف في هذا خلافا، وإن كان فيه خلاف عن بعض المتأخرين.

٢ ـ المشاركة طارئة وأصل العمل لله، قال ابن رجب: «وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، فإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن البصري وغيره»، ثم قال: «وذكر ابن جرير أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه ويحتاج إلى تجديد نية».

ويفهم من كلام ابن رجب رحمه الله أن الرياء على قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وهو إذا كان قصد الإنسان بجميع أعماله

مراءاة الناس، ولا يقصد وجه الله أبدًا، وإنما يقصد العيش مع المسلمين، وحقن دمه، وحفظ ماله، فهذا رياء المنافقين، وهو شرك أكبر.

القسم الثاني: يصدر من مؤمن، ويكون في بعض الأعمال، وهو أن يكون العمل فيه قصد لله وفيه قصد لغير الله، فلا يكون محضًا لله ولا يكون محضا للناس، وهذا له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن كان الرياء مقصودًا في العمل من أوله، واستمر معه إلى آخره، فإن هذا عمل مردود، لا يقبله الله تعالى.

الحالة الثانية: أن يكون أصل العمل لله ثم يطرأ عليه الرياء، فهذا إن تاب منه صاحبه ودفعه، وأخلص العمل لله، فإنه لا يضر صاحبه.

الحالة الثالثة: أن يطرأ الرياء في أثناء العمل ويستمر معه، فهذا موضع خلاف بين أهل العلم، منهم من قال إنه يحبط العمل كالنوع الأول، ومنهم من قال إنه يثاب على قدر نيته لله في هذا العمل، وهذا الخلاف في الأعمال التي يرتبط آخرها بأولها.

المطلب الخامس

ثمرات الإخلاص

للإخلاص فضيلة كبيرة ومنزلة رفيعة، هو عمل قلبي من أعظم أعمال القلوب، بل هو أهمها وأعظمها قدرا وشأنا، فهو حقيقة الدين، ومقصود الرسالة، وزبدة الكتاب، وله خلق الخلق، وهو الغاية التي إليها ينتهون، وبذكره تحصل السعادة لأوليائه، وبتركه تكون الشقاوة لأعدائه، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وعليه اتفقت الرسل، وله قامت السماوات والأرض(١).

وفي هذا المطلب سأذكر بعض الفضائل والثمرات للإخلاص، وذلك من خلال ما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

١ ـ من فوائد الإخلاص وثمراته ما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يصرف عن المخلصين السوء والفحشاء، كما قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف]، فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مع عزوبته ومراودتها له، واستعانتها عليه بالنسوة، وعقوبتها له بالحبس على العفة، عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقًا لقوله تعالى على لسان إبليس: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، والغي هو اتباع الهوى(٢).

ويبين شيخ الإسلام أيضًا أن سبب وقوع الناس في المعاصي هو

---

(١) قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/ ٠٥)، ضمن جامع المسائل لشيخ الإسلام.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢١).

لضعف أعمال القلوب ونقصانها، وأنهم لو أخلصوا لله لوقاهم الله بسبب إخلاصهم، يقول رحمه الله: «ومعلوم أن الزاني حين يزني، إنما يزني لحب نفسه لذلك الفعل، فلو قام بقلبه خشية الله التي تقهر الشهوة، أو حب الله الذي يغلبها؛ لم يزن، ولهذا قال تعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فمن كان مخلصًا لله حق الإخلاص لم يزن وإنما يزني لخلوه عن ذلك»[1].

٢ ـ ومن فوائد الإخلاص وثمراته أن الله بسببه يحمي المخلص الموحد من نزغات الشياطين وتسلطهم، فلا يكون لهم عليه سلطان ولا سبيل، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر]، وقال تعالى مخبرًا عن إبليس أنه يقول يوم القيامة: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فقد تبين أن إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعًا له من فعل ضد ذلك، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك، وإذا لم يخلص لربه الدين، ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه، عوقب على ذلك، وكان من عقابه تسلط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كونه لم يتق الله»[2].

٣ ـ ومن فوائد الإخلاص وثمراته، أن المخلص ذاق حلاوة الإيمان

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣٢-٣٣٣).

واطمأن قلبه بالله، واجتباه ربه، وأحيا قلبه، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه من عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه من محبة غيره، إذ ليس عند القلب لا أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمنة عبوديته لله ومحبته له وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبا إلى الله خائفا منه راغبًا راهبًا.

وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه، فأحيى قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه كالغصن أي نسيم مر به عطَفه وأماله.

فتارة تجذبه الصور المحرمة، وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك نقصًا وعيبًا وذمًّا.

وتارة يجذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن مخلصًا لله، عبدًا له، قد صار قلبه مستعبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون هو أحب إليه مما سواه، ويكون ذليلًا خاضعًا له، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه السوء والفحشاء ما لم يعلمه إلا الله، وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه»[١].

---

(١) العبودية (ص/١٠٣-١٠٤).

فإن أسعد الناس أطوعهم لله وأعبدهم له، وبقدر الإخلاص تكون سعادته وأمنه وفلاحه وفوزه وقوته ونصره، فأهل التوحيد هم الآمنون في الدينا والآخرة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، وأهل التوحيد والصلاح هم أهل السعادة والحياة الطيبة كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله، وإقبالهم عليه دون ما سواه، بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبون شيئًا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون به، بحيث يكونون عند الحق بلا خلق، وعند الخلق بلا هوى، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، هو أمر لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيب، وما من مؤمن إلا له منه نصيب»[١].

٤ ـ إن من فوائد الإخلاص وثمراته، بل من أهم نتائجه أن العمل يقبل بوجوده ويرد بعدمه، لأن (من أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلدا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة،كالزهاد والعباد من المشركين وأهل الكتاب كعباد مشركي الهند وعباد النصارى، وغيرهم، فإنهم لا يقتلون ولا يزنون ولا يظلمون الناس، لكن نفس الإيمان والتوحيد الواجب تركوه)[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٣١-١٣٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٦٧١).

ولهذا أعمالهم لا تقبل، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالعمل الصالح لا بد أن يراد به وجه الله تعالى، فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً، أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو كله للذي أشرك**».

وهذا هو التوحيد الذي هو أصل الاسلام، وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله، وله خلق الخلق، وهو حقه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»[١].

٥ ـ ومن فوائد الإخلاص وثمراته أنه سبب للتطهير من الذنوب والمعاصي، فإن من رحمة الله وفضله على أهل التوحيد والإخلاص أنه يطهرهم من ذنوبهم التي يقترفونها بسبب تحقيقهم للتوحيد، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيها بإخلاصه وعبوديته لله فيغفر الله له به كبائر ـ كحديث البطاقة، وذكر أنه ثقلت البطاقة وطاشت السجلات ـ فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار، كلهم كانوا يقولون لا إله إلا الله، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم، كما ترجح قول صاحب البطاقة، وكالبغي التي سقت كلبًا فغفر الله لها، وكالذي أماط الأذى عن الطريق فغفر الله له»[٢].

٦ ـ و من فضائل الإخلاص وثمراته أنه سبب لنيل شفاعة النبي ﷺ، فقد جاء في الحديث أن أبا هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سأل النبي ﷺ فقال: من أسعد

---

(١) الاستقامة (٢/ ٢٢٧).

(٢) منهاج السنة (٦/ ٢١٨-٢٢٠)، بتصرف واختصار.

الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**»[١]، وهذه هي الشفاعة العظمى التي جاء في الخبر أن النبي ﷺ يأتي فيسجد لربه ويحمده ولا يبدأ بالشفاعة أولا، فإذا سجد وحمد ربه بمحامد يفتحها عليه، يقال له: أي محمد! ارفع رأسك، وقل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع، فيقول: أي رب أمتي! فيحد له حدًّا فيدخلهم الجنة، وكذلك في الثانية، وكذلك في الثالثة[٢].

وهذه الشفاعة هي لأهل الإخلاص وأهل تحقيق التوحيد خاصة بعد إذن الله، وليس لمن أشرك بالله، ولا تكون إلا لمن أذن الله له، وحقيقته أن الله هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص والتوحيد، فيغفر لهم بواسطة دعاء الشافع الذي أذن له أن يشفع ليكرمه بذلك، وينال به المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون ﷺ، ومن لم يكن من أهل تحقيق التوحيد والإخلاص فلن ينال الشفاعة[٣].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «والأحاديث الصحيحة الواردة في الشفاعة كلها تبين أن الشفاعة إنما تكون في أهل «لا إله إلا الله»، وقد ثبت في صحيح البخاري أن أبا هريرة قال لرسول الله ﷺ: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «**يا أبا هريرة، لقد ظننت أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة؛ من قال لا إله إلا الله خالصًا من قبل نفسه**»، فبين أن المخلص لها من قبل نفسه، هو أسعد بشفاعته ﷺ من غيره، ممن يقولها

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٢٢)، في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٥٥٥)، في كتاب الأنبياء، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٨)، في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٧٧-٧٨).

بلسانه وتكذبها أقواله وأعماله»[١].

٧ ـ من فوائد الإخلاص وثمراته وهو غاية كل مسلم ومسلمة، أن الله بسبب الإخلاص وتحقيق التوحيد يدخل المؤمنين الجنة ويعيذهم من النار، وقد بين شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الإخلاص أول الدين وآخره، وظاهره وباطنه، وكلما حقق الإنسان الإخلاص خرج من قلبه تأله ما يهواه، ويصرفه عنه المعاصي، وليس للشيطان عليه سبيل (وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، حرمه الله على النار**»، فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، والشيطان يأمر بالشرك والنفس تطيعه في ذلك، فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله؛ إما خوفًا منه، وإما رجاء له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك)[٢].

وهذه بعض الفوائد والثمرات للإخلاص والتي هي كثيرة، لكن اكتفيت بذكر بعضها مقتصرًا في ذلك قدر الإمكان على ما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

وخلاصة القول أن الإخلاص عنوان الدين، وهو أوله وآخره، وباطنه وظاهره، وإخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦١).





المبحث الثالث:

المحبة

وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أنواع المحبة.

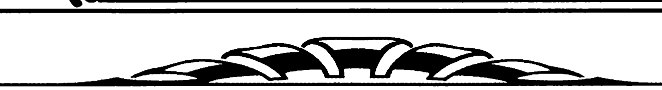
المطلب الرابع: مراتب المحبة.

المطلب الخامس: علامات المحبة.

المطلب السادس: الأسباب الجالبة للمحبة.

المطلب السابع: ثمرات المحبة.





المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

❂ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

المحبة في اللغة: مفعلة من الحب، وهو ضد البغض، يقال حبه، وأحبه، حُبًّا بضم الحاء وكسرها حِبًّا، والحِب بالكسر يقال أيضًا للحبيب، وقد اشتقوا اسم الفاعل من أحب فقالوا؛ محِب، واشتقوا المفعول من حب يحب، فقالوا؛ محبوب وحبيب، فلم يشتقوا اسم الفاعل من المجرد، ولا اسم المفعول من المزيد إلا قليلًا[1].

ومادة هذه الكلمة تدل على عدة معان، ردها ابن فارس إلى ثلاثة أصول:

١ ـ اللزوم والثبات، وجعل المحبة منه.

٢ ـ الحَبة من الشيء ذي الحب، وجعل منه حَبَب الأسنان وهو تَنَضُّد الأسنان.

٣ ـ نعت القِصَر، ومنه الحبحاب؛ للرجل القصير[2].

أما ابن القيم فقد ردها إلى خمسة، وهي:

١ ـ الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَب الأسنان.

---

(١) انظر: لسان العرب (٦/٤)، والقاموس المحيط (ص/ ٩٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٢٣١).

٢ ـ العلو والظهور، ومنه حبب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَب الكأس منه.

٣ ـ اللزوم والثبات، ومنه حَبَّ البعير وأحب، إذا برك ولم يقم.

٤ ـ اللب، ومنه حبة القلب للبه وداخله، ومنه الحبة لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

٥ ـ الحفظ والإمساك ومنه حِبُّ الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسك[١].

المسألة الثانية: أقوال العلماء في حدود المحبة.

المحبة أمر شعوري وجداني يصعب تعريفها بالحد الجامع المانع، إذ معانيها لا ترى بالأبصار فيشترك الواصفون لها في الصفة، وليس لدينا ما نقيس به هذه العاطفة، وإنما يُتحدث عنها من خلال آثارها وعلاماتها ومقتضياتها[٢]، وهذه الأمور التي ذكرها ابن فارس وابن القيم رحمهما الله تستطيع أن تكون عناصر يمكن أن يعبر عن المحبة من طريقها.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحقيقة المحبة عند أهل المعرفة من المعلومات التي لا تحد، وإنما يعرفها من قامت به وجدانا ولا يمكن التعبير عنها»[٣].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا

---

(١) مدارج السالكين (٣/٨)، وقد سبق ابن القيم إلى بعض هذا صاحب «الرسالة القشيرية» (ص/٤٢٤)، وأضاف اشتقاقات أخرى، وكذلك زاد ابن القيم في روضة المحبين (ص/١٧-١٨)، معان غير ما ذكر في المدارج.

(٢) لذا نجد من العلماء ـ مثل ما فعل الغزالي ـ يكتفي في كلامه عن المحبة بالإشارة إلى معناها اللغوي، فيقول: «والمحبة في وضع اللسان: عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق»، إحياء علوم الدين (٥/٤٧).

(٣) فتح الباري (١٠/٤٦٢-٤٦٣).

تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها، ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة.

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله وملكه للعبارة»[(١)].

ومع ذلك وُجد من العلماء من عرف المحبة، ولكنهم ـ والله أعلم ـ لم يريدوا أن يضعوا لها تعريفًا جامعًا مانعًا، وإنما أرادوا تقريب معناها إلى الأذهان، إما بذكر موجباتها، أو آثارها، أو لوازمها أو نحو ذلك، ومن تلك التعريفات[(٢)]:

الأول: ميلك للشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

هذا بيان للوازم المحبة وآثارها في النفس.

الثاني: موافقة المحبوب، في المشهد والغيب.

الثالث: إيثار المحبوب على جميع المصحوب.

الرابع: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

وهذه الثلاثة من مقتضيات المحبة وآثار كمالها.

الخامس: صدق المجاهدة في أوامر الله وتجريد المتابعة لسنة رسول الله ﷺ.

---

(١) مدارج السالكين (٣/٨).

(٢) ذكر ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين ثلاثين تعريفا للمحبة، وردّ عليها بأن أكثرها في حكم المحبة وآثارها، وموجباتها، ومقتضياتها، ووشواهدها، وحقوقها، وثمراتها، انظر: المدارج (٣/٩-١٣).

وهذا أيضًا من لوازم المحبة الصحيحة، وهو خاص بتعريف محبة العبد لربه، إلى غير ذلك من التعريفات التي ذكرها ابن القيم.

ويمكن أن يستفاد من مجموعها تعريف محبة الله ﷻ بأنها: ميل القلب إلى الله ﷻ وتعلقه به، ثم إيثار مرضاته والجد في تحصيلها بكل وسيلة[١].

وهناك مناسبة بين المعنى اللغوي وبين متعلقات وآثار المحبة المذكورة هنا، قد أوضح ذلك ابن القيم رحمه الله فقال: «ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوما لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه وأشرف ما عنده وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإرداته وهمومه على محبوبه، فاجتمعت فيها المعاني الخمسة»[٢].

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٢٦)، وانظر: حقوق النبي ﷺ على أمته في ضوء الكتاب والسنة، لشيخنا محمد بن خليفة التميمي (١/ ٢٧٠-٢٧٣)، و: محبة الله ورسوله (ص/٧-١٠) تأليف صالح أحمد الشامي.

(٢) مدارج السالكين (٣/٨).

المطلب الثاني
الأدلة من الكتاب والسنة

المحبة ثابتة بالكتاب والسنة، وقد أوجب الله محبته ومحبة رسوله وعلق صحة الإيمان بوجود هذه المحبة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد نطق الكتاب والسنة بذكر محبة العباد المؤمنين (له سبحانه) كما في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البَقَرَة: ١٦٥]، وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبَة: ٢٤]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[١][٢].

فالمحبة أصل الإيمان، وهي تلقي العبد فى السير الى محبوبه، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح، وبكمالها يكمل الدين وبنقصها ينقص.

والله وضع للمحبة الحقة ضابطًا، بتحقيقه تتحقق المحبة، وبالإخلال فيه تخل المحبة، وحقيقتها موافقة المحبوب في محبوبه وبغيضه، بحيث يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه الله.

وقد تكلم شيخ الإسلام على هذه الأوجه في كتبه مدعمًا أقواله بالأدلة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦)، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٢) التحفة العراقية (ص/٤٠٥).

من الكتاب والسنة، بل المحبة من أكثر الأعمال القلبية التي تكلم عنها شيخ الإسلام، والآن أذكر هذه الأوجه باختصار، مقتصرا على بعض الأدلة من الكتاب والسنة وعلى كلام شيخ الإسلام.

المسألة الأولى: محبة الله ورسوله أصل الإيمان والعمل.

فإن محبة الله ورسوله هي أوثق عرى الإيمان وأقواها، وأجلها وأعلاها، بل هي من أوجب العبادات المناطة بقلب المؤمن، ذلك لأنه لا بد في إيمان القلب من حب الله ورسوله، وأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

فالمحبة في مقام الأصل للأعمال، والقاعدة لحركاته، والأساس لإراداته، وعنها تنشأ وتصدر كافة أفعال القلوب والجوارح، وقد دلت الأدلة الكثيرة من القرآن والسنة على وجوبها وأنها أصل الدين والعمل، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

وقال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**».

فإذا كان أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله وهو إرادة الله وحده، فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمى باسم العبادة كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ

إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة]، وأمثال هذا، والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودا، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودا ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فبين سبحانه أن المشركين بربهم الذين يتخذون من دون الله أندادًا، وإن كانوا يحبونهم كما يحبون الله، فالذين آمنوا أشد حبًّا لله منهم لله ولأوثانهم، لأن المؤمنين أعلم بالله، والحب يتبع العلم، ولأن المؤمنين جعلوا جميع حبهم لله وحده، وأولئك جعلوا بعض حبهم لغيره، وأشركوا بينه وبين الأنداد في الحب[١].

وقد بين شيخ الإسلام رحمه الله أن المحبة أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق أصل كل قول من الأقوال، وأن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة؛ إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمودة، فالأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون صالحًا[٢].

يقول رحمه الله: «وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها، وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، فالتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان، وهو قول وعمل»[٣].

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٨٨-٣٩٠).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٣٧٣).

(٣) قاعدة في المحبة (ص/ ١١٣).

ويقول أيضًا: «وإذا كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالى ورسوله ﷺ، وحب الله أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأليه الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة، مع أكمل أنواع الخضوع، وهذا هو الإسلام»(١).

◇ المسالة الثانية: كمال الدين بكمال المحبة ونقصه بنقصها.

كما أن أصل الدين والعمل هو المحبة، كذلك كمال الدين يكون بكمال المحبة، ونقصه يكون بنقصها، فكما (بين سبحانه أن محبته أصل الدين فقد بين أن كمال الدين بكمالها ونقصه بنقصها، فإن النبي ﷺ قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله**»(٢)، فأخبر أن الجهاد ذروة سنام العمل، وهو أعلاه وأشرفه، وقد قال تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)﴾ [التوبة]، والنصوص في فضائل الجهاد وأهله كثيرة، وقد ثبت أنه أفضل ما تطوع به العبد، والجهاد دليل المحبة الكاملة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)﴾ [التوبة] وقال تعالى في صفة المحبين المحبوبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) المصدر نفسه (ص/ ١٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (ص/ ٥٩٠)، في كتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح.

ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة]، فوصف المحبوبين المحبين بأنهم أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، وأنهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم.

فإن المحبة مستلزمة للجهاد، لأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك)[1]، وهذا مما يبين أن بكمالها يكمل الدين وبنقصها ينقص.

ويبين شيخ الإسلام هذا الأمر أكثر وذلك من خلال بيان التلازم بين المحبة ووجود المراد، فيقول: «فكما أن المحبة الواجبة تستلزم فعل الواجبات، وكمال المحبة المستحبة تستلزم فعل المستحبات، والمعاصي تنقص المحبة، ثم أورد البيتين:

تعصي الإله وأنت تزعم حبه ... هذا محال في القياس شنيع
لو كان حبك صادقًا لأطعته ... إن المحب لمن أحب مطيع[2][3]

لعلي أكتفي بهذا، لأنه سيأتينا مطلب أذكر فيه بعض فوائد المحبة، ومنها أن المحبة تلقي المحب في السير إلى المحبوب، وأنها من أقوى محركات القلوب نحو المحبوب مما يبين الأمر الذي نحن في صدده أنه بكمال المحبة يكمل الدين وبنقصها ينقص.

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٩٠-٣٩٢).

(٢) عزاه صاحب شعب الإيمان (٢/ ٤٥) لرابعة، وأبي العتاهية.

(٣) قاعدة في المحبة (ص/ ١٤٠-١٤١)، وانظر: (ص/ ١٧٦)، وانظر العبودية (ص/ ٧٥).

◇ المسألة الثالثة: ضابط المحبة؛ اتباع الرسول ﷺ

إن محبة العبد لله تعالى ومحبة الله للعبد اللتين جمعهما قوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] هما المنزلة العليا التي لا يصل إليها إلا من تفضَّل الله عليه وجعله أهلا لذلك، كما ورد في ختام هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١].

ومن هذا الفضل أن يُوَفِّقَ الله تعالى الإنسان المؤمن إلى سلوك الطريق الموصل إليه، والذي رسمه القرآن واضحًا جليًّا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعله الله ضابطًا للمحبة الحقة لله، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله»[١].

قال شيخ الإسلام بعد إيراده هذه الآية: «فبين سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول، وأن اتباع الرسول يوجب محبة الله للعبد، وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوى محبة الله، فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوى والاشتباه، ولهذا يروى عن ذي النون المصري[٢] أنهم تكلموا في مسألة المحبة عنده فقال: اسكتوا عن هذه المسألة لئلا تسمعها النفوس فتدعيها.

وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٤٦٧).

(٢) هو ثوبان بن إبراهيم الإخميمي المصري، أبو الفيض، المشهور بذي النون المصري، أحد أعلام الصوفية، نُوْبي الأصل، من الموالي، كان حكيما فصيحا، انظر: حلية الأولياء (٩/ ٣٣١)، والسير (١١/ ٥٣٢).

عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحِّد، وذلك لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتى تتوسع في أهوائها إذا لم يزعها وازع الخشية لله، حتى قالت اليهود والنصارى ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية.

وكثير ممن يدعي المحبة هو أبعد من غيره عن اتباع السنة، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره، لزعمه أن طريق المحبة لله ليس فيه غيرة ولا غضب لله، وهذا خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة»[١].

نعم، يوجد من المتصوفة وغيرهم من يدعي المحبة ومع ذلك يخالفون أوامر الشرع، ويرون أن الموافقة تكون في الأمر الكوني القدري، ويستشهدون على ذلك بقول بعض مشايخهم: المحبة نار تحرق في القلب ما سوى مراد المحبوب، وأرادوا أن الكون كله قد أراد الله وجوده فظنوا أن كمال المحبة أن يحب العبد كل شيء حتى الكفر والفسوق والعصيان، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى الانسلاخ من ربقة العقل والدين وخروج عن الشريعة كلها، مع أن قائل هذا القول قصد بمراد الله الإرادة الدينية الشرعية التي بمعنى محبته ورضاه.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكثير من السالكين سلكوا في دعوى حب الله أنواعا من أمور الجهل بالدين:

إما تعدي حدود الله.

وإما تضييع حقوق الله.

وإما ادعاء الدعاوى الباطلة التي لا حقيقة لها.

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٤٤٤-٤٤٧)، باختصار.

والذين توسعوا من الشيوخ في سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصدهم، فإن هذا الجنس يحرك ما في القلب من الحب، ولهذا أنزل الله للمحبة محنة يمتحن بها المحب فقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، فلا يكون محبًّا لله إلا من يتبع رسوله.

وطاعة الرسول ومتابعته لا تكون إلا بتحقيق العبودية، وكثير ممن يدعي المحبة يخرج عن شريعته وسننه ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتى قد يظن أحدهم سقوط الأمر وتحليل الحرام له، وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسننه وطاعته.

بل قد جعل الله أساس محبته ومحبة رسوله الجهادَ في سبيله، والجهاد يتضمن كمال محبة ما أمر الله به، وكمال بغض ما نهى الله عنه، ولهذا قال في وصفه من يحبهم ويحبونه: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المَائدة: ٥٤] ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها، وعبوديتهم لله أكمل من عبودية من قبلهم»[١].

۞ المسألة الرابعة: حقيقة المحبة موافقة المحبوب فيما يحب وفيما يبغض.

فإذا عرف أن العبد مفطور على حب ما ينفعه وبغض ما يضره، لم تكن لتستوي إرادته لجميع الحوادث فطرة وخلقًا، ولا هو مأمور من جهة الشرع أن يكون مريدًا لجميع الحوادث، بل قد أمر الله بإرادة أمور وكراهة أخرى.

فإن كان أصل المحبة كما تقدم هو أن يحب العبد ربه ﷻ، فالله هو

---

(١) العبودية (ص/٩٥-٩٦)، باختصار.

محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبه وعبادته، ولما علم العبد أن الله يحب أنبياءه وعباده الصالحين، ولما علم أيضًا أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحب ذلك، فكان حبه لما يحبه تابعا لمحبة الله وفرعًا عليه وداخلًا فيه.

وكذلك لما علم أن الله يبغض بعض الأعمال وينهى عنها كالكفر والفسوق والعصيان، وعلم أيضًا أن الله يبغض بعض الناس من الكفار والظالمين والفاسقين وأمثالهم أبغضهم(١).

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب وهو موافقته في حب ما يحبه وبغض ما يبغضه، بل ولا تتحقق العبودية لله إلا بذلك، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنما عبدُ الله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله، ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه، وهذا الذي استكمل الإيمان كما في الحديث: «**من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»(٢)، وقال: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**»(٣).

وفي الصحيح عنه ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن**

---

(١) انظر: قاعدة في المحبة (ص/١٣٨-١٤١، و (ص/١٦٢-١٦٣)، والتحفة العراقية (ص/٤٠٥-٤٠٨)، و (ص/٤٤٦)، والعبودية (ص/٧٢-٧٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤/٣٨٣)، وأبو داود في سننه (ص/٨٤٥)، في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، و صححه الألباني في الصحيحة (٣٨٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥/٢٢٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (١٥/٦٢١)، وصححه الألباني في الصحيحة (٩٩٨).

يلقى في النار»، فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه، فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأحب المخلوق لله لا لغرض آخر، فكان هذا من تمام حبه لله، فإن محبة محبوب المحبوب من تمام محبة المحبوب؛ فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله لأجل قيامهم بمحبوبات الحق لا لشيء آخر فقد أحبهم لله لا لغيره.

وقد قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، فإن الرسول يأمر بما يحب الله، وينهى عما يبغضه الله، ويفعل ما يحبه الله، ويخبر بما يحب الله التصديق به، فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله فيحبه الله»[(١)].

ويقول أيضًا: «فإن المحبة مستلزمة للجهاد، ولأن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض محبوبه، ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق له في ذلك.

وهؤلاء هم الذين يرضى الرب لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ هم إنما يرضون ما يرضاه، ويبغضون ما يغضب له»[(٢)]، فالجزاء من جنس العمل.

فالمحبة تستلزم محبة ما يحب المحبوب وبغض ما يبغض المحبوب من الأقوال والأعمال والأعيان، فهذا حقيقة المحبة، لكن محبة الله هي الأصل بحيث تدور المحبوبات في نطاق محبوبات الله جل شأنه.

---

(١) العبودية (ص/ ٧٢-٧٣).

(٢) التحفة العراقية (ص/ ٣٩٢).

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الناس في هذا الباب أربعة أنواع:

النوع الأول: أكملهم الذين يحبون ما أحبه الله ورسوله ويبغضون ما أبغضه الله ورسوله، فيريدون ما أمرهم الله ورسوله بإرادته، ويكرهون ما أمرهم الله ورسوله بكراهته، فيأمرون بما أمر الله به ورسوله ولا يأمرون بغير ذلك، وينهون عما نهى الله عنه ورسوله ولا ينهون عن غير ذلك، وهذا حال الخليلين أفضل البرية محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم.

النوع الثاني: عكس هذا، وهو أنهم يتبعون هواهم لا لأمر الله، فهؤلاء لا يفعلون ولا يأمرون إلا بما يحبه بهواهم، ولا يتركون وينهون إلا عن ما يكرهون بهواهم، وهؤلاء شر الخلق، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان]، قال الحسن البصري: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه.

النوع الثالث: الذي يريد تارة إرادة يحبها الله، وتارة إرادة يبغضها الله، وهؤلاء أكثر المسلمين، فإنهم يطيعون الله تارة ويريدون ما أحبه، ويعصونه تارة ويريدون ما يهوونه وإن كان يكرهه.

النوع الرابع: أن يخلو عن الإرادتين، فلا يريد لله ولا لهواه، وهذا يقع لكثير من الناس في بعض الأشياء، ويقع لكثير من الزهاد والنساك في كثير من الأمور[١].

المسألة الخامسة: لا يحب لذاته إلا الله.

قد ذكرنا أن هناك أمور تحب وتبغض لأجل الله، لأن من تمام محبة الشيء محبة محبوب المحبوب وبغض بغيضه، لكن المحبوبات على قسمين:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٦٨-٤٨٠)، باختصار.

١ ـ قسم يحب لغيره،

٢ ـ وقسم يحب لنفسه وهو الله ﷻ، لأنه لا بد من محبوب يحب لنفسه وإلا أفضى ذلك إلى التسلسل، وليس هناك شيء يحب لذاته إلا الله تعالى، وكذلك التعظيم، تارة يعظم الشيء لنفسه، وتارة يعظم لغيره، وليس شيء يستحق أن يعظم لذاته إلا الله تعالى.

فمن أحب شيئًا لذاته، أوعظّم شيئًا لذاته غير الله فذلك شرك به، وإن أحب ليتوصل به إلى محبوب آخر وتعظيم آخر سوى الله فهو من فروع هذا، والله لم يشرع أن يعبد الإنسان شيئًا من دونه، أو يتخذ إلها ليتوصل بعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران].

فمن أحب شيئًا كما يحب الله أو عظمه كما يعظم الله فقد جعله لله ندا، وإن كان يقول إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى وإنهم شفعاؤنا عند الله، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥][(١)].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يجوز أن يحب شيء من الموجودات لذاته إلا هو سبحانه وبحمده، فكل محبوب في العالم إنما يجوز أن يحب لغيره لا لذاته، والرب تعالى هو الذي يجب أن يحب لنفسه، وهذا من معاني إلهيته و﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن محبة الشيء لذاته شرك، فلا يحب لذاته إلا الله، فإن ذلك من خصائص إلهيته،

(١) قاعدة في المحبة (ص/١٧٤-١٧٥)، باختصار.

فلا يستحق ذلك إلا الله وحده، وكل محبوب سواه إن لم يحب لأجله، أو لما يحب لأجله فمحبته فاسدة.

والله تعالى خلق في النفوس حب الغذاء، وحب النساء لما في ذلك من حفظ الأبدان وبقاء الإنسان، فإنه لولا حب الغذاء لما أكل الناس ففسدت أبدانهم، ولولا حب النساء لما تزوجوا فانقطع النسل، والمقصود بوجود ذلك بقاء كل منهم ليعبدوا الله وحده، ويكون هو المحبوب المعبود لذاته الذي لا يستحق ذلك غيره.

وإنما تحب الأنبياء والصالحون تبعًا لمحبته، فإن من تمام حبه حب ما يحبه، وهو يحب الأنبياء والصالحين ويحب الأعمال الصالحة، فحبها لله هو من تمام حبه، وأما الحب معه فهو حب المشركين الذين يحبون أندادهم كحب الله»[١].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٠٧-٦٠٨).

المطلب الثالث

أنواع المحبة

إن الناظر في كلام أهل العلم يرى أن طرقهم قد تنوعت في تقسيم المحبة، فقسمها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه طريق الهجرتين[١] إلى قسمين:

١ ـ **محبة مشتركة**، وهي ثلاثة أنواع؛ محبة طبيعية مشتركة، ومحبة رحمة وإشفاق، ومحبة أنس وإلف.

٢ ـ **محبة خاصة**، وهي محبة العبودية التي معها الذل والخضوع، وتبعه في ذلك الشيخ سليمان بن عبد الله في كتابه تيسير العزيز الحميد[٢]، والشيخ محمد بن صالح العثيمين في القول المفيد[٣].

وقسمها في الجواب الكافي[٤] إلى خمسة أقسام: **(١)** محبة الله، **(٢)** محبة ما يحب الله، **(٣)** الحب لله وفيه، **(٤)** المحبة مع الله، **(٥)** المحبة الطبيعية، وتبعه في ذلك الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في القول السديد[٥]، لكنه جعلها أربعة أقسام؛ **(١)** محبة الله، **(٢)** المحبة في الله، **(٣)** المحبة مع الله، **(٤)** المحبة الطبيعية.

أما بالنظر في كتب شيخ الإسلام فنجد أنه يقسم المحبة إلى قسمين:

---

(١) طريق الهجرتين (ص/٤٤١-٤٤٢).

(٢) التيسير (ص/٤٠٢-٤٠٣).

(٣) قول المفيد (٢/ ٦٢٣).

(٤) الداء والدواء (ص/٤٤٣-٤٤٤).

(٥) القول السديد (ص/٢٠٣-٢٠٤).

المحبة المحمودة النافعة، وهي محبة الله والمحبة لله وفي الله والتي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة.

المحبة المذمومة الضارة، وهي المحبة لغير الله والمحبة مع الله والتي تجلب لصاحبها ما يضره وهو الشقاء.

وكذلك نجد أنه يبين أن المحبة متبادلة بين العبد وربه، وكذلك يوضح أن هناك محبة بين الخلق أنفسهم.

ومن خلال جمع كلام شيخ الإسلام نستطيع أن نقول أن المحبة من حيث العموم على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: محبة الله ﷻ لخلقه[1] كمحبته للمتقين والمحسنين، وهذه المحبة من صفات الكمال التي تثبت لله ﷻ بالكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، وقال النبي ﷺ: «**إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل؛ إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل..**»[2].

وهذه المحبة من أعظم الغايات التي يسعى إليها كل مؤمن، بل هي أعظم مطالب المؤمن على الإطلاق، وكل المطالب الأخرى تابعة لها، وهي ليست مقصودة بعنوان المبحث لأنها لا تتعلق بعمل الإنسان إلا من حيث كونها غاية يسعى إليها، وهي ليست من فعله بل هي من فعل الله ﷻ[3].

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٤٠٥، و ص-٤٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٣٦)، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٥٧)، في كتاب البر و الصلة، باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده.

(٣) وقد أنكر هذه المحبة الجهمية ومن سار على نهجهم من المتكلمين، فقالوا أن المراد بهذه المحبة الإحسان، أو إرادة الإحسان، أوالثناء والمدح، فأولوها إما بالمفعول المنفصل، أو بنفس الإرادة، أو ردوها إلى صفة الكلام حين قالوا أنها ثناء، وبهذه التأويلات ينكرون المحبة =

النوع الثاني: محبة العباد بعضهم لبعض، وهي قسمان:

أ ـ المحبة الغريزية التي فطر الله عليها العباد[(١)]، كمحبة الجائع للطعام، والظمآن للماء، وهذه مبعثها طبيعة الإنسان وجبلته، وكمحبة الوالد لولده، ومبعثها الرحمة والإشفاق، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا، أو المشتركين في صناعة أو علم، ومبعثها الأنس والألفة.

ب ـ المحبة الاختيارية، التي تكون لله وفي الله، كمحبة أولياء الله، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال، أو المحبة التي تكون مع الله وهي المحبة الشركية، كمحبة الأنداد والأوثان.

وهذه المحبة داخلة في مقصود العنوان، لأنها تابعة لمحبة الله ﷻ في شقها الأول، ومضادة لها في شقها الثاني الذي هو المحبة الشركية، وعلى هذا التقسيم أكثر كلام شيخ الإسلام حيث كان يقسم المحبة؛ في المحبة الإيمانية والمحبة الشركية، أو إلى المحبة لله والمحبة مع الله[(٢)].

النوع الثالث: محبة العباد لربهم ﷻ[(٣)]، وهي المقصود الأساسي بعنوان المبحث[(٤)].

= بمعناها الحقيقي، بل إنهم ينكرون حتى محبة الخلق لربهم، ويؤولون ذلك أيضًا بإرادة الطاعة أو التقرب.

وقد رد أئمة أهل السنة على هذه التأويلات الباطلة، انظر: التحفة العراقية (ص/٤٠٩) وما بعدها، وقاعدة في المحبة (ص/١١٥)، والمجموع (٨/٦٢٧)، ومدارج السالكين (٣/١٥).

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٠٧-٦٠٨).

(٢) انظر: الرد على البكري (ص/٣٧٩)، وقاعدة في المحبة (ص/١٤١)، مجموع الفتاوى (١٠/٤٦٥)، و (١٨/٣٢١).

(٣) انظر: التحفة العراقية (ص/٤٠٩ وما بعدها)، وقاعدة في المحبة (ص/١١٥)، والعبودية (ص/٦٤، وما بعدها)، ومجموع الفتاوى (٨/٦٢٧).

(٤) قد استفدت هذا التقسيم من الرسالة «أعمال القلوب وأثرها في الإيمان» ص/١٢٨-١٢٩)، لما رأيت فيه أنه يجمع كلام شيخ الإسلام ويقرب الأنواع والأقسام التي ذكرها شيخ الإسلام.



المطلب الرابع

مراتب المحبة

إن المتأمل في الكتاب والسنة وفي واقع حال الناس يجد أن المحبة في نفسها متفاوتة أعظم التفاوت، كما يجد بين العلاقة التي هي تعلق القلب بالمحبوب والخلة التي هي أعلى مراتب الحب تفاوتا عظيما، بل هي تختلف من إنسان لآخر بحيث لا تتماثل في شخصين، والناظر في كلام شيخ الإسلام يجد أنه جعل مراتب المحبة خمسًا(١)، بينما أوصلها بعضهم إلى نحو عشر مراتب(٢)، وهي كما يلي(٣):

الأولى: العلاقة، وهي تعلق القلب بالمحبوب، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الثانية: الإرادة، وهي ميل القلب إلى محبوبه، وطلبه له.

الثالثة: الصبابة، وهي انصباب القلب إلى المحبوب، بحيث لا يملكه صاحبه، كانصباب الماء في الحدور، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الرابعة: الغرام، وهي الحب الملازم للقلب الذي لا يفارقه، بل يلازمه كملازمة الغريم لغريمه، ومنه سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٤٢٠-٤٢١)، والعبودية (ص/ ٢٢)، و الإيمان الأوسط (ص/ ١١٠-١١١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٣/)، وروضة المحبين (ص/ ١٧) وما بعدها، وشرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٣٨-٢٣٩).

(٣) أنا سأذكر مراتب المحبة العشرة مع الإشارة إلى المراتب التي ذكرها شيخ الإسلام.

وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥]، **وقد ذكرها شيخ الإسلام.**

الخامسة: المودة، من الود، وهو صفو المحبة وخاصها ولبها، قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

السادسة: الشغف، يقال شُغِف بكذا فهو مشغوف، وقد شغفه المحبوب أي وصل حبه إلى شغاف قلبه، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، والشغاف غشاء القلب إذا وصل الحب إليه باشر القلب.

السابعة: العشق، وهو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه، ولا يوصف به الرب تبارك وتعالى، ولا العبد في محبة ربه(١)، وقد ذكرها شيخ الإسلام.

الثامنة: التتيم، وهو التعبد والتذلل، وتيم الله عبد الله، فيصير القلب عبدا للمحبوب مطيعًا له لا يستطيع الخروج عن أمره، وهذه آخر مراتب المحبة عند شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ.

التاسعة: التعبد، وهو فوق التتيم، فإن العبد الذي قد ملك المحبوب رِقَّه، فلم يبق له شيء من نفسه ألبته، بل كله عبد لمحبوبه ظاهرًا وباطنًا، وهذا هو حقيقة العبودية، ومن كمل ذلك كمل مرتبتها، وحقيقة العبودية كما تقدم هي الحب التام مع الذل والخضوع التام للمحبوب.

العاشرة: الخلة، التي تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، وهي أعلى مراتب الحب، حيث تتضمن كمال المحبة ونهايته.

---

(١) انظر: قاعدة في المحبة (ص/ ١١٤-١٢٣)، فقد فصل شيخ الإسلام الكلام هناك لم لا يجوز أن يوصف الله بالعشق، ولا العبد في محبته لربه.

قال ابن أبي العز الحنفي[(١)] بعد أن ذكر هذه المراتب: «و قيل في ترتيبها غير ذلك، وهذا ترتيب تقريب حسن، لا يعرف حسنه إلا بالتأمل في معانيه»[(٢)].

---

(١) هو علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الدمشقي، الفقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق، صاحب شرح العقيدة الطحاوية، ولد سنة ٧٣١هـ، وتوفي سنة ٧٩٢هـ، انظر: الأعلام (٣١٣/٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (٢٤٩/١).

المطلب الخامس

لوازم المحبة

سبق أن ذكرت أن المحبة ميدان يكثر فيها الادعاء، ويكثر فيها الخوض دون أي سهم فيها، فالمحبة ليست بالادعاء فقط، بل هناك لوازم لها لا بد من الالتزام بها حتى تصح الدعوة، وهذه اللوازم في نفس الوقت تكون علامات على صدق المحبة، ومن هذه اللوازم ما ذكر شيخ الإسلام في كتاب الاستقامة، حيث قال: «إن الله ﷻ بين في كتابه محبته، وذكر موجباتها وعلاماتها، وذلك أن الله يقول في كتابه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤].

فهذه ثلاثة أصول لأهل محبة الله؛ إخلاص دينهم، ومتابعة رسوله، والجهاد في سبيله.

(الأصل الأول) فإنه أخبر عن المشركين الذين يتخذون الأنداد أنهم يحبونهم كما يحبون الله، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالمؤمنون أشد حبًّا لله من المشركين الذين يحبون الأنداد كما يحبون الله، فمن أحب شيئًا غير الله كما يحب الله فهو من المشركين لا من المؤمنين.

ومحبة رسوله من محبته، ولهذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه في الصحيحين: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**».

وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة]، فبين أنه إن كان الأهل والمال أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فليتربصوا حتى يأتي الله بأمره، فلم يرض منهم أن يكون حبهم لله ورسوله كحب الأهل والمال وأن يكون حب الجهاد في سبيله كحب الأهل والمال، بل حتى يكون الجهاد في سبيله الذي هو تمام حبه وحب رسوله أحب إليهم من الأهل والمال.

فهذا يقتضي أن يكون حبهم لله ورسوله مقدما على كل محبة ليس عندهم شيء يحبونه كحب الله بخلاف المشركين.

ويقتضي **الأصل الثاني** وهو أن يكون الجهاد في سبيله أحب إليهم من الأهل والمال، فإن ذلك هو تمام الإيمان الذي ثوابه حب الله ورسوله كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] إيمانًا لا يكون بعده ريب: ﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وبذلك وصف أهل المحبة في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ﴾ [المائدة: ٥٤]، فأخبر سبحانه بذلهم للمؤمنين، وعزهم على الكافرين، وجهادهم في سبيله، وأنهم لا يخافون لومة لائم، فلا يخافون لوم الخلق لهم على ذلك.

وهؤلاء هم الذين يحتملون الملام والعذل في حب الله ورسوله والجهاد في سبيله، والله يحبهم وهم يحبونه، ليسوا بمنزلة من يحتمل الملام والعذل في محبة ما لا يحبه الله ورسوله، ولا بمنزلة الذين أظهروا من مكروهات الحق ما يلامون عليه ويسمون بالملامتية[١]، ظانين أنهم لما أظهروا ما يلومهم الخلق عليه من المنكرات مع صحتهم في الباطن كان ذلك من صدقهم وإخلاصهم، وهم في ذلك إنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس.

فإن ذلك المنكر الذي يكرهه الله ورسوله لا يكون فعله مما يحبه الله ورسوله، ولا يكون من الصدق والإخلاص في حب الله ورسوله، والناس يُلامون عليه.

وسنام ذلك الجهاد في سبيل الله، فإنه أعلى ما يحبه الله ورسوله، واللائمون عليه كثير، إذ كثير من الناس الذين فيهم إيمان يكرهونه، وهم إما مخذِّلون مفتِّرون للهمة والإرادة فيه، وإما مرجفون مضعِّفون للقوة والقدرة عليه، وإن كان ذلك من النفاق.

قال الله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب].

وأما **الأصل الثالث**؛ وهو متابعة السنة والشريعة النبوية، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

---

(١) الملامتية طائفة من الصوفية أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنهم، فلامهم الخلق على ظواهرهم، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم، انظر: عوارف المعارف للسهرودي، المطبوع بذيل إحياء علوم الدين (٥/ ٦٩).

قال طائفة من السلف؛ ادعى قوم على عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية، فجعل حب العبد لربه موجبًا ومقتضيًا لاتباع رسوله، وجعل اتباع رسوله موجبًا ومقتضيًا لمحبة الرب عبده، فأهل اتباع الرسول يحبهم الله ولا يكون حبًّا لله إلا من يكون منهم»[١].

---

(١) الاستقامة (١/ ٢٦١-٢٦٦)، باختصار، وانظر العبودية (ص/ ٧٤)، إلا أنه لم يذكر الإخلاص.

المطلب السادس

الأسباب الجالبة للمحبة

تقدم بأن المحبة أصل أعمال الإيمان، وأنها أيضًا فطرة فطر الله الإنسان عليها، ولذا لا يكون له سلطان على قلبه لدفعه مرة واحدة إلى الوجهة التي يريد، لذا فإن المطلوب منه أن يسلك الأسباب التي تجعل قلبه يحب الله سبحانه ويحب محابه، ومن أهم تلك الأسباب:

السبب الأول: معرفة الله، لأن المحبة تتبع العلم فمن عرف ربه أحبه.

قال شيخ الإسلام: «وأصل المحبة هو معرفة الله ﷻ، ولها أصلان:

أحدهما: وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلى عباده، وهذه المحبة على هذا الأصل لا ينكرها أحد، فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها، والله سبحانه هو المنعم المحسن إلى عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، إذ هو ميسر الوسائط ومسبب الأسباب، ولكن هذه المحبة في الحقيقة إذا لم تجذب القلب إلى محبة الله نفسه فما أحب العبد في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحب شيئًا لأجل إحسانه إليه فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود.

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ: «**أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهلي بحبي**»[1]، والمقتصر على هذه المحبة هو لم يعرف من جهة الله ما يستوجب أنه يحبه إلا إحسانه إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي (ص/ ٨٥٥)، في كتاب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، والبيهقي في الشعب (٢/ ١١)، وقد ضعفه محقق الشعب، وضعفه الألباني أيضًا في تخريج فقه السيرة (٢٣).

وهذا كما قالوا: إن الحمد لله على نوعين؛ حمد هو شكر، وذلك لا يكون إلا على نعمته، و حمد هو مدح وثناء عليه ومحبة له، وهو بما يستحقه لنفسه سبحانه، فكذلك الحب.

فإن **الأصل الثاني** فيه هو: محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله، وما من وجه من الوجوه التي يعرف الله بها مما دلت عليه أسماؤه وصفاته إلا وهو يستحق المحبة الكاملة من ذلك الوجه، حتى جميع مفعولاته، إذ كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محمودًا على كل حال، ويستحق أن يحمد على السراء والضراء، وهذا أعلى وأكمل، وهذا حب الخاصة»[1].

السبب الثاني: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلب به، ولهذا أمر الله ﷻ بالذكر الكثير، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب].

السبب الثالث: مطالعة آلائه ونعمائه، لأن القلوب قد جبلت على حب من أحسن إليها كما تقدم، قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه، من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا في القلوب[2].

وهناك أسباب أخرى جالبة للمحبة، وما ذكرت أهم ما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام، وإلا هناك أسباب أخرى، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله عشرة أسباب جالبة للمحبة[3].

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٤٤٩-٤٥١).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٠-٩٦).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٣/ ١٣-١٤)، للفائدة.

المطلب السابع

ثمرات المحبة

سبق أن قلنا أن كل حركة في العالم تصدر عن محبة، إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة، فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله ﷻ[١].

ومن المقرر أيضًا أن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**أصدق الأسماء حارث وهمام**»، فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم[٢].

فمن خلال هذا التقرير يتبين أن الإنسان حساس يتحرك كسائر الأشياء في الكون، وأن حركته وجميع الحركات في العالم لا تصدر إلا عن المحبة، فالأعمال الإيمانية تصدر عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة هي محبة الله، والنتيجة أن المحبة هي الأصل الذي يلقي العبد في السير إلى الله تبارك وتعالى، وأنها أساس العمل، وجوده بوجودها وكماله بكمالها ونقصه بنقصها.

وقد قرر هذا الأمر شيخ الإسلام في أكثر من موضع، يقول رحمه الله: «ومعلوم أن الحب يحرك الإرادة، فكلما قويت المحبة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة جازمة في

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٧٣).

(٢) انظر: العبودية (ص/ ٨٠).

حصول المطلوب، فإذا كان العبد قادرًا عليها حصلها، وإن كان عاجزًا عنها ففعل ما يقدر عليه كان له أجر الفاعل»[(١)].

وحين تكلم عن محركات القلوب الثلاثة المحبة والخوف والرجاء، قال رحمه الله: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة؛ المحبة، والخوف، والرجاء، وأقواها المحبة، وهي المقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة»، إلى أن قال: «المحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون السير إليه»[(٢)].

ثم كلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية، فبتحقيقها تتحقق العبادة التي من أجلها خلقنا الله سبحانه وتعالى، وبيان ذلك أن العبودية تتضمن المقصود المطلوب المحبوب وهو الله سبحانه، وذلك يكون على أكمل الوجوه، بحيث يكون الله غاية مراده، ونهاية مقصوده، وهو المحبوب المقصود بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحب لأجله، والعبودية تتضمن أيضًا المستعان الذي يستعان به على المطلوب، وبهما تتحقق العبادة، وبالنقص فيهما تنقص، فمتى كان يحب غير الله لذاته، أو يلتفت إلى غير الله أن يعينه، كان عبدا لما أحبه، وعبدا لما رجاه بحسب حبه ورجاه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فكلما ازداد القلب حبًّا لله ازداد له عبودية وحرية عما سواه، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبًّا وحرية عما سواه.

والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين: من جهة العبادة والعلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلية.

فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من

---

(١) العبودية (ص/ ٧٥)، وانظر: قاعدة في المحبة (ص/ ١٦٢)، و (ص/ ١٦٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٥).

المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة].

فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه فإنه يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله، فمتى لم يحصل له هذا، لم يكن قد حقق حقيقة (لا إله إلا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب، بل ومن الآلام والحسرة والعذاب بحسب ذلك، ولو سعى في هذا المطلوب، فلم يكن مستعينا بالله، متوكلا على الله، مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له، فإن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به، المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين؛ فمتى كان محبًّا لغير الله لذاته، أو ملتفتا إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه وعبدا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وكل ما أحبه سواه فإنما أحبه له، ولم يَرْجُ قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها، كان مشاهدًا أن الله هو الذى خلقها، وقدرها، وأن كل من في السماوات والأرض، فالله ربه ومليكه وخالقه، وهو مفتقر إليه، كان قد حصل من تمام عبوديته لله، بحسب ما قسم له من ذلك»[١].

(١) العبودية (ص/ ٧٦-٧٨).

ثم إن للإيمان حلاوة وهي تنال بالمحبة، وذلك عند تحقيق ثلاثة أمور، قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله و رسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، و أن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»، والحديث صريح أن وجد الإيمان واللذة به من آثار المحبة الصادقة وثمراتها.

ثم هذه الحلاوة توجد بتحقيق ثلاثة أشياء، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فحلاوة الإيمان المتضمنة من اللذة به، والفرح ما يجده المؤمن الواجد لحلاوة الإيمان تتبع كمال محبة العبد لله، وذلك بثلاثة أمور:

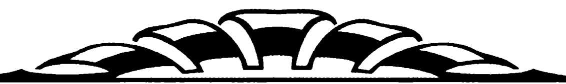
تكميل هذه المحبة، وتفريعها، ودفع ضدها.

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كما تقدم

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهية الإلقاء في النار»[1].

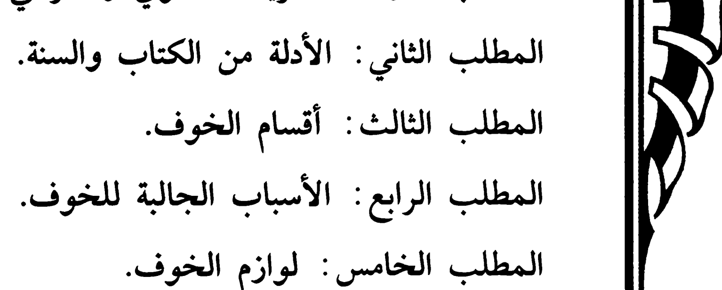
(١) انظر: العبودية (ص/ ٩٢).



المبحث الرابع:

الخوف

وفيه ستة مطالب:



المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الخوف.

المطلب الرابع: الأسباب الجالبة للخوف.

المطلب الخامس: لوازم الخوف.

المطلب السادس: ثمرات الخوف.



المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

❖ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الخوف هو من مادة (خ و ف) التي تدل على الذُعْر والفزع في اللغة العربية، ويضاده الأمن، وهو حالة يشعر فيها الإنسان توقع حلول مكروه أو فوات محبوب في الدنيا والآخرة.

قال ابن فارس: «الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع، يقال؛ خِفت الشيء خوفًا وخيفة، والياء مبدَلة من واو لمكان الكسرة، ويقال خاوفني فلان فخفته، أي كنت أشد خوفًا منه»[(١)].

وقال الراغب: «الخوف توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة، ويضاد الخوف الأمن، ويستعمل في الأمور الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٨١]، والخيفة؛ الحالة التي يكون عليها الإنسان من الخوف، قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه]، واستعمل استعمال الخوف في قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرّعد: ١٣]، وقوله: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الرُّوم: ٢٨]»[(٢)].

---

(١) معجم مقاييس اللغة (ص/٣١٧)، وانظر: القاموس المحيط (ص/١٠٤٥-١٠٤٦)، ولسان العرب (٢/١٧٩-١٨٠).

(٢) المفردات (ص/٣٠٣)، باختصار.

وقد ورد ذكر الخوف في القرآن على خمسة أوجه:

الأول: النكبة تصيب المسلمين من قتل أو هزيمة، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: ٨٣]، يعني القتل والهزيمة.

الثاني: القتال، وذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ١٩]، يعني القتال والحرب، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ [الأحزاب: ١٩]، أي إذا انجلى الحرب.

الثالث: العلم، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢]، يعني فمن علم.

الرابع: التنقص: وذلك في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، أي على تنقص.

الخامس: الخوف الذي نحن في صدد الكلام عنه، كالخوف من العذاب، وذلك في قوله: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، يعني من العذاب[١].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

لقد عرف الخوف بتعاريف كثيرة، منها:

قال الجنيد: «الخوف توقع العقوبة على مجاري الأنفاس»[٢].

وعرف الغزالي الخوف بأنه: «عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال»[٣].

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٢/ ٥٧٨-٥٧٩)، والقاموس المحيط (ص/ ١٠٤٦)، ولسان العرب (٢/ ١٨٠).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٨٢).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ١٩٥).

وعرفه الجرجاني بأنه: «توقع حلول مكروه أو فوات محبوب»[(١)].

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف المحمود؛ ما حجزك عن محارم الله»[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط»[(٣)].

وقال صاحب تفسير التحرير والتنوير[(٤)] بأن الخوف: «توقع حصول ما تكرهه النفس، وهو ضد الأمن، ويطلق على أثره، وهو السعي في مرضاة المخوف منه ـ وهو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عند جميع المسلمين ـ وامتثال أوامره»[(٥)].

وقد وردت أقوال أخرى في تصوير معنى الخوف، منها: «أنه مطالعة الوعيد وما أعد الله لمن آثر الدنيا على الآخرة، والمخلوق على الخالق، والهوى على الهدى، والغي على الرشاد»[(٦)].

وقد تقدم عن الراغب أنه عرف الخوف بأنه: «توقع مكروه عن أمارة مظنونة أو معلومة».

وقال صاحب المنازل: «الخوف هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر»[(٧)].

ومن هذه التعريفات يمكن تلخيص تعريف الخوف بأنه: الحالة النفسية

---

(١) التعريفات (ص/ ١٠٦).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٨٣).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٧٣).

(٤) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة بها، ولد سنة ١٢٩٦هـ وتوفي سنة ١٣٩٣هـ. انظر: الأعلام (٦/ ١٧٤).

(٥) تفسير التحرير والتنوير (٢/ ٤٠٩).

(٦) مدارج السالكين (٣/ ٢١٣).

(٧) مدارج السالكين (١/ ٣٨٣).

التي تحول دون ارتكاب السيئات أو الخوض في المحرمات، مع جعل إرضاء الله ﷻ الغاية التي يسعى إليها[(١)].

❖ المسألة الثالثة: مرادفات الخوف.

وردت للخوف ألفاظ متقاربة المعنى، تؤدي معنى الخوف، أو تشترك معه في جميع الأحكام، وهذه الألفاظ هي الرهبة، والوجل، والإشفاق، والخشية.

فالرهبة هي خوف مع التحرز والاضطراب، أو هي شدة الخوف والإمعان في الهروب.

قال الراغب: «الرهبة والرهَب: مخافة مع تحرز واضطراب»[(٢)].

قال ابن القيم: «وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه»[(٣)]، فالرهبة هي الخوف المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل.

أما الوجل، فهو استشعار الخوف، ورجفان القلب، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته، أو رؤيته[(٤)].

أما الإشفاق، فهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها[(٥)].

والخشية الخوف المشوب بالتعظيم، والناتج عن العلم، فهي أخص

---

(١) انظر: الخوف والرجاء في القرآن الكريم (ص/ ٢٠)، تأليف عبد الله أسود خلف الجوالي، وانظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ١٧٨).

(٢) المفردات (ص/ ٣٦٦).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٣٨٢).

(٤) انظر: المفردات (ص/ ٨٥٥) للراغب، ومدارج السالكين (١/ ٣٨٢).

(٥) مدارج السالكين (١/ ٣٨٦).

من الخوف، لأنها خوف مقرون بعلم، فإن لم يكن علم فهو مجرد خوف، فالخشية للعلماء بالله كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فَاطِر: ٢٨](١)، وكما قال النبي ﷺ: «**إني أتقاكم لله، وأشدكم له خشية**»(٢)، فعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية(٣).

قال ابن القيم رحمه الله في بيان الفرق بين الخوف والخشية: «فالخوف حركة، والخشية انجماع وانقباض وسكون، فإن الذي يرى العدو والسيل ونحو ذلك له حالتان:

إحداهما: حركة للهرب منه، وهي حالة الخوف.

والثانية: سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية...

فصاحب الخوف: يلتجىء إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية: يلتجىء إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجىء إلى الحمية والهرب، والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء»(٤).

ومما سبق يتضح أن معاني هذه الكلمات كلها تدور حول الخوف، وفي هذا المبحث قد أستعمل إحدى هذه الألفاظ مكان الأخرى، وخاصة الخوف والخشية التي كثر ذكرهما في النصوص.

---

(١) انظر: الإيمان الكبير (ص/ ٢٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٦٤)، في كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب، ومسلم في صحيحه (ص/ ٩٥٨)، في كتاب الفضائل، باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته.

(٣) انظر: المفردات (ص/ ٢٨٣)، ومدارج السالكين (١/ ٣٨٢).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٣٨٢).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

وإذا كانت المحبة أصل الإيمان، فالخوف يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الخائف يفر من المخوف لينال المحبوب، فالخوف هو وصول العبد إلى ما يرضي الله ﷻ، وهذ من أبلغ المقامات، وهو الجالب للطاعات والمبعد عن المعاصي، وذلك أن العبد كلما تذكر عذاب الله وخافه كان حاجزًا ومانعًا من ارتكاب أي محذور يغضب الله تبارك وتعالى، واشتمال قلب المؤمن عليه علامة على صحة الإيمان، وهو أحد محركات القلوب الثلاثة، وقد جاءت النصوص من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ في الأمر به، والحث عليه، ومدح أهله، وفيما يلي أذكر بعضا من أساليب القرآن والسنة في الأمر به، مراعيًا فيها جمع كلام شيخ الإسلام حول هذه الأساليب المذكورة في الوحيين:

۞ المسألة الأولى: الخوف شرط لصحة الإيمان.

قد أمر الله تعالى بإخلاص الخوف له وحده، وجعله شرطا لصحة الإيمان، ولا يجوز صرفه لغير الله، وقد جاء النهي عن صرفه لغير الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٧٥﴾ [آل عِمرَان].

فصرف الخوف لغير الله تعالى هو شرك، إذ لا يخاف الإنسان أحدًا الخوف التعبدي إلا إذا اعتقد في قلبه أنه يملك نفعه أو ضره، أو يشارك في ملك الله، واعتقاد مثل هذا شرك أكبر[1].

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ١٩٥).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك»[(١)].

وقد فصل شيخ الإسلام الكلام عن هذه الآية ما المراد بأوليائه، حيث ذكر خلاف أهل العلم في ذلك، وأن منهم من يقول أن المراد هو؛ أن الشياطين يخوّفون الناس بأوليائهم، ومنهم من يقول إن الشياطين يخوّفون أوليائهم، ثم قال إن كلا القولين صحيح من حيث المعنى، لكن لفظ أوليائه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوّفين لا خائفين كما دل عليه السياق.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ولا يخاف الناس، كما قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، فخوف الله أمر به، وخوف أولياء الشيطان نهى عنه، قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠]»[(٢)].

وبين ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ العلاقة بين الخوف والإيمان، وأن كلا منهما مستلزم للآخر، إلا أن الإيمان سبب يقتضي وجود الخوف، أما الخوف سبب في حصول الإيمان وتحقيقه، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل الخوف منه شرطًا في تحقيق الإيمان، وإن كان الشرط داخلًا في الصيغة على الإيمان، فهو المشروط في المعنى، والخوف شرط في حصوله وتحققه، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه، وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب، كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه، وانتفاء الخوف عند انتفاء

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٣٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٥٦).

الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته، فتدبره...» ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه»(١).

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله حفيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله في شرحه لهذه الآية: «فأمر تعالى بإخلاص هذا الخوف له، وأخبر أن ذلك شرط في الإيمان، فمن لم يأت به لم يأت بالإيمان الواجب، ففيها أن إخلاص الخوف لله من الفرائض»(٢).

المسألة الثانية: قد أمر الله بالخوف، وأثنى على أهله.

سبق أن ذكرنا أن الله أمر بالخوف في غير ما آية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وكما أمر الله بالخوف، كذلك ذم ضده، وهو الأمن من مكر الله، إذ لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون، وحقيقة الأمن من مكر الله جهل بالله وقدرته، وثقة بالنفس وعجب به(٣)، قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ [الأعراف: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يونس].

وقال تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣ وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا ١٤﴾ [نوح]، ففي هذه الآيات ذم وتوبيخ ووعيد لمن أمن مكر الله، فلم يخف بأس الله وعذابه.

---

(١) طريق الهجرتين (ص/ ٤٢٢-٤٢٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٤١٩).

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/ ٤٣٩).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمؤمن يخاف مكر الله، ومكر الله أن يعاقبه على سيئاته، والكافر لا يخشى الله فلا يخاف مكره، ومكره أن يعاقبه على الذنب لكن من حيث لا يشعر»[١].

ويقول أيضًا: «وكل من ادعى الأمن فهو جاهل بالله وبمَا أخبر به عن نفسه: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]»[٢].

وقد أثنى الله على أهل الخوف المتصفين به، وأخبر أنه يجازي من كان من أهله، قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النُّور].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السَّجدَة: ١٦].

ولما ذكر الله في الآيات التي قبلها الكافرين بآياته وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين ووصفهم وما أعد لهم من الثواب، ومن وصفه إياهم أنهم تتجافى أي ترتفع جنوبهم عن المضاجع إلى ما هو ألذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى، يدعون ربهم جامعين بين الوصفين، خوفًا أن ترد أعمالهم، وطمعًا في قبولها، خوفًا من عذاب الله، وطمعًا في ثوابه[٣].

بل العابد الذي يريد وجه الله والنظر إليه يدعو ربه خوفًا وطمعًا، ولا يتصور تركهما في أي دعاء، سواء أكان دعاء عبادة أو دعاء مسألة[٤].

---

(١) مختصر الفتاوى المصرية (ص/١٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٨٢).

(٣) تفسير السعدي (ص/ ٦٥٥).

(٤) انظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٤٠).

وكذلك في السنة جاء الثواب الجزيل على المتصفين بالخوف، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**أسرف رجل على نفسه، فلما حضره الموت أوصى بنيه، فقال: إذا أنا مت فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذروني في الريح في البحر، فوالله لئن قدر عليّ ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا، قال: ففعلوا ذلك به، فقال للأرض: أدي ما أخذت فإذا هو قائم، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ فقال: خشيتك يا رب، أو قال مخافتك، فغفر له بذلك**»(١).

فمن الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة ثبت إسلامه إلا بعد وجود شروط التكفير وانتفاء موانعه، وقد تكلم شيخ الإسلام عن هذا الأصل كثيرًا، وكانت عمدته في ذلك من النصوص هذا الحديث، وبيان ذلك أن هذا الرجل أتى بأمر هو كفر في نفسه، هوالشك في قدرة الله، وإنما فعل ذلك متأولًا، فكان تأويله مانعًا من تكفيره، حمله على هذا الشك الخوف من الله، فغفر الله له بسبب هذا الخوف(٢).

والمهم هنا بيان ما يترتب على الخوف من الجزاء، وهو الغفران من هذه الذنوب مهما عظمت، والله تعالى أعلم.

وكذلك جاء في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قوله ﷺ: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**»(٣).

فسبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، فذكر ﷺ هؤلاء السبعة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٥٨١)، في كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى عليه السلام، ومسلم في صحيحه (ص/ ١١٠٢)، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٢٣١)، و (١١/ ٤٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٧)، في كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٩٧)، في كتاب الزكاة، باب في فضل إخفاء الصدقة.

إذ كل منهم كمل العبادة التي قام بها: ومن هؤلاء الذين كملوا العبادة؛ العفيف الذي كمل الخوف من الله فوقاه من الزنا[١].

المسألة الثالثة: الخوف دأب الملائكة والأنبياء والصالحين.

كان من حكمة الله أنه اصطفى من الخلق من شاء، فاصطفى الملائكة من الجن والإنس، واصطفى من الإنس الأنبياء، واصطفى من أتباعهم الصلحاء، فأمرنا بالإقتداء بهم واقتفاء أثرهم، لنكون في هذه الدنيا من المهتدين، ونغدوا في الآخرة من الآمنين.

فكان من دأب هؤلاء كما ذكر الله عنهم الخوف، والخشية منه، (وقد وصف الملائكة في القرآن بالخشية والخوف: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل] وقال: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨])[٢].

وقال عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء]، الضمير في قوله تعالى في هذه الآية يعود إلى مجموعة الأنبياء المذكورين من قبل، ممن ابتلاهم الله، فصبروا فاستجاب الله لهم، وكان من حالهم أنهم يسارعون في الخيرات، ويدعون ربهم خوفًا ورجاء، وكانوا له خاشعين.

وقد أثنى على حالهم أنهم يفردون الله بالخشية، ولا يخشون سواه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وذكر أهل الخوف من المؤمنين المتقين الصالحين، ومدحهم وأثنى عليهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣/ ١٤٤).

(٢) الصفدية (١/ ٢١٤)، بتصرف يسير.

رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]، وقد جاء عن عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها وعن أبيها ـ الصديقة بنت الصديق أنها سألت النبي ﷺ عن هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ فقال النبي ﷺ: «**لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»(١)، يخافون أن لا تقبل منهم العبادات من أجل تقصيرهم في الإتيان بها، لا أنهم يخافون أن لا يوفيهم الله أجورهم(٢).

◇ **المسألة الرابعة: الخوف يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور.**

إن الناظر لآيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ التي تحدثت عن الخوف، والتي جاءت على أساليب مختلفة يدرك أنها تصب كلها في قالب واحد وهو الخوف من الله ﷻ بالانقياد والإذعان لأوامره، وحفظ فرائضه وحدوده، واجتناب محارمه ونواهيه، وتذكر يوم القيامة من مرحلة الموت إلى انقسام الناس إلى فريقين؛ فريق في الجنة وفريق في السعير(٣).

فالخوف يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور، ولهذا كان الخوف أصل كل خير للإنسان، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإنه ذكر وجل قلوبهم إذا ذكر الله، وزيادة إيمانهم إذا تليت عليهم آياته مع التوكل عليه، وإقام الصلاة على الوجه المأمور به باطنًا وظاهرًا، وكذلك الإنفاق من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٢/١٥٦)، والترمذي في سننه(ص/٧١٤)، وابن ماجه في سننه (ص/٦٩٧)، والحاكم في المستدرك (٣/٤-٥) وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصحح الحديث الألباني أيضًا في الصحيحة (١٦٢).

(٢) انظر: السلسلة الصحيحة (١/٢٥٧).

(٣) الخوف والرجاء (ص/٥٧).

المال والمنافع، فكان هذا مستلزما للباقي، فإن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه، وقد فسروا ﴿وَجِلَتْ﴾ بفرِقَت، وفي قرآءة ابن مسعود: ﴿إذا ذكر الله فرقت قلوبهم﴾ وهذا صحيح، فإن الوجل في اللغة هو الخوف يقال؛ حمرة الخجل وصفرة الوجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] قالت عائشة: يا رسول الله! هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب؟ قال: لا يا ابنة الصديق؛ هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق، ويخاف أن لا يقبل منه.

وقال السدي(١) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] هو الرجل يريد أن يظلم، أو يهم بمعصية فينزع عنه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]، وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن]، قال مجاهد وغيره من المفسرين: هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله، فيتركها خوفًا من الله.

وإذا كان وجل القلب من ذكره يتضمن خشيته ومخافته، فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور، قال سهل بن عبد الله: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف]، فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله»(٢).

---

(١) هو إسماعيل بن عبد الرحمن السدي: تابعي، حجازي الأصل، سكن الكوفة، صاحب التفسير والمغازي والسير، وكان إماما عارفا بالوقائع وأيام الناس، حدث عن أنس وابن عباس، وغيرهما، توفي سنة ١٢٨ هـ، انظر: السير (٥/ ٢٦٤)، والأعلام (١/ ٣١٧).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ١٩-٢٠).

المطلب الثالث

أقسام الخوف

فالخوف يقع تارة عبادة، وتارة طبيعة وعادة، وذلك بحسب متعلقاته وأسبابه، والمطلع على كلام شيخ الإسلام يرى أنه لم يقسم الخوف تقسيما كما نجده عند الشيخ سليمان بن عبد الله وغيره[١]، إلا أننا نستطيع أن نستشهد ببعض أقواله على كل قسم من هذه الأقسام، فأقول:

قد قسم العلماء الخوف من حيث العموم إلى قسمين:

القسم الأول: الخوف التعبدي: وهو خوف تأله وتعبد وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه وهو الله ﷻ، وهو يحمل العبد على فعل الطاعات، ويزجره عن الوقوع في المحرمات وهو مبني على التعظيم والتقديس، وهو لا يجوز صرفه لغير الله، ولا يكون العبد مسلمًا إلا بإخلاصه لله ﷻ، وقد جاء النهي عن صرفه لغير الله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤][٢].

فصرف الخوف لغير الله تعالى هو شرك، إذ لا يخاف الإنسان أحدًا الخوف التعبدي إلا إذا اعتقد في قلبه أنه يملك نفعه أو ضره، أو يشارك في ملك الله، واعتقاد مثل هذا شرك أكبر[٣]، بعبارة أخرى اعتقاد إيجاد

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/٤١٧-٤١٨)، وفتح المجيد (ص/٣٠١-٣٠٢)، والدر النضيد (ص/٢٦٨-٢٦٩)، وقول السديد (ص/٢٠٦-٢٠٧) وغيرها.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١/٥٧)، و (٣/٢٣٣).

(٣) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/١٩٥).

المسببات ـ النفع أو الضر ـ بدون مباشرة الأسباب إلا الله عَزَّ وَجَلَّ شرك[1]، وهذا الذي سماه الشيخ سليمان خوف السر[2].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن سوى بين الخالق والمخلوق في الحب له أو الخوف منه والرجاء له فهو مشرك»[3].

ودون خوف السر هو الخوف من الناس الذي يؤدي إلى ترك ما يجب عليه من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا محرم وهو شعبة من الشرك[4].

القسم الثاني: الخوف الطبيعي: كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، لأن هذا الخوف يحصل بغير اختيار العبد ليس خوف عبادة، وهذا إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسبابه فليس بمذموم.

فإن كان هذا خوفًا وهميًا؛ كالخوف الذي ليس له أسباب أصلا، أو له سبب ضعيف، فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء فهو من أخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع[5].

---

(١) قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/ ٦٧).

(٢) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٤١٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٣٣).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٣٢)، و (٢٨/ ١٦٥-١٦٦).

(٥) القول السديد (ص/ ٢٠٧).

المطلب الرابع

الأسباب الجالبة للخوف

تقدم بأن الله أمر بالخوف، وأثنى على من اتصف به، بل وجعل الخوف شرطا لصحة الإيمان، كما بينا أيضًا أن الخوف هو الدافع إلى فعل المأمور وترك المحظور، وفي هذا المطلب أحاول أن أذكر بعض الأسباب التي يجلب بها الخوف.

وفي مقدمة هذه الأسباب لا شك هو العلم والمعرفة بالله وعظمته، ومعرفة أسمائه وصفاته، وقد بين شيخ الإسلام أن الخوف من الله يستلزم معرفته، ومعرفته تستلزم خشيته وخشيته تستلزم طاعته، فمن عرف الله خافه، ومن خافه خشي عقابه، وامتثل طاعته وانتهى عن معصيته، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكما أن الخوف من الله يستلزم العلم به، فالعلم به يستلزم خشيته، وخشيته تستلزم طاعته، فالخائف من الله ممتثل لأوامره مجتنب لنواهيه...، ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾ [الأعلى].

فأخبر أن من يخشاه يتذكر، والتذكر هنا مستلزم لعبادته، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر]، وقال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ [قٓ]، ولهذا قالوا في قوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: ١٠]، سيتعظ بالقرآن من يخشى الله، وفي قوله: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] إنما يتعظ من يرجع إلى الطاعة، وهذا لأن التذكر التام يستلزم التأثر بما تذكره، فإن تذكر

محبوبا طلبه، وإن تذكر مرهوبا هرب منه ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠﴾ [يس].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، فنفى الإنذار عن غير هؤلاء مع قوله: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠﴾ [يس: ١٠]، فأثبت لهم الإنذار من وجه، ونفاه عنهم من وجه، فإن الإنذار هو الإعلام بالمخوف، فالإنذار مثل التعليم والتخويف، فمن علمته فتعلم فقد تم تعليمه، وآخر يقول: علمته فلم يتعلم، وكذلك من خوفته فخاف، فهذا هو الذي تم تخويفه، وأما من خوف فما خاف، فلم يتم تخويفه، وكذلك من هديته فاهتدى تم هداه، ومنه قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ومن هديته فلم يهتد كما قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فلم يتم هداه كما تقول: قطعته فانقطع، وقطعته فما انقطع.

فالمؤثر التام يستلزم أثره، فمتى لم يحصل أثره لم يكن تاما، والفعل إذا صادف محلا قابلا تم، وإلا لم يتم، والعلم بالمحبوب يورث طلبه، والعلم بالمكروه يورث تركه، ولهذا يسمى هذا العلم: الداعي»[١].

ولهذا فأكثر الناس خشية لله هم أهل العلم المنتفعين بعلمهم، الذين وصفهم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، والمعنى أنه لا يخشاه إلا عالم، فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩][٢].

ومن الأسباب التي تجلب الخوف وتحركه هي مطالعة آيات الوعيد،

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢٣-٢٤).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٢٠).

والزجر، والعرض، والحساب، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكذلك الخوف، تحركه مطالعة آيات الوعيد، والزجر، والعرض، والحساب ونحوه»[(١)]، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فإنه سبحانه يقول: وما نرسل بالعبر والذكر إلا تخويفا للعباد، قال قتادة[(٢)]: إن الله يخوف الناس بما شاء من آيات لعلهم يعتبرون أو يذكرون أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه، وكذا قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه لما مات ابنه إبراهيم: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ يخوف بهما عباده، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله وكبّروا وصلّوا وتصدّقوا، ثم قال: يا أمة محمد، والله ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرًا**»[(٣)(٤)].

يقول شيخ الإسلام في كلامه عن هذا الحديث: «وهذا بيان منه ﷺ أنهما سبب لنزول عذاب الناس، فإن الله إنما يخوف عباده بما يخافونه إذا عصوه وعصوا رسله، وإنما يخاف الناس مما يضرهم، فلو لا إمكان حصول الضرر بالناس عند الخسوف ما كان ذلك تخويفًا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ [الإسراء: ٥٩]،

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٦).

(٢) قتادة ابن دعامة بن قتادة بن عزيز، وقيل: قتادة بن دعامة بن عكابة، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه، ولد سنة ٦٠ هـ، وتوفي سنة ١١٨هـ، انظر: الجرح والتعديل (٧/ ١٣٣)، وفيات الأعيان (٤/ ٨٥)، سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٦٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٦٧)، في كتاب الكسوف، باب الصدقة في الكسوف، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٤٩)، في كتاب الكسوف، باب صلاة الكسوف.

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨)، وتفسير القرطبي (١٣/ ١٠٩)، وتفسير السعدي (ص/ ٤٦١).

وأمر النبي ﷺ بما يزيل الخوف، أمر بالصلاة والدعاء، والاستغفار، والصدقة، والعتق، حتى يكشف ما بالناس، وصلى بالمسلمين في الكسوف صلاة طويلة»[١].

وأما مطالعة أحوال القيامة التي ذكر شيخ الإسلام أنها من محركات الخوف، فأكتفي بذكر آية من كتاب الله، يقول تبارك و تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾ [الإنسان]، أي؛ وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة أنفسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم.

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى لا يريدون جزاء ولا شكورا، بل يفعلون ذلك خوفًا من ربهم من يوم طويل عبوس، شديد هوله عظيم أمره، تعبس فيه الوجوه من شدة المكروهات التي تراها، ويطول بلاء أهله ويشتد، إنه يوم عصيب، نسأل الله السلامة في ذلك اليوم.

فلا يحزنهم الفزع الأكبر، فآمنهم الله مما خافوا منه، وأعطاهم حسنًا في وجوههم، وسرورًا في قلوبهم، فجمع الله لهم بين نعيم الظاهر والباطن[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٥٩).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢١/ ٤٦٨)، وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥)، وتفسير السعدي (ص/ ٩٠١).

المطلب الخامس

لوازم الخوف

إن الخوف بشكل عام له مظاهر وصور وأشكال شتى، ولكن الخوف من الله لا بد أن يتخذ شكلًا خاصًّا حتى يدخل باب التعبد، فهو ليس كالخوف الطبيعي رعبًا، وفزعًا، وهربًا، وإعراضًا، ولا هو مجرد شكل خارجي صيحة، أو بكاء، أو ارتجافًا، فهذه الأشكال ما لم تكن وراءها نتائج ملموسة من فعل المأمور والمسارعة في الخيرات وكثرة الطاعات، ويدفع إلى الابتعاد والحذر الشديد عن الوقوع في المحرمات لا تعد خوفًا من الله.

كذلك إذا تجاوز الخوف حده بحيث أوصل صاحبه إلى اليأس والقنوط، فإنه يكون حينئذ مذمومًا وغير مشروع.

إذا، لا بد من مراعاة هذين الجانبين في الخوف، حتى تنتج عنه نتائج ملموسة، وأن لا يصل بصاحبه إلى اليأس والقنوط، وهذان الجانبان هما من لوازم الخوف.

الأول: أن الخوف يحمل الإنسان على اجتناب محارم الله، والتزام شريعته ظاهرًا وباطنًا[١].

وقد أسلفنا أن الناظر والمتأمل في الآيات التي تتحدث عن الخوف، كلها تقصد هذا الجانب المهم، وهو ثمرة الخوف، لأن المقصود من الخوف هو الزجر والمنع من الخروج عن طريق المحبوب وهو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٢٠٥).

وقد مثل شيخ الإسلام لذلك بمثل ؛ كيف يكون الخوف سببًا لإعطاء حقوق الناس وعدم ظلمهم قال رَحِمَهُ اللهُ : «فمن عبد الله وأحسن إلى الناس فهذا قائم بحقوق الله، وحق عباد الله في إخلاص الدين له، ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم في الله كان محسنا إلى الخلق وإلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم، حيث خاف غير الله ورجاه، فإن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه»[(١)].

الثاني: أن الخوف لا بد أن يقترن بالرجاء، حتى لا يؤدي إلى اليأس والقنوط.

فإذا غلب على المرء الرجاء وحده ربما حمله على الأمن من عذاب الله وسطوته، وكذلك إذا غلب على المرء الخوف وحده ربما حمله على اليأس والقنوط من رحمة الله[(٢)]، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر]، يقول شيخ الإسلام في كلامه عن هذه الآية: «فيه نهي عن القنوط من رحمة الله تعالى، وإن عظمت الذنوب وكثرت، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله، قال بعض السلف؛ إن الفقيه كل الفقه الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله، ولا يجرئهم على معاصي الله»[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥٤-٥٥)، باختصار.

(٢) مسألة الجمع بين الخوف والرجاء، وكذلك الجمع بينهما وبين المحبة نؤجلهما إلى مبحث الرجاء إن شاء الله.

(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٩-٢٠).

المطلب السادس

ثمرات الخوف

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عِمرَان]، دلت الآية على أن المؤمنين لا يجوز أن يخافوا أولياء الشياطين، ولا أن يخافوا الناس، بل يجب عليهم أن يخافوا الله وحده، وذلك هو تحقيق الإيمان بالله(١).

فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئًا سواه، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته يكون الخوف(٢).

فإن من أثر الخوف من الله أنه يمنع من تخويف الشيطان وحزبه، لأنه لا يملك الضر إلا الله، نعم قد يقول أحد: (يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك، فهذا كلام ساقط لا يجوز، بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا، فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه.

وإذا قيل قد يؤذيني قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه فالأمر لله، وإنما يسلط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر، ولم يسلطه عليك، فإنه قال:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٠٦).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٩٤).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرته لم يسلط عليك، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٦]، والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف، هم الجماعات الكثيرة... والمعنى على قراءة أبي عمرو: أي أن الربيون يقتلون فما وهنوا، أي وما وهن من بقي منهم لقتل كثير منهم، أي ما ضعفوا لذلك، ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم، بل قاموا بأمر الله في القتال حتى أدالهم الله عليهم وصارت كلمة الله هي العليا..)[١].

كذلك من أثر الخوف هو أنه كما أسلفنا يدفع إلى فعل المأمور وترك المحظور، بل الخوف هو سوط الله الذي يقوم به الشاردين عن بابه كما قال بعض السلف[٢]، وهو الوازع الذي يردع صاحبه عن الركون إلى الدنيا والاطمئنان بها والغفلة عن الآخرة وعدم الاستعداد لها[٣].

ومن آثار الخوف وثمراته أيضًا أنه سبب للتمكين في الأرض في هذه الدنيا، أما في الآخرة أعد الله للمتخلقين به أجرًا عظيمًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]، وقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ

(١) المصدر نفسه (١/٥٨-٥٩).
(٢) انظر: مدارج السالكين (١/٣٨٢).
(٣) انظر: الإيمان الكبير (ص/١٩-٢٠)، ومجموع الفتاوى (١٤/٢٩٣-٢٩٤).

رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ [الرَّحمـٰن: ٤٦]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فوعد بنصر الدنيا وبثواب الآخرة لأهل الخوف، وذلك إنما يكون لأنهم أدوا الواجب فدل على أن الخوف يستلزم فعل الواجب، ولهذا يقال للفاجر: لا يخاف الله»[1].

وقد مر معنا أيضًا أن من أسباب الدخول في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله هو الخوف، وكذلك الخوف سبب الغفران يوم القيامة كما في الحديث الذي أمر أولاده أن يحرقوه، ولما سأله الله ما حملك على هذا؟ قال خشيتك، فغفر الله له، و بهذا يتبين أن أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله، وأنه من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب، فأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يخلقنا بهذا الخلق الكريم.

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ٢١).





المبحث الخامس:

الرجاء

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الرجاء.

المطلب الرابع: الأسباب الجالبة للرجاء.

المطلب الخامس: لوازم الرجاء.

المطلب السادس: ثمرات الرجاء.



المطلب الأول
التعريف اللغوي والشرعي

❖ المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الرجاء بالمد رجاه يرجوه رجْوا ورجاء ورجاوة ومَرجاة ورجاة، فهو من مادة (رج و) التي تدل على الأمل الذي نقيضه اليأس، وهو حالة يأمل فيها الإنسان الشيء الحسن ويتوقع حصوله، وقد عبر عن الخوف بالرجاء، قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح]، أي لا تخافون الله عظمة، والرجاء لا يكون بمعنى الخوف إلا إذا كان مسبوقًا بجحد، أي نفي[1].

أما الرجا بالقصر، فإنه يدل على ناحية الشي، كناحية البئر وحافتها، وكل ناحية رجا، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقَّة: ١٧].

وأما المهموز، فإنه يدل على التأخير، يقال: أرجأت الشيء؛ أخرته، قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزَاب: ٥١]، ومنه سميت المرجئة[2].

وقد ورد ذكر الرجاء في القرآن الكريم على ستة أوجه:

الأول: الخوف والخشية كما سبق، وذلك قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح].

الثاني: الطمع، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسرَاء: ٥٧]، يعني يطمعون في رحمته.

---

(١) انظر: لسان العرب (٦/ ١١٨).

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة (ص/ ٤٢٤)، والقاموس المحيط (ص/ ١٦٦٠)، ولسان العرب (٦/ ١١٨).

الثالث: توقع الثواب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النِّساء: ١٠٤].

الرابع: الرجا بالمقصور، بمعنى الطرف: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقَّة: ١٧].

الخامس: الرجاء بالمهموز، بمعنى الترك والتأخير، وذلك في قوله: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١].

السادس: أرجه، أي احبسه، وذلك في قوله: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١][(١)].

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

لقد عرف الرجاء بتعاريف كثيرة، مضمونها توقع الخير والطمع في رحمة الله ومغفرته مع فعل الأسباب المشروعة، ومن هذه التعريفات:

قال الراغب: «الرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة»[(٢)].

وقال الجرجاني: «الرجاء في اللغة: الأمل، واصطلاحا: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل»[(٣)].

وعرفه الغزالي: «حالة إيمانية، يرتاح القلب فيها لانتظار ما هو محبوب عنده»[(٤)].

ويشير شيخ الإسلام إلى مفهوم الرجاء، فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالرجاء لا

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/ ٥٠).
(٢) المفردات (ص/ ٣٤٦).
(٣) التعريفات (ص/ ١١٢).
(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٨٠).

يكون إلا بما يلقى في نفسه من الإيعاد بالخير الذي هو طلب المحبوب أو فوات المكروه»[(١)].

ويقول في كلامه عن الآية: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وجاء تفسيرها في الحديث أنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم[(٢)]، فقال شيخ الإسلام: «فهو يرجو أن يكون الله تقبل عمله، فيثيبه عليه، ويرحمه في المستقبل، ويخاف ألا يكون تقبله فيحرم ثوابه...»[(٣)].

وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن ظنه بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها»[(٤)].

وقد ذكر ابن القيم عدة تعريفات للرجاء، منها:

قيل: «هو الاستشعار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه».

وقيل: «هو الثقة بجود الرب تعالى».

ثم ذكر الفرق بين الرجاء والتمني فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «والفرق بينه وبين التمني، أن التمني يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

فالأول: كحال من يتمنى أن يكون له أرض يبذرها، ويأخذ زرعها.

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣٣).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٥٢-٤٥٣).

(٤) فتح الباري (١١/ ٣٠١).

والثاني: كحال من يشق أرضه، ويفلحها، ويبذرها، ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل»[١].

فالخلاصة أن العبد في هذه الحياة بين الطاعة والمعصية، فالطاعة يعملها ويرجو من الله قبولها، وأما المعصية يتوب منها فيرجو من الله قبولها، فهذا هو الرجاء الشرعي، أو بعبارة أخرى؛ الرجاء هو توقع الخير من الله مع الأخذ بالأسباب.

۞ المسألة الثالثة: الرجاء والرغبة.

ومما يؤدي معنى الرجاء الرغبة، وهي في اللغة: الإرادة والسعة.

قال ابن فارس: «رغب: الراء والغين والباء أصلان:

فالأول: الرغبة في الشيء: الإرادة له، وإذا لم ترده قلت: رغبت عنه. والآخر: الشيء الرغيب: الواسع الجوف»[٢].

بل قال بعض العلماء أن أصل الرغبة هو السعة في الشيء، فلا تطلق الرغبة على مجرد الإرادة، بل لا بد من أن يكون هناك نوع من السعة في هذه الإرادة، بأن يسعى صاحبها في الحصول عليها.

قال الراغب: «أصل الرغبة السعة في الشيء، والرغبة، والرغَب والرَّغبي: السعة في الإرادة... فإذا قيل: رغب فيه، وإليه: يقتضي الحرص عليه،.. وإذا قيل: رغب عنه: اقتضى صرف الرغبة عنه، والزهد فيه»[٣].

فالرجاء والرغبة عند الاطلاق يقصد بهما شيء واحد، وهو إرادة

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٧)، وانظر: كتاب الروح (ص/ ٤٧٤).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٣٩٢) باختصار.

(٣) المفردات (ص/ ٣٥٨).

الحصول على الشيء المحبوب للنفس، ولكن الرغبة أقوى من الرجاء إذ هي تتضمن معنىً زائدًا على مجرد الطمع والإرادة، فهي الطمع والإرادة مع الطلب.

قال ابن القيم: «الفرق بين الرغبة والرجاء، أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فهي ثمرة الرجاء، فإنه إذا رجا الشيء طلبه، والرغبة من الرجاء كالهرب من الخوف، فمن رجا شيئًا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئًا هرب منه»، ثم قال: «فالفرق الصحيح أن الرجاء طمع، والرغبة طلب، فإذا قوي الطمع صار طلبًا»[1].

إذا، معنى الرجاء والرغبة متقارب، وفي النصوص يطلق أحدهما على الآخر، وكذلك في أقوال العلماء[2]، ولذا لن أفرق بينهما.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٢-٤٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٤-١٦٦)، و (١٠/ ٢٥٥-٢٥٧)، والعبودية (ص/ ٦١-٦٤).



المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

الرجاء من أجل الأعمال القلبية، وهو أحد أركان العبادة، وهو أحد محركات القلوب الثلاثة، وهو قسيم الخوف، لأن المسلم كما أسلفنا لا بد أن يكون في عبادته ما بين رجاء ثوابها والخوف من عدم قبولها، وعند وقوع الذنب يكون بين خوف عقاب الله ورجاء رحمته.

والناظر في الكتاب والسنة يرى أن أساليب الترغيب والحث على الرجاء مختلفة، فتارة يأتي الأمر بصرف هذه العبادة لله، وتارة يأتي بمدح المتصفين به والثناء عليهم، وتارة نجد أن الله يرغب عباده في الإتيان بهذه العبادة بذكر سعة رحمته وشمول مغفرته، كما ينهى عما يضاد هذه العبادة من اليأس والقنوط، لذا سأذكر هذه الأساليب مع جمع ما تيسر لي من كلام شيخ الإسلام حولها، فأقول:

◇ المسألة الأولى: أمر الله بالرجاء.

فقد وردت نصوص كثيرة في القرآن والسنة بالأمر بالرجاء، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، فأمر الله أن لا نفسد في الأرض بالمعاصي والذنوب، فإن أعظم الفساد في الأرض هو الشرك بالله، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض، فسببه توحيد الله وعبادته واتباع سنة نبيه، وكل فساد وشر وفتنة وبلاء، فسببه الإشراك بالله وعبادة غيره ومخالفة نبيه.

ثم أمر الله أن ندعوه، وأن نجمع بين الخوف والرجاء حال الدعاء، فالدعاء يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة، فالمطلوب من كل عابد وسائل أن يكون خائفا راجيا، فإن من دعاه خوفًا وطمعًا فهو المحسن، والرحمة قريب منه[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العَنكبوت].

يأمر الله بالرجاء على لسان نبي من أنبيائه وهو شعيب عليه السلام، إذ قال لقومه ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [العَنكبوت: ٣٦] أي: ارجوا ثواب الله في اليوم الآخرة يا أيها الذين أخلصتم الدين لله وأفردتموه بالعبادة والطاعة، وإن كانت الآية وردت في سياق قصته، فإن حكايات القرآن عن الأنبياء بهذه الصيغة إنما المراد أن يعتبر بها أمة القرآن، فإن الأنبياء متفقون على مسائل التوحيد وإن اختلفت شرائعهم، فالأنبياء جميعهم دعوا إلى التوحيد وإصلاح القلوب وتزكية النفوس، ومن ذلك محبة الله، والخوف منه ومن عذابه، ورجائه ورجاء ثوابه[(٢)].

وقال النبي ﷺ: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»[(٣)].

وفي الحديث أمر بحسن الظن بالله، وهو الرجاء فيما عند الله من الثواب الجزيل، والطمع في غفرانه يوم الدين، ففي الحديث أمر بدوام حسن الظن بالله والاستعداد للموت بالأعمال الصالحة، لأننا ما ندري متى يفاجئنا الموت، كذلك في الحديث أنه ينبغي في حالة الاحتضار أن يغلب

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٥-٢٦).

(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٣٤)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٤٣)، وانظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ١٥٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٥٣)، في كتاب الجنة، باب الأمر بحسن الظن بالله.

على الإنسان الرجاء على الخوف، إذا لم يبق للخوف كثير معنى، بل قد يؤدي في هذه الحالة إلى اليأس والقنوط.

وفهمنا من هذه النصوص الحث على الرجاء في فضل الله ورحمته، وحسن الظن به، وأنه لا يلقى أحد ربه إلا وهو يحسن الظن ربه.

وينبغي أن نعرف أيضًا أن الرجاء عبادة قلبية لا يخلو قلب منها، فإن الإنسان مجبول على إرادة الخير ويرجو تحصيله، كما يكره المكروه ويرجو دفعه، فإذا توجه العبد برجائه إلى من يستطيع نفعه ويدفع عنه ضره فقد هدي، وإذا توجه به نحو من لا يستطيع له ذلك فقد ضل وغوى، فلذا كان الرجاء عبادة قلبية لا يجوز صرفها إلى غير مستحقها، بل يجب صرفها لله الواحد القهار الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن رجا من مخلوق كما يرجو من الله فيما لا يقدر عليه فقد أشرك مع الله غيره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاءِ بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابًا، فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى»(١).

فيفهم من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يجوز أن تصرف هذه العبادة القلبية لغير الله، وإن كان بعض الخلق يستطيع أن ينفعك وأن يدفع عنك الضر، لكنهم سبب من الأسباب، فالأسباب لا تستقل بنفسها، بل لا بد من سبب آخر، ولا بد من منع المعارض، ولا يملك ذلك كله إلا الله تبارك وتعالى، فتبين من هذا أن نفعهم إياك، ودفع الضر عنك هو في الحقيقة من الله عَزَّ وَجَلَّ، ولهذا يجب تعلق الرجاء به وحده دون سواه.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

◇ المسألة الثانية: ثناء الله على أهل الرجاء ومدحهم.

قد مدح الله المؤمنين بأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، وذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ۝٥٧﴾ [الإسراء].

يعاتب الله المشركين الجاهلين الذين يعبدون مخلوقات مثلهم، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا فضلًا عن غيرهم، مع هذا هؤلاء المعبودون هم أنفسهم عابدون لله يتقربون إليه بالأعمال الصالحة التي يحبها الله ويرضاها، ويطمعون في رحمته ويخافون من عقابه، وأخذوا يتسابقون في التقرب إلى الله، وهذا لا شك أنه مدح لهم إذ أتوا بهذه الأعمال الصالحة، ومنها الرجاء الذي نحن في صدد الكلام عنه(١).

وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ [الزُّمَر].

وفي هذه الآية مدح لمن اتصف بهذه الصفات، وهي:

١ ـ القنوت، وهو المداومة على الطاعة(٢).

٢ ـ الخوف من عذابه، هو معبر عنه هنا بالحذر من الآخرة.

٣ ـ رجاء رحمة الله سبحانه وتعالى.

وفي الآية مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، فليس من اجتهد في العبادة والطاعة بأداء الفرائض والنوافل، مع ذلك هو

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٥٨)، وتفسيرالطبري (١٧/ ٤٧١)، وتفسير ابن كثير (٣/ ٦٦)، وتفسير السعدي (ص/ ٤٦١).

(٢) انظر: رسالة في قنوت الأشياء كلها لله عز وجل (١/ ٥-٨)، ضمن جامع الرسائل لشيخ الإسلام.

يخاف من ربه التقصير، ويرجو رحمته والقبول عنده بمن ليس كذلك، لأن هذا قد جمع في العمل الظاهر والباطن، وهذه الطاعة دليل على علم صاحبها وحسن ظن بربه ﷻ، ولهذا عقب تعالى بقوله ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزُّمَر: ٩] أي (هل يستوي الذين يعلمون ما لهم في طاعتهم لربهم من الثواب، وما عليهم في معصيتهم إياه من التبعات، والذين لا يعلمون ذلك، فهم يخبطون في عشواء، لا يرجون بحسن أعمالهم خيرا، ولا يخافون بسيئها شرا؟ يقول: ما هذان بمتساويين)[١].

وقال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»[٢].

أما الحديث القدسي ففيه بشارة عظيمة لأهل الرجاء، حيث أخبر أنه عند ظن عبده به، فإن أحسن الظن بالله وجده عند حسن ظنه، أي عامله على حسب ظنه وفعل به ما يتوقعه منه، فمن يحسن رجاءه لن يخيب ظنه فيه، ومن ظن به ظن السوء فكذلك.

ولكن حسن الظن بالله يكون بعمل من الإنسان يقتضي حسن الظن به، وأن الله تعالى يقبل عمله، ويعفو عن تقصيره، وأما أن تحسن الظن بلا عمل فهو من باب التمني على الله، وأسوأ من ذلك أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان[٣]، فنسأل الله حسن الظن فيه مقرونا بالعمل الصالح.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ٢٦٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢٧٤)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٩٨)، في كتاب التوبة، باب الحض على التوبة والفرح بها.

(٣) انظر: شرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣/ ٣٣٥).

المسألة الثالثة: الطمع في رحمة الله ومغفرته، وعدم القنوط منهما.

ومن أساليب القرآن والسنة في الترغيب بالرجاء ما جاء فيهما من ذكر سعة رحمة الله وشمول مغفرته، مما يجعل العبد يبتعد كل البعد عما يضاد الرجاء وهو اليأس والقنوط.

ومما ورد في سعة رحمة الله وشمول عفوه ومغفرته قول الله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف].

وقال النبي ﷺ: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش؛ إن رحمتي غلبت غضبي**»[1].

وقال النبي ﷺ: «**إن الله ﷻ خلق مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، فبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة**»[2].

فذكر الله في هاتين الآيتين أن الله كتب على نفسه الرحمة وأنه سبحانه رحيم بعباده، لا يعجلهم بالعقوبة، بل يقبل منهم الإنابة والتوبة[3]، وأن رحمته وسعت كل شيء، وسع المؤمن والكافر في الدنيا، ويخص الله بها المؤمنين يوم القيامة[4]، كما أخبر النبي ﷺ أن رحمته غلبت غضبه؛ بمعنى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٥٣٢)، في كتاب بدء الخلق، ومسلم في صحيحه (ص/ ١١٠١)، في كتاب التوبة، باب ذكر سعة رحمة الله.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٠١)، في كتاب التوبة، باب ذكر سعة رحمة الله.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/ ٢٧٣)، وتفسير البغوي (٢/ ١٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ١٧٢) وتفسير القرطبي (٨/ ٣٣٠)، وتفسير السعدي (ص/ ٢٥١).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٣/ ١٥٦)، وتفسير البغوي (٢/ ١٥٧)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٤-٣٣٥) وتفسير القرطبي (٩/ ٣٥٠-٣٥١)، وتفسير السعدي (ص/ ٣٠٥).

أن رحمته أوسع وأشمل من غضبه، وأن لله مائة رحمة، منها رحمة يتراحم بها الخلق في الدنيا، وتسعة وتسعون ادخرها إلى يوم القيامة.

فكل هذه النصوص تجعل العبد طامعا في رحمة الله وراجيا مغفرته، كما يجعل المؤمن بالله المصدق لرسوله مجتنبا اليأس والقنوط من هذه الرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمَر]، وكأن الله يقول أيها العبد الذي تعرف أن الله غفور رحيم، وأن رحمته وسعت كل شيء وغلبت غضبه، مهما فعلت من الذنوب ما عدا الشرك وشعرت بعظمة الباري وسعة رحمته وقدرته حق التقدير لا تقنط من رحمة الله، فإن الله يغفر الذنوب جميعًا، كما جاء في الحديث القدسي، قال النبي ﷺ: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي**»[1].

فالحاصل أن رحمة الله واسعة، فلا يقنط المؤمن ولا يقطع رجاءه منها، بل يحرص على حصولها بالدعوة الخالصة والعمل الصالح، فنسأل الله أن يرحمنا وأن يجعلنا من الذين خصهم بها، إذ قال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥/ ٣٣٢)، والترمذي في سننه (ص/ ٨٠٤)، في كتاب الدعوات، باب فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده، والحديث صححه الألباني في الصحيحة (١٢٧-١٢٨).

المطلب الثالث

أقسام الرجاء

سبق أن ذكرت التعريف الشرعي للرجاء، وبينت أن العبد في هذه الحياة بين الطاعة والمعصية، فالطاعة يعملها ويرجو من الله قبولها، وأما المعصية يتوب منها فيرجو من الله قبولها، فمن خلال التعريف الشرعي للرجاء نستطيع أن نفهم أن الرجاء المحمود قسمان:

القسم الأول: هو أن يعمل الرجل بطاعة الله على نور من الله راجيا لثواب الله ورحمته والفوز بدار كرامته.

القسم الثاني: هو رجاء من أذنب ذنوبًا ثم تاب منها، فهو يرجو مغفرة الله تعالى له وعفوه عنه وإحسانه له، وجوده وكرمه عليه.

كما ذكرنا أيضًا أن الرجاء هو توقع الخير من الله مع الأخذ بالأسباب، فمن لم يأخذ بالأسباب، بل يتمادى في التفريط والخطايا، ويزعم أنه يرجو رحمة ربه بلا عمل، فهذا غرور وتمنٍ، وهذا هو **القسم الثالث** للرجاء، وهو الرجاء المذموم[1].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصود من الرجاء أن من وقع منه تقصير فليحسن الظن بالله ويرجو أن يمحو عنه ذنبه، وكذا من وقع منه طاعة يرجو قبولها، وأما من انهمك على المعصية راجيًا عدم المؤاخذة بغير ندم

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٧).

ولا إقلاع فهذا غرور، وما أحسن قول أبي عثمان الجيزي[١]: من علامة السعادة أن تطيع وتخاف أن لا تقبل، ومن علامة الشقاء أن تعصي وترجو أن تنجو»[٢].

ومن الرجاء ما هو شرك أكبر مخرج من الملة، كما أسلفنا في مبحث أثر أعمال القلوب في نقض الإيمان، قال الشيخ سليمان: «ومنها الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله كمن يدعو الأموات أو غيرهم، راجيًا حصول مطلوبه من جهتهم، فهذا شرك أكبر قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البَقَرَة: ٢١٨]»[٣].

ومنه ما هو طبيعي، وهو أن يرجو شيئًا من رجل قادر عليه، مثل ما يرجى من المحسنين قضاء حوائج الأرامل والمساكين واليتامى.

---

(١) هو سعيد بن الجهم بن نافع، مولى الحرب بن داحر الأصبحي، ثم السحولي، أبو عثمان الجيزي، مسكنه الجزيرة، ذكره أبو عمر الكندي، قال؛ وكان فقيها من أصحاب مالك، وهو أحد أوصياء الشافعي، توفي سنة ٢٠٩هـ، انظر: ترتيب المدارك في تقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (٣/ ٢٨٨).

(٢) فتح الباري (١١/ ٣٠١).

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٢٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٦).

المطلب الرابع
الأسباب الجالبة للرجاء

إن المتأمل في الكتاب والسنة وكلام العلماء عموما وشيخ الإسلام خصوصا، يجد الاعتناء الكبير بأمر الرجاء وذلك بالأمر أن يفرد الله به، وأن لا يشرك فيه معه غيره، وقد وضح شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن الواجب على العبد أن لا يقطع نفسه من رحمة ربه، بل يرجوه ويخشى ذنوبه، فإذا كثرت ذنوبه تعلق برجاء المغفرة من الله له مع التوبة منها ومع بذله للأسباب، (فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، والمعوق له من العبد هو ذنوبه، وما كان خارجًا عن قدرة العبد فهو من الله، وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى، لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببًا للنجاة والسعادة، فشهادة التوحيد تفتح باب الخير والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه وهذا معنى ما روي عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال؛ لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه[1]، وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ: أنه دخل على مريض فقال: «**كيف تجدك؟**» فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال: «**ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا**

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١١/ ٤٦٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٠١)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٢/ ١٩٥).

أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف»[١].

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق، ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيءة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح]، فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه أو حاله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحجّ].

وكذلك المشرك يخاف المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعب كما قال تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًاۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥١﴾ [آل عمران]، والخالص من الشرك يحصل له الأمن)[٢] التام.

وفي هذا المطلب أحاول أن أذكر بعض الأسباب التي يجلب بها الخوف، وفي مقدمة هذه الأسباب لا شك هو العلم والمعرفة بالله وعظمته،

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/ ٢٣٤)، في كتاب الجنائز، وابن ماجه في سننه (٧٠٦)، في كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، والحديث حسنه الألباني في الصحيحة (١٠٥١).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٥-٢٥٧).

وقد تقدم أن الرجاء عبادة قلبية لا يخلو قلب منها، فإن الإنسان مجبول على إرادة الخير ويرجو تحصيله، كما يكره المكروه ويرجو دفعه، فإذا علم أنه لا يستطيع نفعه ولا دفع ضره إلا الله، وأنه على كل شيء قدير، وأنه لا معقب لأمره، وأنه لا معارض لحكمه، بل ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وجب عليه أن لا يعلق رجاءه إلا بالله[(١)].

كذلك، إذا علم العبد المسلم (أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنما يقصد منفعته بك، وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه.

والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك، وذلك منفعة عليك بلا مضرة، فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أوتطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم، وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل]، وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩])[(٢)].

ومن الأسباب الجالبة للرجاء أيضًا ما ذكره شيخ الإسلام من مطالعة الكرم والحلم والعفو[(٣)] من الله ﷻ، وقد ذكرنا أنه من أساليب القرآن في ترغيب الناس على الرجاء.

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٢٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٠).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٩٦).

المطلب الخامس

لوازم الرجاء

الرجاء من المزالق الخطيرة، يؤدي سوء الفهم فيه إلى التمادي في المعاصي والمنكرات وترك الجد والاجتهاد وعدم الأخذ بالطاعات.

وحتى لا يصل الأمر إلى هذا الحد لا بد من مراعاة أمرين في الرجاء وهما من لوازمه:

الأمر الأول: اقتران الرجاء بالعمل الصالح.

فإن المتأمل في الكتاب والسنة يجد أن الله قرن بين الإيمان والعمل، وأنه لا يكفي في الدين مجرد الدعوى، بل لا بد من العمل، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف] يخبر الله أن من يرجو رؤيته وثوابه، ويخاف المصير إليه يعمل العمل الصالح ويجتنب الشرك، والعمل الصالح هو ما كان لوجه الله خالصًا موافقًا لسنة نبيه ﷺ وهو الاحسان كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢]، فقد أخبر الله تعالى أنه من أخلص قصده لله وكان محسنا في عمله فإنه مستحق للثواب سالم من العقاب، ثم هذا هو تحقيق الشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله، ففي الأولى أن لا نعبد إلا إياه، وفي الثانية أن محمدًا هو رسوله المبلغ عنه، فعلينا أن نصدق خبره ونطيع أمره[١].

---

(١) انظر: العبودية (ص/١٢٩)، والفتاوى الكبرى (٥/٢١٧).

ويقول الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة]، فربط الله في هذه الآية بين الرجاء وهذه الأعمال الثلاثة موضحة أن المتصفين بها هم الراجون رحمة الله في الحقيقة، لأنهم أتو بالأسباب الموجبة للرحمة، أما غيرهم فرجاؤهم ادعاء وتمن، لأنهم لم يقوموا بالأسباب، وهذا بمنزلة من يرجو وجود الغلة بلا بذر وسقي، ويرجو وجود ولد بلا نكاح(١).

وكما أن الله ذم المشركين الذين يتمتعون في هذه الدنيا فيأكلون ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها وتزودهم لمعادهم منها، قال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر](٢).

وأختم هذا بكلام لشيخ الإسلام، إذ يقول رحمه الله: «فلا بد (للعبد) من العمل المأمور به، ولا بد من رجاء رحمة الله وعفوه وفضله، وشهود العبد لتقصيره، ولفقره إلى فضل ربه، وإحسان ربه إليه»(٣).

الأمر الثاني: اقتران الرجاء بالخوف.

تبين لنا من خلال المسائل السابقة أن المحبة أصل كل عمل ديني، وأن الخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب(٤).

والعبادة ترتكز على هذه الأعمال القلبية الثلاثة، فمن حقق هذه

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ٣١٩)، ومنهاج القاصدين (٣/ ١١٤٦)، وتفسير السعدي (ص/ ٩٨).
(٢) انظر تفسير ابن جرير (١٧/ ٦٥).
(٣) رسالة في دخول الجنة (١/ ١٥١)، ضمن جامع الرسائل لشيخ الإسلام.
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦١).

الأعمال المحبة والخوف والرجاء فقد حقق باقي الأعمال، فمن خاف الله واتقاه اتبع رضاه، ومن رجاه لم ييأس من رحمة الله فأقبل على طاعة الله، ومن أحبه لم يلتفت إلى ما سواه، لاكتفائه بمحبوبه عن غيره، ولذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «وكره من كره من أهل المعرفة والعلم؛ مجالسة أقوام يكثرون الكلام في المحبة بلا خشية»[(٢)].

فمرادهم أن دعوى المحبة بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء دعوى كاذبة، وهذا لأن فيها انبساطًا في الأهواء ومن يدعي ذلك كثيرًا ما يقع في المعاصي ولا يبالي، بل آل الأمر ببعض هؤلاء إلى الانسلاخ عن الدين كله نسأل الله السلامة.

وكذلك الرجاء وحده أورث العبد غرورا وأمنا من مكر الله، وإذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله.

وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بالله وقنط من رحمته.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمحبة ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضره، لأنها توجب التواني والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات. . . .والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما كَلَّها شيء، كالخائف الذي معه سوط

---

(١) العبودية (ص/ ٩٣).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٩٣).

يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الطريق، والرجا حاد يحدوها يطلب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يشوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادا لا يرجى صلاحه أبدًا»(١).

وكما أسلفنا أن الخشية أبدًا متضمنة للرجاء، ولو لا ذلك لكان قنوطا، فالرجاء يستلزم الخوف ويقترن به، ولو لا ذلك لكان أمنا، فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله(٢)، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ٥٧﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السَّجدَة: ١٦].

هذا الاقتران بين المقامين في الآيات الكريمات يدل على علاقة تكامل وتلازم وترابط وثيق بينهما، وأن الأصل أن يعتدلا في قلب العبد، ولا يترجح أحدهما على الآخر، مثله في ذلك مثل الطائر في حاجته إلى استواء جناحيه ليصح ويتم طيرانه، فإذا وقع النقص في أحدهما حدث الخلل، وإذا انتفيا بالكلية صار الطائر إلى حتفه وموته(٣).

وكذلك لو نظرنا في الأحاديث النبوية وجدنا أن رسول الله ﷺ يقرن بين الخوف والرجاء مما يدل على تناسبهما وأنهما مهمان في حياة المسلم، عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في الموت، فقال: «**كيف تجدك؟** قال؛ والله، يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٠-٢١).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢٠).

(٣) انظر: الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٣٢٨)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٧-٢٨)، وعبودية القلب (١/ ٣٢٦).

ذنوبي، فقال رسول الله: **لا يجتمع في قلب عبد في هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»**[(١)].

وقال النبي ﷺ: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته»**[(٢)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «قوله (الرجاء مع الخوف) أي؛ استحباب ذلك، فلا يقطع النظر في الرجاء عن الخوف، و لا في الخوف عن الرجاء، لئلا يفضي في الأول إلى المكر، وفي الثاني إلى القنوط، وكل منهما مذموم»[(٣)]

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «وينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجاؤه واحدا، فأيهما غلب هلك صاحبه ونص عليه الإمام أحمد، لأن من غلب خوفه وقع في نوع من اليأس، ومن غلب رجاؤه وقع في نوع من الأمن من مكر الله»[(٤)].

نعم، فالرجاء وحده يورد العبد غرورًا وأمنًا من مكر الله، وإذا استرسل فيه العبد وخلا قلبه من الخوف تجرأ على معاصي الله.

فالحاصل أن العبد ينبغي أن يسعى إلى الله بين الخوف والرجاء اللذين يستلزمان المحبة، لكن هل يغلِّب الإنسان جانب الرجاء أو جانب الخوف، اختلف العلماء في ذلك على أقوال، أذكرها بإيجاز[(٥)]:

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٢٢)، في كتاب الرقاق، باب الرجاء مع الخوف، ومسلم في صحيحه (ص/١١٠٢)، في كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله.

(٣) فتح الباري (١١/٣٠١).

(٤) الفتاوى الكبرى (٥/٣٥٩).

(٥) انظر هذه الأقوال في الجامع لشعب الإيمان للبيهقي (٢/٣٢٠)، ومدارج السالكين (١/ ٣٨٥-٣٨٦)، وفتح الباري (١١/٣٠١)، والتخويف من النار (ص/٢٥-٢٦)، وشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣/٣٣٨).

١ - منهم من قال: يغلب جانب الرجاء مطلقا، ليكون متفائلا ومحسنا للظن بربه، لأن الله عند ظن عبده به.

٢ - ومنهم من قال: يغلب جانب الخوف مطلقا، ليكون أدعى للعمل، ويحمله على اجتناب المعاصي.

٣ - ومنهم من قال: ينبغي أن يكون خوفه ورجاءه سواء، لأن إذا غلب جانب الرجاء أمن من مكر الله، وإن غلب جانب الخوف يئس من رحمة الله، وكلهما مذموم، ويؤيد هذا القول الآيات والأحاديث الكثيرة التي جاءت بالجمع بينهما.

ويؤيد هذا القول أيضًا قصة الشاب الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو يحتضر، كما سبق.

ومما يؤيد هذا القول أيضًا أن الحافظ ابن حجر حكى الاتفاق على استحباب التسوية بينهما في حال الصحة، فإن ثبت هذا الاتفاق فهو يدل على أن التسوية تكون في غيرها من الحالات أيضًا، استدلالًا باستصحاب حكم الإجماع في محل النزاع(١).

وبهذا القول قال الإمام أحمد، قال رحمه الله: «ينبغي للمؤمن أن يكون خوفه ورجائه واحدًا، فأيهما غلب هلك صاحبه»(٢).

كذلك هو قول شيخ الإسلام رحمه الله، وقد سبق نقل كلامه قريبًا، وأيضًا حين سئل رحمه الله عن قول مطرف بن عبد الله(٣): «لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه

---

(١) قواعد ومسائل في توحيد الإلهية (ص/ ٧٣).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/ ١١٨).

(٣) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير بن ربيعة العقيلي رضي الله عنه، تابعي مشهور، ولد في عهد النبي ﷺ، كان ذا عبادة وورع، توفي سنة ٨٧ هـ، انظر: طبقات ابن سعد (٩/ ١٤٢)، والسير (٤/ ١٨٧).

لاعتدلا»، قال شيخ الإسلام معلقًا على قوله: «وهو كلام صحيح»[(١)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما الخوف والرجاء فأكثر السلف على أنهما يتساويان، لا يرجح أحدهما على الآخر، قال المطرف والحسن وأحمد»[(٢)].

٤ - ومنهم من قال: في حالة الصحة يكون خوفه ورجاءه واحدا، وفي حال المرض يغلب الرجاء، وهذا اختيار النووي رَحِمَهُ اللَّهُ إذ قال: «اعلم أن المختار في حال الصحة أن يكون خائفا راجيا، ويكون خوفه ورجاءه سواء، وفي حال المرض يُمحّض الرجاء، وقواعد الشرع من نصوص الكتب والسنة وغير ذلك متظاهرة على ذلك»[(٣)].

٥ - ومنهم من قال: إذا كان في طاعة فليغلب الرجاء وأن الله يقبل له، وإذا كان عند المعصية فليغلب الخوف، لئلا يتقدم على المعصية، ويشكل على هذا القول قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]، وقد تقدم أن هؤلاء في طاعة، يصلون ويتصدقون ويصومون مع ذلك يخافون أن لا يقبل منهم.

٦ - ومنهم من قال: في حالة الصحة يغلب جانب الخوف ليكون أدعى إلى الازدياد من العمل واجتناب المعاصي، وفي حالة المرض يغلب جانب الرجاء لأنه حنيئذ لا يطيق العمل ودواعي الشر قد قلّت ولم يبق في هذه الحالة للخوف كثير معنى، فعليه أن يحسن الظن بالله كما جاء في الحديث، قال النبي ﷺ: **«لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»**[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٣٧٩).

(٢) التخويف من النار (ص/ ٢٥).

(٣) رياض الصالحين (ص/ ١٦٨).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١١٥٣)، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف أفضل من الرجاء ما دام العبد صحيحا، فإذا نزل به الموت، فالرجاء أفضل»[١].

٧ ـ ومنهم من قال: إذا أمن داء القنوط فالرجاء أولى، وإن أمن داء المكر فالخوف أولى.

يقول الغزالي: «والخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب، ففضلهما بحسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل»، ثم قال: «وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل، فنقول أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء، وذلك لأجل غلبة المعاصي، فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه، وخفيه وجليه، فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاءه»[٢].

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والإنسان ينبغي أن يكون طبيب نفسه، إذا رأى من نفسه أنه أمن من مكر الله، وأنه مقيم على معصية الله، ومتمن على الله الأماني، فيعدل عن هذه الطريق، وليسلك طريق الخوف.

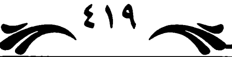
وإذا رأى أن فيه وسوسة، وأنه يخاف بلا موجب، فيعدل عن هذا الطريق وليغلب جانب الرجاء حتى يستوي خوفه ورجاؤه»[٣].

---

(١) حلية الأولياء (٨/ ٨٩).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٠٧).

(٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٩).



المطلب السادس

ثمرات الرجاء

إن الله خلق الخلق الجن والإنس لعبادته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، بل إنه سبحانه خلق الملائكة أيضًا لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء].

فالعبادة أنواع كثيرة، كما قال شيخ الإسلام في تعريفها: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة»[1]، والعبادات القلبية التي تكون في القلوب، من المحبة والخوف والرجاء والتوكل والإنابة التي يجب إفرادها لله تعالى وهذا هو معنى التوحيد، فالناظر في كلام شيخ الإسلام حين تكلم عن أعمال القلوب يجد أنه يركز على هذا الجانب كثيرًا، بل جلّ كلامه منصب في هذا الموضوع.

فأقول إن من الأعمال القلبية التي يجب إخلاصها لله هو الرجاء كما أسلفنا، لأنه بذلك تتحقق العبودية التي خلقنا الله من أجلها وهذا من أعظم ثمرات الرجاء وفوائده، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته، ورجائه لقضاء حاجته، ودفع ضرورته، قويت عبوديته له، وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، ويأسه منه يوجب غناء قلبه عنه، كما قيل؛ استغن عمن شيءت تكن نظيره،

(١) العبودية (ص/١٧).

وأفضل على من شيءت تكن أميره، واحتج إلى من شيءت تكن أسيره، فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له.

وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيما من كان يرجو المخلوق ولايرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدا إما على رياسته وجنوده، واتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالكه، وملِكه، وشيخه، ومخدومه، وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان]»[1].

بل عدم إخلاص الرجاء لله وتعليق القلب بغيره يورث للعبد الخيبة والذلة والخذلان، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «اعتماده (الإنسان) على المخلوق، وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته، فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم]»[2].

وفي ذلك ـ أن من رجا مخلوقًا في شيء ذل من تلك الجهة ـ أمثلة كثيرة، منها أنك تجد (طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها، ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم، فهو في الحقيقة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لهم الأموال والولايات، ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم)[3].

---

(١) العبودية (ص/٦٦-٦٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٢٩).

(٣) العبودية (ص/ ٧١).

ومن أمثلة ذلك أيضًا أنك تجد (الرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له، يبقى قلبه أسيرًا لها، تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، لا سيما إذا درت بفقره إليها، وعشقه لها، وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تحكم فيه بحكم السيد القاهر الظالم في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه، بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن)(١).

فمن حقق التوحيد وأخلص الرجاء لله، فالله يجعل له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجًا، بل من كمال إحسان الله إلى عباده أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد(٢).

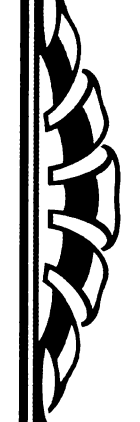
فأسأل الله أن يجعلنا من محققي التوحيد، وأن يجعلنا ممن يعبدون الله بالمحبة والخوف والرجاء، وأن يهدينا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

---

(١) العبودية (ص/ ٦٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٣١-٣٣٢).





المبحث السادس:
الصدق

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: مراتب الصدق.

المطلب الرابع: ثمرات الصدق.



المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الصدق بالكسر والفتح، هو من مادة (ص د ق) التي تدل على قوة في الشيء قولا وغيره، ومن ذلك الصدق الذي خلاف الكذب، سمي بذلك لقوته في نفسه، لأن الكذب لا قوة له بل هو باطل.

وأصل هذا من قولهم؛ شيء صَدْق أي: صلب، ورمح صَدق، يقال؛ صدقوهم القتال، وفي ذلك كذبوهم.

ويقال؛ صَدَق في الحديث وصَدَق الحديث، أي تصادقا في الحديث بحيث أنبأ بعضهم بعضًا بالصدق، والمصَدِّق الذي يصدّقك في حديثك، أي يقبل قولك.

ويقال؛ رجل صَدق أي صالح كامل، نقيض رجل سوء، ورجل صدوق أبلغ من الصادق، والصدّيق الدائم التصديق والملازم له.

ويقول؛ صادقت فلانا، أي خاللته واتخذته صديقا، أي أخلص له المودة، والصدقة ما يخرج من المال على وجه القربة، لأنها تظهر صدق العبودية، والصداق هو ما يعطى للمرأة عند الزواج، وسمي بذلك لدلالته على صدق الرغبة[1].

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة (ص/ ٥٦٥)، والقاموس المحيط (ص/ ١١٦١)، ولسان العرب (٨/ ٢١٤).

فالناظر في المعاجم اللغوية وتعريف مادة (صدق) ومشتقاتها، يجد أن (صدق) تحتوي على معاني الكمال والخلوص والشدة.

فالصدق في القول يدل على كمال شخصية القائل.

والصدق في العمل يدل على خلوص النية وشدة التحمل.

والصادق هو المخلص المستقيم.

والصدقة تدل على صدق الإيمان(١).

◇ المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

تقدم في تمهيد هذه الرسالة، أن الإيمان لا يرادفه التصديق، وعلى فرض تسليم الترادف بينهما قلنا أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال والأعمال.

فنظرًا لأقوال العلماء في تعريف الصدق نرى أن منهم من يخص الصدق في الأقوال بناء على معناه اللغوي، ومنهم من يبين أن الصدق يكون في قول القلب وعمله، وفي قول اللسان وأعمال الجوارح.

فمن الأول، يقول الراغب: «الصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معا»(٢).

ويقول الماوردي(٣): «الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو

---

(١) الصدق في القرآن الكريم (ص/١٦)، تأليف مذكر محمد عارف، وانظر: أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (١/ ٢٧٦).

(٢) المفردات (ص/٤٧٨).

(٣) هو علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى قضاة عصره، صاحب التصانيف الكثيرة، ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة، ثم جعل أقضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي، كان يميل إلى مذهب الاعتزال، له كتاب النكت والعيون في التفسير، والحاوي في فقه الشافعية، وغيرها. ولد سنة ٣٦٤ هـ، وتوفي سنة ٤٥٠هـ. انظر: طبقات الشافعية (٥/ ٢٦٧)، والسير (١٨/ ٦٤)، والأعلام (٤/ ٣٢٧).

عليه، والكذب هو الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه»[١].

ويقول ابن عقيل[٢]: «هو الخبر عن الشيء على ما هو به، وهو نقيض الكذب»[٣].

ويقول الغزالي في تعريف الصادق، هو: «من حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه، فهو صادق»[٤].

ومن الثاني، قال القشيري: «الصدق أن لا يكون في أحوالك شوب، ولا في اعتقادك ريب، ولا في أعمالك عيب»[٥].

ويقول عبد الواحد بن زيد[٦]: «الصدق الوفاء لله بالعمل»[٧].

ويقول أبو المظفر السمعاني[٨]: «قلنا الصدق هو الإخبار عن الشيء على ما هو به، والكذب الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو به، وهذا

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص/ ٢٧١).

(٢) هو أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد البغدادي، الحنبلي المتكلم، صاحب التصانيف، ولد سنة ٤٣١هـ. قال الذهبي: كانوا ينهونه عن مجالسة المعتزلة، ويأبى حتى وقع في حبائلهم، وتجاسر على تأويل النصوص، نسأل الله السلامة، انظر: السير (١٩/ ٤٤٣).

(٣) الواضح (١/ ١٢٩).

(٤) إحياء علوم الدين (٥/ ١٢١).

(٥) التعريفات (ص/ ١٣٥).

(٦) هو عبد الواحد بن زيد البصري، أبو عبيدة، الزاهد، شيخ العباد، حدث عن الحسن، وعطاء وغيرهما، قال ابن حبان: كان ممن غلب عليه العبادة حتى غفل عن الإتقان، فكثرت المناكير في حديثه توفي بعد سنة ١٥٠ هـ، انظر: الحلية (٦/ ١٥٥)، والسير (٧/ ١٧٨).

(٧) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٣).

(٨) هو العلامة، مفتي خراسان، شيخ الشافعية، أبو المظفر منصور ابن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني، المروزي. له تفسير السمعاني، والانتصار لأصحاب الحديث، والمنهاج لأهل السنة، وغيرها. ولد سنة ٤٢٦ هـ. وتوفي سنة ٤٨٩ هـ. انظر: طبقات الشافعية (٥/ ٣٣٥)، والسير (١٩/ ١١٤)، والأعلام (٧/ ٣٠٣).

حد المتكلمين، والأولى أن نقول إذا كان المخبر على ما تضمنه الخبر فهو صدق»[١].

يقول ابن القيم رحمه الله: «الصدق هو حصول الشيء وتمامه، وكمال قوته، واجتماع أجزائه»[٢]، ويقول أيضًا: «فالصدق في الأقوال؛ استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها، والصدق في الأعمال؛ استواء الأعمال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد، والصدق في الأحوال؛ استواء أعمال القلوب والجوارح على الإخلاص، واستفراغ الوسع وبذل الطاقة»[٣].

ويقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ومما ينبغي أن يعرف أن الصدق والتصديق يكون في الأقوال وفي الأعمال كقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الصحيح: «**كتب على ابن آدم حظه من الزنا فهو مدرك ذلك لا محالة، فالعينان تزنيان وزناهما النظر، والأذنان تزنيان وزناهما السمع، واليدان تزنيان وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يتمنى ويشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[٤].

ويقال: حملوا على العدو حملة صادقة إذا كانت إرادتهم للقتال ثابتة جازمة، ويقال فلان صادق الحب والمودة ونحو ذلك، ولهذا يريدون بالصادق؛، الصادق في إرادته وقصده وطلبه وهو الصادق في عمله،

---

(١) قواطع الأدلة (١/ ٢٣١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٧).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ٢٠٠).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٠٨٧)، في كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، ومسلم في صحيحه (ص/ ١٠٦٥)، كتاب القدر، باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا وغيره.

ويريدون الصادق في خبره وكلامه، والمنافق ضد المؤمن الصادق، وهو الذي يكون كاذبا في خبره، أو كاذبا في عمله كالمرائي في عمله»[١].

ومما سبق نخلص إلى أن الصدق هو موافقة القول والعمل للاعتقاد، مع تحري الاستقامة في كل الأحوال[٢].

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٠٦).

(٢) انظر: الصدق في القرآن الكريم، دراسة موضوعية (ص/ ٢٢).

المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

إن الصدق خلق كريم، ومنه تنشأ جميع منازل السالكين، وهو الطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، فهو قرين الإخلاص، وهو من شروط لا إله إلا الله ـ وهو أن يقولها صادقًا من قلبه يواطئ قلبه لسانه ـ، وهو في الحقيقة تحقيق الإيمان، فإن المظهرين للإسلام ينقسمون إلى مؤمن ومنافق، والفارق بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فأساس النفاق الذي ينبني عليه هو الكذب.

والناظر في الكتاب والسنة يجد الاهتمام الكبير بخلق الصدق، يتجلى هذا الاهتمام في تعدد أساليب عرضه، وتنوع تناوله له، فأحيانا نجد أن الله يأمر بالصدق وينهى عن ضده، وأحيانًا يمدح المتصفين به ويثني عليهم، وأحيانا يذكر الله ما أعد لهم من النعيم، كل هذا مما يزيد لهذا العمل أهميته ويرغب النفوس بالتخلق به، وكما هي عادتي في هذا المطلب أحاول أن أذكر بعض نصوص الكتاب والسنة موضحًا لها بما وقفت عليه من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

المسألة الأولى: الأمر بالصدق والنهي عن ضده.

إن الصدق خلق يمثل الحق الذي تنتظم به الحياة الفردية والجماعية، وبه تتحقق السعادة الدنيوية والأخروية، وهو خلق يعتصم به الفضلاء الأصفياء الأوفياء، يرتفعون به عن الخلود إلى الأرض واتباع الهوى والشهوات.

وإن الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم، وتباين ثقافاتهم وغاياتهم ومذاهبهم، وتباعد زمانهم ومكانهم، كلهم يجلون هذا الخلق الكريم، ولا يرضون أن ينتسبوا إلى ضده، ولو كان واقع حياتهم يخالفه أو يحيد عنه(١).

والمهتم بالشرع والمطلع عليه يعرف (أن الشرع أمر بالواجبات العقلية وأوجبها، كما أوجب الصدق والعدل، وحرم الكذب والظلم)(٢)، والقرآن الكريم في عدد من آيات يأمر بالصدق وأن نكون من أهله، وينهى عن الكذب ويقبحه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة].

هذه الآية والآيات قبلها في السورة، تتكلم عن توبة الله على الثلاثة الذين خلفوا في غزوة تبوك، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «هذه الآية نزلت في قصة كعب بن مالك لما تخلف عن غزوة تبوك، وصدق النبي ﷺ في أنه لم يكن له عذر، وتاب الله عليه ببركة الصدق وكان جماعة أشاروا عليه بأن يعتذر ويكذب كما اعتذر غيره من المنافقين وكذبوا، وقوله تعالى: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] أي كونوا معهم في الصدق وتوابعه، فاصدقوا كما يصدق الصادقون ولا تكونوا مع الكاذبين»(٣).

قال ابن كثير رحمه الله: «فكان عاقبة صدقهم خيرا لهم وتوبة عليهم، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]، أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا»(٤).

---

(١) الصدق في القرآن الكريم (ص/ ٥٢).
(٢) الفتاوى الكبرى (٦/ ٣٤٩).
(٣) منهاج السنة (٧/ ١٩٣-١٩٤)، بتصرف يسير.
(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ٥٢٢)، وانظر: تفسير السعدي (ص/ ٣٥٥).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ [الأحزاب]، يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقول ﴿وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠] أي؛ مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف»[(١)].

قال شيخ الإسلام في شرحه لمعنى السديد المذكور في الآية: «﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، قولوا قَصدًا حقًّا، وعن ابن عباس صوابا، وعن قتادة ومقاتل[(٢)] عدلا، وعن السدي مستقيمًا، وكل هذه الأقوال صحيحة، فإن القول السديد هو المطابق الموافق، فإن كان خبرا كان صدقا مطابقا لمخبره لا يزيد ولا ينقص، وإن كان أمرًا كان أمرًا بالعدل الذي لا يزيد ولا ينقص، ولهذا يفسرون السداد بالقصد والقصد بالعدل»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام: ١٥٢] لقد ورد هذا الأمر الإلهي في سياق مجموعة من وصايا الله عز وجل للناس، يأمرهم أن يطبقوها في حياتهم، لأنها هي الصراط المستقيم الذي تستقيم به حياتهم وتنتظم أمورهم على ما يرضي الله سبحانه، ومن هذه الوصايا ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾، أي فاصدقوا في الحكم والشهادة، ومنهم من يجعله عامًّا مطلقًا يدخل كل ما يتصل من القول والعمل[(٤)].

وتساند هذه الآيات في الأمر بخلق الصدق أقوال المصطفى ﷺ، لتؤكد المنزلة الرفيعة لهذا العمل القلبي الجليل، قال النبي ﷺ: «**عليكم**

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨٤).

(٢) هو مقاتل بن سليمان، كبير المفسرين أبو الحسن البلخي، قال الذهبي: قال ابن المبارك ـ وأحسن ـ: ما أحسن تفسيره لو كان ثقة! توفي سنة نيف وخمسين ومائة، انظر: السير (٧/ ٢٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٣٠).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٢/ ٧٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٦).

بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا»(١).

فهذا الحديث لخص لنا منزلة الصدق في الإسلام، إذ أمر الرسول ﷺ بالصدق وبين أنه يوصل إلى البر، و (البر اسم جامع للخير كله)(٢)، والبر يوصل إلى الجنة.

ثم نهى عن الكذب وبين خطورته بأنه يوصل إلى الفجور، و (الفجور اسم جامع لجميع أنواع الشر)(٣)، والفجور يوصل إلى النار، ولهذا قال بعض السلف: «إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها»(٤).

فالصدق أصل للخير وأعظمه الصدق على الله، والكذب أصل للشر وأعظمه الكذب على الله(٥)، لهذا يقول الله مبينا شناعة هذا الكذب فيقول تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: ٣٢]، يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول الله عز وجل مخاطبا المشركين الذين افتروا على الله وجعلوا معه آلهة أخرى، وادعوا أن الملائكة بنات الله، وجعلوا لله ولدًا ـ تعالى عن قولهم علوًّا كبيرًا ـ، ومع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١٠٦٣)، في كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ومسلم في صحيحه (ص/١٠٤٨)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

(٢) فتح الباري (١٠/٥٠٨).

(٣) المصدر نفسه (١٠/٥٠٨).

(٤) التحفة العراقية (ص/٣٠٠).

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/١٢٨)، بتصرف يسير.

هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولهذا قال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزُّمَر: ٣٢] أي؛ لا أحد أظلم من هذا، لأنه جمع بين طرفي الباطل، كذب على الله وكذّب رسول الله، قالوا الباطل وردوا الحق، ولهذا قال جلّت عظمته متوعدا لهم ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العَنكبوت: ٦٨] وهم الجاحدون المكذبون»(١)

ومما يبين شناعة الكذب عمومًا، ما ورد عن المصطفى ﷺ في بيان صفات المنافقين، إذ يقول رسول الله ﷺ: «**أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ إذا وعد أخلف، وإذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر، وإذا عاهد غدر**»(٢)، بينما يقول في حديث آخر: «**آية المنافق ثلاث؛ إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»(٣).

ففي هذين الحديثين تحذير شديد عن الكذب الذي هو ضد الصدق، وأنه من علامات المنافقين، ومما يزيد الأمر ترهيبا من الكذب أنه عند التأمل في الحديث الثاني نجد أن هذه الخصال الثلاثة كلها مشتملة على الكذب، فما خلف الوعد والخيانة إلا ضربان من الكذب في الأفعال(٤)، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «قلت (شيخ الإسلام) الغدر ونحوه داخل في الكذب»(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٦٩)، وانظر: تفسير السعدي (ص/ ٧٢٤)، وانظر: منهاج السنة (١٣٤/٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٩)، في كتاب الإيمان، باب علامات المنافق، ومسلم في صحيحه (ص/ ٥٦)، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق.

(٤) الصدق في القرآن الكريم (ص/ ٩٨).

(٥) العقيدة الأصفهانية (ص/ ١٣١).

المسألة الثانية: مدح المتصفين بالرجاء والثناء عليهم.

سبق أن ذكرنا أن الصدق من الحسنات التي تثمر الحسنات، وأنه الفارق بين المؤمن والمنافق، لأن الأصل الذي ينبني عليه النفاق هو الكذب، و (لهذا إذا ذكر الله حقيقة الإيمان نعته بالصدق، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر]، فأخبر أن الصادق في دعوى الإيمان هم المؤمنون الذين لم يعقب إيمانهم ريبة، وجاهدوا في سبيله بأموالهم وأنفسهم...

وكذلك وصف الصادقين في دعوى البر الذي هو جماع الإيمان في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

وأما المنافقون فوصفهم سبحانه بالكذب في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون] وقوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا

كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة]، ونحو ذلك في القرآن كثير)(١).

يفهم من كلام شيخ الإسلام أن الذين أتوا بهذه الأعمال الصالحة المذكورة في الآيات المتقدمة المختتمة بالصدق أن هؤلاء ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] وحققوا الإيمان واجتازوا الاختبار الذي اقتضته حكمته؛ وهي أن من يدعي الإيمان لابد أن يبتلى ويمتحن، لكي يعرف الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت]، ولا شك أن هذا مدح للمتصفين بالصدق.

كذلك الصدق هي الدرجة التالية بعد النبوة التي هي أرفع درجات العالمين، فالصديقون هم في الدرجة التي تلي الأنبياء في الفضل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء](٢)، وهؤلاء هم المعنيون في قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]، نسأل الله أن يهدينا إلى اتباع صراطهم.

المسألة الثالثة: بيان ثواب الصادقين.

إن الصدق عنوان الإسلام وميزان الإيمان وعلامة الكمال، والصدق يهدي إلى البر الجامع لأبواب الخير كلها الموصلة إلى جنات النعيم ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣]، والكذب الممقوت الداعي إلى الفجور

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٠٣-٣٠٥)، باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى (١١/١٧)، وانظر: (٤/٣٣٩).

الجامع لأبواب الشر كلها المؤدية إلى نار جهنم ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار: ١٤].

فالصدق في الأقوال والأعمال من أبرز صفات المؤمنين التي يتميزون بها عن غيرهم في الدنيا والآخرة، ومن أجل ذلك وعدهم الله جنات النعيم، وأوجب لهم الخلود فيها، ورضي الله عنهم لصدقهم في معاملته، ورضوا عنه بجزيل ثوابه ففازوا بأعظم مطلوب، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١١٩﴾ [المائدة].

نعم، الذين اتصفوا بالصدق هم المتقون المحسنون، لهم ما يشاءون عند ربهم، يكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذين كانوا يعملون، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزُّمَر: ٣٣-٣٥]، وقد اختلف أهل العلم من المراد بالذي جاء بالصدق وصدق به على أقوال:

- منهم من قال: الذي جاء بالصدق هو رسول الله، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون.

- منهم من قال: الذي جاء بالصدق هو رسول الله، والصدق لا إله إلا الله، والمصدق به أيضًا رسول الله.

- ومنهم من قال: الذي جاء بالصدق هو رسول الله، والمصدق هو أبو بكر.

- ومنهم من قال: الذي جاء بالصدق جبريل، والصدق القرآن، والمصدق به رسول الله.

- ومنهم من قال: الذين جاؤوا بالصدق هم المؤمنون، والصدق القرآن، والمصدقون به المؤمنون، وقد رجح القول الأخير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)].

و (قد أمر الله تعالى رسوله أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء]، وأخبر عن خليله إبراهيم ﷺ أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٤]، وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يُونس: ٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر].

فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، وقدم الصدق ومقعد الصدق.

وحقيقة الصدق في هذه الأشياء، هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل إلى الله، وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال، وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة.

فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقًا ثابتًا بالله، وفي مرضاته. وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مَريَم: ٥٠].

وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة، وفسر بمحمد ﷺ، وفسر بالأعمال الصالحة.

وأما مقعد الصدق فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى[(٢)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/٢٨٩)، وتفسير البغوي (٤/١٧)، وتفسير القرطبي (١٨/٢٧٨)، وتفسير ابن كثير (٤/٦٩)، ومنهاج السنة (٧/ ١٣٢-١٣٤).

(٢) مدراج السالكين (٢/ ٢٠٠-٢٠٢)، باختصار



المطلب الثالث

مراتب الصدق

سبق أن قررنا أن الصدق يكون في الأقوال وفي الأعمال، وبحسب تحقيق مجالات الصدق يتفاوت الناس، وهم فيه على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: الصادق.

المرتبة الثانية: الصدوق.

المرتبة الثالثة: الصديق.

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية: وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمرسل[(١)]، والفرق بين الصادق والصديق كما يقول الماوردي هو: «أن الصادق في قوله بلسانه، والصديق من تجاوز لسانه إلى صدق أفعاله في موافقة حاله، لا يختلف سره وجهره، فصار كل صديق صادقا، وليس كل صادق صديقا»[(٢)]، ويشير إلى هذا المعنى شيخ الإسلام إذ يقول رحمه الله: «فالصديق قد يراد به الكامل في الصدق، وقد يراد به الكامل في التصديق، والصديق (يريد أبا بكر) ليست فضيلته في مجرد تحري الصدق، بل في أنه علم ما أخبر به النبي ﷺ جملة وتفصيلًا، وصدق ذلك تصديقا كاملا في العلم والقصد والقول والعمل»[(٣)].

و (لذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه ذروة سنام الصديقية،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٠).

(٢) تفسير الماوردي (٣/ ٤٣).

(٣) المنهاج (٤/ ٢٦٦-٢٦٧).

سمي الصديق على الاطلاق، والصديق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق)[١].

والصِّديق: الدائم التصديق، المبالغ في الصدق[٢]، وأحسن ما يفسر به الصديق هو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، وقول النبي ﷺ: «**إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف، كما تراءون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق، لتفاضل ما بينهم**»، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: «بلى ـ والذي نفسي بيده ـ رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»[٣]، يقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، في كمال طاعتهم لله ولرسوله، فقيامهم بهذه الأمور به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين»[٤].

وكما تفاوت أهل الصدق في صدقهم وأنهم على مراتب، فمنهم الصادق، ومنهم الصدوق ومنهم الصديق، فكذلك الصديقون أنفسهم يتفاوتون في ما بينهم، لأن مجالات الصدق كثيرة، فأكملهم صدقا الصحابة رضوان الله عليهم، وأفضل الصديقين بعد الأنبياء هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، يقول شيخ الإسلام رحمه الله وهو يتكلم عن الصوفية أنهم يطلقون لفظ الصوفي على الصديق، يقول رحمه الله: «لكن هو (الصوفي)[٥] في الحقيقة نوع من

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٠٠).

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٥٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٤٣)، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم في صحيحه (ص/١١٣٨)، في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٤) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان (ص/ ٤٤-٤٥).

(٥) يقصد شيخ الإسلام بالصوفي هنا الذي اشتهر بالزهد والعبادة، كما كان اطلاق هذا الاصطلاح في بداية أمرهم، كما سنبين هذا حين يأتي مبحث الرد على الصوفية.

الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقو العلماء وصديقو الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة إنهم صديقون أيضًا، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده، وقد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم، والصديقون درجات وأنواع»[(١)]، «وأبو بكر أفضل الصديقين»[(٢)].

والصديقية مرتبة تكون للرجال والنساء، ولهذا قال تعالى في عيسى ابن مريم ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]، ويقال عن عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق، والله يمنّ على من يشاء من عباده[(٣)].

كذلك منزلة الصديقين تأتي بعد منزلة الأنبياء في الدنيا وفي الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء].

بل الصديق أفضل من المحدَّث[(٤)]، كما قرر ذلك شيخ الإسلام في

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٧).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٢٢٤).

(٣) انظر أعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (١/ ٢٨١-٢٨٣).

(٤) اختلف أهل العلم في تأويل المحدث، فقيل: هو الملهم، قاله أكثر العلماء، وقيل: المحدث هو الرجل الصادق الظن، وهو من ألقي في روعه شيء من قبل الملأ الأعلى، فيكون كالذي حدثه غيره به، وقيل: من يجري الصواب على لسانه من غير قصد، وقيل: المحدث هو المكلَم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة، انظر: فتح الباري (٧/ ٥٠).

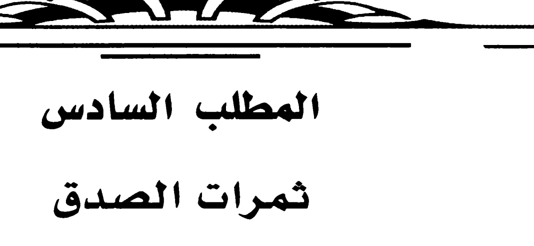
أكثر من موضع، وبيان ذلك أن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم ﷺ كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم، بل حين تكلم شيخ الإسلام عن قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الحج: ٥٢]، قال رحمه الله: «والقراءة العامة ليس فيها المحدث، إذ يجوز أن يقرّ على بعض الخطأ ويدخل الشيطان في أمنيته بعض ما يلقيه فلا ينسخ، بخلاف الرسول والنبي، فإنه لا بد من نسخ ما يلقي الشيطان وأن يحكم الله آياته لأنه حق والمحدث مأمور بأن يعرض ما يحدثه على ما جاء به الرسول»[(١)]، وقال في موضع آخر: «فقد ضمن الله للرسول وللنبي أن ينسخ ما يلقي الشيطان في أمنيته ولم يضمن ذلك للمحدث»[(٢)]، وذكر شيخ الإسلام لذلك شواهد كيف كان أفضل الصديقين - وهو أبو بكر - أعلم ورأيه أصوب من رأي أفضل المحدَّثين - وهو عمر الفاروق - رضي الله عنهما، مما يبين درجة الصديقين العالية في المؤمنين[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٥٢).

(٢) نفس الصدر (١١/ ٦٥).

(٣) انظر على سبيل المثال مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٧)، و (١١/ ٦٥)، (١١/ ٢٠٧)، و (١١/ ٤٢٩)، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (ص/ ١٥٧) وما قبلها.



المطلب السادس

ثمرات الصدق

إن المسلم لا ينظر إلى الصدق كخلق فاضل يجب التخلق به لا غير، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، يذهب إلى أن الصدق من متممات إيمانه، ومكملات إسلامه، فإن الله تعالى أمر به، وأثنى على المتصفين به، ورتب على المتخلقين به ثوابًا وأجرًا جزيلًا، وبهذا يتبين أن للصدق ثمرات طيبة يجنيها الصادقون في الدنيا والآخرة.

(فالصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها ويظهر ذلك من وجوه:

أحدها: أن الإنسان هو حي ناطق، فالوصف المقوّم له الفاصل له عن غيره من الدواب هو المنطق، والمنطق قسمان: خبر وإنشاء، والخبر صحته بالصدق وفساده بالكذب، فالكاذب أسوأ حالًا من البهيمة العجماء، والكلام الخبري هو المميز للإنسان وهو أصل الكلام الإنشائي، فإنه مظهر العلم والإنشاء مظهر العمل، والعلم متقدم على العمل وموجب له.

فالكاذب لم يكفه أنه سلب حقيقة الإنسان حتى قلبها إلى ضدها ولهذا قيل: لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا إخاء لملوك، ولا سؤدد لبخيل، فإن المروءة مصدر المرء كما أن الإنسانية مصدر الإنسان.

الثاني: أن الصفة المميزة بين النبي والمتنبئ هو الصدق والكذب، فإن محمدًا رسول الله الصادق الأمين، ومسيلمة الكذاب، قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزُّمَر].

الثالث: أن الصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هو الصدق، فإن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب، وعلى كل خلق يطبع المؤمن ليس الخيانة والكذب، وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه كان منافقا، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

الرابع: أن الصدق هو أصل البر، والكذب أصل الفجور، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**».

الخامس: أن الصادق تنزل عليه الملائكة، والكاذب تنزل عليه الشياطين، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء].

السادس: أن الفارق بين الصديقين والشهداء والصالحين وبين المتشبه بهم من المرائين والمسمعين والملبسين، هو الصدق والكذب.

السابع: أنه مقرون بالإخلاص الذي هو أصل الدين في الكتاب...[1]، وكلام العلماء والمشايخ، قال الله تعالى: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحَجّ: ٣٠-٣١]، وقال: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»، **وكان متكئًا فجلس فقال**: «**ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور**»، **فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**[2].

---

(١) بياض في الأصل قدر كلمة، ولعلها «والسنة» (المحقق).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٤٣٠)، في كتاب الشهادات، باب ما قيل في شهادة الزور، ومسلم في صحيحه (ص/٦٣)، في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

الثامن: أنه ركن الشهادة الخاصة عند الحكام، التي هي قوام الحكم والقضاء، والشهادة العامة في جميع الأمور، والشهادة خاصة هذه الأمة التي ميزت بها في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: ١٤٣]، وركن الإقرار الذي هو شهادة المرء على نفسه، وركن الأحاديث والأخبار التي بها يقوم الإسلام، بل هي ركن النبوة والرسالة التي هي واسطة بين الله وبين خلقه، وركن الفتيا التي هي إخبار المفتي بحكم الله، وركن المعاملات التي تتضمن أخبار كل واحد من المتعاملين للآخر بما في سلعته، وركن الرؤيا التي قيل فيها: أصدقهم رؤيا أصدقهم كلاما، والتي يؤتمن فيها الرجل على ما رأى.

التاسع: أن الصدق والكذب هو المميز بين المؤمن والمنافق كما جاء في الأثر: أساس النفاق الذي بني عليه الكذب، وفي الصحيحين عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «**آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»، ووصف الله المنافقين في القرآن بالكذب في مواضع متعددة، ومعلوم أن المؤمنين هم أهل الجنة، وأن المنافقين هم أهل النار في الدرك الأسفل من النار.

العاشر: أن المشايخ العارفين اتفقوا على أن أساس الطريق إلى الله هو الصدق والإخلاص كما جمع الله بينهما في قوله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحَج: ٣٠، ٣١]، ونصوص الكتاب والسنة وإجماع الأمة دال على ذلك في مواضع، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾ [التوبة: ١١٩]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزُّمَر].

وقال تعالى لما بيّن الفرق بين النبي والكاهن والساحر: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ

رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء]، إلى قوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشُّعَرَاء]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النِّسَاء: ١٣٥]) [١].

وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مواضع أخرى بعض الثمرات غير ما ذكر هنا، منها:

ـ حين تكلم عن الذي يكره على فعل المحرم، بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه أو حبسه، أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذي يستحقه من بيت المال ونحوه من الضرر، بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يجوز فعله عند أكثر أهل العلم وهو المشهور عن الإمام أحمد، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان، ومن علم الله منه الصدق أعانه الله، وقد يعافى ببركة صدقه من الأمر بذلك»[٢]، ومنها،

ـ أن الصدق يورث الطمأنينة والسكون، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقال؛ القلب يسكن إلى فلان ويطمئن إليه إذا كان معروفا بالصدق، فإن الصدق يورث الطمأنينة والسكون»[٣]، فالذي يصدق مطمئن في نفسه وكذلك الآخرون يطمئنون إلى خبره، بخلاف الكاذب، منها،

ـ أن الصدق سبب في محو السيئات، حين تكلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن حديث

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٧٤-٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٧٣).
(٣) المصدر نفسه (٥/ ٥٧١).

البطاقة، وأن السجلات طاشت وثقلت البطاقة، قال رَحِمَهُ اللهُ: «فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق والإخلاص والصفاء وحسن النية، إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتا عظيما»[1]، ومنها،

ـ أن صدق المتبايعين يُحل البركة في بيعهما، وكذبهما يمحق بركة بيعهما، قال رَحِمَهُ اللهُ: «فالصدق يعم الصدق فيما يخبر به عن الماضي والحاضر والمستقبل، والبيان يعم بيان صفات المبيع ومنافعه، وكذلك الكذب والكتمان، وإذا كان الصدق والبيان واجبين في المعاملة موجبين للبركة، فالكذب والكتمان محرمين ماحقين للبركة»[2].

هذا ما تيسر لي جمعه، وأختم هذا المبحث بدعاء ذكره شيخ الإسلام عن الإمام أحمد أنه علّم أحد الناس أي يقول: «يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين»[3].

فأقول؛ يا دليل الحائرين دلني على طريق الصادقين، واجعلني من عبادك الصالحين، آمين.

---

(١) المصدر نفسه (١٠/ ٧٣٥).

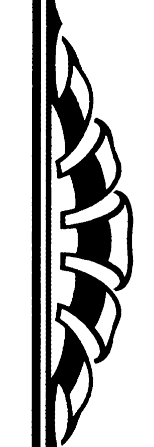
(٢) الفتاوى الكبرى (٦/ ١٥١).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٧).



المبحث السابع:

التوكل



وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: التوكل والأخذ بالأسباب.

المطلب الرابع: أقسام التوكل.

المطلب الخامس: ثمرات التوكل.



المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

التوكل من مادة (وكل)، وهو أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك، ومن ذلك الوكالة، والوَكَل؛ الرجل الضعيف، وُكَلَة تُكَلة. والتوكل منه، وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك، وواكل فلان إذا ضيع أمره متكلا على غيره، وسمي الوكيل لأنه يوكل إليه الأمر.

وهو في اللغة مصدر توكّل يتوكل، ويتعدى بأحد حرفي الجر: اللام وعلى، فإذا تعدي باللام كان معناه: التولية، فيقال؛ وكلته في الأمر فتوكل لي، أي وليته إياه فتولاه لي.

وإذا تعدى بعلى كان المعنى الاعتماد، فيقال: توكلت عليه في هذا الأمر، أي اعتمدت عليه في قضائه لي، قال الراغب: «والتوكل على وجهين، يقول: توكلت لفلان، بمعنى: توليت له، ويقول: وكلته فتوكل لي، وتوكلت عليه بمعنى اعتمدته، وواكل فلان، إذا ضيع أمره متكلا على غيره...، ورجلًا وكلة تكلة؛ إذا اعتمد على غيره في أمره»[١].

وقال الجوهري: «والتوكل إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم: التكلان، واتكلت على فلان في أمري إذا اعتمدته، وأصله اوتكلت، قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أبدلت منها التاء فأدغمت

---

(١) المفردات (ص/ ٨٨٢).

في تاء الافتعال...»[١].

وقال ابن منظور: «يقال: تَوكَّل بالأمر إذا ضَمِن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان أي ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلان فلانا، إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزا عن القيام بأمر نفسه، ووكل إليه الأمر؛ سلمه، ووكله إلى رأيه وكلا ووكولا، تركه...»[٢].

ومما سبق يتبين أن التوكل في اللغة هو الاعتماد على الغير في أي أمر من الأمور، وتفويض الأمر إليه مع الشعور بالعجز والاطمئنان والثقة في المفوض إليه.

◇ المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

اختلفت عبارات السلف في تعريف التوكل على الله تبعًا لتفسيره تارة بأسبابه ودواعيه، وتارة بدرجاته، وتارة بلازمه، وتارة بثمراته وغير ذلك من متعلقاته، وسبب ذلك أن التوكل عمل قلبي، فيصعب على المتكلم أن يحده بحد، أو يحصره بلفظ.

فقد عرفه الإمام أحمد بأنه (قطع الاستشراف بالإياس من الخلق)، أي لا يرجو بقلبه أحدا فيستشرف إليه، فلا يتطلع على ما في أيدي الناس فيتعلق به ويرجوه، بل يعتمد على الله في طلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، لا يتوجه بقلبه إلا إلى الله[٣].

وقال ابن جرير: «الصواب في حد التوكل الثقة بالله تعالى والاعتماد في الأمور عليه، وتفويض كل ذلك إليه بعد استفراغ الوسع في السعي فيما للعبد الحاجة إليه من أمر دينه ودنياه على ما أمر به من السعي فيه»[٤].

---

(١) الصحاح (٥/١٤٣).

(٢) لسان العرب (١٥/ ٢٧٢).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٩).

(٤) شرح ابن بطال لصحيح البخاري (٩/ ٤٠٨).

وعرفه الحليمي بأنه (تفويض الأمر إلى الله ﷻ، الثقة بحسن الظن بالله فيما أمر به وأباح)[١].

وقال العز بن عبد السلام: «التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يفعله من خير، أو يزيله من ضر»[٢].

وقال ابن رجب رحمه الله: «هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه»[٣].

يلاحظ على هذه التعريفات أن التوكل عمل قلبي محله القلب، ومنشأه الثقة بالله وحسن الظن به، والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه، إلا على تعريف ابن جرير الذي أدخل في التعريف الأخذ بالأسباب، والسعي فيما للعبد الحاجة إليه، وهذ طبعا من لازم التوكل وليس هو التوكل نفسه، وهذا بيان منه على أن التوكل والأخذ بالأسباب لا منافاة بينهما، لأن السعي في الأسباب بالجوارح طاعة لله، والتوكل بالقلب عليه إيمان به، وعلى هذا النمط درج كثير من العلماء في تعريفهم للتوكل، يدخلون الأسباب في التوكل[٤].

ومما يجدر الإشارة إليه، أن في التوكل تتجلى العلاقة الوثيقة التلازمية

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ٥).

(٢) شجرة المعارف (ص/ ٦٣).

(٣) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٧).

(٤) انظر على سبيل المثال: ابن القيم في مدارج السالكين يقول: «وحقيقة التوكل القيام بالأسباب والاعتماد بالقلب على المسبب» (مدارج السالكين: ٣/ ٣٦٨)، وقال ابن حجر: «التوكل؛ هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب» (الفتح: ٣/ ٣٨٤)، وقال الشيخ ابن عثيمين: «التوكل هو الاعتماد على الله ﷻ في حصول المطلوب، ودفع المكروه، مع الثقة به وفعل الأسباب المأذون فيها» (القول المفيد: ٢/ ٦٦٦).

بين قول القلب وعمله، وأن بهما يحصل التوكل ويتحقق، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله.

أما علمه؛ فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله؛ فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جماعه»[1].

---

(١) طريق الهجرتين (ص/ ٣٨٩).



المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

التوكل على الله سبحانه وتعالى من مقتضيات الإيمان الصادق ولوازمه، وهو من أوجب الواجبات القلبية وأفضلها، بل عده بعض العلماء نصف الدين، لأن الدين نصفه الإنابة وهي الغاية، ونصفه التوكل لأنه وسيلة إلى الغاية[1]، فإذا استعرضنا نصوص القرآن والسنة وجدنا الاهتمام الكبير من قبل الشارع بالتوكل، فتارة يأمر بإفراد التوكل على الله، وتارة يقرنه بالعبادة، وتارة أخرى يثني على المتوكلين عليه وحده دون سواه، كما يبين أيضًا الأجر الجزيل الذي أعد لهم وأنه من أوصاف المقربين له، نذكر بعض هذه الأساليب بشيء من التفصيل، محاولا الاستشهاد عليه بكلام شيخ الإسلام على ذلك.

۞ المسألة الأولى: الأمر بالتوكل وبيان أنه من لوازم الإيمان.

فالنصوص التي تأمر بالتوكل على الله كثيرة، حتى قال شيخ الإسلام رحمه الله: «التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات، كما أن الإخلاص لله واجب، وحب الله ورسوله واجب، وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة، ونهى عن التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾ [التغابن: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص/ ٤٢٥).

ﷲ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]»[(١)].

فالتوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فجعل التوكل شرطا في الإيمان، فدل ذلك على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل»[(٢)]، فلا يكون مؤمنًا بالله من لا يثق به ويفوض أمره إليه، إذ الإيمان بأن الله على كل شيء قدير، وأنه فعال لما يريد، وأنه عليم بذات الصدور، وهو نعم المولى ونعم النصير، وأنه حي لا يموت، وأنه حسب من توكل عليه وناصره ومؤيده، كل هذا مما يستدعي التوكل عليه وحده دون سواه، فكل ما سوى الله سبحانه لا يصلح أن يكون متعلق توكل المرء، لأن الجميع إلى الفناء سائر، وما يفنى لا يصلح لأن يتوكل عليه.

فالواجب على العبد أن يتوكل على الله لا على المخلوقين، فإن (المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل، بل ربه هو الذي خلقه ورزقه، وبصره وهداه، وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله... فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، ودعاءه ومسألته، دون ما سواه، ويقتضي أيضًا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه)[(٣)]، فكلما قوي إيمان العبد كان توكله أكبر، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل.

فالإيمان بالله أنه الملك المدبر، المعطي المانع، الضار النافع،

---

(١) الإيمان الكبير (ص/ ١٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص/ ٤٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧-٢٨).

الخافض الرافع، المعز المذل، كل هذه يستلزم إفراد التوكل لله رب العالمين، ومن شهد أن المعطي أو المانع، أو الضار أوالنافع، أو المعز أو المذل غيره، فقد أشرك بربوبيته.

لكن من أراد التخلص من هذا الشرك، فلينظر إلى المعطي الأول مثلا، فيشكره على ما أولاه من النعم، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافئه عليه، لكن فليعلم أن النعم من الله، وأنه هو المعطي في الحقيقة، فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها، وساقها إلى من يشاء من عباده، فالمعطي هو الذي أعطاه، وحرك قلبه لعطاء غيره، فهو الأول والآخِر.

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم، وأراح الناس من لومه وذمه إياهم، وتجرَّد التوحيد في قلبه، فقوي إيمانه، وانشرح صدره، وتنور قلبه، ومن توكل على الله فهو حسبه، ولهذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «من عرف الناس استراح»، يريد ـ والله أعلم ـ أنهم لا ينفعون ولا يضرون[1].

فالتوكل أصل من أصول العبادة التي لا يتم توحيد العبد إلا به، وقد جاء الأمر بالجمع بينهما في كثير من الآيات، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ۝٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ۝٩﴾ [المزّمل][2]، وقال المصطفى ﷺ: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت...**»[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٩٢-٩٣)، باختصار وتصرف يسير.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٦-٥٢٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢٧١)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٠٤)، في كتاب الصلاة، الدعاء في صلاة الليل وقيامه.

وبيان الجمع بين التوكل والعبادة هو؛ أن القلب فقير إلى الله من وجهين:

من جهة أن العبد لا بد أن يقصد شيئًا يريده، ويطمئن إليه، فالقلب لا يطمئن ولا يلتذ ولا يسر إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه.

ومن جهة أن العبد لا بد له من شيء يثق فيه ويعتمد عليه في نيل مطلوبه، ولا يحصل هذا للعبد إلا بالتوكل على الله والاستعانة به، ف (هو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسئول المستعان به، المتوكل عليه، فهو إلهه لا إله له غيره، وهو ربه لا رب له سواه.

ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين، فمتى كان محبًّا لغير الله لذاته، أو ملتفتا إلى غير الله أنه يعينه، كان عبدا لما أحبه، وعبدا لما رجاه، بحسب حبه له ورجائه إياه، وإذا لم يحب لذاته إلا الله، وأي شيء أحبه سواه فإنما أحبه له، ولم يرج قط شيئًا إلا الله، وإذا فعل ما فعل من الأسباب، أو حصل ما حصل منها، كان مشاهدا أن الله هو الذى خلقها وقدرها وسخرها، وأن كل من في السماوات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه وهو مفتقر إليه، كان قد حصل من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك)[1].

فالتوكل على الله داخل في عبادته، ولكنه قرنه بها لمزيد الاهتمام به، لأن العبادة لا تصح بدون التوكل على الله، كما أن التوكل لا يصح بدون عبادته وطاعته.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن التوكل إنما يصح مع القيام بما أمر به العبد ليكون عابدًا لله متوكلا عليه، وإلا فمن توكل عليه ولم يفعل ما أمر

(١) العبودية (ص/٧٨).

به، فقد يكون ما أضاعه من الأمر أولى به مما قام به من التوكل أو مثله أو دونه، كما أن من قام بأمر ولم يتوكل عليه ولم يستعن به فلم يقم بالواجب، بل قد يكون ما تركه من التوكل والاستعانة أولى به مما فعله من الأمر أو مثله أو دونه»[١].

وإذا كان الله ﷻ قد قرن بين التوكل والعبادة في أكثر من موضع في كتابه، فإن الناس في مقام التوكل والعبادة ينقسمون إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أهل عبادة وتوكل، وهذا القسم المحمود.

القسم الثاني: المعرضون عن العبادة والتوكل.

القسم الثالث: من لهم نوع عبادة بلا توكل.

القسم الرابع: من يتوكلون على الله، ولا يعبدونه[٢].

۞ المسألة الثانية: التوكل من أوصاف عباد الله المقربين وأوليائه المتقين.

جعل الله التوكل شعار المؤمنين، ومن أوصاف عباده المقربين وأوليائه المتقين، وقد أثنى الله عليهم بهذا الوصف فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢﴾ [الأنفال] ثم قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال].

صفة التوكل من أبرز صفات المؤمنين الجليلة لأن اعتماد القلب على الأسباب الظاهرة واعتقاد أنها هي المؤثرة بنفسها يخل بصحة الإيمان وسلامته، بل هو في الحقيقة يفضي إلى الشرك بالله تعالى، وهذا التوكل لا يقوم به على وجه الكمال إلا خواص المؤمنين، كما في صفة السبعين ألفا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٩١)، وانظر كذلك (١٠/ ٤٩٢).

(٢) التحفة العراقية (ص/ ٣٣٩-٣٤٥).

الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال النبي ﷺ: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»[(١)]، ففي هذا الحديث بيان لصفات المتوكلين على الله، إذ التوكل هو الجامع للخصال الأخرى، وفيه كذلك أن هؤلاء هم المصطفون الأخيار من عباده.

والتوكل سمة أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران]، هذه الآية نزلت في الصحابة رضي الله عنهم حيث حصل عليهم ما حصل في غزوة أحد، مما أصابهم من القرح والجروح والشهداء، فقيل لهم: إن أبا سفيان قد عزم على الكرة عليكم، وجمع لكم الناس، فندبهم النبي ﷺ إلى ملاقاته ومقابلته، فاستجابوا لله والرسول، متوكلين على الله موقنين به، قائلين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][(٢)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل لما توكلوا عليه بقولهم: حسبنا الله، أي كافينا الله»[(٣)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]»[(٤)].

نعم، التوكل من أوصاف الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١٣٣)، في كتاب الرقاق، باب يدخلون الجنة سبعون ألفا بغير حساب، ومسلم في صحيحه (١١٧)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٧٧) في كتاب التفسير، تفسير سورة آل عمران.

(٣) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٨٩)، ضمن جامع الرسائل.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٧٧٧)، في كتاب التفسير .

تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يُونس].

وكذلك قال عن هود لما قال لقومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هُود]، فهذا من كلام المرسلين مما يبين أنه بتوكله على الله يدفع شرهم عنه.

فنوح يقول: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يُونس: ٧١]، فدعاهم إذا استعظموا ما يفعله كارهين له أن يجتمعوا به ما يريدونه من الإهلاك، وقال تعالى: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يُونس: ٧١]، فلو لا أن تحقيقه هذه الكلمة، وهو توكله على الله، يدفع ما تحداهم به ودعاهم إليه تعجيزا لهم من مناجزته، لكان قد طلب منهم أن يهلكوه، وهذا لا يجوز، وهذا طلب تعجيز لهم، فدل على أنه بتوكله على الله يعجزهم عما تحداهم به.

وكذلك هود يشهد الله وإياهم أنه بريئ مما يشركون بالله، ثم يتحداهم ويعجزهم بقوله: ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ [هُود: ٥٥-٥٦]، بين أنه توكل على من أخذ بنواصي الأنفس وبسائر الدواب، فهو يدفعكم عني لأني متوكل عليه[(١)].

وقد مر معنا أن من أدعية النبي ﷺ: «**اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت...**»[(٢)].

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٩٦-٩٧)، ضمن جامع الرسائل.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١٢٧١)، في كتاب التوحيد، ومسلم في صحيحه (ص/ ٣٠٤)، في كتاب الصلاة، اب الدعاء في صلاة الليل و قيامه.

المسألة الثالثة: النتائج المرتبة على التوكل.

إذا كان الله جعل لكل عمل جزاء من جنسه، فقد جعل جزاء التوكل عليه الكفاية، ومن يتوكل على الله فهو حسبه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق]، ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن التوكل على الله سبب كونه حسبا له مستدلًّا بهذه الآية، وذلك من وجهين:

١ ـ إن الله رتب هذا الأجر على الوصف المناسب، وأنه علق هذه الجملة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع في مثل هذا أن يكون وجود الشرط كعدمه، فلا يقال: هو حسب غير المتوكلين كما هو حسب المتوكلين، فعلم أن توكل العبد هو سبب كونه حسبًا له.

٢ ـ إن سياق الآية في الترغيب في التوكل كما رغب في التقوى، فلو لم يحصل للمتوكل من الكفاية ما لا يحصل لغيره، لم يكن مرغبًا في التوكل، كما جعل التقوى سببًا للخروج من الشدة وحصول الرزق من حيث لا يحتسب(١).

ومن النتائج العظيمة المرتبة على التوكل هو أن الله يعصم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون من الشيطان الرجيم وتسلطه عليهم، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾ [النحل]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأخبر سبحانه أن المتوكلين على الله ليس للشيطان عليهم سلطان، وإنما سلطانه على المتولين له، والمتولي من الولاية وأصله المحبة والموافقة، كما أن العداوة أصلها البغض والمخالفة، فالمتولون له هم الذين يحبون ما يحبه

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/٨٨-٨٩)، ضمن جامع الرسائل.

الشيطان ويوافقه، فهم مشركون به حيث أطاعوه وعبدوه بامتثال أمره»[(١)]، وقال النبي ﷺ: «**من قال ـ يعني حين يخرج من بيته ـ: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان**»، وزاد أبو داود: «**فيقول ـ يعني الشيطان ـ لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي**»[(٢)].

ومما يدل على أهمية التوكل حاجة المسلم إليه حاجة شديدة وخصوصًا في قضية الرزق، فالتوكل على الله يكون سببًا في تحصيل الحظ من الرزق، قال النبي ﷺ: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدوا خماصًا وتروح بطانًا**»[(٣)]، يقول ابن رجب رحمه الله: «وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب به الرزق، قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقد قرأ النبي ﷺ هذه الآية على أبي ذر، وقال له: «**لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم**»[(٤)]، يعني: لو أنهم حققوا التقوى والتوكل، لاكتفوا بذلك في مصالح دينهم ودنياهم»[(٥)].

---

(١) قاعدة في المحبة (ص/ ١٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (ص/ ٩٢٢)، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا خرج من بيته، والترمذي في سننه (ص/ ٧٧٩)، في كتاب الدعوات، باب ما جاء ما يقول إذا خرج من بيته، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في تخريج المشكاة (٢٤٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٣٣٢)، والترمذي في سننه (ص/ ٥٢٩)، في كتاب الزهد، باب في التوكل على الله، وقال الترمذي حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وابن ماجه في سننه (ص/ ٦٩٢)، في كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، والحاكم في المستدرك (٥/ ٢٣٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي في التلخيص، وصححه الألباني في الصحيحة (٣١٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٥/ ٤٣٦)، وابن ماجه في سننه (ص/ ٧٠٠) في كتاب الزهد، باب الورع والتقى، وابن حبان في صحيحه (١٥، ٥٣)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٦٦)، وضعفه الألباني في المشكاة (٥٣٠٦).

(٥) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٧).

التوكل مقام جليل القدر عظيم الأثر، جعله الله سببًا لنيل محبته قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فهذه الآية صريحة في أن التوكل سبب يحصل به محبة الباري تبارك وتعالى، وإذا أحب الله عبدا، أحبته الملائكة كذلك، ووضع له القبول في الأرض كما قال النبي ﷺ: «**إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل؛ إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء؛ إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»(١).

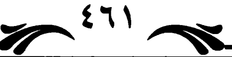
هذه بعض النتائج العاجلة المرتبة على التوكل، وأما النتائج الآجلة المرتبة عليه فهي دخول الجنة والتمتع بما فيها من النعم، والنجاة من النار وما فيها من النقم، قال تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦)﴾ [الشورى: ٣٦].

يقول الله تبارك وتعالى محقرًا شأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفاني بقوله ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦]، أي مهما حصلتم وجمعتم، فلا تغتروا بها، فإنما هو متاع الحياة الدنيا، وهي دار دنيئة زائلة لا محالة، ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [القصص: ٦٠] وما عند الله من النعيم في جناته لأهل طاعته باق غير نافذ، ثم ذكر الله لمن هذ الثواب، ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦] أي؛ جمعوا بين الإيمان الصحيح المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو وسيلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٥٣٦)، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، ومسلم في صحيحه (ص/١٠٥٧)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدا حببه إلى عباده.

(٢) انظر تفسير الطبري (٢١/ ٥٤٤)، وابن كثير (٤/ ١٤٨)، وتفسير السعدي (ص/ ٧٦٠).



المطلب الثالث

التوكل والأخذ بالأسباب

سبق أن قلنا؛ إن أصل التوكل هو: حسن الظن بالله، والاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه.

وحقيقة التوكل الشرعي: هو أن يعتمد العبد على الله سبحانه اعتمادا صادقا في مصالح دينه ودنياه مع فعل الأسباب المأذون فيها.

فالتوكل إذًا: اعتقاد، واعتماد، وعمل.

أما الاعتقاد: فهو أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، فإنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، والله سبحانه هو المعطي المانع، النافع الضار، المعز المذل.

أما الاعتماد: فهو أن يعتمد قلبه على ربه سبحانه، ويثق به غاية الثقة.

أما العمل: فهو أن يعمل الأسباب المأذون بها شرعًا[1].

إذًا، (إن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب التي قدّر الله المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك، فإن الله أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل، فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، و التوكل بالقلب عليه إيمان به، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ

---

(١) انظر: طريق الهجرتين (ص/٣٨٩)، والقول المفيد (٢/٦٦٦)، وأعمال القلوب، حقيقتها وأحكامها (١/٣٩٦).

ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجُمُعَة: ١٠])[١].

فالاعتقاد بأن الأخذ بالأسباب مناف للتوكل اعتقاد خاطئ، وذلك أن الذي أمر بالتوكل هو الذي أمر بالأخذ بالأسباب، وهو خالق الأسباب ومسببها، وقد جاء الأمر بهما جميعًا في مواضع، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فرض الله على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزمل]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ﴾ [الطلاق]، والتقوى تجمع فعل ما أمر الله به، وترك ما نهى عنه...

والمقصود أن الله لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه التي تتضمن فعل ما أمر وترك ما حذر، فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر كان ضالًا، كما أن من ظن أنه يقوم بما يرضي الله عليه دون التوكل كان ضالًّا، بل فعل العبادة التي أمر الله بها فرض...

وقد جمع الله بين عبادته والتوكل عليه في مواضع كقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، وقال شعيب: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، فإن الإنابة إلى الله والمتاب هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته وطاعة رسوله، والعبد لا يكون مطيعًا لله ورسوله فضلًا أن يكون من خواص أوليائه المتقين إلا بفعل ما أمر الله وترك ما نهى عنه، ويدخل في ذلك التوكل، وأما من ظن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال، وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قُدّر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله...

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٨).

فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله لا على سبب من الأسباب، والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة، فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله، كما يؤدي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح، ويلبس جنة الحرب، ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مُفَرِّط مذموم، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[(١)][(٢)].

كذلك إن التوكل عمل قلبي، والأخذ بالأسباب من أعمال الجوارح، فلا تعارض بينهما، بل كل منهما في موضعه، فالتوكل على الله لا بد أن يجمع فيه بين خلع الأسباب عن القلوب، وعدم الاعتماد عليها، وبين إثباتها بالجوارح وأخذها بها، وقد اختصر لنا ذلك ابن حجر فقال: «التوكل؛ هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب»[(٣)]، ولهذا قال بعض العلماء: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع».

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٦٩)، في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله.

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٦-٥٢٩)، وانظر كذلك (١٨/ ١٨٥-١٨٩).

(٣) فتح الباري (٣/ ٣٨٤).

وبيان ذلك:

- الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والإسناد إليه، وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس مستقلا، ولا بد له من شركاء وأضداد، ومع هذا كله، فإن لم يسخره مسبِّب الأسباب لم يسخر.
- ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، وهو أيضًا طعن في الشرع، لأن القرآن والحس والعقل يشهد لبعض الأمور أنها أسباب، ويعلم الفرق بين الجبهة وبين العين في اختصاص أحدهما بقوة ليست في الآخر، وبين الخبز والحصى في أن أحدهما يحصل به الغذاء دون الآخر.
- الإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، بل هو أيضًا قدح في العقل، فإن أفعال العباد من أقوى الأسباب لما نيط بها، فإن ما أمر الله من العبادات والدعوات والعلوم والأعمال من أعظم الأسباب فيما نيط بها من السعادة، وكذلك ما نهى عنه من الكفر والفسوق والعصيان هي من أعظم الأسباب لما علق بها من الشقاوة[(١)].

فالأخذ بالأسباب من لوازم التوكل على الله، ومن ترك الأسباب فهو متواكل مضيع لنفسه وليس متوكلًا، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وزعمت طائفة أن من تمام التوكل ألا يحمل الزاد (في الحج)، وقد رد الأكابر هذا القول، وبالغوا في الرد على من قال بذلك، وذكروا من الحجج عليهم ما يبين غلطهم، وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل، وأنهم عاصون لله بما

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٩-١٧٧).

يتركون من طاعته، وقد حكي لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل، كان إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع في فمه، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام، فأنكر ذلك أشد الإنكار، ومن هؤلاء من حرم المكاسب»(١).

وليس من فعَل شيئًا أمر به، وترَك ما أمر به من التوكل بأعظم ذنبا ممن فعَل توكلا أمر به وترَك فعل ما أمر به من السبب، إذ كلاهما مخل ببعض ما وجب عليه، وهما؛ مع اشتراكهما في جنس الذنب، فقد يكون هذا ألوم، و قد يكون الآخر، مع أن التوكل في الحقيقة من جملة الأسباب(٢).

مع كل هذا، ذكر لنا شيخ الإسلام بعض الضوابط التي يجب معرفتها ومراعاتها في الأخذ بالأسباب، يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه، فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب، كما جعل المطر سببًا لإنبات النبات، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ [البَقَرَة: ١٦٤]، وكما جعل الشمس والقمر سببًا لما يخلقه بهما، وكما جعل الشفاعة والدعاء سببًا لما يقضيه بذلك، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فإن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها، ويثيب عليها المصلين عليه، لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها: أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لا بد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع، لم يحصل المقصود، وهو ـ سبحانه ـ ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٨١).

الثاني: أنه لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئًا سببًا بلا علم أو يخالف الشرع، كان مبطلا، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل**».

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببًا إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره ـ وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه ـ، وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة ـ وإن ظن ذلك ـ، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول ﷺ بُعث بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة»[١].

وذكر الضابط **الرابع** في كتابه الاستقامة، فقال: «إن الأسباب: إما أن تكون مقدورة أو غير مقدورة، فغير المقدور ليس فيه إلا الدعاء والتوكل، والمقدور إما أن يكون فساده راجحا أو لا يكون، فإن كان فساده راجحا نهى عنه، وإن لم يكن فساده راجحا فينهى عنه كما ينهى عن إضاعة المال والعبث، وأما السبب المقدور النافع منفعة راجحة فهو الذي ينفع ويؤمر به ويندب اليه»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧-١٣٨).

(٢) الاستقامة (١/ ١٥٤).

إذًا، التوكل معنى يلتئم من معنى التوحيد والعقل والشرع، فالموحد المتوكل الآخذ بالأسباب، لا يلتفت إلى الأسباب؛ بمعنى أنه لا يطمئن إليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها، فإنه ليس في الوجود سبب يستقل بحكم، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم إليه، وله موانع وعوائق تمنع موجبه، وما ثم سبب مستقل بالإحداث إلا مشيءة الله وحده، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[(١)].

(١) منهاج السنة (٥/٣٦٦-٣٦٧)، بتصرف يسير.

المطلب الرابع

أقسام التوكل

من خلال كلام شيخ الإسلام نستطيع أن نقول أن التوكل حسب المتوَكل عليه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: التوكل على الله، وينقسم بحسب موضوعه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: وهو توكل الخاصة من عباد الله في حصول مستحبات وواجبات[(١)]، وهو التوكل في تجريد التوحيد والاستقامة عليه، والتمسك بدين الله علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا، وقد جعله بعض العلماء على درجتين:

الدرجة الأولى: هو توكل العبد على الله في إصلاح نفسه، دون النظر إلى غيره من الناس، إذ مهمته استقامة نفسه وهدايتها.

الدرجة الثانية: هو توكل العبد في استقامة نفسه ـ كما تقدم ـ بالإضافة، إلى إرشاد الناس إلى الخير وهدايتهم، والاهتمام بمصالح الناس ونفعهم، وإقامة دين الله في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا أفضل التوكل وأنفعه، وهو توكل الأنبياء وورثتهم، قال ابن القيم رحمه الله: «فأفضل التوكل: التوكل في الواجب أعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في

---

(١) التحفة العراقية (ص/٣٤٧).

الخارج في مصلحة دينية، أو في دفع مفسدة دينية، وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين في الأرض، وهذا توكل ورثتهم، ثم الناس بعد في التوكل على حسب هممهم ومقاصدهم»[(١)].

النوع الثاني: هو توكل العامة على الله في حصول مباحات[(٢)]، وهو التوكل على الله في تحصيل المطالب الدنيوية والحظوظ النفسية، كمن يتوكل على الله في حصول رزق أو ولد أو عافية أو غير ذلك من الحظوظ الدنيوية، وهذا تحصل له الكفاية فيما توكل عليه فيه في الدنيا دون الآخرة، إلا إذا كانت نيته الاستعانة بذلك على طاعة الله كما سبق، لكن متى توكل العبد في النوع الأول حق توكله كفاه الله النوع الثاني تمام الكفاية[(٣)].

النوع الثالث: هو توكل الظالم لنفسه على الله في حصول محرمات[(٤)]، كمن يتوكل عليه في حصول الإثم والفواحش، وهؤلاء آثمون لمخالفتهم أمر الله ورسوله وكانت عاقبتهم سيئة[(٥)].

القسم الثاني: التوكل على غير الله، وينقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من جلب منفعة أو دفع مضرة، فهذا شرك أكبر، لأن التوكل على الله من لوازم الإيمان، فصرفه لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله من الشرك الأكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين في جلب منفعة أو دفع مضرة، لأنه يعتقد أن لهؤلاء تصرفا خفيا في الكون[(٦)].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٨٥).

(٢) التحفة العراقية (ص/ ٣٤٧).

(٣) الفوائد (ص/ ١٢٤-١٢٥).

(٤) التحفة العراقية (ص/ ٣٤٧).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٦).

(٦) انظر: القول المفيد (٢/ ٦٦٨).

النوع الثاني: التوكل على حي حاضر فيما يقدر عليه من رزق أو دفع أذى، مع الشعور بعلو مرتبة المتوكل عليه وانحطاط مرتبة المتوكل، فهذا شرك أصغر لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه، ولهذا قيل الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد(١).

وأما لو اعتمد عليه على أنه سبب، وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده، فإن ذلك لا بأس به، إذا كان للمتوكل عليه أثر صحيح في حصوله(٢).

النوع الثالث: الاعتماد على الغير في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، فهذا جائز، وهو الذي يسمى بالوكالة، وقد دل على جوازه الكتاب والسنة والإجماع، ولكن لا يعتمد عليه في حصول ما وكّل فيه، بل يعتمد على الله في تيسير أمره الذي يطلبه، ولا يقول: توكلت على فلان، و إنما يقول: وكّلت فلانا(٣).

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٥٧).

(٢) شرح ثلاثة أصول، للشيخ ابن عثيمين (ص/ ٥٩).

(٣) انظر: رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٨٩)، ضمن جامع الرسائل، والقول المفيد (٢/ ٦٦٨)، وشرح ثلاثة أصول للشيخ ابن عثيمين (ص/ ٥٩)، وشرح الأصول الثلاثة للشيخ الفوزان (ص/ ١٣٨).



المطلب الخامس

ثمرات التوكل

ذكرنا فيما سبق أن من أساليب القرآن في الترغيب في التوكل ذكر النتائج المرتبة عليه، وزيادة في الأمر أذكر بعض ثمرات التوكل وفوائده التي وقفت عليها من كلام شيخ الإسلام.

فمن ثمرات التوكل كفاية الله المتوكل في جميع شؤونه، وأن من يتوكل عليه فالله كفيله كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ٨١]، وإذا كان الله أمر بالتوكل عليه، ثم قال ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ٨١] علم أن الله وكيل كاف لمن توكل عليه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فإذا كان سبحانه وصف نفسه بأنه كفى به وكيلًا، علم أنه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج إلى غيره في جلب المنافع ودفع المضار، إذا لو تبقى شر لم يكن كفى به وكيلًا»(١).

ومن ثمرات التوكل وفوائده أنه سبب تنال به نعمة الله وفضله، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾ [آل عمران]، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فعقّب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل

(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٩٢)، ضمن جامع الرسائل.

بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء على ذلك العمل»[(١)].

كذلك نصر الله يأتي بالتوكل عليه، وهذه ثمرة أخرى للتوكل، قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عِمرَان]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله، فلو كان المتوكل لا يعينه على مثل ما عزم لم يكن به عند العزم فائدة، يبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢]، فنهى عن التوكل على غيره، وأمر بالتوكل عليه يحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره»[(٢)].

وبالتوكل على الله يدفع شر أعداء المرسلين وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يُونس].

وقال تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هُود]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «والله تعالى مع رسله وأوليائه، فإذا كان بسبب الإيمان والتقوى يدفع عن المؤمنين المتقين كما

---

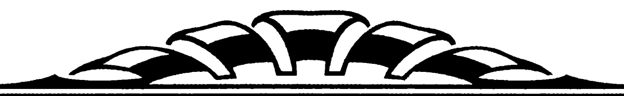
(١) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٩٠)، ضمن جامع الرسائل.

(٢) رسالة في تحقيق التوكل (١/ ٩٥).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨]، علم أن العبد تقوم به أعمال باطنة وظاهرة يجلب بها المنفعة ويدفع بها المضرة، فالتوكل من أعظم ذلك»[١].

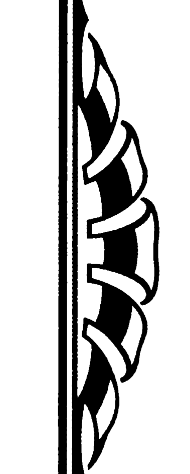
هذا ما تيسر لي جمعه، فأسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا وجميع المسلمين إلى التوكل على الله والاعتماد عليه في أمور ديننا ودنيانا وآخرتنا، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) المصدر نفسه (١/ ٩٧).



المبحث الثامن:

الصبر



وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

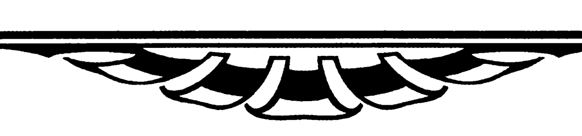
المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام الصبر.

المطلب الرابع: مراتب الصبر.

المطلب الخامس: لوازم الصبر وآدابه.

المطلب السادس: ثمرات الصبر.





المطلب الأول
التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

أصل الصبر: الحبس والمنع، وكل من حبس شيئًا فقد صبره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي؛ احبس نفسك مع هؤلاء الذين يدعون ربهم ويذكرونه، ولا تفارقهم إلى غيرهم.

والصبر: نقيض الجزع والهلع، ومنه قوله تعالى على لسان أهل النار: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، أي سواء أجزعنا أم صبرنا ما لنا من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

يقال: صبر الرجل يصبر صبرًا، فهو صابر وصبار وصبير وصبور، الأنثى صبور أيضا، بغير هاء، والجمع صُبُرٌ(١).

قال ابن فارس: «الصاد والباء والراء أصول ثلاثة: الأول الحبس، والثاني أعالي الشيء، والثالث جنس من الحجارة.

فالأول: الصبر، وهو الحبس، يقال صبرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها، قال:

فَصَبَرْتُ عارفةً لذلك حرةً ... تَرسو إذا نَفْسُ الجبانِ تَطلع(٢)

---

(١) انظر: لسان العرب (٨/ ١٩٣)، والقاموس المحيط (ص/ ٥٤١).

(٢) عزاه صاحب اللسان لعنزة (٨/ ١٩٣).

والمصبورة المحبوسة على الموت، ونهى رسول الله ﷺ عن قتل شيء من الداوب صبرا[(١)].

ومن الباب: الصبير، وهو الكفيل، إنما سمي بذلك لأنه يُصبَر على الغُرم.

وأما الثاني، فقالوا: صُبر كل شيء، أعلاه، قالوا: وأصبار الإناء؛ نواحيه، والواحد صُبر.

وأما الأصل الثالث، فالصُبرة من الحجارة: ما اشتد وغلظ، والجمع صِبار»[(٢)].

وحين تكلم ابن القيم عن معنى الصبر واشتقاق هذه اللفظة وتصريفاتها، ذكر أن الصبر قيل أن مأخوذ من الجمع والضم[(٣)].

فعند التأمل نجد أن هذه المعاني الأربعة، المنع والضم والشدة وأعلى الشيء محققة في الصبر، إذ الصبر كما سنبين هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما، فالصابر عليه أن يجمع نفسه ويضمها عن الهلع والجزع، وهذا شديد على النفس فيحتاج من العبد إلى الجهد والمثابرة، لكنه ـ الصبر ـ من أشرف المقامات وأعلاها، بل هو نصف الدين كما سنبينه لاحقا.

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

حقيقة الصبر تكمن في بيان معناه الشرعي، فلقد عرف العلماء الصبر بتعريفات عدة، يستفاد من مجموعها المعنى الشرعي له:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٩٨٢)، في كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، ومسلم في صحيحه (ص/٨١٠)، في كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم.

(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/٥٦١).

(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص/١٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٧/٢٣٣).

عرفه الجرجاني بقوله: «هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله»[١].

وقيل في تعريفه: «الصبر: هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب».

وقيل فيه: «هو: الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى»[٢].

قال ذو النون المصري: «الصبر التباعد من المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظاهر الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة»[٣].

وقال عمرو بن عثمان[٤]: «هو ثبات مع الله، وتلقي بلائه بالرحب والدعة»[٥].

وقال الغزالي: «الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة»[٦].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكاوى، وحبس الجوارح عن التشويش»[٧].

فالناظر في هذه التعريفات يرى أن منهم من قصر الصبر في عدم الجزع عند البلاء والمكاره، وجلّ تعريفات العلماء ـ التي ذكرتها، أو التي لم أذكرها ـ متجهة إلى هذا المعنى، ولهذا الصبر المطلق في غالب

---

(١) التعريفات (ص/ ١٣٤).

(٢) ذكر هذين التعريفين ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في عدة الصابرين (ص/ ٢٠)، ومدارج السالكين (١١٧/٢).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٧)، وعدة الصابرين (ص/ ١٩).

(٤) هو عمرو بن عثمان ابن كرب بن غصص، شيخ الصوفية، العالم بالأصول، أبو عبد الله المكي الزاهد، من أهل مكة، كان ينكر على الحلاج ويذمه ويلعنه، ويثبت الصفات، وينفي الحلول، توفي سنة ٢٩١هـ، انظر: حلية الأولياء (١٠/ ٢٩١)، والسير (١٤/ ٥٧).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ١١٨)، وعدة الصابرين (ص/ ٢٠).

(٦) إحياء علوم الدين (٤/ ٨١).

(٧) مدارج السالكين (٢/ ١١٦).

استعمال العلماء هو حبس النفس عن الجزع في المصائب، وأن أنواعا أخرى من الصبر تسمى بأسماء أخرى، فيسمى الصبر والثبات في المعارك شجاعة، ويسمى الصبر عن شهوة الفرج المحرمة عفة، ونحو ذلك[١].

ومنهم من يذكر الصبر عند البلاء بالإضافة إلى ترك المحرمات كما فعل ذو النون المصري، أما تعريف عمرو بن عثمان، إذا اعتبرنا أن الثبات مع لله يعني الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته، يمكن أن يقال أنه جمع أنواع الصبر الثلاثة.

تعريف الغزالي يشير إلى إخلاص هذا العمل لله، وأن مبدأه ومنتهاه إلى الدين، وأما تعريف ابن القيم فمتوجه نحو المحل الذي يكون به الصبر مع بيان صفة الصبر فيه.

ومما سبق نرى أن أقوال أهل العلم اختلفت في تحديد الصبر وتعريفه، وبيان ماهيته، لأن دائرته واسعة ومجالاته متعددة، ويمكن أن نخلص من جميعها بأن الصبر هو: خلق إسلامي فاضل يقدم به المرء على فعل الطاعات وترك المعاصي ويمنعه عند المصائب من فعل لا يحسن فعله كمسلم، وفي كل ذلك يكون غرضه ابتغاء مرضاة الله، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرّعد: ٢٢][٢].

---

(١) انظر: عدة الصابرين (ص/٢٨-٣٠).

(٢) انظر: الصبر في ضوء الكتاب والسنة (ص/٤٩)، تأليف أسماء عمر حسن فدعق.



المطلب الثاني
الأدلة من الكتاب والسنة

الصبر من أعظم خصال الخير التي حث الله عليها في كتابه العظيم، وأمر بها رسوله الكريم ﷺ في سنته المطهرة، وهو من أوجب الأعمال القلبية، بل هو نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر، ونصف شكر[١]،

فالعبد في هذه الدنيا بين مصيبة يحتاج معها إلى الصبر، وبين نعمة يقابلها بالشكر، وهو ضرورة دينية ودنيوية لازمة للإنسان كي يعيش بسلام، فدينه لا ينتصر ودنياه لا يستقيم إلا بالصبر، ومما يدل على أهميته ومكانته العظيمة أن الله سبحانه ذكر الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعًا[٢]، يذكره بصيغة الأمر والمداومة، ويقرنه بالأعمال الصالحة عمومًا وخصوصًا، ويذكر المتصفين به بالمدح والثناء عليهم تارة، ويذكر ما يترتب عليه من الجزاء الحسن والعاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة تارة أخرى.

والآن أذكر هذه الأوجه بذكر الأدلة من الكتاب والسنة، مع الجمع - ما تيسر لي - من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حولها.

◇ المسالة الأولى: أمر الله بالصبر والمداومة عليه.

إن الحوادث التي تصيب العباد بغير أفعالهم، فتارة يؤمروا بدفعها بالباطن والظاهر، كما يؤمروا بجهاد أعداء الدين.

---

(١) انظر: قاعدة في الصبر (ص/٨٩-٩٠).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

وتارة يُخيَّروا بين الأمرين بين دفعها وقبولها، وإن كان يترجح أحدُهما، كدفع الصائل عن المال، وكالتداوي أحيانا ونحو ذلك.

وتارة يؤمروا بالصبر عليها، وهو ما قضي من المصائب، كالمصائب في الأنفس والأموال والأعراض[١]، (فالمؤمن مأمور بأن يصبر على المقدور، ولذلك قال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠]، فالتقوى فعل المأمور وترك المحظور، والصبر على أذاهم، ثم إنه حيث أباح المعاقبة قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النّحل].

فأخبر أن صبره بالله، فالله هو الذي يعينه عليه، فإن الصبر على المكاره بترك الانتقام من الظالم ثقيل على الأنفس، لكن صبره بالله كما أمره أن يكون لله في قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدَّثِر: ٧]، لكن هناك ذكره في الجملة الطلبية الأمرية، لأنه مأمور أن يصبر لله لا لغيره، وهنا ذكره في الخبرية فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ﴾ [النّحل: ١٢٧]، فإن الصبر وسائر الحوادث لا تقع إلا بالله، ثم قد يكون ذلك وقد لا يكون، فما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم، ولا يقال: واصبر بالله فإن الصبر لا يكون إلا بالله لكن، يقال: استعينوا بالله واصبروا، فنستعين بالله على الصبر)[٢].

وهذا الكلام الوجيز لشيخ الإسلام يستخرج منه فوائد عدة:

الأولى: إن الصبر من واجبات الإيمان، وأنه قرين التقوى.

---

(١) قاعدة في الإخلاص لله تعالى (ص/ ١٠-١١).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٢٩).

الثانية: إن الصبر من الأعمال التي يجب أن تكون لله، وما كان لغيره فإنه لا ينفع ولا يدوم.

الثالثة: إن الصبر يحصل بالاستعانة بالله، وإلا فلا يكون.

مع أن الصبر من الأعمال التي لا تحصل إلا بالاستعانة، إلا أن الله جعل الصبر نفسه من أسباب الاستعانة يستعان به على تغلب المشاعر عند المصائب والنائبات، ففيه عون كبير على المداومة على الطاعة واجتناب المعاصي، بالإضافة إلى ما يترتب عليه من جزيل الثواب وحسن العاقبة، (ولهذا كان الصبر واجبًا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات، وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى عنه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة: ١٥٣])(١).

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأعظم عون لولي الأمر خاصة، ولغيره عامة، ثلاثة أمور:

أحدها: الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن.

الثاني: الإحسان إلى الخلق بالنفع والمال الذي هو الزكاة.

الثالث: الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب، ولهذا يجمع الله بين الصلاة والصبر كثيرًا كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٥٤).

﴿ٱلْمُحْسِنِينَ ١١٥﴾ [هُود]. ...، أما قرنه بالصلاة والزكاة فكثير جدا، فبالقيام بالصلاة والزكاة والصبر يصلح حال الراعي والرعية»(١).

أمر الله عباده بالصبر والمداومة عليه في مواطن مختلفة، ومن هذه المواطن الجهاد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البَقَرَة]، وسبق أن ذكرنا أن الصبر والثبات في المعارك يسمى شجاعة، وما وجه تسمية الصبر شجاعة، وما العلاقة بينهما، هذا ما سيبينه لنا شيخ الإسلام، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ذكر (الله) الجهاد بالنفس والمال في سبيله ومدحه في غير آية من كتابه وذلك هو الشجاعة والسماحة في طاعته سبحانه وطاعة رسوله، وملاك الشجاعة الصبر الذي يتضمن قوة القلب وثباته ولهذا قال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال]، والشجاعة ليست هي قوة البدن، فقد يكون الرجل قوي البدن ضعيف القلب، وانما هي قوة القلب وثباته، فإن القتال مداره على قوة البدن وصنعته للقتال وعلى قوة القلب وخبرته به، والمحمود منهما ما كان بعلم ومعرفة، دون التهوّر الذي لا يفكر صاحبه ولا يميز بين المحمود والمذموم، ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح، فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد.

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٦٢).

وقد تقدم أن جماع ذلك هو الصبر، فإنه لا بد منه، والصبر صبران؛ صبر عند الغضب وصبر عند المصيبة، كما قال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة**».

وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم، وهذا هوالشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم، والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب، وان كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفر عند الحزن لغور الدم عند استشعار العجز، ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال؛ قال النبي ﷺ: «**ما تعدون الرَقوب فيكم؟** قالوا: الرقوب الذي لا يولد له، قال: **ليس ذاك بالرقوب، ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدم من ولده شيئًا**، ثم قال: **ما تعدون الصرعة فيكم؟** قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، فقال: **ليس بذلك، ولكن الصرعة الذي يملك نفسه عند الغضب**»[(١)]، فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة والصبر عند الغضب»[(٢)].

فذكر شيخ الإسلام أن الشجاعة والقوة الحقيقية هو أن يملك العبد نفسه عند الغضب وعند المصيبة، وهذا هو حقيقة الصبر المأمور به، بل أفضل الصبر هو الصبر عند الصدمة الأولى كما روى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ أتى على امرأة تبكي على صبي لها، فقال لها: «**اتقي الله واصبري**»، فقالت: وما تبالي بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله ﷺ، فأخذها مثل الموت، فأتت بابه فلم تجد على بابه بوّابين،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٤٩)، في كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، والجزء الأخير منه «ليس الشديد بالصرعة..» أخرجه البخاري في صحيحه كذلك (ص/١٠٦٦)، في كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب.

(٢) الاستقامة (٢/ ٢٧٣-٢٧٦)، وانظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٥٨-١٦٠).

فقالت: يا رسول الله، لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»(١).

◇ المسألة الثانية: اقتران الصبر بالأعمال الصالحة عموماً وببعض أنواعها خصوصًا.

إن المتتبع للمواضع التي ذكر فيها الصبر يرى أن الله قد قرن الصبر بالقيم العليا في الإسلام، فقرنه بالأعمال الصالحة عموما، وقرنه ببعضها خصوصا، كما قرنه بالصلاة، وقرنه باليقين، وقرنه بالتقوى، وقرنه بالرحمة، وقرنه بالتوكل، وقرنه بالشكر وغيرها من الأعمال، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد قرن الصبر بالأعمال الصالحة عمومًا وخصوصًا فقال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس]، وفي اتباع ما أوحي إليه التقوى كلها تصديقًا لخبر الله وطاعة لأمره.

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]، فهذه مواضع قرن فيها الصلاة والصبر.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٢٠٥)، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور، ومسلم في صحيحه (ص/٣٠٩)، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى.

وقد قرن بين الرحمة والصبر في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البَلَد: ١٧]»[١].

وقد تكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران بعض هذه الأعمال بالصبر، فمثلا تكلم عن مناسبة اقتران الصبر والتقوى، فبين أن نجاح الإنسان وسعادته يتوقف على أمرين:

- في الأمور المخيرة عليه الطاعة بفعل المأمور وترك المحظور، وهذا هو التقوى.

- في الأمور التي تكون بغير اختياره عليه الصبر، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور، فالأول هو التقوى، والثاني هو الصبر، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عِمرَان: ١١٨]، إلى قوله: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥﴾ [آل عِمرَان]»، ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الناس في التقوى وهي طاعة الأمر الديني، والصبر على ما يقدر عليه من القدر الكوني أربعة أقسام:

أحدها: أهل التقوى والصبر، وهم الذين أنعم الله عليهم من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

والثاني: الذين لهم نوع من التقوى بلا صبر، مثل الذين يمتثلون ما عليهم من الصلاة ونحوها ويتركون المحرمات، لكن إذا أصيب أحدهم في

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧٧)، و (١١/ ٣٥).

بدنه بمرض ونحوه، أو في ماله أو في عرضه، أو ابتلي بعدو يخيفه عظم جزعه وظهر هلعه.

والثالث: قوم لهم نوع من الصبر بلا تقوى، مثل الفجار الذين يصبرون على ما يصيبهم في مثل أهوائهم كاللصوص والقطاع الذين يصبرون على الآلام في مثل ما يطلبونه من الغصب وأخذ الحرام. . . .

وأما **القسم الرابع**: لا يتقون إذا قدروا، ولا يصبرون إذا ابتلوا، بل هم كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج]، فهؤلاء تجدهم من أظلم الناس وأجبرهم إذا قدروا، ومن أذل الناس وأجزعهم إذا قهروا»[١].

كذلك تكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران الصبر بالشكر، وكما أسلفنا أن الصبر نصف الدين، فإن الإيمان نصفان؛ نصف صبر ونصف شكر، فالعبد في هذه الدنيا بين مصيبة يحتاج معها إلى الصبر، وبين نعمة يقابلها بالشكر، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «جعل الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بكل منزلة خيرًا منه، فهم دائمًا في نعمة من ربهم، أصابهم ما يحبون أو ما يكرهون، وجعل أقضيته وأقداره التي يقضيها لهم ويقدرها عليهم متاجر يربحون بها عليه، وطرقًا يصلون منها إليه، كما ثبت في الصحيح عن إمامهم ومتبوعهم الذين إذا دعي يوم القيامة كل أناس بإمامهم دعوا به صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، لايقضي الله لمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له**»[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٧-٦٧٤)، باختصار.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٢٠٠)، في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

فهذا الحديث يعم جميع أقضيته لعبده المؤمن وأنها خيرله إذا صبر على مكروهها وشكر لمحبوبها، بل هذا داخل في مسمى الإيمان كما قال بعض السلف: «الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر»، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]، إذا اعتبر العبد الدين كله رآه يرجع بجملته إلى الصبر والشكر...»[(١)].

وتكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران الصبر والرحمة، ووجه ذلك أن للعبد حقوقا، منها ما يتعلق بالخالق، ومنها ما يتعلق بالمخلوق، فالذي جاء بالصبر عند المصيبة فقد أدى حق الله عليه عند المصائب، وهو أن يتقبل ما جاء من قضاء الله بالصبر والرضا، والذي جاء بالرحمة عند المصيبة قد أتى بحق المخلوقين الذين يشركونه في المصيبة وذلك برحمته إياهم وإحسانه إليهم، قال شيخ الإسلام: «وبهذا يعرف معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لما بكى على الميت وقال: «**إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[(٢)]، وأن هذا ليس كبكاء من يبكي على فوات حظه لرحمة الميت، وقد قيل: إن الفضيل بن عياض[(٣)] لما مات ابنه ضحك، وقال: رأيت أن الله تعالى قد قضى بقضاء، فأحببت أن أرضى بما رضي الله به[(٤)]، ويحكى أن رجلًا عزى الحسن بن علي في ولد له مات، وأطنب في مدحه ووصف شمائله، فقال له الحسن: «**إذا أحب الله ما تكره فيمن نحب رضينا**»، فهذه الحالة حال حسن بالنسبة إلى أهل الجزع، وأما

---

(١) قاعدة في الصبر (ص/ ٨٠-٩٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٥٨)، في كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت.

(٣) هو أبو عبد الله الفضيل بن عياض التميمي، الإمام الزاهد المشهور، أصله من خرسان، وسكن مكة، ثقة عابد، توفي سنة ١٨٧ هـ، انظر: تقريب التهذيب (٢/ ١٥).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٠٠).

رحمة الميت مع الرضاء بالقضاء وحمد الله تعالى كحال النبي صلى الله عليه وسلم فهذا أكمل، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ [البَلَد: ١٧]، فذكر ﷻ التواصي بالصبر والمرحمة.

والناس (في الصبر والرحمة) أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزه، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس»[(١)].

كذلك تكلم شيخ الإسلام عن مناسبة اقتران الصبر باليقين، ووجه الاقتران بينهما أن الصبر هو العمل بمقتضى اليقين، لأن الإيمان يطلق على التصديق والأعمال جميعًا، فيكون له ركنان، أحدهما يمثل المعرفة والتصديق وأعلاه اليقين، والآخر يمثل الحركة والعمل، وهو الصبر، فالمتيقن أن المعاصي ضارة والطاعات نافعة، لا يمكن ترك المعاصي والمواظبة على الطاعات إلا بالصبر[(٢)]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجعل الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السَّجدَة]، فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بد فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر كما قال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقواما يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم**»، فجعل البحث عن العلم من الجهاد ولا بد في الجهاد من الصبر، ولهذا قال

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٦٩-٣٧١)، وانظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٧٧).

(٢) انظر: الصبر في القرآن، مفتاح الفرج وعدة الفلاح (ص/ ١٣)، تأليف أ.د سيد محمد ساداتي الشنقيطي.

تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العَصر].

فالعلم النافع هو أصل الهدى، والعمل بالحق هو الرشاد، وضد الأول الضلال، وضد الثاني الغي، فالضلال العمل بغير علم، والغي اتباع الهوى، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النّجم]، فلا ينال الهدى إلا بالعلم، ولا ينال الرشاد إلا بالصبر، ولهذا قال علي: «**ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا انقطع الرأس بان الجسد ـ ثم رفع صوته ـ فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له**»[1]»[2].

المسألة الثالثة: فضل الصبر ومدح الصابرين.

لما كان الصبر خلقا كريما ومعلما رفيعا في الدين كان التحلي به من أعظم الدلالات على كمال الخلق، ولذلك قال النبي ﷺ: «**من يستعفِفْ يعفَّهُ الله، ومن يستغن يغنِهِ الله، ومن يصبر يصبّرْهُ الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر**»[3]، لأن بالصبر يتمكن المرء من المداومة على الطاعات في اليسر والعسر والمنشط والمكره، وبه يستعين على مجانبة المعاصي مهما كانت المغريات كثيرة وكثيفة، وبه يحتمي من الوقوع في الجزع والتسخط واليأس والقنوط، فالصبر مفتاح كل خيرات الدنيا والآخرة، ومفتاح السعادة والنجاح والفلاح في الدنيا والآخرة[4].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ص/ ٨٣)، واللالكائي في شرح السنة (٤/ ٩٢٤)، والبيهقي في الشعب (١/ ١٤٧).

(٢) التحفة العراقية (ص/ ٣٥٤-٣٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٣٣٩)، في كتاب الزكاة، باب الاستعفاف عن المسالة، ومسلم في صحيحه (ص/ ٤٠٤)، في كتاب الزكاة، باب فضل التعفف والصبر.

(٤) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٣٠٠).

فالصبر ضياء(١) كما أخبر الصادق المصدوق، ينور طريق العبد إلى ربه، ويحرق الشهوات المانعة من الوصول إلى محبوبه، فهو خلق كريم، وعمل من أفضل الأعمال يعطي الله عليه ما لا يعطي على غيره، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

ولما كان الله الصبور الشكور خص بالصبر عددا من أوليائه وأثنى عليهم به، قال تعالى في مدح أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

ومدح المتصفين به، فقال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (١٧٧)﴾ [البقرة]، بين الله في هذه الآية الخصال الإيمانية التي تستوجب لأصحابها المدح، وذكر من هذه الخصال الصبر في البأساء والضراء وحين البأس، أي في الأحوال الشديدة، كحال الفقر المعبر عنه بالبأساء، وحال المرض والأسقام المعبر عنه بالضراء، وحال الحرب والقتال وهو المعبر عنه بالصبر حين البأس(٢).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذه الآية عظيمة جليلة القدر من أعظم آي القرآن وأجمعه لأمر الدين. . .، وقد دلت على أمور:

أحدها: أنه أخبر أن الفاعلين لهذه الأمور هم المتقون، وعامة هذه الأمور فعل مأمور به.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١١٩)، في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٧٣).

والثاني: أنه أخبر أن هذه الأمور هي البر وأهلها هم الصادقون يعني في قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾»[(١)].

وقد جعل الله الإمامة في الدين موروثة عن الصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٤]، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالصبر واليقين بهما تنال الإمامة في الدين»[(٢)]، وهذا لا شك أنه مدح وثناء على المتصفين بالصبر.

كذلك من أفضل الأعمال الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فُصّلَت]، وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العَصر]، فمن شروط الداعي إلى الله والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر هو الصبر على ما يواجهه أثناء دعوته وأمره ونهيه، والصبر في هذه الحالة من أفضل الأمور[(٣)]، بل هو من عزم الأمور، قال تعالى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمَان]، فلا يعزم المرء عليه إلا أنه من أجل الأمور وأشرفها، بل لا يقوم به على وجه الكمال إلا أولو العزم من الرسل، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قصة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم صلوات الله عليهم فتلك أعظم، والواقع فيها من الجانبين، فما فعلته الأنبياء

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٥/ ١٦٧-١٦٨).

من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته ودينه، وإظهار آياته وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، ومجاهدة المكذبين لهم، والصبر على أذاهم هو أعظم عند الله، ولهذا كانوا أفضل من يوسف صلوات الله عليهم أجمعين، وما صبروا عليه وعنه أعظم من الذي صبر يوسف عليه وعنه، وعبادتهم لله وطاعتهم وتقواهم وصبرهم بما فعلوه أعظم من طاعة يوسف وعبادته وتقواه، أولئك أولو العزم الذين خصهم الله بالذكر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم يوم القيامة الذين تطلب منهم الأمم الشفاعة، وبهم أمر خاتم الرسل أن يقتدي في الصبر فقيل له: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥]»[١].

ونستخلص من هذه النصوص أن الصبر من أوجب الأعمال القلبية، بل هو نصف الدين، وهو مفتاح كل خير، وباب كل السعادة، وقد أثنى الله على المتصفين به وبين أنهم من أعلى الناس منزلة في الدنيا والأخرة.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١-٣٢).



المطلب الثالث

أقسام الصبر

ينقسم الصبر إلى عدة أقسام باعتبارات مختلفة، فينقسم باعتبار محله إلى قسمين:

القسم الأول: الصبر البدني، وهو ما يتعلق بالجوارح، وقد يكون اختياريا، كتعاطي الأعمال الشاقة على البدن اختيارا وبدنا، وقد يكون اضطراريًّا، كالصبر على ألم الضرب والمرض والبرد والحر وغير ذلك.

القسم الثاني: الصبر النفسي، وهو ما يتعلق بالقلب، وهو أيضًا قد يكون اختياريا، كصبر النفس على فعل ما لا يحسن فعله شرعا ولا عقلا، وقد يكون اضطراريًّا، كصبر النفس على محبوبها قهرا، إذا حيل بينها وبينه(١).

والصبر الاختياري من القسمين أعلى وأكمل من الاضطراري، لأن ذلك هو المتعلق بفعل العبد الذي يأتيه باختياره طلبًا لمرضاة الله وثوابه، وأما النوع الاضطراري منهما فإن العبد مضطر إلى فعله، وهو مشترك بين جميع الناس، فإن العبد إذا أصيب بمصيبة من المصائب التي لا حول ولا قوة في دفعها، فإنه إما أن يصبر ابتداء لكي يثيبه الله سبحانه على هذا الصبر، وإما أن يجزع ويشتكي ويسخط، وهذا لا ينفعه شيئًا ولا يرد المقدور، وهو في النهاية سيتحمل شاء أم أبى، فإن عاد إليه صوابه وتدارك

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/ ٢٦٧)، وعدة الصابرين (ص/ ٣٥)، ولم أقف على كلام لشيخ الإسلام يقسم الصبر بهذا التقسيم.

الموقف وأناب إلى الله، وتاب من التشكي والجزع، فهناك يحمد، أما إذا تمادى في غيه حتى وصل إلى حيث لم يعد الجزع والتسخط ينفعه فصبره حينئذ صبر اضطراري[١].

وينقسم الصبر باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله ﷻ، أي؛ الصبر على الطاعة حتى يفعلها، فإن العبد لا يكاد يفعل المأمور به إلا بعد صبرٍ ومصابرة ومجاهدة لعدوه الباطن والظاهر، فبحسب هذا الصبر يكون أداؤه للمأمورات وفعله للمستحبات.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله ﷻ، أي؛ الصبر عن المنهي عنه حتى لا يفعله، فإن النفس ودواعيها، وتزيين الشيطان، وقرناء السوء تأمره بالمعصية وتجرئه عليها، فبحسب قوة صبره يكون تركه لها، قال بعض السلف: أعمال البر يفعلها البر والفاجر، ولا يقدر على ترك المعاصي إلا صديق[٢][٣].

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى، أي؛ الصبر على ما يصيبه بغير اختياره من المصائب، وهي نوعان:

النوع الأول: هو ما يصيب الخلق بما لا اختيار لهم فيه، كالأمراض وغيرها من المصائب السماوية، فهذه يسهل الصبر فيها، لأن العبد يشهد

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٢٩٠-٢٩١)، وانظر: عدة الصابرين (ص/ ٥٩) و(ص/ ٩٤ ـ ٩٥).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٠ /١٩٧) بإسناده عن سهل بن عبدالله التستري ضمن كلام له طويل بلفظ «ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى الله عنه صار حبيب الله، ولا يجتنب الآثام إلا صديق مقرب، وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر»، (المحقق).

(٣) قاعدة في الصبر (ص/ ٩٠ ـ ٩١).

فيها قضاء الله وقدره، وإنه لا مدخل للناس فيها، فيصبر إما اضطرارا، وإما اختيارا، فإن فتح الله على قلبه باب الفكرة في فوائدها وما في حشوها[(١)] من النعم والألطاف[(٢)] انتقل من الصبر عليها إلى الشكر لها، والرضا بها، فانقلبت حينئذ في حقه نعمة[(٣)].

النوع الثاني: هو أن يحصل له مكروه بفعل الناس في ماله أو عرضه أو نفسه، وهو بالاختيار أن ينتقم ويأخذ حقه منهم أو يصبر ويعفو، فهذا النوع يصعب الصبر عليه جدًا، لأن النفس تستشعر المؤذي لها، وهي تكره الغلبة، فتطلب الانتقام، فلا يصبر على هذا النوع إلا الأنبياء والصديقون، وهذا النوع من الصبر عاقبته النصر والعز والسرور والأمن والقوة في ذات الله، وزيادة محبة الله ومحبة الناس له وزيادة العلم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، فإذا انضاف إلى هذا الصبر قوة اليقين والإيمان ترقى العبد في درجات السعادة بفضل الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[(٤)].

وذكر شيخ الإسلام أن الناس في الانتصار لله ولنفسه أربعة أقسام:

القسم الأول: من ينتصر لنفسه ولربه، وهو الذي يكون فيه دين وغضب.

القسم الثاني: من لا ينتصر لا لنفسه ولا لربه، و هو الذي فيه جهل وضعف دين.

---

(١) معنى الحشى: الناحية، والمقصود نواحيها أو داخلها. انظر: لسان العرب مادة (حشا) (١٣٥/٤)، (المحقق).

(٢) اللطيف من الكلام: ما غمض معناه وخفي، واللطف في العمل: الرفق فيه. انظر: لسان العرب مادة (لطف) (١٣/ ٢٠٢)، (المحقق).

(٣) قاعدة في الصبر (ص/ ٩١ ـ ٩٢)، باختصار.

(٤) قاعدة في الصبر (ص/ ٩٢ ـ ٩٣)، باختصار وتصرف يسير.

القسم الثالث: من ينتقم لنفسه لا لربه، وهم شر الأقسام.

القسم الرابع: من ينتصر لحق الله، ويعفو عن حقه، وهذا هو الكامل من الناس[(١)].

وقد ذكر شيخ الإسلام عشرين سببًا تعين العبد على هذا النوع من الصبر، و لن أذكرها كلها خشية الإطالة، ولكن سأورد أهمها في نظري:

الأول: أن يشهد أن الله ﷻ خالق أفعال العباد حركاتهم وسكناتهم وإراداتهم، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة إلا بإذنه ومشيءته، فانظر إلى الذي سلطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، تستريح من الهم والغم والحزن.

الثاني: أن يشهد العبد ذنوبه، وأن الله إنما سلطهم عليه بذنبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى]، فإذا شهد العبد أن جميع ما يناله من المكروه فسببه ذنوبه، اشتغل بالتوبة والاستغفار من الذنوب التي سلطهم عليه[(٢)] عن ذمهم ولومهم والوقيعة فيهم، وإذا رأيت العبد يقع في الناس إذا آذوه ولا يرجع إلى نفسه باللوم والاستغفار فاعلم أن مصيبته مصيبة حقيقية، وإذا تاب واستغفر، وقال: هذا بذنوبي صارت في حقه نعمة.

الثالث - وهي من أعظم الفوائد -: أن يشهد أن الجزاء من جنس العمل، وأنه نفسه ظالم مذنب، وأن من عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن غفر غفر الله له، فإذا شهد أن عفوه عنهم وصفحه وإحسانه مع إساءتهم إليه، سبب لأن يجزيه الله كذلك من جنس عمله فيعفو عنه ويصفح ويحسن إليه على ذنوبه، ويسهل عليه عفوه وصبره ويكفي العاقل هذه الفائدة.

---

(١) مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦٩).

(٢) هكذا في الأصل، ولعل الصواب (التي سلطه عليه)، (المحقق).

الرابع: أن انتقامه واستيفاءه وانتصاره لنفسه وانتقامه لها خلاف ما عليه رسول الله ﷺ، فإنه ما انتقم لنفسه قط(١)، فإذا كان هذا خير خلق الله وأكرمهم على الله لم يكن ينتقم لنفسه مع أن أذاه أذًى لله ويتعلق به حقوق الدين، ونفسه أشرف الأنفس، وأزكاها، وأبرها وأبعدها من كل خُلقٍ مذموم، وأحقها بكل خُلقٍ جميل، ومع هذا فلم يكن ينتقم لَها، فكيف ينتقم أحدنا لنفسه التي هو أعلم بها وبما فيها من العيوب والشرور، بل الرجل العارف لا تساوي نفسه عنده أن ينتقم لها، ولا قدر لها عنده يوجب عليه انتصاره لها.

الخامس: أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفع عنه أحد من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦].

السادس: أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل(٢) من إيمانه جزءًا في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص، والله تعالى يدفع عن الذين آمنوا.

السابع: أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصره الله خير الناصرين، إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (ص/٥٩٧)، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، وصحيح مسلم (ص/٩٥١)، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام.

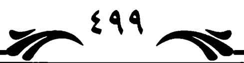
(٢) هكذا في الأصل ولعل الصواب (يبذل). (المحقق).

الثامن: أن هذه المظلمة التي قد ظُلمها هي سبب، إما لتكفير سيئة، أو رفع درجة، فإذا انتقم ولم يصبر لم تكن مكفرة لسيئته ولا رافعة لدرجته.

التاسع: أنه إذا عفا وصفح كانت هذه حسنة، فتولد له حسنة أخرى، وتلك الأخرى تولد أخرى، وهلم جرا، فلا تزال حسناته في مزيد، فإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، كما أن من عقاب السيئة السيئة بعدها، وربما كان هذا سببًا لنجاته وسعادته الأبدية، فإذا انتقم وانتصر زال ذلك(١).

---

(١) قاعدة في الصبر (ص/ ٩٤-١٠٣)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣٠/ ٣٦١-٣٧١) تكلم عن هذ النوع من الصبر بكلام نفيس.





المطلب الرابع
مراتب الصبر

سبق أن قلنا أن الصبر ينقسم باعتبار متعلقه إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصبر على طاعة الله ﷻ.

القسم الثاني: الصبر عن محارم الله ﷻ.

القسم الثالث: الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى.

لكنه مراتب، فالصبر على طاعة الله أعلى منزلة من الصبر عن المعاصي، والصبر عن المعاصي أعلى منزلة من الصبر على الأقدار.

فالصبر على الواجبات أعلى أنوع الصبر(١)، لأن جنس فعل الواجبات أعلى درجة عند الله من جنس ترك المحرمات، كذلك إن جنس ترك

---

(١) هذا هو الراجح إن شاء الله، وقد رجحه شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم رحمهم الله، لكن في المسألة خلاف، فمن نظر إلى المخالفات والمعاصي، وأن الصبر عليها مخالفة لهوى النفس، وهذا أمر شاق وصعب لا يقوى عليه إلا صديق، رجحوا أن الصبر على المخالفات أفضل، ومن نظر إلى أن مصلحة فعل الطاعات أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكره من مفسدة وجود المعاصي رجحوا أن الصبر على فعل المأمور أفضل وأجل من الصبر على المحظور، وقد فصل الكلام في ذلك ابن القيم في عدة الصابرين (ص/٦٣-٧٦)، وقد ذكر عشرين وجهًا في ترجيح هذا القول، وأيضًا في كتابه الفوائد (ص/١٧١-١٨٤)، رجح هذا القول، وذكر له ثلاثة وعشرين وجهًا، وذكر الخلاف في طريق الهجرتين (ص/٤١٤-٤١٥)، ثم قال: «وفصل النزاع في ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية، فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد مثلا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى وصوم يوم تطوعا ونحوه».

الواجبات أعظم من جنس فعل المحرمات، إذ قد يدخل في ذلك ترك الإيمان والتوحيد، ومن أتى بالإيمان والتوحيد لم يخلد في النار ولو فعل ما فعل، ومن لم يأت بالإيمان والتوحيد كان مخلدًا ولو كانت ذنوبه من جهة الأفعال قليلة[(١)].

كذلك الصبر على المحرمات أعلى منزلة من الصبر على المصائب[(٢)]، لأن هذا الصبر والذي قبله يكونان باختياره، بخلاف ما يصيب العبد من المصائب التي لا خيار له فيها، وليس له إلا كف النفس والصبر.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد أوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرًا اختياريًّا، فإنه إنما يؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان ذلك أعظم من صبر يوسف، لأن يوسف طلب منه الفاحشة وإنما عقب إذا لم يفعل بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوه طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون من عوقب به الحبس، فإن المشركين حبسوه وبني هاشم بالشعب مدة، ثم لما مات أبو طالب اشتدوا عليه، فلما بايعت الأنصار وعرفوا بذلك صاروا يقصدون منعه من الخروج

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٦٧١).

(٢) يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها: أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختياره لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها حيلة غير الصبر، وأما صبره عن المعصية: فصبر اختيار ورضى ومحاربة للنفس، ولا سيما مع الأسباب التي تقوى معها دواعي الموافقة، فإنه كان شابًا، وداعية الشباب إليها قوية، وعزبًا ليس له ما يعوضه ويرد شهوته، وغريبًا والغريب لا يستحي في بلد غربته مما يستحي منه من بين أصحابه ومعارفه وأهله، ومملوكًا والمملوك أيضًا ليس وازعه كوازع الحر، والمرأة جميلة وذات منصب وهي سيدته وقد غاب الرقيب، وهي الداعية له إلى نفسها والحريصة على ذلك أشد الحرص، ومع ذلك توعدته إن لم يفعل: بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها: صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله وأين هذا من صبره في الجب على ما ليس من كسبه؟»، مدارج السالكين (٢/ ١١٦ ـ ١١٧).

ويحبسونه هو وأصحابه عن ذلك ولم يكن أحد يهاجر إلا سرًّا، إلا عمر بن الخطاب ونحوه، فكانوا قد ألجؤوهم إلى الخروج من ديارهم ومع هذا منعوا من منعوه منهم عن ذلك وحبسوه.

فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة لله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد من جنس حبس يوسف، لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم درجة ـ وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه وتكفر عنه الذنوب بمصائبه ـ فإن هذا أصيب وأوذي باختياره طاعة لله يثاب على نفس المصائب ويكتب له بها عمل صالح، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠].

بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد، كالمرض وموت العزيز عليه وأخذ اللصوص ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة، لكن المصيبة يكفر بها خطاياه، فإن الثواب إنما يكون على الأعمال الاختيارية وما يتولد عنها»(١).

إذا، الصبر على المحرمات أفضل من الصبر على المصائب، كما أن الصبر على ترك المحرمات مع القدرة عليها وطلب النفس لها أفضل من تركها بدون ذلك، فإن النفس تميل إلى الرئاسة والمال وفعل الفاحشة، وإن كان قادرا على فعلها والحصول عليها، ومع ذلك تركها لله، هذا أفضل من الذي يصبر في شيء لا يشتهيه ولا تميل النفس إليه، أو تميل النفس إليه ولكنه غير قادر على حصوله.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٢-١٢٤).

كذلك إذا طلب النفس شيئًا من هذه الأمور وهو قائم بأمر ديني، كالخروج إلى الصلاة، أو طلب العلم، أو الجهاد، فصبر على ما تميل إليه النفس في هذا الحالة، فهو أعظم أجرا من الذي ابتلي بما تميل إليه النفس بدون عمل صالح.

كذلك من ابتلي بمرض أو فاقة وهو في أمر ديني، كالجهاد مثلا وصبر، هو أفضل ممن ابتلي بشيء منها وهو مقيم في بلده[1].

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٧٦-٥٦٨).



المطلب الخامس

لوازم الصبر وآدابه

إذا أمعنا النظر في القرآن والسنة وكتب العلماء وجدنا أن الله ورسوله قد وضعا ضوابط ولوازم وآداب للأعمال حتى تقع من العباد على وجه الكمال، وكذلك هو شأن الصبر.

ومن خلال استعراض نصوص الكتاب والستة نجد أن للصبر لوازم وآدابا تجعله مفيدا دنيا وأخرى، ومن هذه اللوازم والآداب:

١ ـ التحلي بالصبر عند الصدمة الأولى.

٢ ـ الاسترجاع على حلول المصيبة.

٣ ـ تجنب ما يضاد الصبر من التشكي وإظهار الجزع والفزع[(١)].

الأمر الأول: التحلي بالصبر عند الصدمة الأولى.

وهذ الأمر مستنبط من حديث المرأة التي أمرها الرسول ﷺ بالصبر فلم تأتمر، ثم لما علمت أن الآمر كان رسول الله ﷺ جاءت إليه معلنة صبرها، فعندئذ قال لها النبي ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[(٢)]، فأوضح لها الرسول أن الصبر الذي يؤجر عليه صاحبه ويحمد فاعله هو الصبر والثبات عند أول شيء يهجم على القلب من مقتضيات الجزع، وإلا بعد أيام لا بد منه والرجل يسلو[(٣)]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «من لم يصبر

---

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (٢-٢٧٠).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: فتح الباري (٣/ ١٥٠).

عليها (المصائب) صبر الكرام سلا سلو البهائم»[١]، لكن إذا لم يصبر عند الصدمة الأولى، ولكنه أيضًا لم يستمر في حالة الجزع والتسخط، بل تدارك الأمر وأناب إلى الله وتاب، فهو إن شاء الله مأجور كذلك.

الأمر الثاني: الاسترجاع عند حلول المصيبة.

الاسترجاع هو قول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، وهو دليل على صبر صاحبه عند حلول المصيبة، و (قد شرع (الله) الاسترجاع عند المصيبة بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مسلم يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها**»[٢][٣].

بين الله أن الصابرين الذين بشرهم بهذه الأمور هم الذين عند المصيبة يسلون بقولهم ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، ويعلمون أن أرحم الراحمين تصرف بمماليكه وأموالهم، ويعلمون أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة[٤]، قال القرطبي: «جعل الله تعالى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب، وعصمة للممتحَنين، لما جمعت من المعاني المباركة، فإن قوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٦] توحيد وإقرار بالعبودية والملك، وقوله ﴿وَإِنَّآ إِلَيْهِ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٢٢).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/٣٥٦)، في كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٥١١) بتصرف يسير، وانظر (٢٥/ ٣٠٨).
(٤) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٩)، وتفسير السعدي (ص/٧٦).

رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالهُلْك على أنفسنا، والبعث من قبورنا، واليقين أن رجوع الأمر كله إليه كما هو له»[١].

وأوضح النبي ﷺ أن من استرجع عند المصيبة آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرا منها.

ولا شك أن الاسترجاع من كمال الصبر على المصائب، وهو الدليل على صدق صاحبه في الصبر ورضاه بقدر الله وقضائه، كما أنه عامل مهم من عوامل الاستفادة دنيا وأخرى.

الأمر الثالث: **تجنب ما يضاد الصبر.**

سبق أن قلنا أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما، فمِن الأمور التي تنافي الصبر وتضاده هو التشكي بلسان الحال والقال، والجزع والتسخط المتمثلان في عدة أمور، أشهرها لطم الخدود وشق الجيوب والنياحة.

أ ـ التشكي، فالتشكي إلى المخلوق مناف للصبر، لأنه شكوى في غيره محله، وهو شكوى الخالق إلى المخلوق، وشكوى الرحيم إلى من لا يرحم[٢]، أما الشكوى إلى الله فذلك غير مناف للصبر، قال شيخ الإسلام: «الصبر الجميل؛ صبر بلا شكوى قال يعقوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] مع قوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، فالشكوى إلى الله لا تنافي الصبر الجميل...، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقرأ في صلاة الفجر: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ٤٦٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٢٠)، وعدة الصابرين (ص/ ٥٢٣).

﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ويبكي حتى يسمع نشيجه من آخر الصفوف[(١)]، بخلاف الشكوى إلى المخلوق، قرئ على الإمام أحمد في مرض موته أن طاوسًا كره أنين المريض، وقال: «إنه شكوى»، فما أنّ حتى مات[(٢)].

وذلك أن المشتكي طالب بلسان الحال إما إزالة ما يضره، أو حصول ما ينفعه، والعبد مأمور أن يسأل ربه دون خلقه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشَّرح]، وقال ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله**»[(٣)].

ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور وترك المحظور، وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور، فالأول هو التقوى والثاني هو الصبر»[(٤)].

فالشكوى ينقسم إلى قسمين:

الأول: شكوى إلى الخالق سبحانه، وهذا لا ينافي الصبر الجميل.

الثاني: الشكوى إلى المخلوق، وهذه نوعان أيضًا:

١ ـ شكوى محرمة منافية للصبر، وهي التي تكون على سبيل التسخط للقدر والتضجر، وهو كما أسلفنا هو شكوى الخالق إلى المخلوق، وشكوى الرحيم إلى من لا يرحم[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ٢٢٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢/ ١١١)، والبيهقي في الشعب (٣/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٩/ ١٨٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٩)، والترمذي في السنن (ص/ ٥٦٧)، في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وصحح الحديث الشيخ الألباني في ظلال الجنة (ص/ ١٥٠-١٥٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٦-٦٦٧)، باختصار.

(٥) وقد ذم السلف هذا النوع من التشكي كثيرا، قال علي ﷺ: «من إجلال الله ومعرفة حقه أن =

٢ ـ شكوى مباحة، وذلك إن خلا من تسخط للقدر وتضجر، إنما يكون من باب الإخبار طلبا للاستعانة أو الانتفاع.

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله، فإن هذا هو الصبر الجميل، وأما الكتمان فيراد به شيئان:

أحدهما: أن يكتم بثه وألمه ولا يشكو إلى غير الله، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره وهذا أعلى الكتمانين، لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد، بل كثير من الناس يشكو ما به، وهذا على وجهين:

ـ فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتي وهذا حسن، وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام،

ـ وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة، كما أن المصاب يشتكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على معصية، فهذا ينقص صبره، لكن لا يأثم مطلقًا، إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط»[1].

ب ـ **إظهار الجزع والفزع**، وذلك كما أسلفنا تكون بعدة أمور، منها النياحة عند المصيبة، وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها، قال النبي

= لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك»، وقال شقيق البلخي: «من شكا مصيبة به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبدا»، انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص/ ٢٧١).

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٠٨)، وانظر: عدة الصابرين (ص/ ٥٢٣).

وقد ذكر شيخ الإسلام المراد الثاني من الكتمان أيضا، أذكره هنا للفائدة، وإلا ليس له علاقة بما نحن فيه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والثاني: أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس، لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهت وتمنت وتتيمت، والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعيا له إلى الفعل...»، مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٠٨).

صلى الله عليه وسلم: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»[(١)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[(٢)].

فهذه الأمور عند المصيبة تنافي الصبر عند الصدمة الأولى، بل تنافي الصبر كله، لأن صاحبها لا يسلو إلا إذا عجز ورأى أن الجزع لا يفيده شيئًا، ولا يرد له ما فقد.

وهي منافية لكمال الإيمان بقضاء الله وقدره، وأن المصيبة بإذن الله، وأن الله أتم الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد، فالنادب الجازع حاله مشعر بأن ما أصابه من المصيبة لم تكن من الحكمة أن تصاب بها، أو أن هذا الشخص الذي توفي كان الأولى أن لا يموت الآن[(٣)].

قال الشيخ سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب رحمهم الله جميعًا: «وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، لأنها مشتملة على التسخط على الرب وعدم الصبر الواجب، والإضرار بالنفس من لطم الوجه، وإتلاف المال بشق الثياب وتمزيقها، وذكر الميت بما ليس فيه، والدعاء بالويل والثبور، والتظلم من اللّه تعالى، وبدون هذا يثبت التحريم الشديد، فأما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٣٦٢)، في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٢٠٧)، في كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، ومسلم في صحيحه (ص/ ٦٧)، في كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود.

(٣) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٣١٠).

الكلمات اليسيرة إذا كانت صدقًا لا على وجه النوح والتسخط فلا تحرم، ولا تنافي الصبر الواجب، نص عليه أحمد لما رواه في مسنده عن عائشة: «أن أبا بكر رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ بعد وفاته فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه وقال: وانبياه واخليلاه واصفياه»[١]. وكذلك صح عن فاطمة رضي الله عنها أنها ندبت أباها ﷺ فقالت: «يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه»[٢]، الحديث»[٣].

فالصبر الجميل هو الذي لا يكون فيه التشكي إلى الخلق، ويكون خاليا من جميع مظاهر الجزع والسخط والفزع، اللهم إلا البكاء الذي ليست فيه ندبة ولا نياحة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لم يؤمر بالحزن المنافي للرضاء قط، مع أنه لا فائدة فيه فقد يكون مضرة، ولكنه يعفى عنه إذا لم يقترن به ما يكرهه الله، لكن البكاء على الميت على وجه الرحمة له حسن مستحب، وذلك لا ينافي الرضا، بخلاف البكاء عليه لفوات الحظ منه، ويهذا يعرف معنى قول النبي ﷺ لما بكى على الميت وقال: «**إن هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**»[٤][٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٠/ ٣٢)، وحسنه المحقق.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ٧٥٨)، في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ و وفاته .

(٣) تيسير العزيز الحميد (ص/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) التحفة العراقية (ص/ ٣٦٩).

المطلب السادس

ثمرات الصبر

فإن الصبر آخية المؤمن التي يجول حولها، وساقُ إيمانه التي لا اعتماد له إلا عليها، فلا إيمان لمن لا صبر له[(١)].

وقد جعل الله الصبر جوادًا لا يكبو، وصارمًا لا ينبو، وجندًا غالبًا لا يهزم، وحصنًا حصينًا لا يهدم ولا يثلم، فهو والنصر أخوان شقيقان[(٢)]، قال النبي ﷺ: «**واعلم أن النصر مع الصبر**»[(٣)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البَقَرَة: ١٥٣]، فإن من معاني المعية الخاصة هو النصر ـ المرتب على الصبر ـ، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عِمرَان]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٠][(٤)].

كما أن الصبر سبب للحصول على محبة الله ﷻ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦].

وجعل الله الإمامة في الدين موروثة عن الصبر و اليقين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤﴾ [السَّجدَة][(٥)].

---

(١) عدة الصابرين (ص/٨-٩).

(٢) المصدر نفسه (ص/٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/١٩)، والحاكم في المستدرك (٤/٢٦١)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/٣٥١)، وصحح الحديث الشيخ الألباني في ظلال الجنة (ص/١٥١).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١١/٣٤).

(٥) التحفة العراقية (ص/٣٥٤).

ولما كان ذكر ثمرات العمل وفوائده سببًا ودافعا إلى العمل نجد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ حين تكلم عن النوع الثاني من الصبر على الأقدار والمصائب، وذلك إذا كانت المضرة والمصيبة حاصلة من قبل الناس، شجع المصاب على العفو والتجاوز بذكر بعض ثمرات الصبر، فمن تلك الثمرات:

- أن يشهد معية الله معه إذا صبر، ومحبة الله له ورضاه، ومن كان الله معه دفع عنه من أنواع الأذى والمضرات ما لا يدفع عنه أحد من خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٦].

- أن يشهد أن الصبر نصف الإيمان، فلا يبدل[١] من إيمانه جزءًا في نصرة نفسه، فإن صبر فقد أحرز إيمانه وصانه من النقص والله تعالى يدفع عن الذين آمنوا.

- أن يعلم أنه إن صبر فالله ناصره ولابد، فإن الله وكيل من صبر وأحال ظالمه عليه، ومن انتصر بنفسه لنفسه وكله الله إلى نفسه، فكان هو الناصر لها، فأين من ناصره الله خير الناصرين، إلى من ناصره نفسه أعجز الناصرين وأضعفه[٢].

هذه بعض ثمرات الصبر في الدنيا، أما في الأخرة قال تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ١١١﴾ [المؤمنون]، ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ١٢﴾ [الإنسان]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ [الفرقان].

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان في الصبر من حبس النفس

(١) هكذا في الأصل ولعل الصواب (يبذل)، (المحقق).

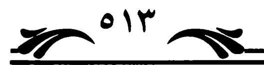
(٢) انظر: قاعدة في الصبر (ص/٩٤-١٠٣).

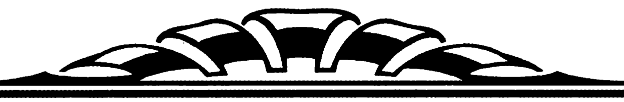
والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه، كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة والحرير الذي فيه اللين والنعومة والاتكاء الذي يتضمن الراحة والظلال المنافية للحر»[١].

هذا ما تيسر لي جمعه، أسأل الله تعالى أن يخلقنا بخلق الصبر، كما أسأله سبحانه أن يسلك بنا سبيل الصابرين وأن يجعلنا منهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان (١/ ٧٣)، ضمن جامع الرسائل.





المبحث التاسع:

الرضا

وفيه خمسة مطالب:

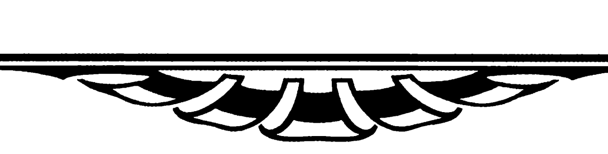
المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: متعلقات الرضا.

المطلب الثالث: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الرابع: أقسام الرضا.

المطلب الخامس: ثمرات الرضا.



المطلب الأول

التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

الرضا: مصدر رضي يرضى رِضا ورِضوانا، ويُضَمَّان، ومَرضاة وهو ضد السخط، ويتعدى بعن وبالباء، فيقال: رضيت عنه ورضيت به، كما يتعدى عند بعض العرب بعلى، فيقولون: رضيت عليه، بمعنى رضيت عنه، وعلى هذا جاء قول الشاعر(١):

إذا رَضِيَتْ علي بنو قشير ... لَعَمْرُ اللهِ أَعْجَبَني رِضاها

ويتعدى الرضا بنفسه أيضا، رضيت الشيء، فالرضا حنيئذ بمعنى الاختيار، وارتضيت الشيء: اخترته،

وراضيت فلانا: وافقته(٢).

قال ابن فارس: «الراء والضاد والحرف المعتل أصل واحد يدل على خلاف السخط، تقول: رضي يرضى رضى، وهو راض، ومفعوله مرضي عنه، ويقال إن أصله الواو، لأنه يقال منه رضوان»(٣).

---

(١) انظر: الصحاح للجوهري (٦/ ٣١٤)، ولسان العرب (٦/ ١٦٩)، وقد نسب ابن منظور البيت للقُحيف العُقيلي.

(٢) انظر: المصباح المنير (ص/ ١٩١)، والقاموس المحيط (ص/ ١٦٦٢)، ولسان العرب (٦/ ١٦٨-١٦٩).

(٣) معجم مقاييس اللغة (ص/ ٣٨٦).

المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

عرف العلماء الرضا بتعريفات متعددة، ترجع بمجموعها إلى أن الرضا هو أن يشعر العبد بالارتياح والطمأنينة لما يختاره الله له من الأمور الكونية والشرعية، مع التسليم التام وعدم الحرج والسخط.

قال الجرجاني: «الرضا: سرور القلب بمر القضاء»[(١)].

وقال ابن العربي[(٢)]: «الرضاء سكون النفس إلى القدر والقضاء»[(٣)].

وقيل: «الرضا سكون القلب وطمأنينته إلى قدم اختيار الله للعبد بأنه اختار له الأفضل فيرضى به»[(٤)].

وقيل: «نظر القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، وترك السخط».

وقيل: «ارتفاع الجزع في أي حكم كان»[(٥)].

فالناظر في هذه التعريفات يلاحظ أنها مركزة نحو تعريف نوع واحد من أنواع الرضا، وهو الرضا بالقضاء، كما نلاحظ في بعضها مداخلة بين الصبر والرضا، إذ في كلا الحالتين يوجد المؤلم، لكن الصبر هو ترك إظهار الجزع والتشكي، أما الرضا بالإضافة إلى ما سبق فهو انشراح الصدر والسعة والطمأنينة بما يؤدي إلى تخفيف المؤلم، أو عدم الإحساس بالألم

---

(١) التعريفات (ص/ ١١٤).

(٢) هو محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الإشبيلي المالكي، أبو بكر بن العربي، قاض، من حفاظ الحديث، ولد سنة ٤٦٨هـ في إشبيلية، ورحل إلى إلى المشرق، وولي قضاء إشبيلية، صنف كتبا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتأريخ، فمن مؤلفاته: العواصم من القواصم، وعارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وأحكام القرآن، والقبس في شرح موطأ مالك ابن أنس وغيرها، توفي سنة ٥٤٣ هـ، انظر: الأعلام (٦/ ٢٣٠)، ووفيات الأعيان (٤/ ٢٩٦).

(٣) عارضة الأحوذي (٢/ ٢٦٥).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٣٠)، ولوامع الأنوار (١/ ٣٥٩).

(٥) ذكرهما ابن القيم في مدارج السالكين (٢/ ١٣٢).

بالكلية، وهذا في الحقيقة هو الفرق بين الصبر والرضا كما بينه ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذ قال: «والفرق بين الرضا والصبر: أن الصبر؛ كف النفس وحبسها عن التسخط مع وجود الألم، وتمني زوال ذلك، وكف الجوارح عن العمل بمقتضى الجزع، والرضا؛ انشراح الصدر وسعته بالقضاء، وترك تمني زوال ذلك المؤلم، وإن وجد الإحساس بالمؤلم، لكن الرضا يخففه لما يباشر القلب من روح اليقين والمعرفة، وإذا قوي الرضا، فقد يزيل الإحساس بالألم بالكلية»[١].

فالرضا إذًا عمل قلبي، إذا تحقق به المؤمن استطاع أن يَتلقَّى نوائب الدهر وأنواع الكوارث بإيمان راسخ، ونفس مطمئنة، وقلب ساكن، بل قد يترقى إلى أرفع من ذلك فيشعر بالسرور والفرحة بمر القضاء، وذلك نتيجة ما تحقق به من المعرفة بالله تعالى، والحبِّ الصادق له سبحانه.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٤٨٨).



المطلب الثاني
متعلقات الرضا

إن الرضى الثابت بالنص هو أن يرضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، قال ﷺ: **«ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»**(١)(٢).

وقال النبي ﷺ: **«من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربا، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام دينًا، غفر له ذنبه»**(٣).

فإن الرضا بالله يعني الرضا بربوبية الله الذي يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن].

والرضا بالإسلام دينا يقتضي اختياره على سائر الأديان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

والرضا بمحمد ﷺ يقتضي الرضا بجميع ما جاء من عند الله، وقبول

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٦٦)، في كتاب الصلاة، باب استحباب قول مثل قول المؤذن.

ذلك بالتسليم والانشراح، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة][1].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي، وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه وألوهيته، والرضى برسوله والانقياد له، والرضى بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصديق حقا. وهي سهلة بالدعوى واللسان وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك: تبين أن الرضى كان لسانه به ناطقا، فهو على لسانه لا على حاله.

فالرضى بإلهيته: يتضمن الرضى بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فعَل الراضي بمحبوبه كل الرضى وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به، والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١١٨).

وأما الرضى بنبيه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه...

وأما الرضى بدينه: فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى: رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مقلده وشيخه وطائفته»[1].

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٢٨-١٢٩).

المطلب الثالث

الأدلة من الكتاب والسنة

الرضا من صفات الله الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه]، وقال النبي ﷺ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**»[١].

وقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثبات الرضا لله، فيجب إثباته له من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف لا تمثيل، وهو رضا حقيقي يليق بالله تعالى ليس كرضا المخلوقين[٢].

فالرضا أمر متبادل بين الرب وبين العبد، كما قال تعالى عن الصادقين: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال عن قوم يؤمنون بالله واليوم الأخر الذين لا يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [البيّنة: ٨]، وقال عن الذين آمنوا وعملوا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٠٩٤)، في كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب.

(٢) انظر: شرح لمعة الاعتقاد (ص/٥٣)، للشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

الصالحات: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ١٠٩﴾ [طه].

ونحن في هذا المقام بصدد البحث في رضا الناس الذي هو من أجل أعمال القلوب وأشرفها، وقد أجمع العلماء على مشروعيته، واختلفوا في وجوبه واستحبابه في مواضع، وقد جاء في القرآن والسنة بيان أهمية الرضا، ومدح الراضين والثواب المرتب على من اتصف بهذا الخلق العظيم، كما ذم الذين استعملوه في غير موضعه، وبيان ذلك كالتالي:

المسألة الأولى: النصوص الواردة في بيان أهمية الرضا.

كما أسلفنا في مبحث متعلقات الرضا، بينا أن من الرضا بالله ربا؛ الرضا بربوبيته وإلهيته، قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤]، يقول ابن القيم عقب ذكره لهذه الآيات: «وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل، رأيتها هي نفس الرضى بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا . . .، فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا ولا يبغي ربًّا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا، بل يوالي من دونه أولياء ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك، وهذا عين الشرك، بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء، والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا يتحاكم إليه ويخاصم إليه ويرضى بحكمه وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا ولا إلهًا ولا غيره حكمًا»[١].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٥)، باختصار.

فكما ترى ففي هذا الآيات لم يذكر لفظ الرضا مع أن معناه هو المقصود، وذلك ببيان أن الله متفرد بالربوبية، وأنه رب كل شيء، وأنه فطر السموات والأرض، وأنه يطعم ولا يطعم، كل هذا يستلزم إفراد الخالق بالعبودية التي من أجلها خلق الخليقة، ومن تبين هذا تعيّن عليه أن يتخذ الرب إلها ويرضى به، ولا يتعلق بأحد من المربوبين العاجزين.

ثم إن الرضا كما سيأتينا ينقسم إلى ثلاثة أقسام، منها الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه، وهذا الرضا بالقضاء الديني الشرعي، وقد تكلم عن هذا النوع شيخ الإسلام كثيرًا وذكر الأدلة عليه من الكتاب والسنة، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الرضا بما أمر الله به فأصله واجب، وهو من الإيمان، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»، وهو من توابع المحبة كما سنذكره إن شاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة]»[(١)].

فبين ﷺ في هذا الحديث أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا.

ففي الآية الأولى دليل على أنه يجب على المسلمين أن يحكموا رسول الله في كل ما شجر بينهم، وأنه لا يكون الرجل مؤمنًا حتى يقر بما جاء به النبي ﷺ وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله،

---

(١) التحفة العراقية (ص/ ٣٥٧-٣٥٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٠).

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وشريعته فقد أقسم الله بنفسه المقدسة؛ أنه لا يؤمن حتى يرضى بحكم رسول الله ﷺ في جميع ما يشجر بينهم من أمور الدين والدنيا وحتى لا يبقى في قلوبهم حرج من حكمه، ودلائل القرآن على هذا الأصل كثيرة»(١).

أما الآية الثانية فتتحدث عن المنافقين الذين جلّ همّهم منصب على حطام هذه الدنيا الفانية، فإن هم نالوا من هذا الحطام شيئًا رضوا، وإلا فهم ساخطون، وقد وجّههم المولى عَزَّوَجَلَّ إلى ما هو خير لهم من هذا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩] أي لو أنهم رضوا بما قسم الله لهم من الرزق، وبما هو حظهم من الغنائم والعطايا التي يعطونها من قبل رسول الله ﷺ وقالوا: حسبنا الله الذي تكفل بأرزاق عباده، ووعد من توكل عليه واعتمد عليه بالرزق، وتعهد عباده المخلصين له بالفضل، وانتظروا تحقيق هذا الوعد، لو فعلوا ذلك لكان خيرا لهم، وهذا هو الجواب المحذوف الذي يدل عليه السياق(٢).

فهذه النصوص تبين أهمية الرضا، وأنه من أهم أعمال القلوب، بل هي تدل على وجوب الرضا بالله ربًّا وإفراده بالإلهية، والرضا بما قسم وبما قضى وقدر، ويدخل في ذلك الرضا بأحكامه الشرعية، والرضا بنبوة النبي ﷺ.

◇ المسألة الثانية: المدح والثناء على المتصفين بالرضا.

تقدم معنا أن الرضا أمر متبادل بين الرب وبين العبد، فقد رضي الله

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٤٧١)، وانظر (٥/ ١٥٥).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٨)، وتفسير أبي سعود (٤/ ٧٥)، وانظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٣٢١).

عن المؤمنين المتقين ورضوا عنه، ولما رضوا ما يرضى وسخطوا ما يسخط، كان الحقُ يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ ذلك متلازم بين طرفين[(١)].

وكان شيخ الإسلام حين يتكلم عن الرضا بالمصائب، كالفقر والمرض والذل، كان يحكي خلاف العلماء في استحبابه ووجوبه، ويرجح الاستحباب لأمرين:

- لعدم وجود الدليل على وجوب الرضا في هذه الحال.
- أنه لم يأتي في القرآن إلا مدح الراضين والثناء عليهم[(٢)].

نعم، إذا رجعنا إلى القرآن والسنة لم نجد دليلًا صريحًا صحيحًا في وجوب الرضا عند المصائب، لكننا نجد المدح والثناء العظيم عليهم، والنصوص في ذلك كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البيّنة]، نعت الله الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح بأنهم خير البرية، وأعد لهم من الجزاء جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، وزيادة على ذلك الجزاء وعدهم رضوانه عنهم حيث أطاعوا أمره وقبلوا شرائعه ورضوا عنه، وذلك لمن خشي ربه[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝١٠٠﴾ [التوبة]،

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧٤).
(٢) انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٥٧).
(٣) انظر: فتح البيان (١٥/ ٣٣٦-٣٣٨)، لمحمد صديق حسن خان.

ففي هذه الآية يخبر الله عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم والنعيم المقيم[(١)]، يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «فكل من أخبر الله عنه أنه رضي عنه، فإنه من أهل الجنة وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح عليه... وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر]»[(٢)]، ولما فرغ سبحانه من حكاية أحوال الأشقياء في الآيات قبلها، ذكر بعض أحوال السعداء ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾﴾ [الفجر] الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق، الراضية بقضاء الله ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر] ارجعي راضية عن الله، وعن ما أكرمها من الثواب، والله قد رضي عنها ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر] أي ادخلي في زمرة عبادي الصالحين، وادخلي معهم في جنتي»[(٣)].

وقال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**»، فإن من الأمور التي بها يذاق طعم الإيمان هو الرضا بهذه الثلاثة، وهذا يبين فضل هذا العمل وأهميته في حياة المسلم.

وقال ﷺ: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»[(٤)]، ففيه إيضاح بأن الرضا بما قسم الله للعبد هو رأس الغنى، وأن صاحبه أغنى الناس، وهذا لا شك أنه مدح للراضين بما قسم الله لهم من الأرزاق.

---

(١) تفيسر ابن كثير (٢/ ٥٠٢).

(٢) الصارم المسلول (٣/ ١٠٦٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٥٨)، وفتح البيان (١٥/ ٢٣٢-٢٣٣)، لمحمد صديق حسن خان، وتفسير السعدي (ص/ ٩٢٤).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (ص/ ٥٢١)، في كتاب الزهد، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/ ٤٥٨)، وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٣٠).

۞ المسألة الثالثة: النصوص التي وردت في ذم الذين استعملوا الرضا في غير موضعه.

إن الرضا شعبة من شعب الإيمان، لا يتم إيمان المرء إلا به، ولك أن ترضى بالله ربًّا ومعبودًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وبذلك يذوق المرء طعم الإيمان.

ولكن، نجد من الناس من يخل بهذه العبادة، بحيث لا يكون رضاه لله، بل يرضى بالحياة الدنيا الفانية وببعض حظوظها ويغفل عن الآخرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾ [التوبة]، ففي هذه الآية إنكار وتوبيخ على الذين يتثاقلون عند داعي الجهاد، وتنبيه أن هذا التثاقل هو دليل على رضاهم بالحياة الدنيا بدل الآخرة، مع أن الحياة الدنيا إزاء الآخرة لا تساوي شيئًا، بل هي قليلة الفائدة والأهمية[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس]، أما هذه الآية ففيها إخبار أن من اتصف بهذه الصفات ـ ومنها الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، والغفلة عن الآخرة ـ أن مصيرهم إلى النار، وأن مأواهم جهنم، وذلك بسبب الكفر والشرك وأنواع المعاصي[(٢)].

فالرضا بالحياة الدنيا والتعلق بها وببعض حظوظها، لا شك أنه خلل في الإيمان، بل هو نوع من أنواع الشرك الخفي، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/ ٢٥١)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٤٧٠)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٢٠٦)، وتفسير السعدي (ص/ ٣٣٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٢٥)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٣)، وتفسير القرطبي (١٠/ ٤٥٧)، وتفسير السعدي (ص/ ٣٥٨).

«ولهذا كان الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إذا أعطي رضي وإذا منع سخط**»[١].

فسماه النبي ﷺ عبد الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاءً وخبرا، وهو قوله: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**». والنقش إخراج الشوكة من الرجل، والمنقاش ما يخرج به الشوكة.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه، ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وصف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإن منع سخط كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة]، فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة، أو بصورة، ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ولهذا يقال:

العبد حر ما قنع　　　والحر عبد ما طمع»[٢]

ومما سبق تبين أن الرضا يجب أن يكون بالله وبما قسم لنا من هذه الدنيا، كما تبين أنه لا يجوز لنا أن نتعلق بالدنيا ومتاعها ونركن إليها ونرضى بها، لأن ذلك صرف شيء من العبودية لغير الله، بل يكون الرضا بالله غاية يسعى إليها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/١١١٧)، في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال.

(٢) العبودية (ص/٥٩-٦١)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/٥٩٧-٥٩٨).

المطلب الرابع
أقسام الرضا

بالنظر إلى كلام شيخ الإسلام نجد أنه يقسم الرضا إلى ثلاثة أنواع أحيانا[١]، أو يقسمه إلى نوعين، إلى الرضا المحمود، والرضا المذموم، ثم الرضا المحمود يقسم إلى قسمين[٢].

النوع الأول: هو الرضا بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، وهو الرضا بالقضاء الديني الشرعي، وهو من توابع المحبة، وهو من الرضا المحمود، قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً ونبيًا**»، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤] فهذا الرضا واجب، وعدم الرضا له من صفات المنافقين الذين ذمهم الله في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة].

---

(١) انظر: التحفة العراقية (ص/٣٥٦-٣٥٩)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ٤٨٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٨٢-٦٨٣).

النوع الثاني: هو الرضا بما يفعله الرب بعبده من المصائب التي يبتليه بها، كالفقر والمرض والذل، وهو الرضا بالقضاء الكوني القدري، وهو من الرضا المحمود أيضا، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقد اختلف أهل العلم في حكم هذا النوع من الرضا على قولين:

- أنه واجب[(١)].

---

(١) الذين قالوا بالوجوب، احتجوا ببعض الأدلة، قد ذكرها ابن القيم في مدارج السالكين (١٣٩/٢-١٤٠)، فأذكر هنا كلام ابن القيم باختصار، قال رحمه الله: «وأوجبته (الرضا بالمصائب) طائفة كما أوجبوا الرضى به، واحتجوا بحجج:

- **منها**: أنه إذا لم يكن راضيا عن ربه فهو ساخط عليه، إذ لا واسطة بين الرضى والسخط، وسخط العبد على ربه مناف لرضاه به ربا.

الرد عليهم: هذاكلام مدخول، لأن السخط بالمقضي لا يستلزم السخط على من قضاه، فالمقضي قد يسخطه العبد وهو راض عمن قضاه وقدره، بل قد يجتمع تسخطه والرضى بنفس القضاء كما سيأتي إن شاء الله (قلت: وذلك في الرضا بالمنهيات، كما سنبينه).

- **قالوا**: وأيضًا فعدم رضاه عنه يستلزم سوء ظنه به، ومنازعته له في اختياره لعبده، وأن الرب تبارك وتعالى يختار شيئًا ويرضاه، فلا يختاره العبد ولا يرضاه، وهذا مناف للعبودية.

الرد عليهم: قولهم؛ «إنه يستلزم سوء ظن العبد بربه ومنازعته له في اختياره» فليس كذلك، بل هو حسن الظن بربه في الحالتين، فإنه إنما يسخط المقدور وينازعه بمقدور آخر، كما ينازع القدر الذي يكرهه ربه بالقدر الذي يحبه ويرضاه، فينازع قدر الله بقدر الله، كما يستعيذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، ويستعيذ به منه.

فأما كونه: «يختار لنفسه خلاف ما يختاره الرب» فهذا موضع تفصيل، لا يسحب عليه ذيل النفي والإثبات، فاختيار الرب تعالى لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه ورضاه بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا. =

ـ أنه مستحب، وذلك أن الإيجاب يستلزم دليلا شرعيا، ولا دليل يدل على وجوب الرضا بالمصائب، وهذا هو الذي رجحه شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن رجب رحمهم الله[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولهذا لم يتنازع العلماء أن الرضا بما أمر الله به ورسوله واجب محبب، لا يجوز كراهة ذلك وسخطه، وأن محبة ذلك واجبة، بحيث يبغض ما أبغضه الله، ويسخط ما أسخطه الله من المحظور، ويحب ما أحبه ويرضى ما رضيه الله من المأمور.

وإنما تنازعوا في الرضا بما يقدره الحق من الألم بالمرض والفقر، فقيل هو واجب، وقيل هو مستحب، وهو أرجح، والقولان في أصحاب الإمام أحمد وغيرهم، وأما الصبر على ذلك فلا نزاع أنه واجب»[2].

وقال رحمه الله: «ولهذا لم يجئ في القرآن إلا مدح الراضين، لا إيجاب ذلك»[3].

قال الحسن البصري رحمه الله: «الرضا عزيز، لكن الصبر معول المؤمن»[4].

النوع الثالث: الرضا بالمنهيات كالكفر والفسوق والعصيان، فالذي عليه أئمة الدين والعلماء المعتبرون أنه لا يشرع الرضا بها، كما لا تشرع

= **النوع الثاني**: اختيار كوني قدري، لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلى الله بها عبده، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

ـ قالوا: وفي بعض الآثار الإلهية من لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلائي فليتخذ ربا سواي، ولا حجة في شيء من ذلك، انظر: مدارج السالكين (٢/١٣٩-١٤٠).

(١) جامع العلوم والحكم (١/٤٨٨).

(٢) قاعدة في المحبة (ص/٢٦٨-٢٦٩).

(٣) التحفة العراقية (ص/٣٥٧).

(٤) المصدر نفسه (ص/٣٥٦).

محبتها، فإن الله سبحانه لا يحبها ولا يرضاها، وإن قدرها وقضاها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾ [النساء]، بل يسخطها، كما قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٨].

فإذا كان الله لا يرضى لهم ما عملوه بل يسخطه، وهو يسخط عليهم ويغضب عليهم، فكيف يشرع للمؤمن أن يرضى ذلك، وألا يسخطه ويغضب لما يسخط الله ويغضبه[(١)].

وقالت طائفة: ترضى من جهة كونه مضافة إلى الله خلقا، وتسخط من جهة كونها مضافة إلى العبد فعلًا وكسبًا، وهذا القول لا ينافي الذي قبله، بل هما يعودان إلى أصل واحد، وهو سبحانه إنما قدر الأشياء وكونها لحكمة، فهي لاعتبار تلك الحكمة محبوبة مرضية، وقد تكون في نفسها مكروهة ومسخوطة، إذ الشيء الواحد يجتمع فيه وصفان: يحب من أحدهما، و يكره من الآخر، كما في الحديث الصحيح: «ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، ولا بد له منه»[(٢)(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٨٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/ ١١٢٧)، في كتاب الرقاق، باب باب التواضع.
(٣) التحفة العراقية (ص/ ٣٥٩-٣٦٠).

المطلب الخامس

ثمرات الرضا

سبق أن قلنا أن الرضا من أجل الأعمال القلبية، ولا يتم إيمان المرء إلا به، وفي هذا المطلب سأذكر بعض الفضائل والثمرات للرضا، وذلك بما يتيسر لي من كلام شيخ الإسلام رحمه الله، فأقول:

إن من أسباب الرضا بالقضا هو اليقين والثقة بأن الله لا يقضي للمؤمن قضاء إلا وهو خير له، يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «الحمد على الضراء يوجبه مشهدان:

أحدهما: علم العبد بأن الله سبحانه وتعالى مستوجب لذلك، مستحق له لنفسه، فإنه أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل شيء، وهو العليم الحكيم الخبير الرحيم.

والثاني: علمه أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له**»[(١)][(٢)].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ١٢٠٠)، في كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير.

(٢) التحفة العراقية (ص/ ٣٦٣)، ثم أورد شيخ الإسلام أشكالا، كيف يجمع بين هذا وبين ما يقضى على المؤمن من المعاصي، فذكر جوابين على هذا الإشكال:

الأول: أن هذا إنما يتناول ما أصاب العبد، لا ما فعله العبد، (والمعاصي من فعل العبد).

الثاني: أن هذا في حق الصبار الشكور، فمن ليس كذلك لا يلزم أن يكون القضاء في حقه كله خير، انظر: التحفة العراقية (ص/ ٣٦٤-٣٦٥).

فإذا كان المؤمن يعلم أن القضاء خير له، إذا كان صبارا شكورا، أو كان قد استخار الله تعالى، وعلم أن من سعادة ابن آدم استخارته لله ورضاه بما قسم الله له، كان قد رضي بما هو خير له، و جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[(١)][(٢)].

يفهم من كلام شيخ الإسلام أن من سعادة العبد هو الرضا بالله وبما قسم له، فالرضا ينزل على العبد سكينة لا تتنزل عليه بغيره، فالرضا يؤدي إلى طمأنينة القلب وسكونه وقراره، وذلك إذا علم العبد أن ما يختاره الله له خير من اختياره لنفسه فيصبر على ما قضى الله له وقدر، ويرضى بذلك، هذا لا شك أنه ثمرة عظيمة للرضا، وكل هذا بسبب أن من تحلى بالرضا قد ذاق طعم الإيمان،كما قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً**».

ثم إن الرضا يثمر رضا الرب عن العبد، وهذا زيادة على سعادته وطمأنينته، وهو من طعم العبودية والإيمان، ومن المقرر أن الجزاء من جنس العمل، فإن الله يرضى عن الذين يرضون به ربا، ويعبدونه ولا يعبدون من سواه، وينقادون لدينه ويستسلمون، ويتبعون نبيه ويطيعونه، قال تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المجادلة: ٢٢]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «عباد الله المؤمنين وأولياءه المتقين، فهؤلاء يحبهم ويحبونه، ويوافقونه فيما يحبه ويرضاه ويأمر به، فقد رضي الله عنهم ورضوا عنه.

---

(١) أخرجه الترمذي في سنن (ص/٥٤٠)، في كتاب الزهد، باب ما جاء في الصبر على البلاء، وأخرجه ابن ماجه في سننه (ص/٦٦٦)، في كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، وصحح الحديث الألباني في الصحيحة (٩٣٦).

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٦٧).

ولما رضوا ما يرضى وسخطوا ما يسخط، كان الحق يرضى لرضاهم ويغضب لغضبهم، إذ ذلك متلازم من الطرفين»(١).

ثم من رضي الله عنه، فإن الله يأذن أن يُشفع له يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

كذلك الرضا سبب لغفران الذنوب، قال النبي ﷺ: «**من قال حين يسمع النداء: رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً، غفرت له ذنوبه**»(٢).

بل، الرضا سبب لشيء فوق ذلك، ألا و هو دخول العبد الراضي الجنة، قال النبي ﷺ: «**يا أبا سعيد: من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة**»(٣).

والخلاصة، أن الرضا يثمر نفسا مطمئنة وحياة طيبة، وهو حسن ظن العبد بربه، وبه يحصل المرء على رضوان الله، وبه تكون النجاة من النار، والفوز بالجنة.

فأسأل الله العظيم، رب العرش الكريم أن يمنّ علينا بأن نرضى بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/١٦٦)، في كتاب الصلاة، باب استحباب قول مثل قول المؤذن.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٧٨٤)، في كتاب الإمارة، باب ما أعد الله للمجاهد في الجنة من الدرجات.





المبحث العاشر:
اليقين

وفيه خمسة مطالب:

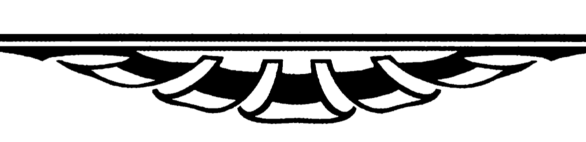
المطلب الأول: التعريف اللغوي والشرعي.

المطلب الثاني: الأدلة من الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: أقسام اليقين.

المطلب الرابع: درجات اليقين.

المطلب الخامس: ثمرات اليقين.



المطلب الأول
التعريف اللغوي والشرعي

المسألة الأولى: التعريف اللغوي.

إن اليقين في اللغة: هو العلم وإزاحة الشك وتحقيق الأمر[١].

قال ابن فارس: «يَقَنٌ، الياء والقاف والنون: اليَقَن واليقين؛ زوال الشك، يقال: يَقِنْت، واسْتَيْقَنْت، وأيْقَنْت»[٢].

وقال الفيروز آبادي: «يقن الأمر، يقنا، وأيقنه، وبه، وتيقنه، واستيقنه، وبه؛ علمه وتحقق به، واليقين إزاحة الشك، و(يطلق على) الموت»[٣].

وقال الجوهري: «اليقين: العلم وزوال الشك يقال؛ منه يقنت الأمر يقنا واستيقنت، وأيقنت، وتيقنت، كله بمعنى واحد، أنا على يقين منه...، وربما عبروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين، قال الشاعر:

تَحَسَّبَ هَوّاسٌ، وَأَيْقَنَ أَنَّنِي ... بِهَا مُفْتَدٍ مِنْ وَاحِدٍ لا أُغامِرُه

يقول، تشمم الأسد ناقتي، يظن أنني أفتدي بها منه، وأستحيي نفسي فأتركها له، ولا أقتحم المهالك لمقاتلته»[٤].

---

(١) لسان العرب (١٦/ ٣٢١).
(٢) معجم مقاييس اللغة (ص/ ١٠٧١).
(٣) القاموس المحيط (ص/ ١٦٠١)، باختصار.
(٤) الصحاح (٦/ ١١٢).

وقال الراغب: «اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتها، يقال؛ علم يقين، ولا يقال؛ معرفة يقين، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم»(١).

فنخلص مما سبق أن اليقين في اللغة يطلق على العلم الذي هو نقيض الجهل والشك، كما يطلق أحيانا على الظن والموت، فهذه هي أربع إطلاقات لليقين، ولكنها راجعة إلى معنى العلم، أو نوع من أنواعه(٢).

❂ المسألة الثانية: التعريف الشرعي.

اختلفت عبارات العلماء في تعريف اليقين، إلا أن مضمونها أنه استقرار العلم مع طمأنينة القلب الذي لا يتطرق إليه شك أو احتمال.

قال الجنيد: «اليقين: استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب»(٣).

وعرفه المبرد(٤): «اليقين هو الاعتقاد الجازم»(٥).

وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اليقين هو طمأنينة القلب واستقرار العلم فيه، وضده الريب»(٦).

---

(١) المفردات (ص/ ٨٩٢).

(٢) انظر: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٢٣٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٤).

(٤) هو جمال الدين يوسف بن حسن بن أحمد بن عبد الهادي الشهير بابن المبرد الصالحي الحنبلي، علامة متفنن، من فقهاء الحنابلة، من أهل الصالحية بدمشق، له مصنفات كثيرة منها: مغني ذوي الافهام عن الكتب الكثيرة في الاحكام، والدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي وغيرها، انظر: شذرات الذهب (١٠/ ٦٢)، والأعلام (٨/ ٢٢٥).

(٥) الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي (١/ ١٠٠).

(٦) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٩).

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اليقين هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل»[١].

والملاحظ على التعريفات السابق ذكرها، أنه لا يوجد اختلاف بين المعنى اللغوي وبين المعنى الشرعي لليقين، إلا أن اليقين في اللغة يتعلق بكل أمر يتوقع فيه شك، أو وقع فيه الشك فعلا، أما في الشرع فيتعلق بالأمور الإيمانية التي يجب فيها اليقين ولا يقبل فيها التردد.

ثم هذا اليقين ينتظم منه أمران: أحدهما: علم القلب، والثاني: عمل القلب، كما فصل ذلك شيخ الإسلام، إذا يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن العبد قد يعلم علما جازما بأمر، ومع هذا فيكون في قلبه حركة واختلاج من العمل الذي يقتضيه ذلك العلم، كعلم العبد أن الله رب كل شيء ومليكه، ولا خالق غيره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فهذا قد تصحبه الطمأنينة إلى الله والتوكل عليه، وقد لا يصحبه العمل بذلك، إما لغفلة القلب عن هذا العلم، والغفلة هي ضد العلم التام وإن لم تكن ضدًّا لأصل العلم، وإما للخواطر التي تسنح في القلب من الالتفات إلى الأسباب وإما لغير ذلك»[٢].

ولعله بهذا يتبين الفرق بين العلم واليقين: فالعلم قد لا يحمل صاحبه على العمل والامتثال، فقد يعلم المرء باليوم الآخر مثلا، ولكن هذا العلم قد يضعف في قلبه، وقد تعتريه في بعض الأحيان بعض الشكوك وبعض الشبهات، فتؤثر عليه. وأما إذا كان اليقين مستقرًا في القلب، فلا طريق للشُبه، ولا طريق للأمور المشككة، وإنما هو اعتقاد جازم راسخ، لا يقبل التشكيك بحال من الأحوال، فهذا يثمر ويؤتي أكله كل حين بإذن ربه[٣].

---

(١) تفسير السعدي (ص/ ٤١).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٢٩).

(٣) انظر: سلسلة أعمال القلوب (ص/ ٣٧)، لخالد بن عثمان السبت



المطلب الثاني

الأدلة من الكتاب والسنة

إن اليقين من أهم الأعمال القلبية، وأرفعها شأنًا عند الله، فهو لب الإيمان وخلاصته، فإذا كان الصبر نصف الإيمان، «فاليقين الإيمان كله»(١).

فاليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وهو مع المحبة ركنان للإيمان، وعليهما ينبني وبهما قوامه، وهما يُمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر، وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وبقوتهما تقوى الأعمال، وجميع منازل السائرين إنما تُفتتح بالمحبة واليقين، وهما يثمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم(٢).

ومن خلال استعراض النصوص التي وردت بشأن اليقين يتضح لنا جليا أهمية اليقين، فلقد ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة إضافة اليقين إلى آيات الله المتلوة والكونية، وإلى اليوم الآخر بما فيه من أمور عظام، كما نجد فيهما بيان ما يحصل به اليقين وبعض النتائج المرتبة عليه، كما يرد فيهما ذكر اليقين من أوصاف أهل الإيمان، وذم من لا يقين عنده.

۞ المسألة الأولى: النصوص المتعلقة بذكر متعلق اليقين.

اليقين يتعلق بالأمور الإيمانية المتفرعة في مجموعها عن ثلاثة أمور هي:

---

(١) وقد أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (ص/٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، أخرجه تعليقا، مجزوما به.

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٩٣)، ومفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٢).

١ ـ توحيد الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وبألوهيته وربوبيته، فهذا لا بد أن يكون على اليقين، ولا يقبل فيه الشك والتردد أبدًا.

٢ ـ الإيمان بالغيب، ومنه ما أخبرنا الله ﷻ به من أمور المعاد وتفصيله، والجنة والنار، وغير ذلك من الأمور الغيبية.

٣ ـ الأوامر والنواهي المتضمنة في شرع الله ﷻ الذي أنزله على رسله عليهم الصلاة والسلام، وأودعها كتبه التي أنزلها على رسله.

فهذه الأمور الثلاثة هي أصول الأمور الإيمانية التي يجب فيها اليقين(١).

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: **«اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا اللّه مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة»**(٢).

يخبر النبي ﷺ أن من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها غير شاك فيها فله الجنة، ومن المعلوم أن تلك الشهادة تتبع بقية أركان الإيمان، إذ لا يمكن أن يشهد أن لا إله إلا الله ويكفر بأنبيائه ورسله، أو كتبه، أو باليوم الآخر أو القدر، فهذه كلها داخلة في تلك الشهادة، لأن إثبات الألوهية لله وحده يقتضي عبادة الله وحده بما شرعه على لسان أنبيائه ورسله، والتصديق بكل ما أخبر الله به في كتبه المنزلة على رسله(٣).

ولما كان الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، وأنه من أعظم

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٩٧-٢٩٨)، و: أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٤٦)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص/ ٦٦-٦٧).

البواعث على الرغبة والرهبة والعمل، ولما وقع فيه الشك والريب من قبل الكفار كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية]، نجد أن القرآن ينوّه كثيرًا على اختصاصه باليقين الذي هو أعلى درجات الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة]، قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، والآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، وأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل»(١).

وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، يبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لعباده بعض الآيات الدالة على قدرته وعظمته لنستدل بها، ونتيقن منها أن لقائه سبحانه يوم القيامة حق لا ريب فيه، قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها ﴿لَعَلَّكُم﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية والآيات القرآنية ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: ٢]، فإن كثرة الأدلة وبيانها وإيضاحها من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور»(٢).

والخلاصة أن هذه النصوص وما في معناها تدل على أن اليقين يتعلق بالأمور الإيمانية كلها، واختص بالآخرة لأهميتها.

---

(١) تفسير السعدي (ص/٤١)، وانظر: الاستقامة (١/٤١٨-٤١٩).
(٢) تفسير السعدي (ص/٤١٢).

۞ المسألة الثانية: النصوص المتعلقة ببيان أسباب حصول اليقين.

بيّن لنا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الأسباب التي بها يحصل اليقين في الدين ـ وهي مستنبطة من الكتاب والسنة ـ، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما كيف يحصل اليقين؟ فبثلاثة أشياء:

أحدها: تدبر القرآن.

والثاني: تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق، التي تبين أنه حق.

والثالث: العمل بموجب العلم».

ثم بين أن اليقين يحصل بالقرآن لأن الله قد بين فيه كل ما يحتاج إليه في أصول الدين، فقرر التوحيد والنبوة والمعاد بالبراهين التي لا ينتهي إلى تحقيقها نظر.

وأما الآيات، فإن منها ما هو ماثل للعيان، ومنها ما يعلم بالتواتر من عقوبات مكذبي الرسل ومن عصاهم، ومن نصر الرسل وأتباعهم، وما علم من إكرام الله لأهل طاعته، وانتقامه من أهل معصيته، وكل ذلك فيه عبرة تبين أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وغير ذلك مما يوافق القرآن، ويورث اليقين في القلب بأنه حق لا ريب فيه.

وأما العمل فقد بين أن العمل بموجب العلم يثبته ويقرره، ومخالفته تضعفه، بل قد تذهبه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصَّف: ٥](١).

فأما ما يتعلق بالأمر الأول الذي يحصل به اليقين وهو تدبر القرآن، فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣١-٣٣٣).

يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية]، أي إن هذا القرآن الكريم والذكر الحكيم يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة.

وبه يهتدون إلى الصراط المستقيم في أصول الدين وفروعه، وبه يحصل الخير والسرور والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي رحمة تزكو بها نفوسهم وتزداد بها عقولهم، ويزيد بها إيمانهم ويقينهم، وتقوم بها الحجة على من أصر وعاند[1].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ [النمل].

كما أن سبب عدم هداية من ضل عن الصراط المستقيم هو تركهم لتدبر القرآن واستكبارهم عن سماعه، قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المؤمنون].

أما ما يتعلق بالأمر الثاني الذي يحصل به اليقين، وهو تدبر الآيات التي يحدثها الله في الأنفس والآفاق التي تبين أنه حق، فقد ذكره الله تعالى في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]. وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات]، وقال تعالى: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية].

---

(١) تفسير السعدي (ص/ ٧٧٧).

ففي هذه الآيات إخبار من الله ﷻ أنه سيري هؤلاء الكفار من الآيات المشهودة في الآفاق وفي أنفسهم ليبين لهم الآيات المسموعة التي هي حق لا ريب فيها، فكل ما جاء في هذا الكتاب العزيز تصدقه الوقائع التي يرونها ماثلة أمام أعينهم، بل لو عادوا إلى أنفسهم لرأوا فيها عجيب الصنعة ودقته ما يبعد أن يكون ذلك سدى، وأن يكون الغاية منه مجرد هذه الحياة الدنيا الفانية، وكل هذا مما يزيد العبد يقينا وثباتا في القلب[1].

أما ما يتعلق بالأمر الثالث الذي يحصل به اليقين، وهو العمل بموجب العلم، فقد ذكره الله أيضًا في عدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [المائدة].

ففي هذه الآيات، أن كل عمل يقوم به المسلم مما شرعه الله تعالى ويخلص نيته فيه يزيد إيمانه، لأن الإيمان يزيد بزيادة الطاعات وكثرة العبادات[2].

فالخلاصة أن اليقين يحصل بعدة أسباب، من أهمها ما ذكره شيخ الإسلام من تدبر كتاب الله ﷻ وما اشتمل عليه من المعاني العظيمة والأخبار الصادقة والأحكام الحسنة، ثم النظر والتفكر في آيات الله التي

---

(١) أعمال القلوب وأثرها في الإيمان (ص/ ٢٤٣)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣١)، و (٧/ ٢٣٦).

(٢) انظر: زيادة الإيمان ونقصانه (ص/ ٢٢٧).

يبثها في الكون، ثم إذا انضم إلى ذلك الفهم العمل التطبيقي، فلا شك أنه يورث في القلب من الثبات والقرار ما لا يحصل بغيره.

المسألة الثالثة: المدح والثناء على من اتصف باليقين.

يذكر الله اليقين من أوصاف أهل الإيمان لأن اليقين تصديق ممتد من الدنيا إلى الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البَقَرَة: ٤]، قال الفخر الرازي: «إن الله مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط، بل لا يستحق المدح إلا إذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال وإدخال المؤمنين الجنة، والكافرين النار»[1].

فاليقين وأهله هم الذين مدحهم الله وأثنى عليهم، لأن اليقين مشاهدة الإيمان بالقلب، فكما أن العين تشاهد الحقائق الماثلة أمامها في العالم المشهود عالم الشهادة؛ فإن اليقين هو مشاهدة الغيب بالقلب، فإذا وصل القلب إلى هذه المرتبة وإلى هذا المستوى؛ فإنه يكون قد تيقن، وارتقى العبد بإيمانه، وصار بمنزلة عالية قد توصله عند الله ﷻ إلى أعلى المنازل[2].

كذلك من صفات الهادين المهديين أئمة الهدى والدين الذين يخرج الله بهم العباد من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد هو اليقين المقترن بالصبر، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السَّجدَة: ٢٤]، فمن أعطي الصبر واليقين: جعله الله إماما في الدين[3].

---

(١) مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير للرازي (٢/ ٣١).

(٢) سلسلة أعمال القلوب (ص/ ٣٧)، لخالد بن عثمان السبت.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٦/ ٢١٥).

وتارة نجد القرآن الكريم يذم من لا يقين عنده كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [النمل][(١)].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقال تعالى في ذم الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الجاثية]، ووصف المتقين بأنهم بالآخرة يوقنون»[(٢)].

فالخلاصة أن اليقين شعبة من شعب الإيمان، بل هو من أرفعها شأنا وأعظمها أجرًا، ومن اتصف به فقد حقق الإيمان، وبالتالي كان القرآن هدى له، كذلك إذا تزوج اليقين بالصبر ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، ومن أعرض عنه فهو من المذمومين الضالين.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٩٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٨٣).



المطلب الثالث

أقسام اليقين

من خلال النظر إلى أقوال أهل العلم نستطيع أن نقول إن اليقين في الشرع له معنيان:

الأول: من حيث هو أصل للإيمان، إذ لا إيمان مع الشك.

الثاني: من حيث هو درجة عليا من درجات الإيمان.

فاليقين **بالمعنى الأول**، شرط من شروط شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وذلك أن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هاتين الكلمتين يقينا جازما يطمئن قلبه إليه، وضده الشك والتوقف والظن والريب، أي أن الإيمان المجمل الذي هو قول القلب وعمل القلب لا يتحقق إلا بهذا اليقين، فمن شك في الله أو رسوله ﷺ وما جاء به من عند الله فهو كافر لا شهادة له ولا إيمان له[1].

جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال له: **«اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة»**[2].

وقد ذم الله المنافقين بقوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة: ٤٥].

---

(١) انظر: معارج القبول (٢/ ٤١٩)، و: الشهادتان، معناهما، وما يستلزم كل منهما (ص/ ٣٨)، للشيخ عبد الله الجبرين.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ص/ ٤٦)، في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «اليقين الذي هو صفة العبد، فذاك قد فعله من حين عبد ربه، ولا تصح العبادة إلا به، وإن كان له درجات متفاوتة»[١].

أما اليقين بالمعنى الثاني، أي اليقين باعتباره درجة من أعلى الدرجات، فهو لب الإيمان وخلاصته، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «اليقين الإيمان كله»[٢].

يقول ابن رجب في شرحه لقول ابن مسعود رحمه الله: «إنما مراده أن اليقين هو أصل الإيمان كله، فإذا أيقن القلب بالله وملائكته وكتبه ورسله و اليوم الآخر انبعثت الجوارح كلها للاستعداد للقاء الله تعالى بالأعمال الصالحة، فنشأ ذلك كله عن اليقين.

قال الحسن البصري رحمه الله: **«ما طلبت الجنة إلا باليقين، ولا هربت من النار إلا باليقين، ولا أديت الفرائض إلا باليقين، ولا صبرت على الحق إلا باليقين»**[٣].

وقال سفيان الثوري[٤]: «لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطارت القلوب اشتياقا إلى الجنة وخوفًا من النار»[٥].

قال النبي ﷺ في الدعاء المأثور عنه: **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما**

---

(١) الاستقامة (١/ ٤١٨).

(٢) وقد أخرجه البخاري رحمه الله في صحيحه (ص/ ٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، أخرجه تعليقا، مجزوما به.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتابه اليقين (ص/ ٦).

(٤) هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه، أبو عبد الله سفيان بن سعيد ابن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله الثوري الكوفي المجتهد، قال ابن المبارك: كتبت عن ألف ومئة شيخ، ما كتبت عن أفضل من سفيان، ولد سنة ٩٧ هـ، ومات سنة ١٦١هـ، انظر: الجرح والتعديل (١/ ٥٥ - ١٢٦)، حلية الأولياء (٦ / ٣٥٦)، سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩)، والأعلام (٣/ ١٠٤).

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٧/ ١٧).

تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا. . . »[١].

وقد ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن كثيرًا ممن يقر بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يكون معه من الإيمان هذا الإقرار، وهذا الإقرار لا يستلزم أن يكون صاحبه معه من اليقين ما لا يقبل الريب، فخلق كثير من المسلمين ظاهرا وباطنًا لم يصلوا إلى اليقين، فهؤلاء يثابون على إسلامهم وإقرارهم برسول ﷺ مجملًا.

إلى أن قال: «فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد ولو شُكِّكوا لشكوا ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، وليسوا كفارا ولا منافقين، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، وهؤلاء إن عرفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين وانتقلوا إلى نوع من النفاق»[٢].

ثم نجد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يشير إلى تقسيم آخر لليقين، وهو:

الأول: اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته.

الثاني: اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره.

فاليقين في القيام بأمر الله هو العمل المطلوب من العبد، فيوقن بأمر الله فيستقيم عليه، ويقوم بأداء هذا العمل الذي افترضه الله عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (ص/ ٧٩٥)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وحسن الحديث الألباني في المشكاة (٢٤٩٢).

(٢) الإيمان الكبير (ص/ ٢١٣).

أما اليقين بما وعد الله أهل طاعته هو الإيمان بصدقه وتحقق وقوعه إيمانًا لا شك فيه، ويدخل في ذلك الإيمان بالبعث والنشور والصراط والميزان والجنة والنار ونحوها.

أما اليقين بقدرالله وخلقه وتدبيره فهو الرضا والتسليم لقدر الله الكوني مثل الفقر والمرض والذل ونحوها.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره»[(١)][(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥١).

(٢) انظر: أعمال القلوب حقيقتها وأحكامه (١/ ٢٥٣-٢٦٥).



المطلب الرابع

درجات اليقين

كما أن العلم يتفاوت ـ واليقين هو من جملة مراتب العلم ـ فكذلك اليقين يتفاوت، فهو على ثلاث مراتب بعضها فوق بعض، فأدنى مراتب اليقين هي مرتبة (علم اليقين)، والمرتبة التي فوقها هي مرتبة (عين اليقين)، وأعلى المراتب هي مرتبة (حق اليقين)، والله عز وجل يقول: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر][1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إن منازل اليقين ما لا تكاد تحيط به العبارة، ولا يعرفه حق المعرفة إلا من أدركه وناله»[2].

فعلم اليقين: هو العلم المستفاد بالسماع والخبر والقياس والنظر.

وعين اليقين: هو ما شاهده الإنسان وعاينه بالبصر.

وحق اليقين: هو ما باشره ووجده وذاقه.

وقد مثّل شيخ الإسلام لهذه الدرجات الثلاث **بالعسل**، فقال رحمه الله: «فالأولى مثل من أخبر أن هناك عسلًا، وصدق المخبر، أو رأى آثار العسل فاستدل على وجوده، والثاني مثل من رأى العسل وشاهده وعاينه، وهذا أعلى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ليس المخبِر كالمعايِن**»[3] والثالث مثل من ذاق

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٥)، ومدارج السالكين (٢/ ٢٩٧-٣٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٧٣).

(٣) أخرج الحديث الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣٤١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٣٥)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا ابن حبان في صحيحه (١٤/ ٩٦)، والطبراني في الأوسط (١/ ١٢)، ولفظ الحديث (ليس الخبر =

العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله»[١].

ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد كما قال النبي ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار**»[٢].

وقال ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً**»[٣].

- فالناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

الثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه لكن هو أبلغ من المخبر، والمستدل بآثارهم.

الثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: «لقد كنت في حال أقول فيها، إن كان أهل الجنة في

= كالمعاينة) ولم أجد باللفظ الذي أورده شيخ الإسلام، وصحح الحديث الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤).

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٥)، ومثّل بأمر آخر، وهو العشق والنكاح، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن من أخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه، كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به، ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته»، مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ص/٦)، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، ومسلم في صحيحه (ص/٤٩)، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان.

(٣) تقدم تخريجه.

الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب»، وقال الآخر: «لأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم».

- والناس فيما أُخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

إحداها: العلم بذلك لما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

الثانية: إذا عاينوا ما وعدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

الثالثة: إذا باشروا ذلك، فدخل أهل الجنة الجنة وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون،

- ومن ذلك ما يجدونه من ثمرة التوحيد والإخلاص، والتوكل، والدعاء لله وحده، فإن الناس في هذا الباب على ثلاث درجات:

منهم: من علم ذلك سماعًا واستدلالًا.

ومنهم: من شاهد وعاين ما يحصل لهم.

ومنهم: من وجد حقيقة الإخلاص، والتوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعانة به، وقطع التعلق بما سواه، وجرب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة فإنه يخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه: إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه، وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدين، أجاب دعاءه وأزال ضرره وفتح له أبواب الرحمة، فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره، وكذلك من ذاق طعم إخلاص الدين لله وإرادة وجهه دون ما سواه يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك[1].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٤٦-٦٥٠).

المطلب الخامس

ثمرات اليقين

إن اليقين يورث صاحبه أمورًا جليلة عظيمة، ويؤثر في سلوكه تأثيرًا عجيبًا، فهو يزيد العبد المسلم قربة من الله ﷻ وحبًّا ورضًا بما قدره وقضاه، ويزيد صاحبه استكانة وخضوعًا لربه جل جلاله، كما أنه يكسبه رفعة وعزة، ويبعده عن مواطن الذل والضعة، ونجمل هنا من ثمرات اليقين ما يلي:

إن من عوامل ثبات العبد عند المصيبة هو اليقين بالله، وأن ما قدره الله وقضاه لعبده فهو خير له، فيكون القلب مستريحًا مطمئنًا، ، فيرتفع عنه السخط والهم والغم، فيمتلأ قلبه محبة لله ورضًا به وشكرًا له، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فلا بد من الصبر على فعل الحسن المأمور، وترك السيء المحظور، ويدخل في ذلك الصبر على الأذى وعلى ما يقال، والصبر على ما يصيبه من المكاره، والصبر عن البطر عند النعم، وغير ذلك من أنواع الصبر.

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن له ويتنعم به ويغتذى به وهو اليقين»[(١)].

وقال أيضًا مبينًا موجبات الرضا والحمد: «والثاني علمه (العبد) أن اختيار الله لعبده المؤمن خير من اختياره لنفسه، كما روى مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ، أنه قال: «**والذي نفسي بيده، لا يقضى للمؤمن قضاء إلا كان**

(١) الاستقامة (٢/ ٢٦١)، وانظر: مجموع الفتاوى (٣/ ٣٣٠).

خيرا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خير له»[(١)][(٢)].

كذلك من عوامل القيام بأمر الله والثبات على طاعته هو اليقين بالله أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، واليقين أن ما وعد الله لأهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة حق وصدق[(٣)]، بل ترك القيام بأمر الله يكون بسببين:

١ ـ من ضعف تصديق العبد بما وعد الله أهل طاعته.

٢ ـ ومن ميل العبد والتفاته إلى ما في أيدي الناس من أمور الدنيا.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ شارحا لمسألة إرضاء الخلق بسخط الله: «فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك:

إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا، فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم.

وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة.

فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤنتهم، فإرضاؤهم بسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين.

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) التحفة العراقية (ص/٣٦٣).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٦/ ١٨٢).

كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك»[١].

كذلك اليقين يورث صاحبه الهدى والفلاح في الدنيا والآخرة، فاليقين من أسباب الهداية إلى الصراط المستقيم، والفلاح والنجاة يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة].

ومن ثمرات اليقين أيضًا أنه إذا تزوج بالصبر ولد بينهما حصول الإمامة في الدين[٢]، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة]، وهي مرتبة فوق الهداية في الدين، لأن الموقنين بالإضافة إلى كونهم مهتدين فهم أئمة هداة يهدون الناس[٣].

ومن أعظم ثمرات اليقين هو أن بسببه تكفّر الذنوب ويدخل صاحبه الجنة، قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «**اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا اله إلا الله مستيقنا بها قلبه، فبشره بالجنة**»[٤].

ومن يشهد هذه الشهادة وهو مخلص فيها موقن بها، فلا بد أن يسير في حياته على وفق ما يأمر الله به ورسوله، ولا شك في أن من سار في حياته على هذا المنهج فإنه سيكون من الفائزين يوم القيامة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إذا قالها العبد بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحالة مصرا على ذنب، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء وأخوف عنده من كل شيء، فلا يبقى في قلبه إرادة ما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله، فهذا الذي يحرم على النار»[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥١).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٩٣)، ومجموع الفتاوى (٣/ ٣٥٨).

(٣) انظر: تفسير السعدي (ص/ ٦٥٦).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء (١/ ٣٦٠).